

الإسلام دين وأمة
وليس دينًا ودولة

فهرست

مقدمة

الباب الأول

الدولة الإسلامية فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

الفصل الأول: دولة المدينة أيام الرسول تجربة فريدة لا تتكرر

(١) قبل أن تظهر دولة الدولة

(٢) نصوص قرآنية ونبوية

(٣) دولة المدينة أيام الرسول

الفصل الثانى: الخلافة الراشدة

برزخ بين رحمة الحكم النبوى وغشومة الملك العضوض

(١) المسلمون يواجهون المستقبل

(٢) سقيفة بنى ساعدة السجال الذى حدد مستقبل الدولة الإسلامية

(٣) انتهى الوحي وبدء التاريخ أبو بكر المتبع الأمين يسير فى آثار الرسول

(٤) عمر المبتدع العظيم يرسى دعائم الدولة الإسلامية

الفصل الثالث: نهاية الخلافة الراشدة

(١) أول الوهن

(٢) الفتنة الكبرى

(٣) نهاية الخلافة الراشدة

الباب الثانى

السلطة تفسد العقيدة (الأيدولوجيا)

الفصل الرابع: الأمة - الدولة - السلطة

الفصل الخامس: السلطة تفسد الخلافة الراشدة وتحولها إلى ملك عضوض

الفصل السادس: السلطة تفسد التشيع العلوى وتحوله إلى تشيع صفوى

الفصل السابع: السلطة تفسد اليهودية وتحولها إلى محكمة تفتيش

الفصل الثامن: السلطة تفسد الاشتراكية وتجعلها دولة الحكم الشمولى

الفصل التاسع: السلطة تفسد المسيحية وتحولها إلى صهيونية

- (١) خصوصية الدين اليهودي
- (٢) الميثولوجية التي صنعت النفسية اليهودية
- (٣) من الخروج إلى الدياسبورا
- (٤) من وعد بلفور حتى الفترة الراهنة

الباب الثالث

الدولة الإسلامية في العصر الحديث بين التنظير والتطبيق

الفصل العاشر: من جمال الأفغانى إلى حسن البنا

الفصل الحادى عشر: منظرو الدولة الإسلامية

- (١) المودودى
- (٢) سيد قطب
- (٣) الإمام الخومينى

الفصل الثانى عشر: جماعات الرفضة الجديدة

- (١) جماعة التكفير والهجرة
- (٢) حزب التحرير
- (٣) جماعات الجهاد والجماعة الإسلامية

الفصل الثالث عشر: من التنظير إلى التطبيق

الباب الرابع

إنما تتقدم الأمم بفضل الأنبياء والحركات والجماعات الشعبية والعلماء والمخترعين

الفصل الرابع عشر: الأنبياء أول الدعاة لتحرير الشعوب

الفصل الخامس عشر: الحركة النقابية تنهض بمستوى الشعب البريطانى

الفصل السادس عشر: العلماء والمخترعون والدعاة يقيمون العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مُتَكَلِّمًا

فى هذا الكتاب دراسة إسلامية وثقافة اجتماعية وسياسية لأننا نؤمن أن معالجة موضوع الدولة، أو الحكم فى الإسلام لا يجوز أن يقتصر على الكتابات الإسلامية كما هو الدأب المؤلف. فيعود الكاتب إلى ما كتبه الماوردى فى الأحكام السلطنة وابن تيمية فى السياسة الشرعية. ويتصفح تاريخ الطبرى والبداية والنهاية ويعود إلى الأحاديث صحيحها وسقيمها ويعتبر أن دوره ينتهى عند هذا. إن ما فات هؤلاء الكتاب أن الحكم - إسلامياً أو غير إسلامي - هو الحكم وأن له طبيعته الخاصة التى لا يمكن لأى صفة تعلق به أن تجرده منها وإنما قصارى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تضيف إليها، أو تنقص منها بعض الصفات دون أن يؤدى هذا إلى تغيير طبيعتها.

إذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب تفهم تجارب الحكم فى مختلف النظم والعهود والشعوب وما يمكن أن يبديه ذلك التفهم من أعماق الحكم وجوانبه المتعددة ثم دراسة تفاعل الإسلام مع طبيعة الحكم، ومدى نجاحه فى كبح جماحها وحسن توجيهها.

وأدت بنا دراسة الحكم منذ أن ظهر من أقدم العصور حتى العهد الحديث إلى المبدأ المحورى الذى حكم سياق وروح الكتاب. ألا وهو "إن السلطنة التى هى خصيصة الدولة تفسد الأيديولوجيا (أو العقيدة) وأن هذا الإفساد هو فى طبيعة السلطنة ولا يمكن أبداً أن تتحرر منه. وأن أى نظام يقترن بها بفكرة إصلاحها لا بد وأن تفسده.. وأن أى نظام يحاول تطويعها لا بد وأن تطوعه، وبدلاً من أن يكون سيدها يصبح تابعها.

هذا المبدأ القاهر هو الذى جعلنا نقول إن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة.

ويجب الإشارة إلى أن هذا المنهج الذى أغفله الكتاب الإسلاميون، ورأى البعض فيه منهجاً علمياً أو موضوعياً مستقلاً عن الإسلام هو فى حقيقته إسلامي لأن القرآن الكريم قرن إنزاله الكتاب بإنزاله "الحكمة" وأمر بالسير فى الأرض ودراسة آثار السابقين وعاقبة أمرهم. فنحن عندما نطبقه إنما نطبق منهجاً أمر به الإسلام..

كما أن تركيزنا للأهمية على الأمة وليس على الدولة، وجعلها (أى الأمة) المعول فى التقدم جعلنا نطرق مجالات جديدة على كتاب عن الحكم فى الإسلام كما يتضح ذلك فى ثنايا فصوله وبوجه خاص فى الباب الأخير، مما قد يعد استطراداً فى غيره، ولكنه لزوم بالنسبة له وبحكم اسمه وعنوانه.

* * *

عالج الكتاب فى الباب الأول "دولة المدينة عهد الرسول والخلفاء الراشدين" ورأى أنها "تجربة فريدة لا تتكرر" وأن من الخطأ الفاحش تصور إقامة دولة على غرارها لأن دولة المدينة لم تتوافر فيها مقومات الدولة بالصورة التى يفترض أن تتوافر فى الدول الحديثة.. فلم يكن لديها جيش محترف، ولا سجون، ولم تفرض الضرائب.. وأهم من هذا كله أن رئيسها كان نبياً مرسلأ يرعاه الله ويصح له الوحي اجتهاداته ولا يملك من الأمر شيئاً وإنما يحكم بما أنزل الله.. وهذه كلها لا يمكن أن تتوافر فى أى دولة

أخرى. ثم كانت الخلافة الراشدة امتداداً للعهد النبوي وسيراً في آثاره وانتهت هذه الخلافة بطعن عمر بن الخطاب وموته. أى أنها لم تستمر سوى أقل من ثلاثة عشر عاماً. ثم أخذت بذور الفساد تظهر.. وعندما أراد على بن أبى طالب أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه عهد الشيخين استحال ذلك.

بهذا الباب حل الكتاب مشكلة الحكم فى الإسلام "فحقاً" إنه كان هناك دولة فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء، ولكن هذه الدولة كانت تجربة فريدة لا تتكرر. فلم تتوافر لها مقومات لابد منها فى الدولة الحديثة. بينما أضيفت لها مقومات (حكم الرسول لها) لا يمكن أن تتوافر فى العصر الحديث فالقياس عليها باطل..

وفى الباب الثانى - السلطة تفسد الأيديولوجيا - تحدث الكتاب عن التفرقة ما بين الأمة والدولة، وأن العلاقة الفارقة بينهما هى السلطة التى لا تتوافر للأمة والتى تجعل الدولة جهاز قمع أو إرشاء وبالتالي فلا يمكن أن تنهض برسالة دعوة أو تحقق قيم دين، وأن هذا يجب أن تتولاه "الأمة" التى تضغط على الدولة وتدفعها إلى تطبيق الشريعة، ثم تراقب هذا التطبيق حتى لا تفسده السلطة. ثم بين فى خمسة فصول كيف أن السلطة أفسدت الخلافة الإسلامية فحولتها إلى حكم عضوض. وكيف أنها أفسدت التشيع العلوى فحولته إلى تشيع صفوى وكيف أنها أفسدت المسيحية من ديانة المحبة فجعلتها محكمة تفتيش وكيف أفسدت اليهودية وحولتها إلى صهيونية. وكيف أفسدت الاشتراكية فجعلت منها مدرسة الحكم الشمولى.

يعود الكتاب فى الباب الثالث إلى المجال الإسلامى "الدولة الإسلامية فى العصر الحديث بين التنظير والتطبيق" فيشير فى فصل إلى جمال الأفغانى وحسن البنا باعتبارهما أفضل من كتب عن الحكم الإسلامى. ويبرز نقطة هامة هى أن حسن البنا الذى صك صيغة "الإسلام دين ودولة" كان من واقع كتاباته ديمقراطياً يقبل دستور مصر سنة ٢٣ وإن طالب بتعديله ثم ينتقل الكتاب إلى محاولات تنظير الدولة الإسلامية فيتحدث عن المودودى. وسيد قطب. والإمام الخمينى وفكرة "ولاية الفقيه" وأخيراً فإنه يتابع جماعات الرفض الجديدة وبوجه خاص جماعة التكفير والهجرة الرائدة. ثم حزب التحرير ثم جماعة الجهاد...

ويختتم الباب بفصل عن تجربة إقامة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث، يستعرض تجربة "السعودية" وتجربة الجزائر، وتجربة السودان، وتجربة تركيا، ويقف طويلاً عند تجربة إيران التى يراها أنجح هذه التجارب وإن كانت تتعرض لمأزق خطير. وينتهى إلى أن العناصر الذاتية التى فرضت نفسها على "التنظير" وأفقدته الصفة الموضوعية تجلت عند التطبيق وأن محاولات الدولة الإسلامية فى هذه الدول ليس فيها المقومات الجوهرية للدولة الإسلامية، وأنها تكاد تكون أسوأ من نظم سياسية فى أوروبا وأمريكا. ففيها القمع، وكبت الحريات والسجون والفساد المالى والثراء الفاحش والفقير المدقع، وانتفاء المعارضة السياسية الحرة، وفيها السجون التى تحتشد بالمخالفين وتمارس فيها أساليب التعذيب فأين الإسلام !!.

ويختتم الكتاب بالباب الرابع "إنما تتقدم الأمم بدعوات الأنبياء.. وجهود الجماعات والهيئات والعلماء والمخترعين" يكشف عن أن الأنبياء كانوا أول من حرر الجماهير والجماعات من النظم الوثنية. ويبرز الدور القيادى للأنبياء، وأنهم قدموا المثال لما يجب أن يكون عليه القائد والقيادة.

وفى العهد الوسيط يتحدث الكتاب عن وجود الهيئات والجماعات من أحزاب ونقابات وهيئات إصلاح الخ... وأثرها فى تقدم الأمم ويضرب المثل بالحركة النقابية فى بريطانيا. وأخيراً يظهر كيف أن العلماء والفلاسفة والمخترعين والأدباء والدعاة هم الذين بدؤوا العصر الحديث وأقاموه لحمة وسدى وجمعوا بين

العلم والعمل وجعلوا العلم فى خدمة الحياة فأثروها وأناروها بالكهرباء، وجعلوا الحياة الدنيا جنات تجرى من تحتها، وجاوزوا ما وصل إليه سليمان فى القديم.

فهذه الجهود التى بدأها الأنبياء وختمها العلماء هى سبب تقدم الأمم وهى التى كانت من القوة بحيث كبحت جماح السلطة ووجهتها وجهة الخدمة وليس السيطرة.

* * *

فى ختام هذه المقدمة أعتزف للقارئ أننى ترددت قبل وضع عنوان "الإسلام دين وأمه وليس ديناً ودولة" لعلمى بمدى اعتزاز فريق كبير من الجمهور الإسلامى بفكرة الدولة الإسلامية، ولأن كلمة دولة قد تتضمن أطيافاً عامة، ولكن لما كانت "السلطة" هى فى النهاية جوهر الدولة، فلم يعد مناص من الانتهاء إلى عنواناً حسماً لآثار هذا العنصر المدمر. وقد آن للمسلمين أن يعلموا أن كل ما خرج عن إطار الاعتقاد دخل فى إطار الاجتهاد وما دمننا لا نتحدث عن الله تعالى أو طبيعته أو ذاته، وما دمننا لا نجد الوحي والرسول واليوم الآخر فلا جناح علينا إذا أخضعنا الموضوعات الأخرى للاجتهاد وإذا كانت الدولة الإسلامية ترتبط فى أذهان البعض بذكرىات مجيدة، فإنها تتضمن أيضاً سوءات عديدة.

ولا بد أن نقلع - ونحن نجابه المستقبل - عن التأثير السلبي بالماضى أو محاولة فرضه على الحاضر ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. {١٤١ البقرة}.

جمال البنا

القاهرة فى: شوال ١٤٢٣/يناير ٢٠٠٣

الباب الأول

الدولة الإسلامية في

عصر الرسول والخلفاء الراشدين

كانت - ولا تزال - تلك التجربة التاريخية الفريدة التي قام بها الرسول عندما تطلبت الأوضاع منه أن يتولى إدارة المدينة، وأن يكون سيدها المطاع، وحاكمها المتبع، ثم ما قام به أبو بكر وعمر بعده في السير على أثره والاهتداء بهديه - نقول إن هذه الحقبة لا تزال في الفكر السياسي الإسلامي حية - متوهجة، تتخذ مثلاً عملياً وواقعياً على أن الإسلام "دين ودولة"

فهل هذه هي الحقيقة.. أو أن الحقيقة هي ما ذهب إليه الشيخ على عبد الرازق من أن الإسلام لا علاقة له بأصول الحكم. أو أن الحقيقة هي ما ذهب إليه المودودي وسيد قطب وحزب التحرير من أن الإسلام هو الحاكمية الإلهية، هو الشريعة، هو الخلافة.

إن هذا الفصل يجيب على ذلك بفضل المعالجة التي تلمس كل أبعاد الموضوع وتلاحظ أثر الأحداث وتفاعلها مع النصوص وما أدى إليه هذا من توافر خصائص معينة تميز دولة المدينة عن أي دولة أخرى وتوجب تصنيفاً خاصاً، إذ في الوقت الذي يجتمع فيها بعض وظائف الدولة، فإنها تتجرد من وظائف أخرى تعد حيوية في كل دولة، بالإضافة إلى أنها لم تستمر قرابة خمس وعشرين سنة. منها عشرة في حياة الرسول والباقي في خلافة أبي بكر وعمر. وعندما طعن عمر، طعنت الخلافة الراشدة معه. وانطوت صفحاتها، لأن عثمان حاد عن سيرة الشيخين، ولأن علياً عندما أراد أن يعود بها سيرتها الأولى تأبّت عليه، بل ودفع حياته ثمناً لذلك..

من أجل هذا يمكن القول إنه حدث فعلاً في تاريخ الإسلام أن قامت دولة إسلامية في المدينة المنورة لمدة خمس وعشرين سنة، ولكنها لما كانت دولة خاصة جداً وتخالف مألوف الدول في أبرز صفاتها، فإنها لم تدم سوى تلك المدة. أما ما تلاها فإنه كان الطريق إلى الملك العقيم العضوض الذي استمر حتى سقوط الخلافة التركية سنة ١٩٢٤ ولا تحسب هذه الدولات على الإسلام لأنها لم تقم على أسس إسلامية، وإنما هي جزء من تاريخ الدول التي ادعت انتسابها للإسلام، وهي في حقيقة الحال جزء من التاريخ السياسي الذي يقوم على الغصب والحروب والسيطرة والاستحواز على الأرض واستعباد الجماهير، وبالتالي فإن من الخطأ الكبير تصور إمكانية إقامة دولة إسلامية على غرار دولة المدينة في عهد الرسول أو في عهد الخلفاء الراشدين. لأن الصفات الاستثنائية التي اتصفت لا يمكن أن تتكرر وأولها إن دولة المدينة كان على رأسها رسول يوحى إليه وهذا ما لا يمكن بالطبع أن يتكرر.

الفصل الأول

دولة المدينة أيام الرسول

تجربة فريدة لا تتكرر

- ١ -

قبل أن تظهر دولة المدينة

ألف كثير من الكتاب والدعاة أن يبدعوا عرضهم لقضية الحكم في الإسلام بالحديث عن دولة المدينة التي أقامها الرسول ﷺ وواصلها الخلفاء الراشدون. وهذا وإن كان بالنسبة للحكم صحيحاً إلا أنه لا ينفي أن الإسلام لم يبدأ في المدينة وإنما في مكة وأن الرسول قضى في مكة مدة أطول من التي قضاها في المدينة، وأن أكثر من نصف القرآن نزل في تلك المرحلة التي لم يكن فيها دولة، بل كان الإسلام فيها ملاحقاً بالاضطهاد من القرشيين..

إن من المحقق أن دعوة الإسلام التي تنزل بها الوحي الأمين نزلت في مكة، وأن الرسول دعا المكيين إلى الإيمان بها. وأن الإسلام برز متميزاً، له جوهره الخاص وهو الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد كما جاء في القرآن. والإيمان بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب والإيمان برسالة الرسول وهذه المقومات التي تمثل جوهر الإسلام هي ما نزل على الرسول بمكة - ولم ينزل عليه أن يؤسس دولة - أو يجند جنداً أو يخوض قتالاً الخ... بل لم ينزل عليه إلا ما يعد مكملاً للعقيدة دون أن يمثل إضافة في لبها وجوهرها.

ومن المؤكد أيضاً أن هذه المدة الطويلة كانت مدرسة الإيمان التي تعلم فيها قادة الإسلام ومرنوا على الصلابة والصبر والثبات وقبول التضحية، وهي الخلائق التي يفترض وجودها في بناء الدول..

ومعنى هذا أن الحقبة المكية أثبتت أن من الممكن أن يوجد الإسلام دون أن تكون له دولة. بل حتى وهو ملاحق مضطهد من الأعداء وهذا ما يضعنا في صميم القضية. فالإسلام كدعوة وعقيدة وخلق ليس في حاجة إلى دولة على وجه الضرورة، لأنه إيمان والإيمان اقتناع نفسى لا تستطيع الدولة أن تدعمه وتقويه، ولا أن تقاومه وتمحوه لأن هذا يتوقف على درجة الإيمان. فإذا تمكن الإيمان من النفس، فلا تستطيع القوى الخارجية أن تؤثر عليه. وهذا هو حال الأقليات المسلمة الموجودة اليوم في عدد كبير من دول العالم التي تتعرض للاضطهاد وصنوف من التمييز، دون أن ينال هذا من إيمانها أو يمس إسلامها..

بل إن الحقبة المكية تثبت أنه من الممكن للدعوة المجردة من أي قوة إلا قوة الحق ونصاعة الحجة أن تزحف بحيث تكسب جمهوراً وشعباً جديداً. فلم تؤمن المدينة بالإسلام إلا نتيجة تعليم مصعب بن عمير القرآن للمدنيين وبذلك توصل إلى إسلامهم وانطبقت عليهم كلمة عائشة "فتحت المدينة بالقرآن. فالفتح الأول

والأعظم فى التاريخ الإسلامى بأسره لم يحدث بسيف أو رمح، ولكنه بالقرآن. وبفضل فتح المدينة فتحت مكة..

ولو أنعمنا النظر فى أول آية نزلت عن القتال. وأوجدت بالتالى مقوماً من مقومات الدولة لم يكن موجوداً فى مكة لرأينا أن هذا الإذن مبنى على ما اكتنف الحقة المكية من أذى واضطهاد فالآية تقول ﴿أَنْ لِّلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (بفتح التاء) بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾. فتقرير القتال فى الإسلام إنما بنى على سبيل رد ظلم وقتال الآخرين الذى مارسوه لفتنة المؤمنين عن عقيدتهم. فالقتال فى الإسلام كان دفاعاً عن حرية العقيدة ولم يكن قتالاً للاستحواز على أرض أو لاختلاف سياسى، بمعنى أنه لم يكن لحساب الدولة ولكن لحساب العقيدة.

بل إن هذا هو ما يقال على الهجرة نفسها التى لم يدفع الرسول إليها إلا تأمر المشركين. بمعنى أنها لم تكن أمراً مقررراً لولاً هذا التأمر، كما لم تكن هجرة المسلمين إلى الحبشة إلا بحثاً عن أرض يمكن فيها للمسلمين ممارسة إسلامهم دون ظلم أو ملاحقة أو اضطهاد.

ما نريد أن نوجه الأنظار إليه هو أنه وإن كانت مرحلة المدينة قد أوجدت "الدولة الإسلامية" فإن مرحلة مكة قد عمقت العقيدة التى قامت عليها الدولة.. والتى هى الأصل والأساس. وأنه عندما وهنت العقيدة فى نفوس الناس مع تطاول الزمن فقدت الدولة الإسلامية قوتها، وميزتها وخصيبتها.

وهذه الوقائع التاريخية نجد لها سنداً فى القرآن مما يجعلها أصلاً من أصول الدعوة إلى الإسلام..

- ٢ -

نصوص قرآنية ونبوية

من الطبيعى أن نسترشد أول ما نسترشد فى موضوع الدولة والحكم بما جاء فى القرآن الكريم أو روى عن الرسول باعتبارهما المصدرين الأصليين للإسلام، وأن كل ما يأتى بعدهما تبع لهما. وكما سنرى هذه الأسانيد - وهى آيات وأحاديث تجعل الرسول مبلغاً ومبيناً، وبشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً - كما تجعله رحمه للعالمين، ومن باب أولى - رحمة للمؤمنين، وتجرده من كل هيمنة أو أن يكون جباراً أو مسيطراً، أو حتى وكيلاً، وهى صفات تبعده - بداهة - عن السلطة بل إنها تجرده من أى سلطة جبرية..

كما تجعل هذه الآيات الهداية من الله "إنك لا تهدى من أحببت". وتجعل الأفراد هم الذين يؤمنون ويكفرون بمحض إرادتهم بحيث تكون قضية الإيمان والكفر قضية فردية تعود إلى صاحبها وليست من قضايا النظام العام فقد أراد الله تعددية الأديان، ولو شاء لجعل الناس أمه واحدة، وليس من الإسلام فى شىء أن تتجادل الأديان أو أن يدعى بعضها الأفضلية والامتياز، أو أنه يحتكر الهداية، والآيات تقضى بأن الله تعالى هو - وحده - الذى سيفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيامة ويتسق مع هذا كله أن القرآن الكريم لم يضع حداً دنيوياً للردة..

وهذه الآيات فى مجموعها تبعد الرسل والأديان عن الحكم والسلطة قدر ما تقربهم من الأمة. ولا يُستغرب بعد هذا أن لا يكون فى القرآن إشارة إلى دولة أو حكومة. ودائماً نجد التأكيد والتكرير على " الأمة ".

كما يتفق مع هذا أن تكون كلمة الحكم التي ترددت في القرآن بمعنى القضاء ومن ثم فإنه يتبعها بحرف "بين" أما عندما يطلقها عامة فإنه ينسب الحكم لله تعالى.. وليس لأحد من البشر...

وفيما يلي هذه الآيات والأحاديث..

١. الرسول مبلغ.. وليس حاكما:

- ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ {٩٩ المائدة}..
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {١٨٨ الأعراف}..
- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {٤١ يونس}..
- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ {١٢ هود}..
- ﴿وَإِنْ مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ {٤٠ الرعد}..
- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . {٩٤ الحجر}..
- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ {٨٢ النحل}..
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ {٥٨ الفرقان}
- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾ {٤٥ ق}..
- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذُّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {٥٥ الذاريات}..
- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ {٦ الشورى}..
- ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ﴾ (٥) ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ (٦) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي﴾ {٧ عبس}..
- ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ {٢٢ الغاشية}..

٢. الهداية من الله...

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ {البقرة ٢٧٢}..
- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. {٨٨ النساء} ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ {١٠٠ يونس}..
- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ {٥٦ القصص}..

▪ ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ {٨ فاطر}..

٣. الإيمان والكفر قضية شخصية..

• ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ {٢٥٦ البقرة}..

• ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ {١٠٨ يونس}..

• ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ {١٥ الإسراء}..

• ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ {٢٩ الكهف}

• ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرَتِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {٩٣ النمل}.

• ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُنْفِسُهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ {٤٤ الروم}..

• ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾. {٣٩ فاطر}..

• ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {٤١ الزمر}..

٤. لا يوجد حد دنيوي على الردة..

• ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. {١٠٨ البقرة}..

• ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {٢١٧ البقرة}..

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾. {٩٠ آل عمران}..

• ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. {١٣٧ النساء}..

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ {٥٤ المائدة}..

- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. {٧٤ التوبة}..
- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. {١٠٦ النحل}..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾. {٢٥ محمد}
- لا يوجد في القرآن دولة، ولكن أمة..

لم ترد كلمة "دولة" في القرآن الكريم إلا مرة واحدة بصدد الحديث عن الفء ﴿كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كما جاءت إحدى اشتقاقاتها ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

ولا نجد في معاجم اللغة لكلمة دولة معنى إلا بالمعنى الذى أوردها القرآن الكريم أو بمعنى الغلبة..

فى مقابل هذا نجد القرآن يستخدم كلمة أمة فى ٤٩ موضعاً ويجعل هذه الكلمة الوصف الجماعى للناس، وللمؤمنين. ويضيق المجال بالطبع عن إيراد كل هذه الآيات وحسبنا منها..

- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. {١٤٣ البقرة}..
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ {٤١ النساء}..
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ {٣٤ الأعراف}..
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. {٤٧ يونس}..
- ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾. {٣٠ الرعد}..
- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾. {٩٣ الأنبياء}..
- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي﴾. {٥٢ المؤمنون}

ويتم إلى هذا بصلة أن القرآن الكريم - وكما سنرى السنة - تطلق على الرسول أو القائم بالأمر تعبيراً مشتقاً من الأمة وهو "الإمام" فلا يعرف الإسلام (قرآناً وسنة) كلمة ملك أو حاكم ولكن إمام وأئمة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾. {٧٣ الأنبياء}..

- ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ {١٢٤ البقرة}..

٦. الحكم فى القرآن بمعنى القضاء..

- ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾. {٤٢ المائدة}..
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ {١٠٥ النساء}..
- ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ {٥٨ النساء}..

- ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ {٤٨ النور}..
- ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ {٤٢ المائدة}..
- ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ {٢٢ ص}..
- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ {٦٥ النساء}..
- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ {٤٣ المائدة}..
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ {٦٠ النساء}..
- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ {٣٥ النساء}..

كما يلحظ في كل الآيات التي جاء فيها الأمر بالحكم بين الناس أن هذا الحكم مقيد بما أنزل الله. فالحاكم قاض يحكم بين الناس بقانون هو ما أنزل له ولا يحل له أبداً أن يحكم بخلاف ذلك، وهناك آيات عديدة تحذر الرسول من أن يحكم بالهوى أو أن يفتن عما أنزل الله.

وهكذا نرى الحكم هو القضاء وما يوحى إليه ذلك من البعد عن معنى الحكم السياسى وحكم القادة والملوك وما يتسم به من تداعيات بعيدة عن معنى العدالة قدر ما هي قريبة من معنى الجبروت والسلطة.

وليس الحكم بمعنى القضاء غريباً أو جديداً على الأديان فقد ظل "القضاة" يحكمون بنى إسرائيل في الفترة من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك لليهود وتبلغ هذه الفترة نحو أربع مائة سنة على وجه التقريب، ولم يكن هؤلاء.. حكاماً أو قوادداً عسكريين، ولكنهم كانوا أفراداً متميزين من صميم الشعب.

وقد صك القرآن الكريم تعبيراً جديداً عندما قال "أولى الأمر" "أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم"، وأولى الأمر تعود إلى "منكم" وبالتالي تسع لعديد من الأفراد..

وهذا اصطلاح يعود إلى أصل أعم هو مجرد كلمة "الأمر" التي تستخدم في السنة، وكذلك في القرآن الكريم (حوالى ٧٢ مرة) بمعنى الحكم كما يدل على ذلك سياق الآيات :

- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. { ١٢٨ آل عمران}..
- ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾. { ١٥٤ آل عمران}..
- ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. { ١٥٩ آل عمران}..

كما ذكرت في السنة مناسبات عديدة أشهرها ما جاء في حديث العباس عندما مرض الرسول ﷺ فطلب من على بن أبى طالب أن يسأل الرسول "فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا الخ...".

وتحدث القرآن عن "ملك يأخذ كل سفينة غصبا" وعن ملك يقول "أنا أحيى وأميت" وتحدث عن "فرعون وهامان" وقارون وندد بهم بأقسى العبارات ثم وصم الملك بحكم أظهر خصيصة فيه.. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذْلًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. {الآية ٣٤ النمل}..

من هنا يتضح أن مدح القرآن الكريم لطالوت، وملكة سبأ هو استثناء مما يكون عليه الملوك من بغى وظلم مما يعد طبيعة فيهم..

لقد قيل إن الآيات التي تجعل الرسول مبلغاً، ومبشراً، ونذيراً، وليس حاكماً أو ملكاً آيات مكية، ولكن الحقيقة أن فيها آيات مدنية في سورة آل عمران والمائدة والنساء والرعد والنور والتغابن وبعضها مما أنزل في آخر العهد المدني، فضلاً عن آيات مدنية في سورة الأعراف وهود على أنه لو كانت الآيات مكية فهل معنى هذا أن تتحول إلى نقيضها؟!.

والقضية ليست قضية آيات قدر ما هي طبائع الأمور. فطبيعة النبي لا بد وأن تختلف عن طبيعة الملك. ولقد كان الملك سبباً لدى الصحابة، ونددوا بمعاقبة عندما أخلف ابنه يزيد لأنه جعلها كسروية وقيصرية.. وقال معاوية نفسه "تعيروني بالملك فقد قبلته.. والنبي أسمى بمراحل عن الملك وهل يعقل أن يتحدث القرآن الكريم عن نبي بمثل ما تحدث عن الملوك؟ فشتان ما بين من يهدى النفوس ويخرجها من الظلمات إلى النور وبين الذين يفسدون في الأرض ويجعلون أعزة أهلها أذلة، ويخرجونهم من نور الحرية إلى ظلمات السجون.

وكيف يمكن أن يقارن الرسول الذي كانت الأيام تمر دون أن يوقد في بيته نار، وما شبع من خبز الشعير يومين متتابعين وكان فراشه وساده من أدم حشوها الليف.. بالملوك الذين لا تهدأ مطابخهم ليل نهار وتمتلىء بكل ما يصل إليه فنون الطهي من لحوم وحلوى وشراب..؟ لقد كانت حياة العرب بسيطة وكان هو أشدهم بساطة وقد رأى بعين النبوة عهد الثراء الذي سيأتى وتصور "عهداً" إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ووضع بين يديه صحيفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة..

* * *

هذا هو موقف القرآن الكريم، فما هو موقف السنة؟

لقد رأينا إن الرسول يتفق مع القرآن تماماً في رفضه الملك، والحكم والسلطة، ولعلنا نذكر أنه رفض كل ما عرضه عليه كبار قريش وثراتها من مال أو جاه أو ملك، وأنه في حياته في المدينة، وقد كان سيدها المطاع والمحبوب لم يتكلف شيئاً، وعاش كما كان دائماً، متقشفاً متواضعاً.

ويتفق ما جاء عن الرسول مع ما جاء في القرآن الكريم، ففي كثير من أحاديثه ندد بالحكم، والولاية فقال "ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل أو يوبقه الجور" وتحدث عن الولاية "أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزي يوم القيامة"، "إنها أمانة وخزي وندامة يوم القيامة إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها" "نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة" وقال "ليس من والى أمه قلت أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبه الله تبارك وتعالى في النار، وقال لا يسترعى الله تبارك وتعالى عبداً رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم الله عليه الجنة. وقال "يا عبد الرحمن (ابن سمرة) لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها" وقال "ويل للأمرء، ويل للعرفاء

ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذواتهم كانت معلقة بالثرى يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شيء.. وقال "تجدونه من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه" وقال "شر الرعاة الحطمة" ووضع مبدئاً عاماً بالنسبة للطاعة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، ومبدئاً بالنسبة للولاية "لا يولى من يطلبها"، وتبرأ ممن يدخلون على الأمراء فيصدقونهم بكذبهم "الفتح الرباني - مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - من ص ٢٠ - ٢٢ الجزء ٢٣".

حقاً هناك أحاديث تحض على الالتزام بالبيعة وتندد بالذين يرفضونها، وهناك أحاديث تحذر من النكث بها.. وهذه لا تخالف تلك (أى الأحاديث التى تعزف عن الولاية) ولكنها تصور الطبيعة المعقدة للمجتمع، التى تتطلب نوعاً من التنظيم. وفى الوقت نفسه فإنها تحذر من أن يتورط الدعاة فى هذا التنظيم. لأن هذا التنظيم الذى ينتهى عند درجة معينة إلى السلطة لابد وأن يفسد الدعاة...

* * *

من هذه الآيات العديدة نلمس عزوف القرآن الكريم عن فكرة الحكم، والملك، والسلطة، وتأكيد أنه أن الرسول ليس إلا مبلغاً ومبشراً ونذيراً وليس له من مهمة، أو سلطة، إلا "البلاغ" وإن القرآن الكريم لم يستخدم تعبير "دولة" ولكن "أمة" ولم يستخدم تعبير حاكم أو ملك ولكن إمام وجعل الحكم أشبه بالقضاء، وأن الرسول نفسه لم يدع لنفسه ملكاً - ولم يسير سيرة ملك أو حاكم، وأنه عندما خير اختار أن يكون عبداً نبياً، وليس ملكاً..

* * *

- ٣ -

دولة المدينة أيام الرسول

رغم كل ما أوردناه فى الفصل السابق من آيات قرآنية تحصر دور الرسول فى البلاغ وتجرده من أى سلطة، ورغم الأحاديث النبوية التى تندد بالحكم والولاية، فهناك واقعة تاريخية ثابتة هى أن الرسول مارس فى السنوات العشر له فى المدينة كثيراً من سلطات الحكم، وأقام نموذجاً فريداً لدولة تفوق ما قدمته أثينا فى القديم، وما حاولته النظم السياسية حتى الآن...

ونحن لا نجادل فى هذه الواقعة، ولكننا نقول باختصار. إن "دولة المدينة" - وإن كنا نتحفظ على تعبير "دولة المدينة" - ونضعه بين قوسين، وإن توفر لها بعض مقومات الدولة، فإن البعض الآخر لم يتوفر لها، وأن الرسول ﷺ فى قيامه بمهام الحكم فإنه كان يقوم بها - لا كحاكم - بل كرسول. فضلاً عن أن كافة الملابس التى تكتنفها تجعلها تجربة فريدة لا تتكرر، ولا يمكن القياس عليها، وأقصى ما يمكن أن تقدمه هى أن تكون مصدراً لاستلهام القيم التى قامت عليها والتقاليد التى وضعتها..

إن خصوصية دولة المدينة تضم جانبيين الأول الملابس التى ظهرت فيها هذه "الدولة". والثانى طبيعة المُنشئ والمؤسس لهذه الدولة.

أولاً: الملابس التى أدت إلى ظهور دولة المدينة :

لنبدأ من البداية...

استجاب لدعوة الرسول فريق من الأوس والخزرج كانوا يزورون مكة موسم الحج وطلبوا أن يرسل معهم إلى المدينة من "يعلمهم القرآن" فأرسل معهم مصعب بن عمير الذى تولى الدعوة للإسلام وتلاوة القرآن الكريم : حتى جاء فى الموسم الثانى وفد كبير (٧٣ رجلاً وامرأتان) أسلموا وبايعوا الرسول على حمايته، كما يحمون نساءهم..

وتطورت الأحداث. فقد ترمى إلى سمع قريش إسلام الأنصار وانتشار الدين الجديد، وكانوا قد يأسوا من استمالة الرسول.. فبدؤوا فى رسم الخطط لاغتياله بطريقة لا تجعل له سبيلاً للثأر. وتوصلوا إلى ذلك عندما أكلوا عملية الاغتيال لعدد من شباب قبائل قريش حتى "يضيع دمه بين القبائل"..

وتعيّن على الرسول أن يهاجر إلى المدينة...

وهاجر الرسول ﷺ فى الوقت المناسب تماماً بعد أن حبكت قريش مؤامرتها، بحيث أنه لو تأخر لتحقق ما رسموه..

هاجر النبى ومعه أبو بكر، بينما كان المؤمنون فى المدينة ينتظرون مقدمه ثلاثة أيام، فلما وصل استقبلوه بالنشيد المعروف...

طلع البدر.. علينا
أيها المبعوث فينا
جئت شرفت المدينة

من ثنيات الوداع
جئت بالأمر المطاع
مرحباً يا خير داع.

إننا نرى هنا بداية تختلف عن البدايات المألوفة فى النظم السياسية التى تأتى المبادأة فيها من الحاكم الذى يحاول أن يكسب الشعب لصفه بمختلف الطرق من ترغيب أو ترهيب. ويقف الشعب منه موقف الشاك الذى يطالبه بالدليل والضمانات. وقد يتعرض لمنافسة أنداد له ويصيبه كل ما يصيب المتنافسين من ادعاءات. إن شيئاً من هذا لم يحدث فى دولة المدينة، وبدلاً منه نرى شعباً يستقدم قائده ليسلم إليه الأمر ويلزم نفسه بالطاعة له.

كان المقتضى الطبيعى لهذا أن يؤسس الرسول فى المدينة "أمة جديدة" ومجتمعاً جديداً يؤمن بالإسلام ويطبق تعاليمه، بوجه خاص ما يتعلق بنظام المجتمع كطريقة إدارته، وطريقة تمويله، والشائج والروابط التى تربط بين أفرادهم..

لم يكن مناص من هذا، فهو أمر فرضه الواقع، ولا يتصور غيره..

لم يكن متصوراً مثلاً أن يشغل الرسول منصب مصعب بن عمير ويكون رئيساً دينياً بحتاً، ويدع الأنصار من خزرج وأوس ويهود على ما كانوا عليه. لأن هذا كان يمثل ازدواجية فى السلطة ما بين الرئيس الدينى والرئيس القبلى.. ولم يكن الأنصار أنفسهم يقبلونه لأنهم أسلموا نفوسهم لله وللرسول الذى جاء "بالأمر المطاع".

كان لابد من إقامة "أمة" متميزة فى المدينة ومجتمعاً إسلامياً يطبق شعائر الإسلام التى كان منها الزكاة، وكان أيضاً من الضرورى حماية هذه الأمة الناشئة من ملاحقات قريش..

فلننظر ماذا فعل الرسول ﷺ بالترتيب بمجرد نزوله المدينة..

إنه أولاً: بنى المسجد، واشترك في بنائه مع الصحابة من مهاجرين وأنصار فرمز بذلك إلى الطابع الإيماني لهذه الأمة.. الذى يجعل من المسجد المنتدى العام الذى يأوي إليه المؤمنون ليس فحسب لأداء الصلوات، ولكن للمشاركة فى القضايا العامة..

ثم ثانياً: قام بعملية تآخى ما بين المهاجرين والأنصار بحيث يكون لكل مهاجر أخ أنصارى وبالتالى ينصهر الجميع فى أخوة الإيمان وتتقلص التفرقة والتمييز بينهم كمهاجرين وأنصار..

ويعرض ابن هشام لهذه العملية.. "تآخوا فى الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: هذا أخى فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار فى الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بنى سلمة، أخوين".

قال ابن هشام :

وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق :

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه، بن أبى قحافة، وخارجة بن زهير، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعتبان بن مالك، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين. وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله، وسعد بن معاذ ابن النعمان أخو بنى عبد الأشهل، أخوين وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن الربيع، أخو بلحارث بن الخزرج، أخوين، والزبير بن العوام، وسلمة ابن سلامة بن وقش، أخو بنى عبد الأشهل، أخوين ويقال: بل الزبير وعبد الله بن مسعود، حليف بنى زهرة، أخوين، وعثمان بن عفان، وأوس ابن ثابت بن المنذر، أخو بنى النجار، أخوين، وطلحة بن عبيد الله، وكعب ابن مالك، أخو بنى سلمة، أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبى ابن كعب، أخو بنى النجار أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخو بنى النجار، أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش، أخو بنى عبد الأشهل، أخوين، وعمار بن ياسر، حليف بنى مخزوم، وحذيفة بن اليمان، أخو بنى عبد عبس، حليف بنى عبد الأشهل، أخوين، ويقال ثابت بن قيس بن الشماس، أخو بلحارث ابن الخزرج، خطيب رسول الله ﷺ وعمار بن ياسر، أخوين وأبو نر، وهو بُرير بن جنادة الغفارى، والمنذر بن عمرو أخو بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج، أخوين.

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول: أبو نر: جُنْدَب ابن جُنادة.

قال ابن إسحاق :

وكان حاطب بن أبى بلتعة، حليف بنى أسد، بن عبد العزى، وعويم بن ساعدة، أخو بنى عمرو بن عوف، أخوين، وسلمان الفارسى، وأبو الدرداء، عُويم بن عامر، ويقال عُويم بن زيد... " انتهى الاستشهاد من ابن اسحق.

ثم ثالثاً قام بوضع وثيقة هامة هي التي تطلق عليها بعض المراجع القديمة "صحيفة المودعة" وما أطلقت عليها المراجع الحديثة دستور المدينة.
وتبدأ الوثيقة..

هذا كتاب محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم..

" أنهم أمة واحدة من دون الناس " ..

وتسرد الوثيقة بعد ذلك أسماء فصائل الأنصار "بُنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس.. ويذكر أمام كل فصيلة من هذه الفصائل أنهم يتعاقلون^(١) بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ثم هناك عدة مواد تقضى على المؤمنين بأن لا يتركوا محتاجاً دون سد حاجته، وأن تكون أيديهم على كل باغ "ولو كان ولد أحدهم" وأن ذمة الله واحدة ويجبر عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ثم يتعرض لليهود فيقول :

وإن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم

ثم تسرد الوثيقة أسماء كل اليهود الحلفاء لفصائل الأنصار وتعطيهم مثل ما ليهود بنى عوف.

وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وتحيل الصحيفة التحاكم فيما إذا وقع حدث أو اشتجار يخاف فساده إلى الله، وإلى محمد رسول الله.

هذا ملخص موجز لنص هذه الوثيقة الهامة التي تثير العجب لأكثر من داع.

١. هناك أولاً الحرص على جعلها مكتوبة، مع أن العرب كانوا قال الرسول "أمة أمية" وأن المسلمين ما كانوا يكتبون إلا القرآن فالحرص على كتابتها إشارة إلى كونها "دستور" لكل الذين يسكنون المدينة...

٢. إن صيغتها المحدودة تشبه صيغة القوانين والمعاهدات التي يلحظ فيها الدقة والوضوح وأنها تضع منذ ألف وأربعمائة سنة مبدأ الأمة الواحدة المختلفة الأديان والمختلفة الأعراق وتحتفظ لكل مجموعة بخصائصها داخل إطار الأمة، وتعطي كل فرد حق "المواطنة".

وهذا شئ لم تحققه معظم دول العالم حتى اليوم..

(١) إى يواصلوا ممارساتهم الخاصة بالدييات، والإضافة الإسلامية هي " بالمعروف والقسط بين المؤمنين " .

٣. إبراز مضمون التكافل، سواء كان فى التعامل أو سد حاجة المحتاج "بالمعروف والقسط" وبروز "البر دون الآثم" ..

٤. أعطت "المواطنة" لجميع الذين يقطنون المدينة بلا استثناء ودون اشتراط دين فجمعت ما بين اليهود والمسلمين وبذلك جعلت الوثيقة المكان هو مبرر المواطنة، كما فى النظم الحديثة.

وأخيراً، فإن طبيعة هذه الوثيقة وروحها تمت إلى "الأمة" التى كررتها أكثر من مرة - قدر ما تبعد من الدولة. لأن طابعها الإنسانى يهدم السدود بين الأجناس أو التجزئات والمحرمات التى تفرضها الدولة على غير مواطنيها.

وهكذا فإن الرسول عنى بإقامة المسجد وآخى بين المهاجرين والأنصار ثم وضع دستور الأمة.. ولم يفعل كما يفعل كل من يلى الحكم فيستأثر بقيادة الجيش ويقصى أعداءه عن مراكز النفوذ الخ.. ويتولى السيطرة على أجهزة الأمن الخ... إن شيئاً من هذا لم يخطر ببال الرسول ﷺ لأنه كان مستبعداً بحكم القيم الإيمانية.. وبحكم الواقع الساذج الذى كان يجعل "المجتمع" قبيلة، وبالأكثر أمة ولكن دون أن يصل بها إلى "الدولة" وأجهزتها وسلطانها..

وما من مثل يوضح خصوصية العلاقات التى ربطت بين عناصر هذه الأمة التى تقوم على إيمان عميق كالذى فعله أحد الأنصار عندما عرض على أخيه المهاجر ليس فحسب شرط أرضه وماله، بل أن يتنازل عن إحدى زوجتيه ليتزوج بها المهاجر، الذى بدوره شكر أخاه الأنصارى وقال له "لبنى على السوق" واستطاع بعمله أن يستغنى عن كل ما عرضه الأنصارى عليه. فهذه الروح الواحدة بين الاثنين كانت فى أنسجة البناء العظيم الذى أقامه الرسول فى المدينة والذى أسقط كل المحددات والمقومات باستثناء الإيمان والعمل الصالح.

* * *

وقد يكون أهم من هذا أن أبرز ما يميز الدولة هى "الحكومة" وأبرز ما فى الحكومة هى السلطة. وما عدا هذين يغلب أن يكون مشتركاً ما بين الدولة.. والمجتمع. أو الأمة كالمعيشة على أرض واحدة أو التحدث بلغة واحدة.. أو توفر مصلحة واحدة الخ.. فهذا كله يمكن أن يوجد فى مجتمع دون أن يكون "دولة" وإنما تكون الدولة فعلاً عندما تظهر الحكومة، ولا معنى للحكومة إلا عندما تتوفر لها السلطة التى تتمثل فى الجيش المحترف الذى يفرض الطاعة للحكومة فى الداخل ويحميها من العدوان عليها من الخارج والسجون التى يحبس فيها المخالفون والعقوبات التى توقع على الذين يقترفون الجرائم ويقدر بروز الحكومة وسلطتها بقدر بروز معنى "الدولة".

وكان الجيش والبوليس فى "دولة المدينة" أو هى مقومات الدولة، ويمكن القول إنه لم يكن لهما وجود. وعندما بدت بوادر حرب بدر ودعا الرسول المهاجرين للحرب استفهم عن مدى استعداد الأنصار الذين استجابوا له ومع أن استجابتهم كانت حماسية فقد سألهم الرسول عن رأيهم، ولم يصدر إليهم الأوامر، لأن البيعة التى هاجر الرسول على أساسها لم تكن تتضمن حرباً هجومية، ولكن دفاعية..

على أن موافقتهم ومشاركتهم لا تعنى وجود جيش محترف، ولكنها القبيلة التى يشترك رجالها فى القتال عندما تتطلب الظروف ذلك سواء كان دفاعاً عن حوزتها أو كان طلباً للمغنم. وكانت تحارب بطريقتها

الخاصة من كر وفر دون أن يكون لها نظام وتقسيم من جنود وضباط وألقاب عسكرية إلى آخر هذا التقسيم الفنى الذى وصل إلى أوجه فى الجيش الرومانى حيث نجد الجيش المحترف والحرس اليريتورى والضباط والجنود الخ...

ولم يكن فى دولة المدينة سجن، وعندما أسر المسلمون ثمامه بن أثال من بنى حنيفه ربطوه فى سارية المسجد، حتى أطلقه الرسول وحلت "المقاطعة" محل السجون. كما فى حالة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر الرسول بمقاطعتهم. فكانوا فى سجن "هذه المقاطعة" التى عزلتهم عن أقرب الناس إليهم، كما تعزل السجون نزلاءها.

وأدى عدم وجود الجيش المحترف، أو السجن أو الأغلال التى تبلور معنى السلطة وإرهابها ما بين بريق السيوف وظلام السجون ما يتعلق بشخصية المنشئ لهذه الدولة - أى الرسول - فضلاً عما يبعد عن الرهبة والسلطة قدر ما يرتكز على الإيمان الطوعى.

حقاً إن الرسول ﷺ خاصة فى المرحلة الأخيرة، وبعد أن حصل على الاستجابة المبدئية من الأنصار فى معركة بدر كان يتصرف تصرف قادة الجيوش، وأظهر حنكة سياسية نادرة واستخدم الضغوط آونة والاستتلاف آونة أخرى بحيث دانت له العرب ولكن الجيش الذى استخدمه كان هو الجيش البدائى القبلى الذى يجتمع عندما يحدث قتال ويتفرق بعده.. ثم طاعة الرسول لم تكن مفروضة منه عليهم، ولكنها كانت قبولا طوعياً لإيمانهم بأنه "رسول الله" الذى اصطفاه الله، وأرسله، وأيده، فكيف يتصور مخالفته...

ومن الخصائص التى تميز الدولة فرض ضرائب وتحصيلها بالقوة.. ولم يأخذ هذا الحق فى المدينة صورة الضرائب المألوفة. وإنما تمثل فى الزكاة التى "تؤخذ من غنيهم لترد على فقيرهم" كما لم تكن هذه الضريبة تودع فى الميزانية العامة للدولة "التي لم تظهر حتى خلافة عمر فى شكل "بيت المال" وإنما كانت توزع على المحتاجين والفقراء فى المجموعة التى أخذت منهم ولأن الزكاة حق مفروض لمستحقيها وليست منة أو إحساناً ولهذا كان من حق - أو من واجب - الدولة تحصيلها، فإن هذا لم يكن يتم غصبا، وإنما برضى وقبول من تؤخذ منهم، ووجه الرسول عماله لأن لا يأخذوا "كرائم أموالهم" وعندما ما لم يتبين أحد العرب حكمتها فقال "ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية" وأرجأ تسليم زكاته، ثم فطن إلى خطئه فجاء بها، فإن الرواية تقول إن الرسول رفض أخذها حتى توفى.. فلما جاء بها لأبى بكر رفض أخذها حتى توفى أبو بكر وجاء بها إلى عمر الذى رفض أخذها ومات الرجل فى خلافة عمر. وإن كان قد روى عن الرسول ﷺ ما يختلف عن هذا فى إجبار من يرفض، بل وأخذ ضعف ما يكون عليه. كما أن أبا بكر شن حربه للرفض الجماعى من بعض قبائل العرب لدفع الزكاة ويحتمل أن يوجد فرق ضئيل بين أن تكون حالة فردية وتمرد جماعى.

ثانيا: طبيعة مُنشئ - دولة المدينة - الرسول

وما يميزه عن الحاكم/الملك...

إذا انتقلنا من الملابس التى أدت إلى ظهور دولة المدينة بالصورة التى أخذتها بالفعل، والتى وإن شابها الدولة فى بعض الوظائف، فإن طريقة ممارستها تختلف كثيراً عن مألوف ممارسات الدول لها، نقول إذا انتقلنا من هذا الجانب إلى الجانب الآخر الذى أعطى "دولة" المدينة طابعها الخاص. ألا وهو الصفة

المميزة لمنشئ دولة المدينة وقطب الرchy فيها وهو الرسول، فإننا سنجد ما يتفق مع الطابع العام للملابسات التي أحاطت بتكوين هذه الدولة التي أعطتها طابعها الخاص..

فلم يدخل الرسول المدينة دخول فاتح غاز، ولم يرث الملك كإبراً عن كابر.. ولكنه دخلها من باب النبوة واكتسب طاعة أهلها بحكم الإيمان الطوعى ولم يكن فى هذا، ما يتطلب سطوة، أو رهبة، أو سلطة، وما كان يتفق معه أن يكون للرسول زى الملوك وسمتهم وأن يقف على رأسه الحراس وعلى بابيه الحجاب فهذا كله يخالف طبيعة الرسل والأنبياء وإن كان يعد من برتوكول الدولة ومراسيمها، وكانت طبيعة الرسول تستبعد كل هذا بل وتناقضها بحيث أمر الرسول أن لا يطروه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وأوصاهم أن يقولوا عنه "عبد الله ورسوله" وكره المداحين وقال "إذا لاقيتهم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب" وأعلن أن الله تعالى يكره من يحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً، وقال حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع، وعندما تملكته الرهبة فى مجلسه امرأة خفض روعها وقال لها "هونى عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ...

لم يكن له قصر أو بيت، ولم يكن له حرس، وكان قصر الرسول حجرات فى المسجد لم يكن لها أبواب، وكان بعض الأعراب يتطفلون عليها حتى نزلت آية الحجاب حاميه له ولزوجاته من هذا التطفل.

وهم يقولون إن الرسول مارس - كأي حاكم - سلطة تطبيق القانون للقانون وتنفيذ العقوبات..

وقد كان من الممكن أن نقول إن من يقوم بذلك لا يقال له حاكم، ولكن قاض..

ولكننا لا نزع بهذا الدفع رغم وجاهته، لأن الطريقة التي مارس بها الرسول هذه الوظيفة تختلف جذريا عن الطريقة التي يمارس بها الحكام العاديون هذه الوظائف.

إن الرسول لم يكن ليطبق الحد إلا بعد أن يحاول درء الحد بكل الطرق التي تصل إلى حد تلقين المتهم الإنكار فأين هذه الطريقة من الطرق المقررة عندما تتصب الشباك للمتهم وتستخدم وسائل التجسس حتى يضبط "متلبساً بالجريمة".

من هنا فإن المهم ليس ممارسة الرسول لبعض الوظائف التي يمارسها الحكام، ولكن طريقة الممارسة التي تختلف مخالفة جذرية عن الطريقة التي تمارسها الدول.

* * *

وهناك شئ أهم من هذا كله..

ذلك أن هذا المؤسس للدولة كان يتلقى توجيهات وحى ليست فحسب ترسم له الطريق، ولكن أيضا تؤدبه وتلزمه الجادة، وتحول بينه وبين الاستسلام للضعف البشرى. وهذه التوجيهات ليست "سرية" أو لا يعلم بها إلا الرسول، ولكنها علنية، لأنها آيات من القرآن يتلوها جمهور المسلمين ليل نهار، وهذا شئ لا يمكن أن يحدث بالنسبة لملك وهو ما يجعل رأس هذه "الدولة" نمطا فريداً بين الرؤساء، ولعلها المقصودة بما يروى عن النبي ﷺ "أدبنى ربي فأحسن تأديبي.."

وأى "ملك" تصدر إليه الأوامر "بأن يخفض جناحه للمؤمنين.."

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ { ٨٨ الحجر}.

﴿ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ { ٢١٥ الشعراء}.

لقد استخدم القرآن الكريم تعبير "خفض الجناح" ليصف مسلك الأبناء نحو الآباء. فإن يستخدم التعبير نفسه ليصف مسلك الرسول نحو أتباعه، فإنه في هذا يحدد العلاقة بين حاكم ومحكوم بما لم تصل إليه أى ديمقراطية.

واقراً أيضاً ...

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَّخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْبِذًا عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ﴾ { ٦٧ - ٦٨ الأنفال}.

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفَانَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ {الكهف ٢٨}.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ {٤٣ التوبة}..

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾. { ٨٠ التوبة}..

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَىٰ. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ. أَمَا مَنْ اسْتَغْنَىٰ. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ. وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَىٰ. وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ. وَهُوَ يَخْشَىٰ. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ { ١ - ١٠ عبس}

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ { ٩٩ يونس}..

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ { ٣٥ الأنعام}..

وحتى فى سلوكه مع زوجاته..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ { ١ التحريم}..

انظر إلى هذا الملام، أو قل الوعيد...

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا اتَّخَذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾. { ٧٣ - ٧٥ الإسراء}.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾. { ٤٦ الحاقة}..

لا يتصور في نظم الحكم أن تصدر إلى الملك توجيهات من مصدر أعلى (وأيّن هذا المصدر الأعلى من الملك) - بمثل هذه الصراحة والصرامة - تلزم الحاكم أو الملك حدوداً وتوجه إليه الملام على بعض تصرفاته، وتكون هذه التوجيهات علنية يقرأها الشعب ليل نهار ويرددونها في صلواتهم

وكان الوحي يصحح للرسول بعض تصرفاته، كما في حالة أسرى بدر، وفي صلاته على جسد كبير المنافقين بن أبي فلم يكن الرسول حراً حرية مطلقة في إصدار القرارات والأحكام، كما لم يكن الأمر أمر المسلمين أنفسهم وإنما كان الرسول والمسلمون لهما نصيبهما، ولكن الوحي، ويمكن أن نقول "القرآن" كان دعماً للنظام الذي قام في المدينة، وكان الحكم فيها هو حكم القرآن أو كما يمكن أن نقول حكم القانون.

من ناحية أخرى، فإن القرآن أتى على الرسول وامتدحه بما لم يمتدح فرداً آخر فقال ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمین، وقال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾..

واعتبر اصطفاؤه وإرساله منة كبرى على المؤمنين ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ {١٦٤ آل عمران}

وأوجب على المؤمنين طاعته والالتزام بشيء من الأدب تجاهه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ {٢ الحجرات}.

وقال ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. {٣٦ الأحزاب}.

وقال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ {٦٥ النساء}.

وهذه الآيات جعلت طاعة الرسول فرضاً دينياً وواجباً على المؤمنين بنص القرآن، بحيث لم يعد شائبة خلاف في هذه الناحية..

وهكذا نرى أن وضع الرسول وضع خاص جداً وفريد، ولا يمكن القياس عليه وقد أخطأ بعض الدعاة عندما لم يلاحظوا الصفة الاستثنائية للرسول، واستشهدوا بواجبات الطاعة للرسول كمثل لما يجب أن تكون عليه طاعة الأعضاء لقائد الجماعة أو "ال خليفة" أو "الإمام" أو "رئيس الجماعة" فهؤلاء جميعاً لا يستحقون على جماهيرهم الطاعة التي استحقها الرسول على المؤمنين باختصاص الله له. وقد كان لهذا المزلق الذي وقعت فيه معظم الدعوات الإسلامية المعاصرة آثار وخيمة على ديمقراطية الأداء فيها.

* * *

هناك جانب لا يجوز إغفاله، ويغلب أن يساء فهمه خاصة من المستشرقين، ألا وهو الغزوات التي شغلت الكثير من اهتمامات الرسول والمسلمين، ولا يمكن فهم هذا الجانب إلا في ضوء الظروف والملابسات التي حكمت الدعوة نتيجة لاضطهاد ومقاومة قريش. هذا الاضطهاد الذي أدى بالمسلمين لترك دورهم وأموالهم

والهجرة إلى المدينة دون أن تقف هذه العداوة، بل لاحقتهم وحالت دون أن يتمتعوا بأمن وسلام، ولهذا كانت المجابهة أمراً مقضياً ولا مناص منه. ولم تقف هذه المجابهة إلا بفتح مكة التي كانت بدورها ثمرة للسياسات التاريخية..

هذا الجانب من النشاط الذي هو أقرب إلى الدولة منه إلى الأمة كان بأسره نتيجة للظروف والملابسات التاريخية التي فرضت نفسها على الدعوة ولم تكن أصلاً فيها، وضرورة للدفاع عن الدعوة وليس عن الدولة. وقد أزعج بعض الكتاب المعاصرين أن يجدوا أن كتب السيرة لا تكاد تتضمن شيئاً خلاف الغزوات أو لا تذكر موضوعاً يماثل موضوع الغزوات والحق إن هذا لم يزعجهم وحدهم، فقد أزعج المسلمين الأوائل الذين لم يكونوا بوجه خاص يحبون القتال، بل كان بتعبير القرآن الكريم "كرها لهم" ولكن القرآن وضع التكيف الكامل للقتال، فمع أنه كان كرها للمسلمين الأول إلا أن طبائع الأشياء ومقتضيات المجتمع جعلت منه "خيراً كثيراً" وهذا الخير هو أنه ما لم يجابه الطغاة والمستبدون بالحرب فإن طغيانهم لا بد وأن يستشرد حتى يستعبد الناس ولا يعد لهم حرية، ولما كان الظلم من شيم النفوس التي تتبدى ما لم تقفها قوة، فإن هذا يعني القتال، والقتال هنا يعني حماية للحرية وهو ما يعبر عنه القرآن "لكي لا تكون فتنة" أي لكي لا يفتن أناس عن عقيدتهم بالقوة. فالإسلام لم يمجّد الحرب للحرب، ولكنه رأى فيها ضرورة، إذا كانت كريهة، فإنها تحمي الحقوق والحريات.

وقد ظهر الإسلام في قوم كان النهب والسلب والغارة على الآخرين أحد موارد رزقهم فحرمها وحسم شأفة ذلك وأحل السلام والأمن بين الناس، كما أنه عندما سمح بالحرب لأسباب التي سبق ذكرها فإنه هبط بسوءاتها إلى أقصى ما يمكن، وتقبل أشد الأعداء - عندما آمنوا - كأخوة متحابين وقضى على العداوة القديمة كأن لم تكن لأن الإسلام يجبُّ ما قبله ولم يكن هذا هو شأن "الثأر" في الجاهلية أو الدول عادة مع أعدائها.

هذه الجوانب كلها لقضية القتال الإسلامية، لم يكن مناص من مجابته، وما كان يمكن لهذه المجابهة أن تتم إلا بالسيف، وإلا بمعنوية عالية، فجاءت الآيات القرآنية تستحث المسلمين للدفاع وتثير فيهم الحمية والقوة حتى لا يستسلموا أو يضعفوا. والتقصي الدقيق لكل آيات القتال بدءاً من السورة التي أذنت بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم قد ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ {الحج ٣٩}. حتى سورة التوبة كلها نصوص دفاعية حتى ما يبدو منها متشدداً للحيلولة دون "الفتنة" أي فتنة المسلمين عن دينهم.

وعندما تفرض الظروف المبررة للحرب من دفاع عن النفس، والمال، والعقيدة على طرف الحرب فلا بد من رفع الروح - المعنوية ومن الاستعداد للقتال ومن إحساسه بما يكفل الانتصار، فالحرب جد لا هزل فيه، لأن الهزل يعني الهزيمة والعار والنهاية، وهي قطعاً أسوأ مما تحدثه الحرب من مآسى..

ويجب أن يلحظ أن القتال ليس إلا جزءاً من "الجهاد" الأكثر شمولاً وأعم معنى، والذي جاءت بصدده وحثت عليه الآيات، وهو يعطى أعلى معنى للإيجابية والفعالية في الحياة بحيث لا تكون الحياة سلبية، وبهذا المعنى فإن كل ما جاء عن الجهاد في الإسلام إنما ينصب في خاتمة الحياة ويثريها^(٢)

(٢) لقد عالجتنا هذا الموضوع بإفاضة في كتابنا "الجهاد" دار الفكر الإسلامي - القاهرة.

وفى النهاية نجد أن دولة المدينة رزقت ملايسات فى التأسيس لا تتأتى لغيرها، وانسحبت أثارها عليها بحيث كانت سياقاً تاريخياً جمع بين الرسول وضرورة الحكم وانتهت بموت الرسول، لأنه لا رسول بعده.

وأن رأس هذه "الدولة" الفريدة كان رسولاً يستلهم الوحي الذى يوجهه ويؤدبه ويعاتبه، بقدر ما كان يوجب على المؤمنين طاعته. وهذا بالطبع ما لا يتأتى لأى دولة أخرى.

ومع هذا فلم تكن دولة المدينة دولة بالمعنى السائد الذى نجده فى معظم النظم السياسية، فليس لها جيش محترف ولا سجون مشيدة ولا بوليس ولا تفرض ضرائب. وليس هناك دولة متكاملة المقومات لا توجد فيها هذه.

وهذه الطبيعة الفريدة هى التى أمكن بفضلها الجمع ما بين النصوص التى تندد بالحكم والمُلك، وبين قيام الرسول بمسئولية الحكم. لأنه لم يكن حاكماً بقدر ما كان قاضياً، وداعياً إلى الله بأذنه ولأن دولة المدينة لم تكن كبقية الدول.

وهذا لا يمنع من أن الرسول خلال تجربته وضع مبادئ وأصول تعد أئمن ما تعترز به دولة. ويمكن أن تكون من أسس نظام الحكم الإسلامى مثل الشورى. ومحاسبة الحكام واستهداف العدل والعفو عن المخالفين والحرص على كرامة الإنسان الخ...

وكان واجباً على الهيئات الإسلامية أن تضع هذه الاعتبارات نصب عينها عندما تقول إن الإسلام دين ودولة قياساً على دولة المدينة، كان يجب عليها أن تقول إن دولة الإسلام دولة رحمة وعدل ونور، دولة ليس فيها أجهزة قمع من سجون وبوليس ولا لها جيش محترف ولا تفرض ضرائب حتى لا تحدث المهازل التى حدثت باسم الإسلام فى تجارب لإقامة دولة لا تختلف فى شئ عن الدولة الرأسمالية أو الشيوعية. ففيها سجون، وفيها تعذيب، وفيها تكميم الأفواه وضرب المعارضة.. ولا تنفق معظم أموالها لرعاية الشعب ولكن لشراء الأسلحة وبناء السجون.. فأى دولة إسلامية هذه.

* * *

الفصل الثاني

الخلافة الراشدة

برزخ بين رحمة الحكم النبوي وغشومة الملك العضوض

- ١ -

المسلمون يواجهون المستقبل

وصف أحد الصحابة اللحظة المقبضة التي حرم فيها المسلمون من رؤية الرسول والحديث معه والاستماع إليه عندما صعدت روحه إلى باريها وقارن بينها وبين اللحظة المبهجة عندما دخل المدينة فقال "لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شيء. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء.. وما نفضنا أيدينا من التراب وأنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا".

ولم يكن في هذا مبالغة. فعندما كان الرسول بينهم فإنهم آمنوا العذاب.. ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾. وآمنوا الضلال لأن الوحي كان ينتزل عليه ويرسم له الطريق ويضع القواعد، وكانوا جميعاً يؤمنون كل الإيمان بالوحي ويسعدون كل السعادة بالرسول ويحبونه كأنفسهم أو أكثر ويفدونه بالأبواء والأبناء، وكان هو كما قال الله تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. {١٢٨ التوبة}..

في وجود الرسول لم يكن الحكم مشكلة لأن وجوده كان يحلها أفضل حل.. ولكن الرسول انتقل إلى ربه، وهكذا جوبه المسلمون مرة واحدة، وبصورة مفاجئة بقضية الحكم.

لقد روى أن الرسول أراد أن يكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده، ولكنهم اختلفوا، فصرفهم الرسول وهي رواية لا تقدم ولا تؤخر لأنه لو كان في هذا الموضوع وحي لما وسع النبي أن يكتمه. ولو لم يكن فيه وحي فقد يثير من الخلاف أكثر مما يؤدي إلى الاتفاق.

والشيء المحقق أن الرسول لم يعالج مع صحابته قضية الحكم بشيء من التفصيل الذي أبان به أركان الإسلام من صلاة أو صوم أو حج الخ... ودل ذلك على أن أمر الحكم، أو الخلافة. هو ما ينتهي إليه المسلمون في ظل الظروف الخاصة بهم، وليس هو بأصل من أصول العقيدة. وإن كان من الممكن أن يدخل في الشريعة التي مناطها العقل وهدفها العدل.. كما انتهى إليه تحقيقنا لها^(٣)..

وقيل إن هناك أحاديث تشير إلى "الخلافة" ونحن ننظر إليها بحذر ونعتقد أن معظمها منحول وضع بعد حياة الرسول لخدمة أغراض سياسية. وعندما نقرأ حديثاً "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي" فنحن نقطع بأن الجزء الأخير منه موضوع وأن آثار الوضع ظاهرة "بالعين المجردة" دون تدقيق وتحقيق لأن طابع التحريض على اتباع "الخلفاء الراشدين المهديين" مما لا يمكن أن يقوله الرسول. فتعبير

(٣) انظر هذا التحقيق في كتاب استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين ونتيجة له يكون الحكم في الإسلام إحدى قضايا المجتمع التي تعالج معالجة عقلية موضوعية مع استلهاً القيم الإسلامية.

الخلفاء الراشدين تعبير متخلف عن عهد الرسول. وأقوى أحاديث الرسول عما يتبعه المسلمون هو ما جاء عن القرآن. ويقل عنه شيئاً ما أضيف إلى القرآن من سنة النبي..". أما أن يضيف إلى إطار الالتزام سنة الخلفاء الراشدين المهديين فهذا ما لا يمكن أن يقوله - حتى وإن زعموا أن الحديث حسن صحيح..

وما يرويه الشيعة عنه أنه عهد إلى علي فإنه لا يثبت حتى لو صدقت الأحاديث التي تعطى علياً فضلاً خاصاً كما في حديث غدير خم والثقلين وغيرهما. ومن المسلم به أن علياً كرم الله وجهه كان أثيراً لدى الرسول، وكانت شجاعته ومواهبه محل تسليم من الجميع وحسبه أن الرسول عندما آخى ما بين المهاجرين والأنصار جعله أخاه.. وأنه عندما ولاة المدينة عندما خرج في إحدى الغزوات وأراد على المشاركة في الغزوة "قال له "أما ترضى أن تكون منى كما كان هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي" فالفضل الخاص لعلي لم يكن منكوراً، ولكنه لا يعطى له حق الخلافة لأن الأحاديث لم تصرح بهذا، ولأن من المبادئ الرئيسية المقررة في الإسلام أن النسب وحده لا يصلح مبرراً لتولية المناصب أو تقلد المسئوليات. وهو مبدأ نجده مكرراً في القرآن وفي حديث الرسول(٤).

المشكلة ليست فحسب أن الصحابة وجدوا أمامهم مستقبلاً مجهولاً عليهم أن يستكشفوه. المشكلة أن حكم الرسول كان حكماً استثنائياً. فالرسول كان أصلاً رسولاً ونبياً، مهمته الدعوة إلى الإسلام والتعريف به، ووسيلته إلى ذلك هي أساساً الحكمة والموعظة الحسنة. ولكن التطورات فرضت عليه أن يلي الأمر وأن يصبح رأساً لتجربة في الدولة فريدة(٥) ولا تتكرر ولا يمكن لأحد بعده أن يقوم بها كما قام بها.

هذا المأزق كان أول ما فرضه عليهم موت الرسول.. وما كان بالنسبة لبعضهم - كالأنصار - ذو أهمية خاصة. لأن الرسول كان محباً للأنصار، مقدراً الدور العظيم الذي قاموا به، ولأن وضعهم كان آمناً ما ظل الرسول.. أما الآن...

وعندما علموا بمرضه الأخير، جلسوا ببابه يبكون حتى خرج إليهم متوكئاً على علي والعباس فدخل إلى المسجد واجتمع الناس وقال إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة وإن تركتي فيكم الأنصار.. أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر ونصروكم في المنشط والمكره فاعرفوا لهم حقهم واقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".
والآن وقد لحق الرسول بربه. فلا عجب إذا اجتمعوا ليدرسوا الموقف في سقيفة بني ساعدة، وهي دار ندوة الأنصار ...

* * *

(٤) سنعالج تلك النقطة في أحد الفصول التالية في الكتاب.

(٥) من هذا نعلم أن الشيخ علي عبد الرازق لم يكن دقيقاً عندما قال في "الإسلام وأصول الحكم" "أن محمداً ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة، وأنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة ومرادفاتها. وما كان إلا رسولا كإخوانه من الرسل. وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعياً إلى ملك. إن ظواهر القرآن المجيد تؤيد أن النبي ﷺ لم يكن له شأن في الملك السياسي وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان". إذ كان واجباً عليه أن يقول إن هذا وإن كان الأصل. فإن السياق جعله رأساً لدولة، وإن اختلفت عن سائر الدول بحيث تكون كما ذكرنا تجربة فريدة لا تتكرر.

سقيفة بنى ساعدة

السجال الذي حدد مستقبل وطبيعة الدولة الإسلامية

اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة التي كانت بمثابة دار الشورى للخزرج كبرى قبائل الأنصار ليتدارسوا الموقف وفي ذهنهم أن يولوا سعد بن عباد - كبير الخزرج الأمر ... وتروى المصادر قصة هذا الاجتماع فنقول :

إن النبي ﷺ لما قبض اجتمعت الأنصار رضى الله عنهم إلى سعد بن عباد فقالوا له إن رسول الله ﷺ قد قبض فقال سعد لابنه قيس رضى الله عنهما إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلاماً لمرضى ولكن تلقى منى قولى فأسمعهم. فكان سعد يتكلم ويحفظ ابنه رضى الله عنهما قوله فيرفع صوته لكي يسمع قومه. فكان مما قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب إن رسول الله ﷺ لبث في قومه بضع عشر سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان فما آمن إلا القليل والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا يعرفوا دينه ولا يدفعوا عن أنفسهم حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه وأثقله على عدوكم من غيركم حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحراً حتى أثنى الله تعالى لنبيه بكم الأرض ودانت بأسياقكم له العرب توفاه الله تعالى وهو راض عنكم قريب العين فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاؤهم به فأجابوه جميعاً أن قد وفقت في الرأي وأصبحت في القول وكفى بعد ذلك ما رأيت بتوليتك هذا الأمر فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضى (٦).

في هذه اللحظة الحاسمة فوجئ الأنصار بدخول أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيده بن الجراح. لو لم يدخل أبو بكر في هذه اللحظة بالذات، أو لو أنه تأخر بعض الشيء.. لقضى الأمر وتغير مستقبل الدولة الإسلامية تماماً..

ولكن أبا بكر كان مسيراً إلى قدره.. كانت يد الله وراء دخوله ...

دخل أبو بكر فتغير الموقف تماماً..

تقول المصادر :

"أراد عمر رضى الله عنه أن يبدأ بالكلام وقال: خشيت أن يقصر أبو بكر رضى الله عنه عن بعض الكلام فلما تيسر عمر للكلام تجهز أبو بكر رضى الله عنه وقال له على رسلك فستكفى الكلام فتشهد أبو بكر رضى الله عنه وانتصب له الناس فقال إن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق فدعا إلى الإسلام فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً والناس لنا فيه تبع

(٦) تاريخ الخلفاء الراشدين المعروف بالإمامة والسياسة لأبن قتيبة - للإمام المؤرخ أبى محمد عبد الله بن مسلم ج ١ ص ٥٥.

ونحن عشيرة رسول الله ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا وأنتم وزرأؤنا في الدين ووزراء رسول الله وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه فأنتم أحب الناس إلينا وأكرمهم علينا. وأحق الناس بالرضى بقضاء الله تعالى والتسليم لأمر الله عز وجل لما ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضى الله عنهم وأحق الناس فلا تحسدوهم وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة والله ما زلتم تؤثرون إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس أن لا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم وإنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر وكلاهما له أهل. فقال عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثاني أثنين وأمرك رسول الله ﷺ بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر فقال الأنصار والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنما لكم كما وصفت يا أبا بكر والحمد لله ولا أحد من خلق الله أحب إلينا منكم ولا أرضى عندنا ولا أيمن ولكننا نشفق مما بعد اليوم ونحذر أن يغلب هذا الأمر من ليس منا ولا منكم فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا على أنه إذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت من هذه الأمة كان ذلك أجدر أن يعدل في أمة محمد ﷺ وأن يكون بعضنا يتبع بعض فيشفق القرشى أن يرفع فينقض عليه الأنصارى ويشفق الأنصارى أن يرفع فينقض عليه القرشى فقام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وقال: أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام. رضىكم الله تعالى أنصاراً لدينه ولرسوله وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لانفتحات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الأمور. فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام رضى الله عنه فقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فإنما الناس في فيئكم وظلالكم ولن يجبر مجبر على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزوة والثروة وأولوا العدد والنجدة وإنما ينظر الناس ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وتقطعوا أموركم أنتم أهل الإيواء وإليكم كانت الهجرة ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم ولا دانة العرب للإسلام إلا بأسيافكم فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر وإن أبى القوم فمننا أمير ومنهم أمير. فقام عمر رضى الله عنه فقال: هيهات لا يجمع سيفان في غمد واحد إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغي أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولى الأمر منهم. لنا بذلك على من خلفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا معتمد بباطل أو متجانف لأثم أو متورط في هلكة. فقام الحباب بن المنذر رضى الله عنه فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتهم فأجلوهم عن بلادكم وولوا عليكم وعليهم من أردتم فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم فإنه دان لهذا الأمر من لم يكن يدين له بأسيافنا. أما والله إن شئتم لتعيدنها جذعة والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف قال عمر بن الخطاب: فلما كان الحباب هو الذى يجيبني لم يكن لى معه كلام لأنه كان بينى وبينه

منازعة في حياة رسول الله ﷺ فنهاني عنه فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً. ثم قام أبو عبيده فقال: يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وأوى فلا تكونوا أول من يبذل ويغير.

ثم إن أبا بكر قام على الأنصار فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعاهم إلى الجماعة ونهاهم عن الفرقة وقال إني ناصح لكم في هذين الرجلين أبي عبيدة بن الجراح أو عمر فبايعوا من شئتم منهما. فقال عمر: معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله ﷺ وأفضل منا في المال وأنت أفضل المهاجرين وثاني أثنين وخليفته عليه السلام والصلاة أفضل دين الإسلام فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك أباعك فلما ذهباً يبائعانه سبقهما إليه قيس الأنصاري فبايعه فناداه الحباب بن المنذر: يا قيس بن سعد عاقك عائق ما اضطررك إلى ما صنعت حسدت ابن عمك على الإمارة قال لا والله لكنى كرهت أن أنزع قوماً حقاً لهم فلما رأته الأوس ما صنع قيس بن سعد وهو من سادات الخزرج وما دعوا إليه من المهاجرين من قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضى الله عنه لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لازالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر رضى الله عنه فقاموا إليه فبايعوه فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء. قال أبو بكر: أمتا تخاف يا حباب قال ليس منك أخاف لكن ممن يجئ بعدك، قال أبو بكر: فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك ليس لنا عليكم طاعة. قال الحباب: هيهات يا أبا بكر إذا ذهبت أنا وأنت جاعنا بعدك من يسومنا الضيم^(٧).

وهكذا انتهى سجال السقيفة. هذا السجال الذى وضع صورة مستقبل الدولة الإسلامية. فقد أخذ بمبدأ البيعة التى لم يكن لها معنى إلا سيادة الشعب، وأن الحاكم لا يكون حاكماً إلا عندما يقبله الشعب ويبايعه، وبذلك استبعد مبدأ الوراثة، ومع أن المبدأ لم يجر أصلاً فإن تجاهل سجال السقيفة له أثبت أنه غير مطروح للمناقشة لأن الجميع فهموا تماماً أن المبدأ يخالف روح وأساسيات الإسلام. وفى الوقت نفسه استبعدت فكرة منا أمير، ومنكم أمير.. لأنها تمثل ازدواجية وانقساماً، بل حتى الفكرة التى عرضها أبو بكر نفسه نحن الأمراء.. وأنتم الوزراء.. لم يتمسك بها الأنصار أو يعرضونها للمناقشة - وهو تقصير منهم لعله لو استدرك لحال دون أفراد المهاجرين بالسلطة ولكن يبدو أنه - فى غياب التتهيج - لم يكن له محل كما يذكر أن أبا بكر لم يحتج بالحديث الذائع "الأئمة من قريش" لأنه كان أذكى من أن يدفع به - وأغلب الظن أن الحديث موضوع أو أنه إنما يعنى "أنهم أوسط العرب أنساباً" وليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولاده" وهو ما أبرزه بعد ذلك بوقت طويل ابن خلدون فى مناقشته لهذا الحديث.

كما يظهر السجال الصفتين البارزتين فى أبى بكر ألا وهما الكياسة والحزم، فإنه نوه بالأنصار أكثر من مرة واعترف لهم بسابقتهم وفضلهم وذكرهم بإيثارهم الذى شهد لهم به القرآن الكريم دون أن يزحزحه

(٧) المرجع السابق ص ٧، ٨، ٩.

هذا عن موقفه. وكان هذا المسلك - بالإضافة إلى الخطوة الحاسمة التي قام بها عمر بن الخطاب عندما قال امدد يدك بأبيك.. وأنهى بذلك السجال القولى إلى الممارسة العملية.. هو الذى كسب الجولة فى النهاية.

إن من النادر أن نرى مثيلاً لسجال سقيفة بنى ساعدة فى طابعه المباشر والمركز الذى لم يستمر سوى ساعات وكان له مع هذا آثار بعيدة المدى على تاريخ الإسلام ومقومات الدولة الإسلامية. وهو بهذا يختلف تماماً عن "الجمعيات التأسيسية" التى تتكون لوضع دستور ونظام الدولة، ويستمر عملها شهوراً ويستطيل فيها القيل والقال ثم لا تخرج بنتيجة حاسمة كالتى انتهت إليها السقيفة.

ويستشعر الإنسان الأسى لأن الأنصار ظلموا حقهم مع أن السقيفة سقيفتهم والكثرة والمنعة فيهم، وقد اجتمعوا أساساً لتولية سعد بن عبادة، فأفقدتهم حضور أبى بكر وعمر وأبى عبيدة كل شئ. وعندما كشف لهم أبو بكر حقيقة أن العرب لا تسلم أمرها إلا لقريش، فإنهم عرضوا عرضاً وجيهاً كان جديراً بالنظر لأنه يحقق العدالة والإنصاف ويحقق توازناً كان كفيلاً بأن يكبح جماح الأرسقراطية القرشية التى استأثرت وأفسدت على الدول الإسلامية أثرها، وقد تحققت مخاوف الحباب بن المنذر التى أبدأها لأبى بكر بصورة أسوأ مما كان يتخيل فى أحداث وقعة الحرة المشنومة التى استبيحت فيها المدينة وقتل رجالها وانتهك نساؤها وأجبر الباقون على أن يبايعوا "على أنهم خول يزيد" ..

ويحز فى النفس أن ذلك فات أبا بكر، وأنه وعمر أيضاً عندما انتهى إليهم الأمر لم يشركا الأنصار كوزراء أو مستشارين أو أعوانا، ويدل هذا على أن الحاكم مهما كان عبقرياً ومخلصاً، فإنه يعجز عن أن يلم بكافة أبعاد وأقطار العملية السياسية لأن مشاغل الحكم العديدة لا تجعل يومه يتسع لكل المطالب، والشئ الوحيد الذى يعالج هذا النقص أن تكون بيئة الحكم حرة بحيث يمكن للأخريين أن يعرضوا وجهات النظر والجوانب التى شغل عنها الحاكم بالعديد من شواغله..

وإذا جاز لنا أن نعتب على الشيخين، فإن الأنصار أولى بالعتاب لأنهم قصرُوا فى حق أنفسهم ولم تكن تنقصهم القوة والمنعة ويبدو أن ما أشرنا إليه من تقصير فى حق الأنصار لم يفت تماماً الشيخين وإن شغلاً عنه، ولكنه فيما يبدو - كان هما من همومهم. وقد تمنى أبو بكر وهو وجود بنفسه لو أنه سأل الرسول عن الأنصار وهل لهم فى هذا الأمر نصيب فلا يظلمون نصيبهم. كما أن عمر قال فى آخر وصية له عندما طعنه أبو لؤلؤة للخليفة من بعده "وأوصيه بالأنصار خيراً - الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، وأن يقبل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئتهم" ..

ولعل الله تعالى أراد للأنصار أن يكونوا فى سقيفة بنى ساعدة ما كانوا عندما استقبلوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم فاستحقوا مدح الله لهم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {٩ الحشر} ..

* * *

انتهى الوحي وبدأ التاريخ

أبو بكر - المتبع الأمين - يسير في أثر الرسول

من سعد الهيئات والدول أن يكون الرجل الذى يبدها رجلاً نابغاً توافرت فيه صفات "بناة الإمبراطوريات" كأفضل ما تكون. ومن نحسها أن يكون هذا الرجل هزياً اختير لجاه أو بفضل نسب أو لعصبية حمقاء جعلته مثل عيينة بن حصن سيد قومه.. لأن فترة التشكيل الأولى لها أهميتها الكبرى - وعلى حسنها أو سوءها تنعكس الآثار على الأجيال.

كان أبو بكر بلا جدال أفضل صحابة محمد، وأكفاً من يختار لشغل هذا المنصب الهام وتقلد تلك المسؤولية الخطيرة، وقد أثرت فيه طول صحبته للرسول تأثيراً عميقاً، وطبعته بطابعها وجعلته يعلن أنه "متبع لا مبتدع" لأنه آمن أن اتباعه للرسول سيكفل له الهدى وسيؤمّنه من الضلال، وكان هو نفسه ممتازاً توفرت له أهم صفتين لازمتين لمن يؤسس دولة، هما الكياسة والحزم. وقد توفرت له بفضل الطبيعة التى جبله الله عليها وبفضل صحبته الطويلة للرسول عندما كان الإسلام بين أيدي ثلاثة هم محمد، وخديجة وأبو بكر. فكل واحد من الثلاثة كان له دور كبير فى نجاح دعوة الإسلام. للرسول لأنه ثبت على المبدأ ورفض المغريات وقال كلمته التاريخية "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته". وخديجة التى جعلت بيت الرسول بيت الدعوة ووفرت له الأمن والأمان والسكينة والحب الذى يغسل عن نفسه اضطهادات أعدائه. بينما يقوم أبو بكر باكتشاف العناصر الصالحة ويضم للدعوة الناشئة زهرة رجالاتها من مختلف القبائل، ومن العبيد والمستضعفين على سواء، ولو تقصينا لوجدنا أن أهم الشخصيات التى أدت أدواراً بارزة فى تاريخ الإسلام هم ممن كسبهم أبو بكر للإيمان بالإسلام "فقد كان منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيده بن الجراح، وغيرهم وكان معظمهم شباباً فى مقتبل العمر وأتاح هذا لهم الفرصة ليؤدوا دوراً كبيراً فى مستقبل الدولة الإسلامية.

المسؤولية الثقيلة التى كان على أبى بكر أن ينهض بها هى أنه كان الأول الذى وقع عليه أن يقيم "دولة إسلامية" بعد انقطاع الوحي الذى كان من أكبر عوامل نجاح تجربة "دولة المدينة" كان عليه أن يبداً التاريخ، وما يعنيه هذا من احتمال الخطأ والقصور ومن حسن الحظ أنه هو الذى قام بهذه المهمة لأن صفاته الفريدة كانت كفيلة بنجاح تجربة تناقض مبدئياً أثبتت تجارب التاريخ كله صدقه وهو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا. بمعنى أن من المستحيل أن يقيم دولة على أساس أيدلوجى أو قيمي - أى تكون القيم من خير، وحرية، وعدل ومساواة هى الأساس فيها. وقد قلنا إن تجربة المدينة قد نجحت لأن الذى قام بها رسول يوحى إليه من الله. ففرض ذلك على مبادئ الاجتماع السياسى. أو التفكك حول مبادئ الاجتماع السياسى بأن أوجد دولة تتجرد من أخص مقومات الدولة بالمعنى الاصطلاحى المعروف - ألا وهو جهاز القمع من جيش وبوليس الخ... بحيث يتضاءل مقوم السلطة أمام مقوم الإيمان المعزز بالوحي.

واستطاع أبو بكر أن يواصل قيام هذه المعادلة الصعبة - أو المستحيلة أولاً بفضل صفاته وخصائصه البارزة التى كانت تجعله من بناء الدول دون أن يتضمن ذلك عنصر السلطة والقمع الذى هو سواة الدولة، وثانياً باتباعه الدقيق ومواصلته لسياسة الرسول، ودعّمه فى هذا أن أصداء الوحي كانت لا تزال

تتردد حتى بعد أن انقطع الوحي نفسه، وكان القرآن الكريم غضا طريا لم تبتذله الأفواه ولم تشوهه التفسيرات، وصورة الرسول لا تزال ماثلة أمام المؤمنين. وبفضل هذه العوامل الاستثنائية استطاع أبو بكر أن يواصل "تجربة المدينة" كما استطاع ذلك عمر من بعده لتوافر العوامل نفسها، وإن كان بدرجة أقل، ولكن الأمر وقف عند هذا. إن أصداء الوحي قد خفتت بقدر ما تصاعدت نوازع السلطة، فضلاً عن أن الذي اختير للخلافة بعد عمر كان آخر واحد يصلح لها: عثمان، ولهذا فإن تجربة "دولة المدينة" التي أقامها الرسول واستطاع أبو بكر وعمر أن يمدا فيها وأن يعطيها ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة الرسول.. إنتهت، ولم تتكرر أبداً، ولا يمكن أن تتكرر حتى الآن لأنه مع عدم وجود العوامل الاستثنائية التي أشرنا إليها فلا بد أن تفسد السلطة الأيدلوجيا، لابد أن يفترس الملك العقيدة..

عندما نذكر إنجازات أبي بكر وهى عديدة رغم قصر مدة خلافته التي لم تستكمل سنوات ثلاث. فقد يكون أبرزها هو الخطاب الذى افتتح به عهده وأعلن فيه قواعد ومبادئ الحكم الإسلامى وواجبات وحقوق الحاكم وعلاقته بالشعب. وقد ألقى هذا الخطاب بعد أن أنتهى يوم السقيفة المشحون

والخطاب موجز مركز..

أيها الناس :

**قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى.
الصدق أمانة. والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه. والقوى فيكم
ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم
إلا ضربهم الله بالذل. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم
قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله...**

إن هذا الخطاب الذى يقرر صراحة حق المحكومين فى أن "يقوموا" الحاكم، وأنه لا يكون له طاعة
إذا خالف الدستور الذى انتخب على أساسه "وهو طاعة الله والرسول" كان جديراً بأن يحفظه عن ظهر قلب
طلبة المدارس وأن يكتب بالذهب ويعلق فى البرلمان ورئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء، وأن يفاخر به
المشرعون الإسلاميون كل فلاسفة النظم السياسية فى العالم..

ومما يزيد فى أهمية هذا الخطاب أن عمر بن الخطاب كاد أن يكرره فى خطابه الأول، وكذلك على
ابن أبى طالب. وظلت فكرة مراقبة الحاكم وحق تقويمه، وأنه يفقد حقه فى طاعة الناس له إذا لم يحكم
بالشرع من الأصول المقررة فى فقه الحكم الإسلامى حتى وإن طمستها الوقائع والأحداث العملية، وأهالت
عليها الغبار، وجعلت كل التجارب التى خالفتها - من معاوية بن أبى سفيان حتى السلطان عبد الحميد - فاقدة
للشرعية التى تقوم عليها خلافة، وأصبحت ملكا عضواً يعامل كما يعامل الملك ...

* * *

كان أمام أبى بكر مشكلتان لم تدعا له وقتنا يلتقط فيه أنفاسه... الأولى ما عرف باسم "حرب الردة" والثانية
ابتداء الفتوح الإسلاميه..

لقد ظهرت المشكلة الأولى فى الأيام الأخيرة من حياة الرسول عندما تصور بعض المغامرين الطامحين من قادة قبائل عربية أنهم يمكن أن يدعوا النبوة فيصلوا إلى ما وصل إليه محمد وإذا كانت دعواهم زائفة وبضاعتهم خسيصة فإن العصبية القبلية تعوض ذلك، وعن هذا المنطلق أعلن مسيلمة نبوته وأرسل رسوله إلى الرسول فى أيامه الأخيرة. كما ثار الأسود العنسى فى اليمن، وادّعى طليحة النبوة ولم تكذ هذه القبائل تعلم بوفاة الرسول حتى ظنت أن الأمر سيصفو لها. وعزز ذلك أن أبا بكر أرسل الجيش الذى كان الرسول قد عبأه للانطلاق إلى الشام ولم يستمع أبو بكر لرأى كل من نصحوه بالإبقاء على الجيش فى هذه الأيام العصبية فقال لهم إنه لا يمكن أن يؤخر أمراً أمر به الرسول، كما رفض بفضاطة أن يغير أميره الشاب أسامة بن زيد. لأن الرسول هو الذى عينه وقصارى ما حدث هو أن أبا بكر استأذن أسامة أن يترك له عمر بن الخطاب وقد كان فى الجيش لأنه يحتاجه..

وكان هناك فريق من العرب لم يرتد صراحة، أو يكفر بعد إسلامه ولكنه رفض دفع الزكاة.. التى كانت أمراً ثقیلاً على القبيلة العربية ليس فحسب لأنها تأخذ من مالها، ولكن أيضاً لأن العرب اعتبروا أن استقضاء أى مال منهم انتقاصاً لسيادتهم وإخضاعاً لهم، ونوعاً من "الإتاوة" وأرسل هؤلاء مندوبين لأبى بكر يسألونه إعفاءهم من الزكاة وكان من مهام هؤلاء استطلاع الوضع الأمنى ومدى حصانة المدينة من هجوم عليها الخ... ورفض أبو بكر بقوة "أن يفرق بين الصلاة والزكاة" وكان فى هذا يطبق مبدءاً من مبادئ الدولة من منطلق "الدعوة" إذ الحقيقة أن هذه القبائل، والقبائل المرتدة ضاقت بحكم الإسلام ورفضت أن تدعن لقيمه وأن تنتظم فى وحدته، كانت تريد أن تعود إلى حكم القبيلة القديم الذى يعطيها حقها فى حكم نفسها بنفسها وتطبيق أعرافها الموروثة. وعاد هؤلاء برفض أبى بكر، وبأن ليس فى المدينة من جيش يحميها. وفى الوقت نفسه فإن أبا بكر تتسم نياتهم فجمع البقية الباقية من المهاجرين والأنصار وجعلهم على "أنقاب" المدينة، وعبأ بقية الناس فى المسجد، وعندما هاجمت مقدمات القبائل الثائرة المدينة اصطدموا بحرسها الذى هزمهم فعادوا مدحورين إلى إخوانهم ...

وبعد أربعين يوماً عاد جيش إسامة بعد أن أدى مهمته. وهنا شمر أبو بكر ليؤدب هؤلاء الثوار، سواء منهم من ارتدّ صراحة.. أو من رفض الزكاة. خاصة وأن بعضهم قتل المؤمنين بينهم فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل واحد أن يسير ليقاتل إحدى القبائل المتمردة..

وهؤلاء هم أمراء هذه الألوية :

١. خالد بن الوليد: وجهه إلى قتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاحة، فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبطح.

٢. عكرمة بن أبى جهل: بعث به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة.

٣. شرحبيل بن حسنة وجهه فى أثر عكرمة بن أبى جهل، فإذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاة.

٤. المهاجر بن أبى أمية: وجه به إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء اليمن ومعاونة الأبناء على قتالهم. والأبناء هم مولدة الفرس باليمن آمنوا وثبتوا على إيمانهم وذريتهم بها إلى اليوم.

٥. حذيفة بن محسن: وجهه إلى أهل دبا بعمان.

٦. عرفجة بن هرثمة: وجهه إلى أهل مهرة. وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه.

٧. سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

٨. العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

٩. طريفة بن حاجر ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.

١٠. عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاة.

١١. خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وأرسل مع كل واحد منهم نسخة من منشور جاء فيه :

"إني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله وأن يسبى النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الآذان. فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كف عنهم وأن أقرأوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي".

كما كتب إلى قواده عهداً من صورة واحدة وهي :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتق الله ما استطاع في أمره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرأوا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول^(٨).

وقد سارت هذه الجيوش وأدت مهمتها بنجاح وإن كان مسيلمة وقواته وقبيلته التي تعصبت إليه على أساس أن "كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر" هزموا جيش عكرمة وجيش شرحبيل بن حسنة - فوجه

(٨) تاريخ الإسلام - الخلفاء الراشدون - تأليف الأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٤٤، ٤٥، ٦٤.

أبو بكر خالدًا لحرب مسيلمة. واستطاع خالد الانتصار بعد معركة شديدة وقُتل مسيلمة - قتله وحشى الذى كان قد قتل حمزة فى أحد وشهدت أم عماره - الصحابيه الجليله التى شهدت بدرًا وأحدًا - هذه الموقعة الحاميه، وبترت فيها ذراعها.

ويوضح الصراع المرير ما بين الجيوش التى أرسلها أبو بكر إلى المرتدين أن معظم القبائل العربية كانت قد ارتدت أو على شفا الردة وأنه لولا عزيمة أبى بكر وتصميمه وعبقريه خالد واستماته القاده الآخرين لما استطاعوا الانتصار فى النهايه.

وهذا ما يلقى ضوءًا على السياسة التى اتبعها أبو بكر مع المرتدين واتسمت بقسوة غير عاديه، وربما لم يكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدعوة، ولكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدولة، وقد كان أبو بكر محقًا فى حربهم جميعًا - سواء من ارتدّ، أو من رفض الزكاة لأنهم جميعًا ثاروا على الدولة. ولو لم يدفعوا بقوة لانتصروا ولقضى على الإسلام.. وقد أراد أبو بكر أن يلقنهم درسًا يشفيهم من العصبية، والشرك وجذور الجاهلية، ويعيدهم إلى نطاق الطاعة، والجماعة وقيم الإسلام.

فحرب أبى بكر للردة مبرره على أساس الدولة، وعلى أساس الدعوة أيضاً لأن الدعوة تعرضت لهجوم عليها أريد به استئصالها وكان لابد أن ترد عن نفسها هذا الهجوم، والوقوف غير ذلك يعد انتحاراً^(٩). فى أسلوب هذه الحروب، ارتفع صوت الدولة على صوت الدعوة. وظهرت أولى سوءات السلطة، وشتان ما بين عنف، وقسوة، أبى بكر وبين "اذهبوا فأنتم الطلقاء" حتى وإن كانت الظروف مختلفة... وعلى كل حال فالمفروض أن يختلف مسلك رجل الدولة عن مسلك رجل الدعوة فى الحرب وإلا فأى فرق بينهما، وأن يكون مسلك الخليفة دون مسلك الرسول..

* * *

والقضية الثانية التى كان على أبى بكر أن يحدد موقفه فيها هى قضية "الفتوح" ومدى تبريرها من منطلق الدولة، والدعوة. أما من منطلق الدولة فهذا ما لا يصعب إيضاحه. فمن طبائع المجتمع البشرى أن تأخذ العلاقات ما بين الدول التى تتلاقى حدودها إما طابع الحرب أو طابع السلم الذى تحدده معاهدات قد تكون نتيجة لحرب سابقة لأن الذى يحكم العلاقات ما بين الدول هو صراع البقاء.. الذى يدفع الدولة القوية إلى حرب الدولة الضعيفة واستلحاقها والذى يدفع الدولة الصغيرة إلى استرضاء جارتها القوية واكتساب أمنها منها لقاء مبلغ من المال أو إعطائها امتيازات أو غير ذلك فإذا كانت الدولتان متقاربتان فى الحجم والقوة فقد تربط بينهما جهود متكافئة حتى يظهر فى إحداها قائد طموح يعتدى على جارته المسالمة.

ومن ثم فإن غزو الدولة العربية الناشئة التى كانت تتمتع بطاقة كبيرة من الحيوية الحضارية. كان أمراً طبيعياً للغاية خاصة وأن الفساد كان قد ضرب الجارتين الكبيرتين الفرس والروم... ولكن قد يختلف الأمر من منطلق الدعوة..

(٩) من هنا لا يجوز الاستشهاد بحرب الردة فى شن عقوبة الموت للمرتد ما لم تقتن رده بمحاربة الدولة فإن لم تقتن بها فإنه يترك وشأنه، أو يرد عليه بالمنطق والبرهان لا بالسلطة والسنان.

فإن الله تعالى أمر رسله بالدعوة وأن يقفوا عند البلاغ، ونهاهم عن أى محاولة لإجبار، أو إكراه أو سيطرة، وأوضح لهم مغبات ما ينشأ فى نفس الداعية من رغبة فى كسب الجموع والاستكثار من الأتباع. لأن هذا ينم عن عاطفة ذاتية (حتى ولو كانت لحساب الدعوة) فضلاً عن أنه يعرضها لمزالق التنازل والترخص والمساومة.. بل إن القرآن كان صريحاً كل الصراحة فى أن الهداية إنما هى من الله وحده. وأن الرسول لا يهدى من أحب وغيرها من نصوص أوردناها فى مستهل هذا البحث..

وكان مما يتفق مع هذه الخطوط أن يرسل الرسول رسلاً ليلبغ الملوك والقادة دعوته، ويدعوهم إلى الإسلام ويحملهم مسئولية من قبلهم، إذا رفضوا، وقد فعل الرسول هذا، ولم يستوجب له أحد.. كما ظهر عامل جديد..

أن الدعوة وإن لم يكن لها أن تقاتل فى سبيل نشر دعوتها إلا أنها قد تتعرض هى نفسها لقتال الذين يريدون استئصالها.. ولا بد عندئذ للدعوة من أن تدفع هذا العدوان وأن تقاتل من يقاثلها. وهذه هى الصورة التى أخذتها غزوات الرسول فى الجزيرة العربية، وكذلك حرب الردة التى اكسبت دولة "الدعوة" قدراً من القوة نتيجة لانتصارها على المرتدين ثم رأت أن من واجبها أن تبلغ رسالتها للدول المجاورة بعد أن فشلت محاولة الرسول تبليغهم عن طريق رسله..

عندئذ ظهرت فكرة أن يصل جيش إسلامى إلى مشارف الحدود ليدعوا شعوب هذه الدول إلى الإسلام فإذا أسلموا عاد الجيش إلى قواعده.. بعد أن أصبحوا بإسلامهم جزءاً من دولة الدعوة ... ولكن ظهر ان هذه فكرة غير عمليه..

فالجيش لا يمكن أن يتصل بالجماهير، لأن الجماهير فى قبضة قادته، والقادة رفضوا الإيمان بالدين الجديد الذى يدعو إلى مساواتهم بالجماهير، والحكم بالعدل..

عندئذ ماذا يكون الموقف..

هل ينسحب الجيش بعد أن رفض الحكام الدين الجديد. لما كان هذا أمراً شاذاً من كافة الوجوه، فقد اهتدى العرب إلى حل هو فرض الجزية عندما يرفض الدين. وكانت مبررات ذلك عديدة..

منها أن هذه الفتوحات لم تستهدف فرض الإسلام على الشعوب والجماهير بقوة السيف، ولو كانت هذه الفكرة قائمة فى ذهن المسلمين لكان قبولهم جزية من جماهير الدول المفتوحة لقاء احتفاظهم بدينهم - رشوة. ومما يؤيد أن الفكرة من الفتوح لم تكن أسلمة البلاد المفتوحة وصية أبى بكر - وفيما بعد عمر للجيش بأن يحافظ على الكنائس والأديرة، وأن لا يهاجم رجال الدين، فهنا يحافظ الغزاة على معاقل المسيحية ويحمون رجالها..

مع هذا يمكن القول أن الجزية كانت تمثل عقوبة مادية ثقيلة على الذين يحتفظون بأديانهم.

ولكن هذا ليس إلا فرضاً نظرياً، لأنه لم يحدث وما كان ممكناً أن يقبل حكام بيزنطة والفرس أن يدفعوا جزية عن كل واحد من الشعب، ولهذا فلن يبق إلا البديل الثالث وهو الحرب. وهذا ما حدث بالفعل.. فهل تكون هذه الحرب مبررة من دولة الدعوة؟ سواء كانت مبررة أو لم يكن لها تبرير نظري. فالأمر المحقق أنها كانت تتفق مع طبائع الأشياء ومع القوانين التي تحكم أوضاع المجتمع البشرى، والتي كانت تقوم على ما يشبه قوانين صراع الأنواع والأحياء الذى يبقى على الأقوى ويستبعد الأضعف والظالم والذى انتظم تاريخ البشرية منذ أن ظهرت.

الإضافة التي أضافتها دولة الدعوة على هذا الإجراء هو الطابع الرحيم فما أن تنتهى المعركة حتى يسود "السلام الإسلامى" وهو أرحم سلام عرفته البشرية لأنه لا يعطى الفاتح حقاً فى الأرض، أو الممتلكات ولا يجيز للجيش أن ينهب أو يسلب أو يحرق زرعاً أو يهدم بيتاً ويكون عليه أن يشتري كل حاجاته وأن يدفع ثمنها، كما يحى حرية العقيدة لجميع الناس. وإذا قارنا توصية أبى بكر التالية بما كان يجبر عليه المغلوبون للرومان لظهر الفرق وفيما يلى وصية أبى بكر لجيش إسامة.

"لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.."

أما ما كان يمليه الجيش الرومانى المنتصر على المهزومين فهو: "أنى أعطيت عن يد شخصى وطنى وأرضى والماء الذى يجرى خلالها وآلهة الحدود والمعابد وما ملكت يمينى، أعطيت ذلك كله للرومان" لأن القاعدة كانت أن الغالب له حق الحياة والموت على المغلوب.

بصفة عامة لا جدال أن حركة الفتوحات الإسلامية دفعت التقدم خطوات إلى الإمام. لأنها قضت على الحكم الطبقي الذى يقوم على الامتيازات والنبالة الموروثة التى حرمت جماهير الشعب من المشاركة فى السياسة العامة أو حرية العمل للانتصاف ونيل الحقوق إلى مجتمع تقوم مبادئه على المساواة وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح وحققت هذه الفتوح أكبر حركة انصهار ما بين الأجناس كان الإسلام هو المفاعل لها وحققت اللغة العربية - باعتبارها لغة القرآن - الوحدة بين الأجناس المختلفة. ولا يمكن أن تُعزى هذه المحاسن إلا لأن هذه الفتوح إنما تمت فى وقت كانت الدولة تعيش فى ظلال الوحي وبالذكرى القريبة من الرسول وسنرى بالطبع أن هذه المزايا ستتقلص مع تباعد الدولة الإسلامية من ذكرى رسولها.. ومع خفوت أصداء الوحي وتحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض.

ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الدولة الإسلامية حتى فى عهد بنى أمية والعباسيين عندما تحولت تماماً إلى ملك عضوض فإنها لم تتطور إلى ما تطورت إليه الإمبراطورية الرومانية بحيث لم تصل الدولة الإسلامية فى أسوأ حالاتها إلى ما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية فى أسوأ حالاتها. وهذا بفضل الذكرى الوهانية لدولة المدينة والخلفاء الراشدين. ولأن آيات القرآن الكريم الصاعدة بالحرية والمساواة كانت على ما هى عندما نزل القرآن وكانت تلمع كالشهاب وسط الظلمات..

عندما أحس أبو بكر بدنو أجله فإنه ختم حياته بشيء أشبه ما يكون بما بدأ به حياته في الخلافة..
إن يوم السقيفة كان ماثلاً في مخيلة أبي بكر.. وكانت صورة هذا السجال الذي كاد أن يمزق الأمة
حياً في ذاكرته، وكان التوفيق فيه فلتة..

لهذا لم يرد لها أن تتكرر لأن من طبيعة الفلتة أن لا تتكرر، وكان الالتجاء إليها مرة أخرى لا يضمن
النجاح في اجتيازها وكان هذا يعنى تمزق الأمة.

قرر أبو بكر أن يختار من يراه أصلح من يقود السفينة في الفترة الحرجة التي تلاحقت فيها الأمواج.
ولكنه لم يشأ أن يستأثر بالأمر - وفي الوقت نفسه فإنه لم يعلن عن نيته لأن الإعلان عنها قد يؤدي إلى
استثارات تعرقلها، وربما تحول دونها - فاستشار على حدة عدداً من كبار الصحابة.. وكلهم أجمع على أن
أصلح مرشح هو عمر بن الخطاب.

وهكذا أرسل في أيامه الأخيرة - إلى عثمان بن عفان ليكتب وصيته وأملى عليه ...

"بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد" ثم أغمى عليه
فكتب عثمان "فإني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً" ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على. فقرأ عليه
فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس أن اختلفت في غشيتي. قال نعم. قال جزاك الله خيراً عن
الإسلام وأهله.

قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن
أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة. وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب
فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا(١٠) ..

ثم دعا أبو بكر عمر خالياً وأوصاه وأطال ولما خرج عمر من عنده. رفع يديه وقال "اللهم إني لم
أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم
خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضر بي من أمرك ما حضر، فأخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم
بيدك، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته."

أحسن أبو بكر في النهاية، كما أحسن في البداية ووقى الأمة فتنة التمزق في الحالين، وكان في
اختياره عمر كالزوج الذي أحسن إلى أبنائه مقدماً عندما اختار أما لهم سيدة رصينة ممتازة.

وفيما بين هذه البداية الموفقة والخاتمة الحسنة، فإنه أنقذ الدولة الإسلامية من هلاك محقق عندما
كادت الردة أن تذهب بها أشلاء..

(١٠) المرجع السابق للأستاذ عبد الوهاب النجار. ص ١١٢.

ولم يكن أبو بكر ملاكاً، إن طبيعته التي تمتاز فيها الكياسة مع الحزم جعلته ينجو من كثير من المزالق. وصحبته الطويلة للرسول أعطته ملكة الهداية ولكنه كان بشراً دون وحى، وكان فيه من نقص البشر حدة تتملكه فى لحظات قليلة دعا المسلمين إلى تحملها منه.

* * *

- ٤ -

المبتدع العظيم

عمر بن الخطاب يرسى دعائم الدولة الإسلامية

تولى عمر الأمر بتسليم من كل المسلمين ونجحت خطة أبى بكر فى تجنيب المسلمين تجربة كانت ستضعف وحدتهم ثم لا يمكن أن تصل إلى شخص أفضل من عمر..

كان هناك على بن أبى طالب الذى فاتته الدور والسياق، وكان هناك سعد بن عبادة كبير الأنصار الذى اعتزل المسلمين ولم يبايع أباً بكر، وكان هناك أبو عبيدة "أمين هذه الأمة" وكان لدى كل واحد من هؤلاء من المزايا والمؤهلات ما يجعله أهلاً.. ولكنهم ما كانوا ليصلوا إلى ما توافر لعمر من مزايا جعلته رجل الساعة الذى يقوم بدور "المبتدع" بعد أن قام أبو بكر بدور المتبع، وكان كل واحد منهما محقاً فى الدور الذى اختاره لنفسه. كان على أبى بكر أن يكون متبعاً لحدثا العهد بالرسول.. وليأمن الضلال أمام التجربة الجديدة، وكان على عمر أن يكون مبتدعاً بعد أن نجحت التجربة، وكبرت، وترامت حدودها ونشأت لها قضايا لم يكن للعرب عهد بها. فكان من الضرورى أن "يبدع" حلاً ...

والفقهاء يقولون إن البدعة السيئة إنما تكون فى مجال العبادات والشعائر وما تضمنه القرآن الكريم أما فى شئون الحياة الدنيا، فإن المضمون السيء للبدعة لا يسرى عليها. وهذا كلام ما كان يمكن أن يقف عنده عمر، وسنرى أنه سيبتدع فى العبادات كما ابتدع فى الدينويات. بحيث لا يقل ما ابتدعه فى مجال الأولى عما ابتدعه فى مجال الثانية، بل إنه أطلق "بدعة حسنة" على اجتهاده فى جمع الناس لصلاة التراويح، وكان كل ما ابتدعه فى المجالين أكبر وأعظم مما يطبق المسلمون بعده، وإن حضوره وشخصيته هو الذى كفل لهذه التجديدات الوجود، فلما استشهد أهال المسلمون عليها التراب وكأنهم دفنوها عندما دفنوا عمر ...

ولعل أول هذه التجديدات مما لا يبدو ذا خطر وإن كان له آثاره الخطيرة، فقد أطلق المسلمون على أبى بكر خليفة رسول الله بتأثير اللحظة التى تمت فيها بيعته وكأنهم لا يريدون أن يهجرُوا ذكرى رسول الله وأحبوا أن يكون حيا على الشفاه كما هو حى فى القلوب.

ولكن التعبير لم يكن دقيقاً ولعلنا لا نخالف الحقيقة إذا قلنا إنه تعبير خاطئ. فقد كان الرسول خاتم الرسل ولا رسول ولا نبي بعده فكيف يمكن أن يقال خليفة رسول الله ؟ وكان للرسول منزلة خاصة، وله على المؤمنين طاعة وتسليم، لا يجوز أن يكونا لأحد، ولكن تعبير "خليفة رسول الله" قد يوحى بأن يكون له

الطاعة التي كانت لرسول الله. وعملياً فإن المعنى قد يسمح بأن يتطور إلى "خليفة الله" وظل الله.. والحاكم الذى يحكم باسم الله. وفى هذا من الخطر ما فيه.

وكان من حظ عمر أن يتخلص من هذا اللقب وأن يحمل لقباً عملياً وواقعياً "أمير المؤمنين" وكلمة أمير تقف ما بين "الإمام" و "الحاكم" ففيها نبرة من الإمامة دون أن يكون فيها بعض التدايعات السيئة لكلمة الحاكم. وبهذا انتفت أى صفة "نبوية" لمن يتولى الأمر.

ولا يتسع المجال للحديث عن كل تجديلات هذا المبتدع العظيم لأننا لا نقدم تاريخاً وإنما نتحدث عن حظ الدولة الإسلامية من النجاح، وأنها لا تتجح إلا عندما تكون عن كثب وقرب من الرسول. ثم ترزق شخصيات موهوبة مؤمنة مثل أبى بكر وعمر. أما إذا بعد العهد ولم ترزق هؤلاء الموهبين، أو حتى لو رزقتهم (كما كان الحال فى على بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز) بعد أن طال العهد فإن الأمر لا يصفو لهم ولا يستمر معهم.. فإننا إنما أبحنا لأنفسنا الحديث عن هذه التجديلات لا لعرضها كسرد تاريخى وإنما لنثير جوانب فيها لم تحظ بعناية المؤرخين، ومن الخير ونحن نعالج الموضوع أن يلم بها القارئ..

لقد كانت الصورة التى وضع بها عمر "الديوان" تثير الدهشة وتظفر بالإعجاب والتقدير لأنها جاوزت أرقى ما ذهبت إليه "دولة الرعاية" فى العصر الحديث. وكان أبو بكر قد بدأ عملية "العطاء" عندما بدأت الفتوح وأرسلت إلى المدينة "خمس الغنائم" والجزية أو ما تبقى منها، وكانت هذه الأموال تحفظ فى المسجد فلما جاء عمر وتوالت الفتوح تضاعفت أضعافاً مضاعفة حتى أصبح من الضروري أن يكون هناك "بيت مال" تودع فيه بدلاً من المسجد ثم بدأ عمر فى وضع الديوان وانتدب لذلك الذين يلمون بأنسب العرب ووضع الترتيب بادئاً بالقرابة من رسول الله - وأولهم زوجاته - ثم السبق والبلاء حتى يصل إلى عامة الناس دون أن يدع رجلاً أو امرأة صغيراً أو كبيراً. وكان يعطى للأطفال عند الفطام حتى علم بحالة أم تعلق أطفالها الذين لم يفظموا من الجوع. فأمر بأن يكون العطاء بمجرد الولادة ...

ولفتت الطريقة التى وضع بها الديوان نظر طه حسين فى كتابه عن الشيخين فقال :

"ونظام العطاء هذا - كما فرضه عمر - جديد من جميع نواحيه، لا نعرف أن أمة من الأمم التى سبقت العرب إلى الحضارة عرفته أو عرفت شيئاً قريباً منه، وإنما نعرف أن بعض الأمم القديمة كانت تستأجر الجنود للحرب، ولا تحرمهم نصيباً من الغنائم قليلاً أو كثيراً، ونعرف أن بعض الحكومات القديمة كانت تقطع الجنود أجزاء من الأرض إذا تقدمت بهم السن يعيشون من غلاتها، فأما أن تكفل الدولة رزق المسلمين جميعاً على هذا النحو، فلسنا نعرفه فى التاريخ القديم، وما أظن أن الحضارة الحديثة، وفقت إليه".

وكل ما وصلت إليه الحضارة الحديثة فى بعض البلاد ووصلت إليه بأخرة، إنما هو التأمين الاجتماعى الذى تؤخذ نفقاته من الناس، فيرد عليهم بعد ذلك حين يحتاجون فى بعض الأمر إلى العلاج حين يمرضون، وإلى كفالة الحياة للشيوخ، والضعفاء، والعاجزين عن العمل لكسب القوت، وإلى تأمين العمال من أخطار العمل، وتأمين الذين يخدمون الدولة، والهيئة الاجتماعية على رزقهم حين تنقضى خدمتهم، فأما أن يكون لكل فرد من أفراد الأمة نصيب مقسوم من خزانة الدولة. فشىء لم يعرف إلا منذ عمر رحمه الله^(١١) " انتهى.

(١١) الشيخان "موجزة" طبعة ١٩٧٧ للدكتور طه حسين ص ١٦٨.

وكانت سياسة عمر لعماله - أو بالتعبير الحديث - الولاية الذين يرسلهم لحكم الأمصار العظيمة مثل الشام والكوفة والبصرة ومصر واليمن الخ... سياسة رجل دولة يعلم حق العلم أثر ما فى الحكم والسلطان من مغريات تضعف أمامها النفس البشرية ولا يستقيم حالها إلا بالمتابعة اليقظة والموالاة المستمرة. وكأنى بعمر يفترض أن كل وال لا بد وأن يخضع بدرجة أو بأخرى لإغراء السلطة.

وكان إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين يشترط فيه أن لا يركب بردوناً، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون نوى الحاجات، فإن فعل شيئاً من ذلك حلت عليه العقوبة، وبناء على هذا كان يرسل مفتشين للنتب من تطبيق هذه الشروط وفى كثير من الحالات كان هؤلاء المفتشون يقاسمون الولاية أموالهم وعندما علم بأن سعد بن أبى وقاص بنى لبيته باباً أرسل مندوبه "محمد بن مسلمة" وأمره بأن يحرق الباب فوراً وقبل أن يتكلم مع سعد بكلمة لأنه يكره أن يكون بين الحاكم وشعبه باباً يحتجب وراءه فأين هذا مما انتهت إليه الأمور فى العهد العباسى.

له حاجب دونه حاجب وحاجب حاجبه يحتجب !!

وما كان يجوز عليه تعلات الحكام ولعل الوالى الوحيد الذى استطاع أن يخدعه بكياسة هو معاوية الذى عندما استقبله فى موكب يركب الجياد ويرتدى ثياباً قيمة وسأله عمر مستكراً عن هذا قال له إنا فى بلد يوجد فيها جواسيس للعدو ولا بد أن نظهر بمظهر القوة والبأس فقال عمر ما سألتك عن شئ إلا خرجت منه فإن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب لا أمرك ولا أنهاك..

وكان يأمر ولاته جميعاً بالحضور فى موسم الحج مع حجاج ولاياتهم ويسأل الولاية ثم يسأل الناس عن الولاية ولم يكن يتردد فى أن يطبق القصاص إذا ثبتت مظلمة وما كان يمكن أن يفلت من رقابته أى وال مهما عظم قدره. وقد أرسل إلى خالد بن الوليد عندما علم أنه أعطى شاعراً مبلغاً جسيماً وأمر بلالاً وهو حبشى وقد كان عبداً اشتراه أبو بكر من سيده المشرك واعتقه ليعقله بعمامته فى المسجد ويسأله من أى مورد أعطى هذا المبلغ فإن كان من مال المسلمين فهى خيانة وإن كان من ماله فهو سرف..

وكان يعتبر الولاية "معلمين" يعلمون المسلمين شئون دينهم وما أكثر ما أعلن للناس من أهل الأمصار إنى لم أرسل عمالى ليضربوا أبشار الناس ولا ليظلموهم وإنما أرسلتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويقسموا بينهم فيأهم ويقوموا أمرهم كله على العدل.

وكان عمر يخشى على قاداته النابغين أن يفتنوا بالناس أو أن يفتن الناس بهم. وكان هذا هو سبب عزل خالد بن الوليد وتشديد المراقبة على سعد ابن أبى وقاص وليس هناك شك فى صحة نظر عمر فى هذا وأنه كان يقدم تيريراً مرضياً لهؤلاء الولاية "كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله" وكان الوحيد الذى أفلت من ذاكرة عمر فى هذا هو معاوية الذى خدعه بإجابة لبقة رغم أنه يعلم بالطبع سرائر وطباع الأمويين. وكان ذلك خليفاً أن لا يبقيه فى منصبه هذه المدة الطويلة وليس من حل لهذا التصرف إلا أن الإنسان لا يبلغ الكمال، وأن التطور يفرض نفسه ويستطيع أن يخدع أذكى العقول وكان معاوية وتأسيسه "الشامى والبيزنطى" هو ممثل التطور.

* * *

وقد أراد أن يعلم عماله العفة عن المال العام، فأخذ نفسه بصور من التحوط. فقد أرسل أبو موسى الأشعري واليه على البصرة إليه بمال مع أبنيه عبد الله وعبيد الله وصرح لهما بأن يشتريا من سلع البصرة ويبيعانها في المدينة فيأخذا الربح ويؤديا المال. فلم يقبل عمر ذلك وطالب ولديه بما ربحاه فقال له ابنه عبيد الله "ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فأصر عمر حتى اقترح جلساؤه أن يأخذوا النصف ويضاف النصف الآخر لبيت المال. وهذا ما يسمونه قراضا وهو أول قراض في الإسلام". وأهدت ملكة الروم زوجته أم كلثوم بهدايا منها عقد ثمين. فما انتهى به البريد إليه حتى أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال: إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري. قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم. فقال قائلون: هو لها بالذي أهدته وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فنتقيك. وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئا، فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر. بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها.

وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة. ولعله في هذا كان يتأول الآية ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. {٣٠ الأحزاب}.

وكان عمر - كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه "ال خلفاء الراشدون". "لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبد عليهم في شأن من الشؤون العامة. فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويجيل الرأي معهم فيه ويستشيرهم. ومن مآثر قوله لا خير في أمر أبرم من غير شورى. وكان مسلكه في الشورى جميلاً. فإنه كان يستشير العامة أول أمره فيسمع منهم، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله وأصحاب الرأي منهم ثم يفضى إليهم بالأمر ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمود، فما استقر عليه رأيهم أمضاه وعمله".

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلاً بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشيء في موضعه يشتد حيناً ويلين حيناً حسبما توحى إليه الأحوال التي هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان.

وكان وهو في المدينة يعلم بما يحدث في الأمصار من ولاته حتى ما صغر. فكتب إلى أحد ولاته أن لا يتكئ في جلسته! وبلغه أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبلاً كؤوداً يشق على من راحه والناس يختلفون إليه فكتب إليه "أما بعد، بلغنى أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد".

وجعله ذكاًؤه واستغراقه وتفانيه في القيام بمسؤوليته بصدق وورع وإستهدافه الخالص القربى لله والرسول يرى ويحس بما لا يراه أو يحسه الآخرون وأعطته فراسة تجعله يتغلغل في أعماق النفوس - بل منحتة قوة اتصال بما قد يحدث بعد مئات الأميال - كما حدث عندما نادى وهو يخطب بالمدينة "يا سارية

الجبل" ودهش المسلمون لهذه الجملة ولكن عمر الذى كان فيما يبدو مستغرقا فى شأن معركة كانت تدور وقتئذ بين سارية بن حصن والفرس فرأى الفرس وهم يهاجمون سارية بأعداد كثيفة ووراءه جبل فنأدى بأعلى صوته "يا سارية الجبل" ليفتهه للاعتصام بالجبل وسمع سارية الصوت واعتصم بالجبل حتى أنقذ من هجوم الفرس وهى حالة يسمونها "التلباى" بحيث ينفذ البصر عبر الأجواء، ولكن هذه حالة خاصة بالطبع، أما فإساسة عمر التى تتميز بها فهى التى كانت تمكنه من أن يتتسم واقعة حدثت بحكم نفسية صاحبها التى كان عمر يفهم دخائلها تماما. وهناك حالتان تمثلان ذلك. فقد زار أبو سفيان ابنه معاوية وعندما عاد وقع فى ذهن عمر أن ابنه معاوية وصله فقال "جزنا يا أبا سفيان" فقال ما أصبنا شيئا فنجزيك" فمد عمر يده فأخذ خائما بيد أبي سفيان وبعثه مع رسول إلى هند زوجة أبي سفيان وقال قل لها ابعثى الخرجين فبعثتهما. ووجد عمر فيهما عشرة آلاف درهم فطرحها فى بيت المال. أما الواقعة الثانية فقد هم عمر بعزل عامله على العراق المغيرة بن شعبة وتولية جبير بن مطعم مكانه. وشعر المغيرة بحاسته المرهفة بذلك فطلب من جليس له أن يدس امرأته وكانت معروفة بالتقاط الأخبار حتى سميت "لقاطة الحصى" لتعرف الحقيقة من زوجة جبير، فذهبت إليها وسألتها عن المكان الذى يقصده جبير فى سفره فأخبرتها أنه ينوى العمرة فقالت لقاطة الحصى إنه كتم عليك أمره ولو كانت لك منزلة عنده لأخبرك بالحقيقة فغضبت امرأة جبير ودخل عليها وهى مغضبة فلم تزل به حتى عرفت سر سفره وأخبرت به لقاطة الحصى وعرف المغيرة فذهب إلى عمر وفاتحه بما علم فقال له "كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت، وأنشدك الله هل كان كذلك فقال المغيرة اللهم نعم. (عبقرية عمر للعقاد)..

فهذه الحوادث وأمثالها تظهر لنا أنه قد صفت طبيعته وطهرت سريرته حتى أصبح يرى ما لا يراه الآخرون، كما أنها تبرز لنا جانبا من جوانب اهتماماته هو حرصه على الرجال الأكفاء الذين يجتمع لهم القوة والأمانة وعندما كان فى مجلس يذكر فيه كل واحد ما يتمنون قال عمر "ولكنى أتمنى بيتا ملوئا بأمثال أبي عبيدة بن الجراح. وسألهم يوما عن مرشح يوليه فقالوا كيف تريده فقال "إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم" ولعمرى إن هذا لخير ما يوصف به مرشح لولاية، وما ينم عن معرفة دقيقة بأقدار الرجال.

* * *

أما ابتداعاته فى المجال الدينى الخالص وبالذات طريقتة فى فهم النصوص واستخلاص الحكم، فإنها كانت سابقة لوضع أصول الفقه الذى ظهر بعده بقرابة مائة عام، وكان أعمق فهما له، وقد شرح ذلك بإفاضة الدكتور محمد بلتاجى فى كتابه القيم "منهج عمر بن الخطاب فى التشريع" وقال إن الذى لفت نظره أول مرة إلى ذلك هو الشيخ على حسب الله وهو أحد الأساتذة الكبار فى أصول الفقه. إذ قال إن عمر - وإن سبق زمانه نشأة علم أصول الفقه بأكثر من قرن من الزمان - فإنه بصورة عملية عبقرية لا مثيل لها قد تجاوز مقولات هذا العلم ومقرراته التى انتهى إليها علماء الأصول بعده، لأن فهمه وتطبيقه لروح النصوص الشرعية ومقاصدها المبتغاة كان ذا طابع منفرد بحق. يحسبه الجاهل خروجاً على مضمون النص ومخالفة له وإنما هو عند التحقيق الفهم العبقرى الذى يجمع بين المفهوم الصحيح للنصوص وتحقيق مقاصدها المبتغاة وتحقيق مصالح الناس المعتبرة فى الوقت نفسه. أو باختصار العمل بروح الشريعة لا بمنطوقها قط.. ولو أن أئمة الفقه الشافعى وأبو حنيفة الخ... بدعوا حيث انتهى عمر، وقد سبقهم بالطبع لأتجهوا بالفقه الوجهة المثلى.

ولكن الذى حدث هو أنهم نكسوا على أعقابهم وشغلوا بقليل وقال واستعبدتهم النصوص آونة وآونة أخرى.

وكان عمر لا يقبل حديثاً إلا بشاهدين - باستثناء بعض كبار الصحابة الذين يوثق بهم كعبد الرحمن بن عوف أو أبو عبيدة الجراح أو سعد بن أبى وقاص، ولو أن علماء الحديث أخذوا بما كان عمر يأخذ به ولهم فيه أسوة حسنة - لخلصنا من مشكلة أحاديث الآحاد، وكان لهم سند قوى فى أن الإسلام لا يقبل إثبات واقعة إلا بشاهدين عدلين. وقد تكون بضعة جنبيات فكيف إذا كان الحديث يتضمن مبدءاً تقطع به أعناق وتطلق به نساء ويلزم الناس الطاعة للحكام الخ ...

على أن عمر ما كان يتخذ قراراً إلا بعد الاطمئنان القلبي والتثبت العقلى. وما لم يتحقق فيه هذان فما كان يبيت فيه وقد أشهد الناس بعد أن طعن أنه لم يقل فى الكلاله شيئاً. وهو ما يمثل تقديره لمسئوليته.

ولكن هذا لا ينفى أن عمر فى ثقته بنفسه وفى ملاحظته للظروف وتوحيه المصالح وبعد أن توفر له الاطمئنان القلبي والتثبت العقلى، لم يكن يلتزم دائماً بالنص فقد قال القرآن الكريم بصريح العبارة "الطلاق مرتان" فجاء هو وجعله مرة واحدة عندما رأى أن الناس قد أساءوا استخدام السعة والحرية التى أباحها لهم الشارع. وحرّم المتعتين متعة الحج، ومتعة النساء ولا جدال أنه بنى هذا على مبررات وجيهة، ولكن هذا لا ينفى أنه قد تكون لهما مبررات - حتى متعة النساء التى تثير ليس فحسب الاستياء، بل الغثيان عند البعض - وعند التدقيق والتحقق نجد أن الزواج المؤقت قد يكون له ضرورة بالنسبة للطلبة أو الجاليات الإسلامية فى الدول الأوروبية، وفى قضية المؤلفة بين قلوبهم فإذا لم تكن هناك حاجة لإعطائهم وقت عمر، فقد يكون هناك حاجة بعده.. أما اعتباره الطلاق مرة واحدة. فحتى لو أنه جازى به سرف الرجال وإساءة استخدامهم للحق فما ذنب النساء ؟

على أن هذه الجرأة التى جعلت اجتهادات عمر شجا فى حلق الفقهاء هى التى تثير فىنا الإعجاب وتدفعنا إلى الإقدام. وأن نقدى به فى الإقدام والاجتهاد لا أن نقلده فيما انتهى إليه بالفعل...

* * *

كان كل شئ يسير بالتوازن ما بين قطبي الدعوة والدولة، وفى إطار التوجيهات الإسلامية فالجيوش الإسلامية تنطلق كل يوم لتكسب أرضاً جديدة ولتنتصر فى موقعة جديدة، وعمر بن الخطاب يسير فى طرقات المدينة "بمرقعته ودرته" ويجلس مع كبار الصحابة ويضع النظم والترتيبات التى تكفل النظام لهذا التضخم الكبير والسياق الحثيث للأحداث..

ولكن كان هناك شئ ما يحيك فى نفس عمر.. شئ يثير فيه التوجس والخوف من المستقبل. فحتى هذه الفتوحات مع كل ما تعنيه من إعلاء لكلمة الإسلام، وإنقاذ الجماهير المستعبدة فى إيسار الحكم الطبقي والإمبراطورى.. كانت لها مضاعفاتها. فقد جاءت بأفواج تلو أفواج من "الموالى" حتى سدت طرقات المدينة، وجعلته يستعيز من سبى "جلولاء" كما كان خمس الغنائم يتكدس فى بيت المال. وقد جاءت الفتوح بسوارى

كسرى. وألبسهما عمر بن الخطاب بنفسه فى يدى سراقه تحقيقاً لوعده الرسول ﷺ وحصل "شويل"^(١٢) على أسيرته التى كانت عندما رآها غادة فاتتة.. وكان عمر يتساءل فى نفسه إلى أين ستنتهى هذه التطورات التى فتحت أمام الناس أبواباً مغلقة وعوالم مجهولة..

كان عمر قد أرسل الجنود ليكونوا رسل هداية وتعريف بالدين وإنقاذ للشعوب من الحكم الطبقي الجائر، ولكنه رأى هؤلاء الجنود وقد أتخموا بالغنائم.. فهل هذا نعمة أو هو نذير بخطر محيق... فى فترات كان يتمنى لو أن بينه وبين فارس سداً. ولم يكن يسعد بتوالى الفتوح. وقد رفض رفضاً باتاً أن يركب العرب البحر وينطلقوا عبر أمواجه بعد أن وصف عمرو بن العاص البحر له وأن الناس فيه "دود على عود".

ولم يسعد بانهمار الأموال على المدينة. بل إنه بكى عندما رأى أكداساً منها تلمع وتبرق ولما سئل كيف يبكى والمناسبة مناسبة شكر وسرور قال "والله ما أعطى الله هذا أقواماً إلا ألقى بأسهم بينهم" وجعلته هذه الثروات، وامتداد الفتوح يشك هل هو خليفة أم ملك - رغم كل ما كان يحذره وما كان يحرص عليه من اتباع العدالة بين الناس وأخذه نفسه وأهله بصور بالغة من التقشف فكان يقول "والله لا أدرى خليفة أنا أم ملك، فإن كنت ملكاً فإن هذا أمر عظيم.. فقال قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً قال ما هو قال الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس بالناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر ولم يكن فى هذا ما يطمئن هو اجسه ومخاوفه. وحكم بأن الدولة قد وصلت إلى أحد مفاصل التطور، أو كما قال هو "كالجمل البازل الذى لا يكون بعده إلا الضعف والتدهور".

كان يحس أن هناك أزمة تتجمع غيومها فى الأفق القريب وكان يقف بكل جهده حتى لا تتفاقم. ولكن لما كانت تعبيراً عن وصول المجتمع العربى إلى درجة من التطور لا تصلح معها سياسة "دولة المدينة" فقد ظل هاجس هذا التطور يقلقه، وكان يعلم أن كل ما يقوم به من متابعة ورقابة وملاحقة لعماله لا يكفى واعتزم أن يزور الأمصار مصرراً مصرراً ويقضى فى كل منها شهراً حتى يطمئن بنفسه على تحقيق العدالة "على الطبيعة" كما تبين أن طريقة أبى بكر فى تقسيم العطاء على أساس المساواة أفضل من تقسيمه على أساس الاستحقاق لأن الأخيرة أسفرت عن تضخم الثروات لدى البعض..

وكان من الإجراءات الحاسمة التى أراد بها أن يحول دون حدوث الفتنة احتجازه لسروات قريش ومشيخة الصحابة ووجوه الناس بالمدينة. وعدم السماح لهم بالانسياب إلى الأمصار لأنه كان متأكداً أن ذلك سيحدث فتنة هؤلاء بما فى الأمصار من مدينة ومتاع الخ... وفتنة أهل الأمصار بلقاء صحابة الرسول.. وقال "إن قريش يريدون أن يجعلوا مال الله دولة بينهم أما وابن الخطاب حى فلا. ألا وأنى قائم لهم بحرة المدينة فأخذ بحجزهم أن يتهافتوا فى النار..".

* * *

(١٢) يقولون إن رسول الله عندما ذكر أن المسلمين سيفتتحون الحيرة سأله أحد الجالسين ويدعى "شويل" أن يعطيه المسلمون كرامة بنت عبد المسيح وكان قد رآها فمال إليها فوعده الرسول بذلك فلما فتحت الحيرة على يد خالد بن الوليد، وكان شويل فى الفتح وشهد له شهود بوعد الرسول فتمسك خالد بتسليم كرامة فرفضوا، ولكنها قالت لهم "هونوا عليكم وأسلمونى فإنى سأفتدى نفسى فأخذها شويل، وكانت قد أصبحت عجوزاً فزهد فيها وعندما عرضت عليه ألف درهم سر وأطلقها وأخذ الألف. فقالوا له لو طلبت أكثر لأجابتك فقال والله ما كنت أظن أن هناك عدداً أكثر من الألف !!

الفصل الثالث

- ١ -

أول الوهن

كيف تحولت الأمور إلى النهاية التي بلغتها، وكيف وصل برزخ الخلافة الراشدة إلى النقطة الفاصلة التي خلف فيها وراءه رحمة الحكم النبوي ليدخل في نفق الملك العضوض ومقدماته..

لقد قلنا إن دولة المدينة كانت استثناءً من طبائع الأمور. وأنها ما قامت وازدهرت إلا بفضل العوامل الاستثنائية التي أشرنا إليها أكثر من مرة من التأسيس النبوي الذي كان النبي فيه رسولاً و "حكماً" بين الناس فيما شجر بينهم سواء كانوا مؤمنين أو مشركين أرادوا استئصال الإسلام وجر المؤمنين إلى القتال الذي كان كرها لهم، ولكن ليس منه مناص، بل إن التملص منه لا يعنى سوى سيادة الاستبداد وانتقاء حرية العقيدة.. ولا خير في مثل هذه الحياة.

وقاد الرسول هذه المعارك على غير طريقة القادة والملوك، فبعد أن فتحت المدينة بالقرآن - فتحت مكة بأهون الأسباب - ودخلها الرسول ساجداً على قتب بغيره شكراً لله وأعلن أنها أظلمت ساعة من نهار وآمن أهلها جميعاً ثم أعلن أنهم طلقاء..

وهذه "سياسة" ليست من سياسة الملوك فى شئ.. وتتناقض تناقضاً بينا مع موكب النصر الرومانى الذى يحتشد فيه الأسرى مكبلين بالأغلال وغنائم وأعلام المهزومين بينما يعتلى المنتصر مركبته ليرد على تحية الألوفا.

ثم جاء أبو بكر وعمر ولم يكن أحدهما رسولاً نبياً يرزق هداية الوحى ولكنهما ساراً فى ظل الرسول واقتنيا أثره.. وكل ما ابتدعه عمر كان من روح الإسلام وما يتفق معه. وكانا نابغين من طينة العظماء الذين يرفضون المديح والثناء ويسقطون عرض الدنيا من متاع أو لباس.. أو ثراء لأنهم سمعوا الرسول وهو يقول "تعس عبد الدينار.. تعس عبد القطيفة"..

وعندما يشرف على الأمر هؤلاء العباقرة المؤمنون فإن إيمان الناس يصفو وتتملكهم قوة الأسوة فيؤثرون الآخرة على الدنيا ويعفون عن المغامم وتستقيم طبيعتهم ويتغلبون بقوة الإيمان - على الضعف البشرى.. وعلى "الفجور" المغروس فى النفس البشرية.

ولكن إلى متى ...

إن محمداً بعد ليس إلا "رسولاً قد خلت من قبله الرسل" فكتب عليه الموت كما كتب على الناس جميعاً "إنك ميت وإنهم ميتون"..

ولحق به أبو بكر كما لحق به عمر ...

وكان من الطبيعى أن ينحسر مد الإيمان "وأن تنتهى قوته الدافعة ومناعته الحصينة عند الناس"..

إن السؤال الهام الذى يفوت الكتاب الإسلاميين الذين يتحدثون عن القوة الخارقة للإيمان هو: إلى أى وقت يستمر هذا الإيمان. وتستمر وقته ودفعته؟ ففى التجربة التى نحن بصددنا ظل هذا الإيمان ثلاثين عاماً ثم أخذت وقته ودفعته تفقدان قوتها شيئاً فشيئاً.

والقضية ليست هى أهمية الإيمان، فلا جدال فى أنه القوة التى تدفع الجماهير لعظائم الأعمال، كما يرفع الوقود الطائرة من الأرض إلى عنان السماء.. ونحن نؤمن بهذا ولكننا - بحكم الخبرة ومعرفة الطبيعة البشرية والسوابق التاريخية - نجزم أن الإيمان العظيم الذى يمثل القوة الدافعة ليس هو الدأب المستمر ولا هو الحال الطبيعى، ولا بد أن يأتى وقت - طال أو قصر - تنفد فيه القوة الدافعة وتنطفئ فيه الوقعة المشتعلة..

هذا ما يوجب علينا أن نضع هذا العامل فى حسابنا فنعمل على تجديد الإيمان وتزويده بوقود جديد. وفى الوقت نفسه فلا بد أن تكون توقعاتنا - فى المدى البعيد - فى حدود الإطار الطبيعى للنفس الإنسانية ولأصول المجتمع البشرى وما يحفل به من تعدييات وتيارات بحيث نستبعد الصورة الملائكية أو المثالية التى تقترن بالإيمان. إن هذه الصورة وإن كانت حقيقية ويمكن أن تظهر فى فترة ما، فإنها لا تستمر طويلاً، ولا بد أن تعود الأمور إلى سياقها الطبيعى..

* * *

ومن المحتمل أن لو كان عثمان فى مثل عبقرية عمر لمد فى عمر الخلافة الراشدة سنين عدداً. ولكن الذى حدث وجعل الانحسار حتماً مقضياً، هو أن عثمان كان نقيضاً لعمر فى كل شئ تقريباً. ومن ثم فإن سياساته أدت إلى انحسار الإيمان، وانحسار الإيمان أدى إلى اغتياله واغتياله فاقم الأمور وبدأت "الفتنة الكبرى" ..

والحقيقة أن عثمان لم يكن فحسب نقيضاً لعمر. بل إنه كان إيذاناً بالانتقال من "الموضوعية" التى كانت طابع الخلافة إلى الذاتية التى هى طابع الملك.. والتي كانت متأصلة فى بنى أمية كما سيلي. لأن عثمان رغم سابقته ومزاياه كان يحمل وراثته تجعل الذاتية فيه تغلب الموضوعية.

لإيضاح هذا نقول إن عامة الناس عندما يتركون لأنفسهم فإنهم يتصرفون تبعاً لما تهوى الأنفس. فيحبون الثراء والرغبة فى الامتلاك إلى درجة القناطرير المقنطرة من الذهب والفضة" ويؤثرون الاستمتاع ليس فحسب بطبيبات الحياة الدنيا، بل بكل ما يمكن أن تأتى به الدنيا من فنون وصور الاستمتاع إلى آخر مدى.. كذلك فإن النفس تهوى السيادة. وأن تأمر فتطاع وأن يتملقها الناس بالمديح والإطراء وأن تكون لها حرية فى العطاء والمنع والأخذ والرد. وعندما ترد أخيلة المجد على فرد ما فلكى تحمل اسمه أو أن يفتح من البلاد، ويقهر من العباد أكثر مما فعل غيره الخ ...

وما تركت النفس البشرية لطبعها فإنها تسلك هذا السبيل لأن الإنسان ضعيف أمام الإغراء خاصة وأن هناك شيطاناً مريداً يسرى من الإنسان مسرى الدم يدفع به إلى منازع الغواية ويزين له الشهوات.. فإذا كان تاجراً اشترى بأرخص الأسعار وباع بأغلاها. وإذا كان صانعاً استغل عرق العمال فأطال فى ساعات العمل وبخس الأجور. وإذا كان حاكماً استبد بالناس ونكل بالمعارضين واستحوز على الثروات، بل إنه

كرجل يستغل قوته فى إخضاع زوجته وأولاده، وهو لا يرفض أن يستثمر أمواله فى معاملات مشبوهة أو صناعات أسلحة مدمرة، أو مشروبات مسكرة. أو إشاعة لشهوات الجنس بالأفلام العارية الخ... ولا يمكن أن يغير هذا المسلك وأن يتجاوز ذاته إلا بفضل قوة خارج الذات الإنسانية، وأعظم من الذات الإنسانية وتتبلور فيها القيم والموضوعية وهى ما يقدمه الإيمان بالله تعالى. خالق هذا الكون وأصل القيم والإطلاق والتجريد الخ... ولما كان العقل البشرى أعجز من أن يأخذ عن الألوهية فكرة دقيقة، فإن الله تعالى أرسل رسله ليعرفوا البشر عليه بفضل شعاع بيدد الظلمات، وبذلك يمكن أن يتغير المسلك الذاتى بسوءاته إلى مسلك موضوعى يلحظ القيم ويتجاوز الذات ...

وحدث هذا بالنسبة للعرب بفضل الرسالة النبوية التى انتشلتهم من تقاليد الجاهلية الذاتية إلى آفاق الموضوعية الربانية وقيمها وبفضل هذا قامت ثورة الإسلام.. وظهرت دولة المدينة - تجربة فريدة فى التاريخ الإنسانى.

كان أمر قريش قبل بعثة الرسول ردحاً من الدهر يعود إلى قصى بن كلاب الذى هيمن على مكة والبيت وكانت إليه الحجابة "أن تكون مفاتيح البيت عنده، والسقاية (يعنى سقاية زمزم وكانوا يصنعون منها شراباً فى موسم الحج بعسل أو لبن) والرفادة "الطعام الذى يصنع لأهل الموسم) والندوة "دار الشورى" واللواء "أى القيادة فى الحرب" وعندما مات قصى برز من أبنائه عبد مناف. وولد لعبد مناف عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. فولى السقاية والرفادة هاشم دون أخويه عبد شمس والمطلب وروى أن عبد شمس وهاشم كانا تؤميين ملتصقين فصل بينهما بسلاح فقال العرافون إنه سيكون بينهما دم إلى الأبد! وقامت منافسة ما بين هاشم وعبد شمس رجحت فيها كفة هاشم من كافة الوجوه بحيث خصوا هاشم بالسقاية والرفادة دون عبد شمس.

ويموت هاشم فيرث ابنه عبد المطلب مناصبة دون عبد شمس. ويموت عبد شمس ليخلفه ابنه أمية..

وقامت منافسة حادة ما بين عبد المطلب وأمىة لأن الخلاف فى الطبائع جعل عبد المطلب يمثل "الموضوعية" وأمىة يمثل "الذاتية"..

ومع أن الصورة المثلى للموضوعية هى ما تأتى به الأديان عن الله تعالى فإن طبيعة عبد المطلب كان فيها كل خلائق وصفات "الموضوعية" الدينية ألا وهى قيم الخير والحب والسلام والإيثار والانطلاق من هذه القيم والعمل بها، وكأنما أراد الله تعالى لنبيه أن يرث هذه الطبيعة حتى يكللها الوحي عند محمد - حفيد عبد المطلب بحيث يصادف هذا الوحي الطبيعة المهيئة له.

وعلى نقىض هذه الطبيعة كانت طبيعة أمىة - الذاتية تمثل الأثرة وحب النفس والكسب والحرص على الدنيا والحكم على الأمور من هذه المنطلقات. ولهذا فلم يكن غريباً أن يشتغل معظمهم بالتجارة وأن يحصلوا على ثروات طائلة..

وحاول أمىة أن يفعل مثلما كان يفعل هاشم من إطعام بكرم وسخاء، وطبىبة نفس، وكان هاشم يقدم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر.. وعجز أمىة عن أن يماثل هاشم فى ضيافته لأنه كان يتكلفها وقامت "منافرة" بينهما أفضل يكون على الخاسر فيها أن يدفع خمسين ناقة سود الحدق لتتحرر، وأن يجلو عن

مكة عشر سنين وكان الحكم بينهما في هذه المتنازعة هو الكاهن الخزاعي بعسفان فحكم لهاشم على أمية. فأخذ هاشم الإبل فحررها وأطعم لحمها وخرج أمية إلى الشام..

هل كان خروج أمية إلى الشام حدثاً عارضاً. أو كان إيماء لما سيحدث لحفيده "معاوية" فيما بعد؟ أقام أمية بالشام عشر سنوات يغلب أنها دعمت طبيعته الذاتية وخلانقه المادية، والتجارية. وكانت الشام وقتئذ تحت حكم البيزنطيين.

وتكررت القصة مرة أخرى. فقد نافر حرب بين أمية عبد المطلب بن هاشم من أجل يهودى كان فى جوار عبد المطلب فما زال أمية يغرى به حتى قتل وأخذ ماله..

وظهر جلياً أن هذين الفرعين من عبد مناف يختلفان اختلافاً جذرياً فأمية يمثل الاتجاه الذاتى وهاشم يمثل الاتجاه الموضوعى.

فلما أعلن الرسول بعثته اشتدت عداوة أمية لبني هاشم لأنهم جاءوا بما لا يمكن أن يأتوا به وأغلق الطريق أمام أى احتمال لكى يلحق بنو أمية ببني هاشم فأحجج هذا العداوة القديمة، وقد كان من أبرز الأمويين المعادين للرسول أبو أحيحة سعيد بن العاص الذى هلك على شركه فى السنة الأولى للهجرة وعقبة بن أبى معيط الذى قتل فى بدر ومنهم الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى أسلم تقيّة - وسيكون له دور مشئوم فى أزمة عثمان وما تلاها - وطرده الرسول من المدينة فأطلق عليه "طريد رسول الله" ومنهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس الذى قتل ببدر وعتبة هذا هو أبو هند التى تزوجت أبا سفيان بن حرب. والتى مثلت بجسد حمزة فى أحد. إذ كان هو الذى قتل أباه فى بدر، وقد أمر الرسول بقتلها ولكنها أسلمت وبايعت الرسول متكررة. ومنهم الوليد بن عتبة بن ربيعة الذى قتل فى بدر قتله على بن أبى طالب وهو خال معاوية، ومنهم شيبه بن ربيعة بن عبد شمس عم هند وقتل ببدر، ومنهم أم جميل بنت حرب بن أمية التى أطلق عليها القرآن الكريم "حمالة الحطب" التى كانت تتشد الشعر فى ذم الرسول ومنهم معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية وهو الذى جدد أنف حمزة ثم لاذ بعثمان ليحميه من رسول الله فوهبه لعثمان على أن يغادر المدينة بعد ثلاث. ولكنه لم يخرج منها إلا رابع يوم فأدركه أسامة بن حارثه وعمار بن ياسر فقتلاه، ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحزاب وأحد. ولم يزل يجادل الرسول ويحاربه حتى أخذ الرسول يستعد لفتح مكة فجاء أبو سفيان ليتعرف الأخبار وكاد المسلمون أن يوقعوا به لولا أن حماه العباس لأنه كان صديقه وزميله فى الجاهلية. وعندما شاهد أبو سفيان الجيش الإسلامى وهو يسير إلى مكة قال للعباس لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً فقال له العباس. إنها النبوة... ولكن أبا سفيان كان يعود فيتحدث عن ملك ابن أخيه". وعرض عليه أن يسلم فشهد أن لا إله إلا الله.. ولما طلب منه أن يتم "محمدًا رسول الله" قال أما هذه فى النفس منها شئ فقل له آمن ويلك قبل أن تقتل.. فأمن..

من هنا يتضح أن عداوة بنى أمية لبني هاشم عريقة وأنها امتدت إلى عداوة الإسلام بحيث أصبح بنو هاشم يمثلون الإسلام وما فيه من موضوعية وبنو أمية يمثلون الدنيا وما فيها من ذاتية وأن هذا كان فى أصل العداوة التى عبر عنها الشاعر :

عبد شمس قد أضرمت لبنى **هاشم ناراً يشيب منها الوليد**
فابن حرب للمصطفى، وابن هند^(١٣) **لعلى، وللحسين يزيد**

* * *

من هذه الشجرة الدنيوية، الذاتية نشأ عثمان بن عفان لأنه بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ولكنه كان الاستثناء في حدود ما يمكن للاستثناء أن يسمح به فقد أسلم عن صدق وحب، وإن لم ينزع هذا الإيمان من نفسه حب الدنيا والاستمتاع بالحياة، واقتصرت مساهمته في نصر الإسلام على التبرع بالمال دون الجهاد، أو المشاركة في بناء الدعوة، والجهاد بالمال قد لا يقل عن الجهاد بالنفس وقد كانت الدعوة الناشئة في حاجة ماسة إلى الدعم المادى، وقد يلحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يقدم "الذين يجاهدون بأموالهم" على الذين "يجاهدون بأنفسهم". ومن ثم فإن الدعم المادى من عثمان كان له أثره وكان الرسول يعز عثمان معزة خاصة. وقد زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أختها أم كلثوم ومن ثم فقد يطلق عليه ذو النورين، وكان عثمان وديعاً، حيباً، ولعله ورث بعض خلائقه الأريحية والكرم من جدته - أم أمه وهى أروى البيضاء بنت عبد المطلب.

لهذا كله كان عثمان شخصية محببة بين الصحابة ...

عندما طعن عمر بن الخطاب وهو يتهيأ لصلاة الفجر، كان أول ما حرص عليه المسلمون هو أن تقام الصلاة. فأقيمت الصلاة وأديت بأقصر آيتين فى القرآن بينما كان الخليفة المطعون ينزف دما وكان الشيء الثانى عندما استبان للجميع أن عمر سترك هذه الحياة الدنيا هى الاستخلاف. فقالوا له استخلف ونصحته عائشة عندما أرسل إليها ليستأذنها فى أن يدفن بجوار صاحبيه فى حجرتها فأذنت له وقالت لرسوله، قل له أن يستخلف ولا يدع أمة محمد ضياعاً ولما أكثر الناس قال إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى أى أبو بكر الصديق وإن لم أستخلف فلم يستخلف من هو أفضل منى (أى الرسول) ورأى أن يخرج من هذه المسئولية الضخمة وحتى لا تتكرر محنة سقيفة بنى ساعدة التى عاشها وقال عنها إنها كانت فلتته. ارتأى وهو وجود بنفسه أن يدع الأمر بين يدي ستة من الصحابة تركهم الرسول وهو راض عنهم هم على عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير..

قد لا يكون هذا الرأى أفضل الآراء. ولكن علينا أن نلحظ أن عمر أتخذه بعد أن طعن ودمه ينزف ولم يكن هناك وقت لاتخاذ إجراء آخر. ولعله فى ظرفه هذا كان أفضل ما يتصور، وقد وضع تعليماته فى هذا الوقت الحرج كأفضل ما تكون.. فأمرهم بالتشاور ثلاثة أيام. وأمر أبا طلحة أن يجلس مع خمسين من الأنصار لمراقبة العملية وقال إذا ارتضى الخمسة شخصاً ورفضه السادس فاقتلوه.. فإذا تقاسمت الآراء ما بين ثلاثة وثلاثة فيؤخذ رأى عبد الله بن عمر وليس له من الأمر غير ذلك..

واتضح أن كل واحد من الخمسة (لم يكن طلحة موجوداً وقتئذ) كان حريصاً على أن تكون له الولاية. وعجب أبو طلحة الذى أمره عمر بحراسة المجموعة لأنه كان يتصور أنهم سيتدافعونها - أى سيدفع كل واحد منهم بالولاية إلى الآخر ورعاً وإيثاراً.. فإذا بهم يتدافعون عليها أى يريدونها كل واحد لنفسه. ودرءاً

(١٣) ابن حرب هو أبو سفيان وابن هند هو معاوية.

لهذا الخلاف أعلن عبد الرحمن بن عوف أنه يعزل نفسه عنها إذا ترك له الباكون القيام بالمهمة. فقبلوا فقال لهم عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاث منكم فجعل الزبير أمره إلى علي وجعل طلحة أمره إلى عثمان وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف. قال المسور بن مخرمة فقال لهم عبد الرحمن كونوا مكانكم حتى آتيكم وخرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة مثلثاً لا يعرفه أحد فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاتهم إلا سألهم واستشارهم أما أهل الرأي فأتاهم مستشيراً وتلقى غيرهم سائلاً يقول: من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يبق أحداً يستشيريه ولا يسأله إلا ويقول عثمان فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان قال المسور جاعني عثمان رضى الله عنه عشاء فوجدني نائماً فخرجت إليه فقال: لا أراك نائماً فوالله ما اكتحلت عيني بنوم منذ هذه الثلاثة ادع لى فلانا وفلانا (نفرأ من المهاجرين) فدعوتهم فناجاهم فى المسجد طويلاً ثم قاموا من عنده فخرجوا ثم دعا علياً فناجاه طويلاً ثم قام من عنده على طمع ثم قال ادع لى عثمان فدعوته فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما أن أتت صلاة الصبح فلما صلوا جميعهم فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق لئن بايعتك لتقيم كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبك من قبلك فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك وأيضاً لئن بايعت غيرك لترضين ولتسلمن وليكونن سيفك معى على من أبى فأعطوه ذلك من عهودهم وموائيقهم فلما تم ذلك أخذ بيد عثمان فقال له عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيم لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبك وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس فقال عثمان نعم ثم أخذ بيد علي فقال له: أبايك على شرط عمر أن لا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس. فقال على عند ذلك مالك ولهذا إذا جعلتها فى عنقى فإن الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها كان فى بنى هاشم أو غيرهم. قال عبد الرحمن: لا والله حتى تعطينى هذا الشرط قال على والله لا أعطيكه أبداً فتركه فقاموا من عنده فخرج عبد الرحمن إلى المسجد فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعل يا على سبيلاً إلى نفسك فإنه السيف لا غير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعاً.

وتورد بعض المصادر - كالبداية والنهاية - القصة فتقول :

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يستشير الناس فيهما (أى فى على وعثمان) ويجمع رأى المسلمين برأى رؤوس الناس وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى، ومجتمعين سراً وجهرأ حتى خلص إلى النساء المخدرات فى حجابهن، وحتى سأل الولدان فى المكاتب وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، فى مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد اثنين يختلفان فى تقدم عثمان بن عفان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشارأ بعلى بن أبى طالب، ثم بايعا مع الناس على ما سنذكره، فسعى فى ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير من نوم إلا صلاة ودعاءً واستخارة، وسؤالاً من ذوى رأى عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضى الله عنه، فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة فقال: أنائم يا مسور؟ والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث، اذهب فادع لى علياً وعثمان قال المسور: فقلت بأيهما بدأ؟ فقال بأيهما شئت، قال فذهبت إلى على فقلت أجب خالى فقال أمرك أن تدعو معى أحداً؟ قلت: نعم! قال: من؟ قلت: عثمان بن عفان، قال: بأينا بدأ؟ قلت لم يأمرنى بذلك، بل قال أدعو لى أيهما شئت أولاً، فجننت إليك قال فخرج معى فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس على حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر، فقال لى كما قال لى على

سواء، ثم خرج فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي، فلما انصرف أقبل على عليّ وعثمان فقال إني قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمه رسول الله ﷺ وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس عامة الصلاة جامعة، فامتلاً المسجد حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس إلا في أخريات الناس - وكان رجلاً حياً رضى الله عنه - ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاء طويلاً، لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال: أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً بأمانيتكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما على وإما عثمان فقم إلى يا علي، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال فأرسل يده وقال: قم إلى يا عثمان فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم! قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم أنى قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبته عثمان. قال وازدحم الناس يبائعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، قال فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبائعونه، وبايعه على بن أبي طالب أولاً " انتهى.

هل كان هذا الإطناب في إظهار الإجماع على عثمان إرزازاً لحقيقة أن قريش كانت قد ملت صرامة عمر وتاقت لسماحة عثمان.. أو أريد به إخفاء حقيقة أن الأنصار كانوا في مجموعهم يؤثرون علياً وهل تملك عبد الرحمن بن عوف نزعة نفسية كامنة لم يتبينها دفعته لأن يبائع عثمان. وهل كان الاشتراط بعمل الشيخين تحوطاً أدى إلى عكسه.. فالذي تعهد به ولم يعمل به والذي رفضه طبقه عندما وسد الأمر إليه، لا يمكن أن نقم أنفسنا في السرائر، ولكننا نرى أن الفرسان الثلاثة الذين آل إليهم الأمد في هذا المنعطف الخطير من تطور الأحداث قد اخطأوا.

أخطأ عبد الرحمن بن عوف لأنه وهو التاجر المرهف الحس الذي يتعرف على أعماق شخصيات الناس بحاسته التجارية عندما قبل من عثمان التعهد بالحكم بسيرة الشيخين. كان لابد أن ينتهي إلى أنه إذا كانت القضية - كما عرضها الحكم بسيرة الشيخين - فإن عثمان لا يستطيع الحكم وكان يجب أن يُستبعد.

وأخطأ عثمان حين قبل وتعهد بالعمل بسيرة الشيخين وهو يعلم من نفسه أنه لا يطيق سيرة عمر وكان يجب أن يكون أميناً مع الحقيقة.

وأخطأ على حين جعل هذه النقطة مناسلاً للقبول أو الرفض لأنه يعلم أنه سيسير بسيرة عمر، وربما يفوقه، وكان عليه أن يقبل لأنه الأحق...

ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

تلك كانت "فلته" أخرى بعد "فلته" السقيفة. ولم يخلص منها المسلمون بالتوفيق كما خلصوا من الأولى لأن الإمام على كان بكل المقاييس أصلح من عثمان. وقد تعللوا عندما جاوزه أبو بكر أن أبا بكر يمثل مشيخة قريش، أما هو فشاب "وإن يطل بك عمر فلن تفوتك" وقد طال به العمر واكتسب خبرة وحكمة وكان نعم

المستشار للشيخين فكان بها جديراً وهو ما اعترف به عمر نفسه وقال "لو ولوا الأجلح لسار بهم على الجادة" وعندما سئل وما يمنعك من استخلافه قال كرهت أن أحمل هذا الأمر ...

كان خطأً تاريخياً، وإليه تعود كل الخلافات والانشقاقات والحروب.. وهو مثال نادر يوضح لنا كيف أن الخطأ في قرار يمكن أن يغير مصائر أمة

* * *

كانت السنوات الست الأولى من خلافة عثمان كما يقول ابن قتيبه في الإمامة والخلافة من أسعد السنوات التي عرفها المسلمون الذين أخذهم عمر بالشدة حتى ملوه وملهم فجاء عثمان ليبدأ عهد "الاسترخاء" والراحة ...

روى ابن قتيبه عن الحسن البصرى قال شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت اللحم فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهها ولا أحسن نضرة منه فسمعتة يقول أيها الناس اغدوا على أعطيائكم فيأخذونها وافية، أيها الناس اغدوا على كسوتكم فيغدون فيجاء بالحلل فنقسم بينهم حتى والله سمعت أذناى يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل ثم يقول يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره والعدوان والله منفى والأعطيات دارة والخير كثير وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا من لقي فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره ومؤدبه فلم يزل المال متوافراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقا وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف ثم أنكر الناس على عثمان أشياء شراً وبطراً. قال ابن عمر لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه.

الحقيقة أن عثمان رحمه الله غير وبدل، وسلك مسلكاً يختلف عن مسلك الشيخين، وقد كان الخوف الذى يملك عمر إزاء تولية عثمان أو على أن يحمل أحدهما الناس على رقاب شيعته. بمعنى أن يخص عثمان المناصب ببني أمية، وأن يخص بها على بنى هاشم. وهذا ما وقع بالفعل من عثمان، بل ومن على أيضاً فى إحدى فترات حكمه.

وكان عثمان بطبيعته وديعاً سمحاً سهلاً وعندما ولى الخلافة كان قد بلغ من العمر عتياً وعجز عن أن يقوم بنفسه بمسئوليات هذه الخلافة المتشعبة فاستعان بلفيف من آله مثلوا "الحاشية" وكانوا جميعاً من بنى أمية، ومن أسوأ عناصرها. وكان أبرزهم مروان بن الحكم وأفسد مروان على عثمان أمره واستبد بالأمر دونه^(١٤).

(١٤) إنصافاً لعثمان رضى الله عنه نقول إنه وإن لم يسر على سنة الشيخين، فإن الله تعالى رعاية لسبقه فى الإسلام وما قدمه فى أيامه الأولى أدخر له مآثرة عظيمة وفريدة قدم بها للإسلام خدمة جلى لم يقم بها أبو بكر أو عمر تلك هى أنه جمع القرآن مما كان قد دون عليه من عظم، أو رقى، أو خشب، أو صدور الرجال، ووجد القراءة ووضع فى ترتيبه المؤلف بحيث ظهر المصحف المعتمد المقرر الذى استبعد ما كان بعض الصحابة قد ضمنوه - من قبيل الشرح - أو كتبوه بلهجة قبائلهم - وبهذا العمل العظيم وقى المسلمين فتنة من أعظم الفتن التى حاقت بالأديان السابقة. وكفل للمسلمين ظهور القرآن كما أنزل الله - رغم الأقاويل والتخرصات.

وتلك لعمرى، مآثرة تجعل منزلة عثمان لا تقل عن صاحبيه، حتى وإن قصر عنهما فى ممارسة فنون الحكم.

ولكن أهم من هذا أن دفعة الإيمان كانت قد انحسرت وعادت النفوس إلى طبائعها دون أن تجد تلك القوة التي تكبح التطلعات. وكانت الجماهير في عهد أبي بكر وعمر حديثة عهد بالرسول وكانت الأسوة به تدرأ عنهم كثيراً من الشرور، وكان أبو بكر وعمر نابغين.. فلما أتى عثمان وقد بعد العهد عن الرسول ولم يكن فيه شئ من نبوغ الشيخين كان لا بد أن تبدأ غمرات الدنيا. وفاقم في تطور الأمور واقعة تثير الذهول فالدولة التي كانت جيوشها تحارب في فارس وأفريقيا وتكتسب انتصارات مدوية، لم يكن لها جيش في المدينة - العاصمة - يشبه الحرس الجمهوري، أو الحرس الملكي في مختلف الدول أو الحرس البريتوري في روما، ولو كان هذا الحرس موجوداً لما جرؤت فلول من الناس على مقام الخلافة وقد رفض عثمان ما عرضه عليه معاوية من أن يرسل له أربعة آلاف من جند الشام لحمايته قائلاً "أرزق أربعة آلاف من بيت مال المسلمين لحرز دمي". وهذه الواقعة لفتة تبرز أن دولة المدينة لم تكن نمطاً فريداً أيام الرسول فحسب، بل إنها احتفظت ببعض خصوصياتها طوال الخلفاء الأربعة.

إن افتقاد التتهيج الذي أغفل أن يكون لعاصمة الدولة حرسها أغفل أيضاً وضع أية صورة من صور الشورى المنظمة ولو وجدت لما أخذت أزمة عثمان شكلها العشوائي ولما تطورت إلى ما انتهت إليه، وهو نقص لا يمكن أن يفهم من شخصية إدارية مثل عمر بن الخطاب إلا بغلبة وهيمنة فكرة دولة الدعوة على فكرة دولة السياسة، وكان كافياً في دولة الدعوة أسلوب الشورى الذي اتبعه أبو بكر وعمر. لأن التركيز لم يكن على الدولة ككيان خاص له وجوده المستقل، وما يتطلبه هذا الوجود المستقل من آليات وضوابط وأجهزة الخ... قدر ما كان على قيام الدولة بالدعوة سواء في الخارج أو الداخل، ويحتمل وجود عزوف لا شعوري في نفس عمر بن الخطاب عن إقامة دولة "كسروية" أو "قيصرية" تكتسب قوتها على حساب تلقائية الشعب، وهو النمط الذي كانت الجيوش الإسلامية تحاربه وتسقطه. وليس هذا تبريراً لأنه يعد من وجوه النقص التي فانتت على عباقرة الدولة الإسلامية، ولكنه تصوير للحالة النفسية لهؤلاء العباقرة. وكيف أنها جعلتهم رسلاً لدعوة وليسوا بناة لإمبراطورية.. ولو وضع عمر مجلساً استشارياً يلحظ فيه المهاجرين والأنصار وبقية العرب لتغير الحال بالطبع.

ومما يثير الدهشة هو تشرذم كبار الصحابة إزاء هذه التطورات الخطيرة التي جعلت مجموعات الثوار تحاصر بيت عثمان وتمنع عنه الماء وكان يمكن لو انتظموا أن يقهروا المتآمرين.. وأن يلزموا عثمان تصحيح أخطائه بصورة حاسمة، خاصة وأنه إنما اكتسب البيعة على أساس العمل بسنة الشيخين. ولو دعاهم عبد الرحمن بن عوف لما تخاذلوا. ولكن يبدو أن وهن الإيمان الذي تطرق إلى نفوس هؤلاء القادة عجز عن صهر الطبيعة الفردية كما حدث أيام الرسول، فعادت مرة أخرى.

- ٢ -

الفتنة الكبرى

نتيجة لهذه العوامل كلها، أعنى.. أخطاء عثمان الفادحة وضعفه واستسلامه لحاشية السوء. وتشرذم كبار الصحابة ومشيختهم وانتشار الفتن والدسائس بين الدهماء والغوغاء.. كل هذا سمح بحصار عثمان، ومنع الماء عنه، ثم التسور على المنزل وقتل عثمان وهو جالس يقرأ في مصحفه تحوط به نساؤه وتدفع عنه زوجته نائلة بنت الفرافصة حتى قطعت أصابعها.. ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد، بل تمنع الصلاة عليه

ودفنه فى البقيع، حتى حملة بعضهم على لوح خشبى وساروا فى ظلمات الليل، ومعهم ابنته عائشة تحمل مصباحاً فى حق حتى أتوا به جسر كوكب حفروا له حفرة فدفنوه ولم يلحدوا وحفوا عليه التراب وكان بعض الخوارج يريدون رجمه ودفنه فى مقابر اليهود بدير سلع.

هذا المشهد المروع الذى ما كان يخطر بالبال كشف عن هشاشته بناء دولة المدينة قدر ما كشف عن استئراء الفوضى، وانطلاق الأهواء وفساد النفوس وبدء الفتن التى وصفها حديث نبوى "كقطع الليل المظلم مشتبهات لا تعرف أياً من أى".

فلم يسبق أن ساقتهم الأحداث إلى هذه النهاية، ولا يقاس بها ما تعرضت له وحدة المسلمين فى سجال سقيفة بنى ساعدة، ولم يقتل عمر مسلم يمكن أن يحاجه أمام الله بكلمة لا إله إلا الله أو بصلوات أداها، كما كان عمر يقول، فقد قتله مجوسى من الموالى. أما قتل عثمان فشىء شنيع، فظيع إنها الفتنة التى تفتح باب الفتن لا تعرف أياً من أين. إنها الفتنة الكبرى.. أو هى الباب الذى انفتح لهذه الفتنة.

وجد الجميع أنفسهم فى خضم هذه الفتن لا يعلمون كيف يخلصون وبوجه خاص الذين أرادوا الخلاص من ورطتهم بقتل عثمان إلا مبايعة الإمام على. فهو الوحيد الذى يتمتع بثقة الجميع، ولكن الإمام على لم يكن بالغفلة التى يقبل فيها بيعة هؤلاء وقال لهم إن الأمر ليس لهم ولكنه للمهاجرين والأنصار. ولا بد أن يتم فى المسجد وبعد إجماع الناس.

وتمت بيعة على فى هذا الجو المضطرب. وقد تغيب بعض الصحابة كما لم تصل بعد بيعة الأمصار. الكوفة والبصرة ومصر والشام الخ ...

هل كان من الممكن أن يتتحن الإمام على ويرفض البيعة كما نصحه بذلك فى بعض الروايات ابنه الحسن؟ إنه ما كان يستطيع، لأن هذا وإن كان سينفذه فإنه سيشتيع الفوضى. فلم يكن مناص من أن يتقدم حتى ولو اعتبروه كبش الفداء..

وما إن تقبل البيعة حتى ظهرت القضية الشاغلة قضية دم عثمان والاقتصاص من قتلته. وكيف يمكن الاقتصاص من القتل وهم يحكمون المدينة. وقد ظلت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب وهو من الذين اشتركوا فى قتل عثمان.. لم يكن من الممكن ولا المعقول إثارة هذه القضية. وكانت إثارتها لا تعنى سوى إثارة فتنة أعظم.

ولكن الشيطان كان قد استحوذ على الناس ونسوا الله فأنساهم أنفسهم. وذهبت بشاشة الإيمان وحل محلها لدد الخصومة..

وتطورت الأمور، فقد رفض معاوية البيعة لعلى وحانت له أخيراً الفرصة التى طال ترقبه لها بعد أن خدع عمر بن الخطاب "خدعة أريب" وترك عثمان يلقى مصيره ثم انبرى يطالب بدمه والقصاص من قتلته. ووضع قميص عثمان المخضب بالدم وأنامل نائلة زوجته التى قطعت وهى تدافع عنه" على منبر دمشق فعزم على بن أبى طالب أن يقا تل بمن أطاعوه من عسوه، وأولهم معاوية وجهاز الجيش واستعد للخروج إلى الشام وعندما علم بخروج طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين عائشة إلى البصرة، غير اتجاهه وفى الوقت نفسه فإن عامل على على البصرة عثمان بن حنيف اتخذ أهيبته لمقاومة عائشة ومن معها حتى يأتيه أمر على، وقد استنكر كثيرون خروج عائشة، ولكن عائشة "أم المؤمنين" وعثمان وعلى أبناء لها وقد رأ ت أن من حقها أن

لا يضيع دم أحد أبنائها هدرًا وإن كنا نتصور أنها أرادت الإصلاح بين الفريقين وأنها وهى من أكبر رواه الحديث لا بد أن سمعت الرسول وهو يتحدث عن "إصلاح ذات البين وأنه أفضل من الصلاة والزكاة لأن فساد ذات البين هى الحالقة. ويروى لنا بن كثير فى البداية والنهاية أن الحسن تقدم إلى أبيه بنصيحة رفضها، كما كان قد تقدم إليه من قبل فرفضها أيضاً فقد نصحه عندما حاصر عثمان أن يترك المدينة حتى لا يقتل وهو بها. وأن لا يبايع بعد قتله حتى يبعث إليه أهل كل مصر ببيعهم، وأن يجلس فى بيته عندما خرجت عائشة وطلحة والزبير حتى يصطلحوا ورد عليه أبوه "أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان فقد أحيط بنا كما أحيط به. وأما مبايعتى قبل مجيء بيعة الأمصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه فتريد منى أن أكون كالضبع التى يحاط بها ويقال ليست ها هنا حتى يشق من عرقوبها فتخرج فإذا لم أنظر فيما يلزمنى فى هذا الأمر ويعينى فمن ينظر منه. فكف عنى يا بنى" ولم يكن من السهل أن تتلاقى سيوف المسلمين ويضرب بعضهم رقاب بعض فكثرت الرسل وأرسل على القعقاع بن عمرو فى سفارة ناجحة اتفق فيها مع طلحة والزبير وعائشة على تسكين الأمر والمصالحة فاطمأنت النفوس واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين وبات الناس بخير ليلة وبات قتلة عثمان بشر ليلة يتشاورون وأجمعوا أن يثيروا الحرب من الغلس. فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفى رجل فهجموا على جيش على فقام الناس من منامهم إلى السلاح كل يظن الآخر قد غدر به وقامت الحرب على قدم وساق وكان مع على قرابة عشرين ألفاً. ومع طلحة والزبير وعائشة قرابة ثلاثة ألفاً (البداية والنهاية ص ٢٣٩ ج٧) وجاء كعب بن ثور قاضى البصرة فقال "يا أم المؤمنين أدركى الناس لعل الله أن يصلح بك بين الناس. فجلست فى هودجها وناولته مصحفاً وقالت ادعهم إليه فلما تقدم به استقبله قتلة عثمان فى جيش الكوفة بالنبال فقتلوه واحتدم القتال حول هودج عائشة.. وما أكثر الأيدي التى قطعت وهى تمسك بذمامه أو تدفع عنه.. وعندما أخذ بزمامه عبد الله بن الزبير، وهو ابن أخت عائشة قالت عائشة "واثكل أسماء! حتى ارتفعت الصيحة "اعقروا الجمل" فعقروه فخر وسمع له عجيج "ما سمع أشد وأنفذ منه".

هذه موقعة الجمل لم تفارق ذكراها الحزينة الممضة عائشة فكانت تبكى حتى يبئل خمارها وضمت الأتقياء البررة مثل محمد بن طلحة المعروف بالسجاد الذى انخرط فى الجيش دفاعاً عن أم المؤمنين وكان يتقدم الصفوف وهو يقرأ "حم لا ينصرون" فطعنه بعضهم بحربة فأرداه.. وقال :

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللقم
يذكرنى حم والرمح شاجر فهلا تلاحم قبل التقدم
على غير شئ غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم

كما ضمت قرما الفروسية والسلطة.. عبد الله بن الزبير ومالك الأشتر اللذين تبارزا كفحليين - وتبادلاً الطعنات ثم اعتنقا وسقطا على الأرض فصاح عبد الله بن الزبير.

اقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكا معى ...

وفى ساحة المعركة كان طلحة - طلحة الطلحات - معفراً فى التراب.. وغير بعيد عنه الزبير بن العوام مسجى على الثرى..

ضمت معركة الجمل الأبياء والأبناء كما فى طلحة وابنه والزبير وابنه كما ضمت أم المؤمنين، وابن عم الرسول على بن أبى طالب... الجميع يقاتل بعضهم بعضاً..

وضمت عمار بن ياسر بن أول شهيد وشهيدة فى الإسلام وهو وقتئذ فى التسعين من عمره يخز الزبير بن العوام بالرمح والزبير لا يفعل شيئاً له فقد كان من المعروف أن الرسول قال لعمار "تقتلك الفئة الباغية" وما كان الزبير يقبل أن يكون من الفئة الباغية. وأجل قتل عمار إلى صفين وعندما قتل وارتاع عمرو بن العاص نفسه وهو يسوق النبأ إلى معاوية قال هذا بهدوء "أنحن قتلناه.. إنما قتله من أخرجه!!"..
هذا هو منطق السياسة وتحريفها للأمور ...

ومع كل ما حفلت به معركة الجمل من هول، وما أدت إليه من مقتل مشيخة المهاجرين، فإنها لم تكن إلا "بروفة" أو مناورة إذا قيست بمعركة صفين الرهيبة عندما نهد الجيشان العظيمان اللذان هما كل جند الإسلام كأنهما بحرين متلاطمين اصطبغت مياههما بحمرة الدماء..

وكادت الهزيمة تلحق بمعاوية ولكن عمرو بن العاص أنقذه بمشورته البارعة أن يرفع المصاحف على الرماح ويصيحون "تعالوا إلى كتاب الله" "بيننا وبينكم كتاب الله".

كانت خدعة بارعة. وكان أول من فطن لها على بن أبى طالب لأنه عرف أمية أطفالاً ورجالاً فكانوا شر أطفال وكانوا شر رجال وما كانوا بالذين يريدون النزول على ما أمر الله وإنما أن يضيعوا عليه النصر الوشيك

ومع هذا.. فإن نجاح مكيدة رفع المصاحف على الرماح فى إيقاف المعركة وإنقاذها ولو جندياً واحداً من معسكر معاوية أو معسكر على أفلا يكون ذلك أفضل من مواصلة القتال ؟.

* * *

كان التحكيم هو بداية النهاية لعهد على بن أبى طالب.

فقد آمن على بأن الحل الحاسم هو القضاء على الفتنة ولو أدى إلى القتل.. وكان له شاهد من القرآن الكريم "والفتنة أشد من القتل" ..

ولكن أى قتل يا ربى؟ قتل أهل بدر الذين قال فيهم الرسول "إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم" و "وما أدراك لعل الله أطلع على أفئدة أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم" قتل فرسان المسلمين وذخيرة المجتمع الإسلامى فى مواجهة أعداء الإسلام.

كان بين حق على.. وباطل معاوية نهر من الدماء.. فهل كان عليه أن يدفع هذا الثمن الباهظ..

هل الوصول إلى الحق بقتل الآخر هو الطريقة الأمثل لتحقيق الحق ..؟.

هل كان الحسن بن على أدق فهما وأبعد نظراً من أبيه عندما رفض مواصلة حرب معاوية، رغم استفزاز اتباعه له إلى حد طعنه، وأنه كان لديه جيشاً جراراً على رأسهم القائد الصلب قيس بن سعد بن

عبادة، ورغم تعبير أصحابه له "قائلاً العار خير من النار، لست بمذل المؤمنين، ولكنى كرهت أن أقتلكم على الملك"^(١٥).

لقد رأى الحسن القتل لقاء الملك فعزف عنه ولكن أباه رأى الشهادة في سبيل الخلافة فخاض فيها.
تلك قضية تفاوتت فيها الاجتهادات والتأويلات...

* * *

واجتمع الحكمان.. كما اجتمع المسلمون وكفار قريش في الحديبية..
 وواصل عمرو بن العاص خداعه.. فادعى الاتفاق مع أبي موسى الأشعري وقدم أبا موسى ليعلن
 خلع على ومعاوية، وعندما جاء الدور على عمرو قال إنه يخلع عليا ويثبت معاوية..
 قال أبو موسى لعمرو.. مالك عليك لعنة الله ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث فرد عمرو بن العاص
 ولكنك مثل الحمار يحمل أسفراً (الإمامة والسياسة لابن قتيبة)..
 هذان صاحبا رسول الله وقد اضطرهما الخلاف إلى مثل هذا الموقف
 لقد وصف الموقف شاعرنا العظيم شوقي الذي ابتدع تعبير "الفتنة الكبرى" قبل طه حسين بوقت
 طويل ...

**أسمعت بالحكمين في الإسلام يوم الجندل؟
في الفتنة الكبرى ولولا حكمة لم تشعل
رضى الصحابة يوم ذلك بالكتاب المنزل
وهم المصايح الرواة عن النبي المرسل
قالوا الكتاب وقام كل مفسر ومؤول
حتى إذا وسعت معاوية.. وضاق بها على
رجعوا لظلم كالطباع في النفوس مؤصل
نزلوا على حكم القوى وعند رأى الأحيل**

كانت النهاية تقترب بسرعة ...

من ناحية كان على بن أبي طالب يؤمن بضرورة حسم فتنة معاوية وفتنة الخوارج ولو بالسيف..
ولم يكن سعيداً بهذا الحل. وقد تملكه الأسى وهو يشهد طلحة معفراً بالتراب وقال "رحمة الله عليك
أبا محمد، يعز علي أن أراك مجدلاً تحت نجوم السماء إلى الله أشكو عجري وبجري والله لوددت أنى كنت

(١٥) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - ط
القاهرة ١٩٥٥ ص ١٣٥.

مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً" وتملكه الحزن الممض لما يسيل من الدماء ولكنه مع هذا كله لم يجد مناصاً من مقاتلتهم للعودة إلى الجماعة... كان يقاتلهم.. ثم يصلى على القتلى ويدعو لهم!.

كان يريد - بجذع الأنف - إعادة الخلافة الراشدة وظل مصراً على هذا متمسكاً به.

وأمضى الجزء الآخر من حياته معذباً، فلا أصحابه يستجيبون له ولا هو يقبل الدنيا.. وتمنى الموت.. وما أكثر ما كان يقول "ما يحبس أشقاها" فقد تنبأ الرسول بأن سينبعث أشقاها فيخضب لحيته بدماء رأسه..

من ناحية ثانية كان التطور قد قال كلمته.. لقد فسد الناس ونفدت دفعة الإيمان.. ووهنت قوته بحيث انتصرت عليه الأطماع والأهواء والذاتية فى أسوأ صورها..

كان لابد من حل.. لابد من أن يوجد من يضع النهاية ويسدل الستار ويثبت استحالة عودة الخلافة الراشدة ...

وكان الرجل الذى ادّخره القدر لهذه المهمة الحزينة هو عبد الرحمن بن ملجم..

فقد اجتمع ثلاثة من الخوارج وتواعدوا على قتل الثلاثة الذين رأوا أنهم سبب كل هذه الكوارث. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم بقتل على. وتعهد البرك بقتل معاوية وتعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص واتعدوا فجر يوم السابع عشر من رمضان من عام ٣٩ هجرية

لم تكن مصادفة أن لم يقتل من هؤلاء الثلاثة إلا على بن أبى طالب.

فقد جرح معاوية جرحاً طفيفاً ولم يصب عمرو بسوء لأنه لم يخرج للصلاة هذا اليوم وأتاب عنه خارجه فقتل. وذهبت أدراج الرياح أمنية الشاعر.

فليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

إن هذا لم يكن ممكناً ...

كان لابد من أن يموت على ابن أبى طالب حتى تنتهى محاولة استعادة نمط من الحكم لا يطيقه التطور ...

لقد انتهت الخلافة الراشدة مع مقتل عمر بن الخطاب ودفنت مع مقتل على وإنفسح المجال للملك العضوض ...

ولكن هذا لا يعنى أن الخلافة الراشدة لم تخلف أثراً.

إنها - والحكم النبوى قبلها - وضعت الأسس الجوهرية فى كل حكم رشيد: انتخاب الحاكم من قبل الشعب. أن يكون الحكم بالقرآن أن يكون للشعب حق مراقبة الحاكم ومساءلته وإقالته..

إن دولة تحقق هذا، تطبق الأصول الإسلامية فى الحكم...

وليس من المفارقة أن لا تحمل هذه الدولة مع هذا اللافتة الإسلامية، أو تدعى أنها تطبق حكم الله..

إنها - ببساطة تطبيق أمراً نبوياً أوصى به الرسول حد ولاته. إذا حاصروا حصنا وأرادوه أن يعطيهم ذمة الله وذمة رسوله أن لا يفعل. وإنما يعطيهم ذمته وذمة أصحابه لأن من المحتمل أن يخطئ فيحمل ذمة الله ورسوله ما ليس فيها...

* * *

- ٣ -

نهاية الخلافة الراشدة

لم تقتل طعنات هذا الأسير المجوسي أبو لؤلؤة شخص عمر بن الخطاب فحسب، ولكنها في الحقيقة أنهت حقبة باهرة من أكثر حقب التاريخ الاجتماعى والسياسى إشراقاً وقرباً إلى الكمال. وما كان أحق مصرع عمر بن الخطاب بأبيات الشاعر :

وما كان قيس هللكه هلك واحد.. ولكنه بنيان قوم تهدما

وفى المرويات التى تنسب إلى الرسول أو إلى الصحابة أحاديث تصور هذا المعنى، أو تتحدث عن الخلافة الراشدة ونهايتها ونحن نتقبل هذه المرويات لا باعتبارها أحاديث قالها الرسول بالفعل حتى لو كان سندها قويا ويصعد بها إلى درجة الصحيح، لأننا نعلم أنه ليس هناك أهون من "فبركة" سند يدق على دهاقين "الجرح والتعديل" لأن قواعدهم نفسها تكاد تجيزه أو تسمح به، ولأن نزعة التسامح خاصة فى الرقائق أو المعجزات الخ... جعلتهم يتقبلون الكثير مما جاء فى هذا الصدد دون تدقيق لأنه - فيما رأوا - يهدف القلب ويهيب الحواس.. وإنما نتقبل هذه المرويات باعتبارها ممثلة لحاجة ما فى المجتمع، أو لسد نقص منه أو لتحقيق غاية سياسية أو دينية، أو "حسبة" كما قال الذين ادّعو أنهم يكذبون لحساب الرسول وليس على حساب الرسول أو كيداً فى الإسلام من فريق لم يستطع أن يجابهه، وهو فى عنفوانه فلجأ إلى دس مفتريات تسيء إلى العقيدة وتهيب العقل لقبول الخرافة.. من هنا فنحن نحتفل بكل ما تتضمنه موسوعات الحديث من روايات ونرى أن وراء كل حديث موضوع سبب ما قد يكون من الخير التعرف عليه..

فى هذا الصدد نجد مرويات عن الفتن والخلافة، منها ما جاء فى مسند الإمام أحمد بن حنبل مرويا عن حذيفة بن اليمان الذى قال عن نفسه إن الناس كانوا يسألون الرسول عن الخير وكنت أسأله عن الشر ! يروى عنه أنه كان مع عمر بن الخطاب عندما قال أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ فى الفتنة ؟ قلت أنا كما قاله، قال إنك لجزئ عليها أو عليه، قلت فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ليس هذا أريد ولكن الفتنة التى تموج كموج البحر، قلت ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال أيكسر أو يفتح ؟ قلت بل يكسر، قال إذا لا يغلق أبداً، قلنا أكان عمر يعلم من الباب ؟ قال نعم كما يعلم أن دون غد ليلته، قال وكيع فى حديثه قال فقال مسروق لحذيفة يا أبا عبد الله كان عمر يعلم ما حدثته به قلنا أكان عمر يعلم من الباب قال نعم كما يعلم أن دون غد ليلته، إنى حدثته حديثاً ليس بالأغاليظ فهبنا حذيفة أن نسأله من الباب فأمرنا مسروقاً فسأله فقال الباب عمر".

نعم كان عمر هذا الباب. وكان واقفا وراء هذا الباب يمنع قريش من الانسياب إلى الأمصار والانزلاق والافتتان فتنة الناس بهم وفتنتهم بالناس. وكان وراءه وهو يحاسب نفسه وآله أكثر مما يحاسب الناس، وكان وراءه وهو يرسل رسله لمتابعة الولاة أولاً بأول، ثم مقاسمتهم أموالهم... وكان يرى أن المسلمين أصبحوا كالجمال "البازل" أي الذي بلغ الذروة من السن التي لا يكون وراءها إلا التدهور.. فجاءت طعنات هذا المجوسى فأزالت الباب ...

وتوالت الفتن التي وصفها حديث "كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً تأتيكم متشابهة كوجوه البقر لا تدرون أياً من أى" ...

حقاً لقد وجدت أحاديث تحدد الخلافة الراشدة بحيث تستغرق مدة الخلفاء الأربعة.. وهى مشهورة فى كتب الحديث "وبعضها مروى عن حذيفة أيضاً مثل هذا الحديث "عن النعمان بن بشير قال كنا قعوداً فى المسجد مع رسول الله ﷺ وكان بشير رجلاً يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشنى فقال: يا بشير بن سعد: أتحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الأمراء، فقال حذيفة أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة قال رسول الله ﷺ: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون الخلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت..

قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن النعمان بن بشير فى صحابته فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره أباه فقلت له: إنى أرجو أن يكون أمير المؤمنين يعنى عمر (بن عبد العزيز) بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابى على عمر بن عبد العزيز فسر به وأعجبه ...

وهذا الحديث عن سفينة "قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك. قال سفينة: أمسك، خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه سنتين، وخلافة عمر رضى الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضى الله عنه اثنتى عشر سنة، وخلافة على رضى الله عنه ست سنين. رضى الله عنهما..

وقد حرر بعضهم هذه المدة فوجد مدة خلافة أبى بكر سنتان وثلاثة شهور وعشرة أيام ومدة عمر عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ومدة عثمان أحد عشر سنة وأحد عشر شهراً وستة أيام وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام. وقال إن من ذكر الثلاثين أضاف خلافة الحسن وأغفل الشهور والأيام.. ولكننا نرى أن الحديث الذى يجعل الخلافة الراشدة ثلاثين، عاماً إنما أريد به التصديق على الخلفاء الأربعة، والحسن أيضاً..

وهذا على كل حال أمر مقبول ما دمنا أخذنا هذه المرويات مأخذاً عاماً. ونرى أن فى الحديث الذى سبقه شياً قوياً بما حدث بالفعل..

ويلحظ بالطبع أننا عندما جعلنا الخلافة الراشدة تنتهى مع نهاية عمر خالفنا الأمر المقرر والشائع الذى يجعل الخلفاء أربعة.. ويمد الخلافة الراشدة لقراءة ثلاثين عاماً، ونعتقد أن كثيراً من القراء سيذهبون إلى ما ذهبنا إليه عندما يقاربون ما بين "دولة المدينة" التى أسسها الرسول ووصلها أبو بكر وعمر بالفترة

اللاحقة التي شهدت الفتن وسالت فيها الدماء وخولف ما وضعته دولة المدينة من مبادئ وأصول. ولم تكن محاولات الإمام على لإصلاح الحال والعودة بها إلى عهد الشيخين إلا محاولات متعثرة، أوقعته هو نفسه فيما لم يحب، ثم انتهت بمقتله، وأثبتت أنه لا يمكن إعادة الخلافة الراشدة مرة أخرى كما كانت عهد الشيخين..

لقد رزقت دولة المدينة التي وضع الرسول قواعدها عوامل استثنائية خاصة هي التي مكنتها أن تقوم وأن تتصف بالروعة والجمال والقرب من الكمال.. أولها أن صاحبها وواضع أساسها كان رسولاً نبياً يهتدى بوحى سماوى يهديه سبل الرشاد ويجنبه مكامن الزلل، كما كان بالطبع عبقرياً موهوباً. وإلا لما اصطنعه الله تعالى لرسالته وليكون خاتم الرسل ...

أمره الله تعالى أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يشاورهم فى الأمر، وعاتبه لأنه انصرف عن ضرير من عامة الناس وهو فى غمرة اهتمامه باكتساب لفيف من الكبراء للإيمان، وأمره بالعدل بينهم وأن يحكم بينهم بما أنزل الله لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فكان حكمه حكم القانون - حكم القرآن الكريم - وكان شخصه شخص الداعية.. الذى يبدأ بنفسه ليكون أسوة.. فلم يستهوه الثراء والمتاع والمأكل والمشرب.. ولم يتأثر مالا ووضع مبدءاً أن الأنبياء لا تورث، وآل إلى بيت المال كل ما آل إليه من مال خديجة أو ما أهدى إليه أو غير ذلك وتحرر كل مواليه..

كان الرسول عبقرى فى شخصه.. ومهدى فى رسالته ولهذا نجحت تجربة دولة المدينة تحت قيادته. واكتسبت مناعة من أن تقسدها السلطة ...

وكان من يمن طالع المسلمين أن خلفه فى قيادته أبو بكر الذى كان "متبعاً لا مبتدعاً".. وبفضل الاتباع الأمين هدى أبو بكر فى قيادته.

إنه بطل سجال السقيفة الذى كاد لولاه أن يمزق وحدة المسلمين ...

وهو الذى وضع فى خطابه الافتتاحى الأصول الرئيسية والدستورية للدولة الإسلامية. ألا وهى إقرار العدل وأن تتم التولية ببيعة، وأن يكون الحكم بالقرآن وأن يكون من حق الناس متابعة الحاكم وتقويمه فإن أحسن أطاعوه وأن أساء فليس لهم عليه طاعة.. وهى المبادئ التى سبق بها الرسول ثم جاء عمر، فكرر عمل الرسول السابق وعمل أبى بكر اللاحق..

ثم ظهر أن هذا الرجل الوديع البكاء والمشفق الرحيم يضم بين جنبيه أسداً هصوراً فما أن قبض الرسول حتى اشتعلت جزيرة العرب ناراً.

قال الطبرى "كادت مكة أن ترتد وتوارى عاملها عتاب بن أسيد وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من أرتد. فأمتمت الناس عن الردة، وهذا الرجل سهيل بن عمرو هو الذى قال للرسول عندما أرسلته قريش ليفاوض الرسول فى صلح الحديبية، وأمر الرسول بكتابة الصلح هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال لو كنا نؤمن أنك رسول الله ما حاربناك. ولكن أكتب إسمك واسم أبىك، وكان قد حارب الرسول فى بدر وأسر وهم به عمر بن الخطاب فقال له دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه. فكان هذا المقام..

وقال عبد الله بن عمر "لما قبض النبي ﷺ اشرب النفاق في المدينة وارتد العرب والعجم وأبرقت وتواعدوا نهاوند وقالوا لقد مات الرجل الذي كانت تنتصر به العرب.. وقالت عائشة "لما توفي رسول الله ﷺ اشرب النفاق في المدينة وارتدت العرب قاطبة وانحازت الأنصار وصار المسلمون كالغنم السائبة في الليلة المطيرة وأخذ المرتدون يستعدون للهجوم على المدينة فجهز أبو بكر الجيوش ووضع الحراس على الأنقاب. وعندما قرر محاربة المرتدين بعد أن أنفذ جيش أسامة تحقيقاً لأمر الرسول.. وقف المسلمون جميعاً ضد هذا الرأي عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وجلة الصحابة والمهاجرون كما وقف الأنصار الموقف نفسه فقام أبو بكر وقال: "أما بعد. فإن الله بعث محمداً ﷺ والحق قل شريد. والإسلام غريب طريد. قد رث حبله. وقل أهله. فجمعهم الله بمحمد ﷺ وجعلهم الأمة الباقية الوسطى. والله لا أبرح أقوم بأمر الله وأجاهد في سبيل الله حتى ينجز الله لنا ويفي لنا عهده. فيقتل من قتل منا شهيداً في الجنة. ويبقى من بقى منا خليفة الله في أرضه ووارث عبادته الحق. فإن الله تعالى قال: - وليس لقوله خلف - "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم" والله: لو منعوني عقلاً مما كانوا يعطون رسول الله ﷺ ثم أقبل معهم الشجر والمدر والجن والأنس لجاهدتهم حتى تلحق روحى بالله. إن الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة.

فكبر عمر وقال: والله لقد علمت. والله حين عزم الله لأبى بكر على قتالهم أنه الحق.

مع هذه الوقفة البطولية التي تحدى بها أبو بكر العرب جميعاً وخالف فيها المسلمين جميعاً فإنه احتفظ بوداعته وتواضعه وكان قبل الخلافة يحلب للحى أغنامهم، فلما بويغ له بالخلافة قالت جارية من الحى: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا فسمعها أبو بكر فقال: أبو بكر فقال: بل لعمرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه.

فكان يحلب لهم. فربما قال للجارية من الحى يا جارية، أتحبين أن أرغى لك أو أصرح؟ فربما قالت: أرغ. وربما قالت: صرح. فأى ذلك قالت فعل..

بل أنظر إلى تواضعه، وهو يودع جيش أسامة راجلاً وأسامة راكب وعندما قال أسامة يا خليفة رسول الله لتركين أو لأنزلن. فقال: والله لا تنزل. والله لا أركب وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله. فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له. وسبعمائة درجة ترفع له. وتمحى عنه سبعمائة خطيئة. حتى إذا انتهى قال له: إن رأيت أن تعيننى بعمر بن الخطاب فأفعل. فأذن له.

وخصص المسلمون لأبى بكر رزقاً كرجل من المسلمين ليس بأفقرهم ولا أغناهم وكان من قبل يتكسب بالتجارة، فلم يكن يكفيه ما خصصوه له، ومع هذا فقبل أن يموت أوصى عائشة "إذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم ولقحتهم وعبدتهم ورحاهم ووثارة (أشبه ببطانية) اتقيت بها أذى البرد ووثارة اتقيت بها أذى الأرض كان حشوها من ليف.

وزاره عبد الرحمن بن عوف فى مرضه الذى توفى فيه. فأصابه مفيقا "فقال أصبحت بحمد الله بارئاً. قال أبو بكر أترأه؟ قال نعم قال أما أنى على ذلك لشديد الوجع. ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى أنى وليت أمركم خيركم فى نفسى. فكلكم ورم من ذلك أنفه. يريد أن يكون له الأمر. ورأيت الدنيا مقبلة ولما تقبل وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج. وتألّمون الاضطجاع على

الصوف الأذري كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان. والله لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا. ألا وإنكم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالاً يا هادي الطريق جرت إنما هو الفجر أو البجر.

في هذه الجلسة اعترف أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف إني لا آسى على شئ من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن. وددت أنى تركتهن وثلاث وددت أنى فعلتهن. وثلاث وددت أنى سألت رسول الله ﷺ عنهن :

أما الثلاث التي فعلتهن ووددت أنى تركتهن: فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شئ. وإن كانوا أغلقوه على الحرب. ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وأنى قتلته سريحا أو خليته بخيحا. ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين. فكان أحدهما أميراً وكنت له وزيراً (يعنى بالرجلين عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح).

وأما الثلاث التي تركتهن ووددت أنى فعلتهن: فوددت أنى يوم أوتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربت عنقه. فإنه يخيل إلى أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه. ووددت أنى يوم سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة أقمت بذى القصة. فإن ظفر المسلمون ظفروا. وإن انهزموا كنت بصدد لقاء أو مدد. ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فأكون قد بسطت يدي كليهما فى سبيل الله.

وأما الثلاث التي وددت أنى سألت رسول الله ﷺ عنهن: فإنى وددت أنى سألته: لمن هذا الأمر من بعده؟ فلا ينازع أحد. وأنى سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب؟ فلا يظلموا نصيبهم منه. ووددت أنى سألته عن ميراث بنت الأخ والعمة فإن فى نفسى منهما شيئاً.

هذه هو أبو بكر الجرأة والشجاعة المتناهية والحزم الذى لا ينتهى، ومع هذا فهناك رقة لا حد لها، وتواضع لا تصنع فيه..

هذا هو أبو بكر الذى بدء حياته بدرء فتنة، وختمها بدرء فتنة أخرى كان يمكن لكل واحدة أن تمزق المسلمين، وفيما بينهما قضى على فتنة الردة التي كادت تستأصل الدين، وخلف لهم أفضل ما يمكن أن يخلفه رجل دولة من أصول دستورية لممارسة السلطة أو سلوك عفيف فى خاصة نفسه.

فهل ثمة مثيل له ؟

بلى.. لقد جاء بعده، وبتوصية منه عمر بن الخطاب لم يقصر عنه، ومد الله له فى الأجل، وكما وقف أبو بكر فى وجه العرب المرتدة، وقف عمر فى وجه قريش الثرية التي تريد أن تتضخم ثرواتها وتهيمن بفضل نسبها وحسبها وقربها من الرسول. ودعم فى خطبته الأوامر الدستورية التي أرساها أبو بكر فى أن الحاكم إنما يحكم بالقرآن وأن ليس له من طاعة إذا خالفها. كما سار على هديه فى التقشف وربما فاق.. وأوصى - كما فعل أبو بكر - للمسلمين بكل ما ناله خلال ولايته وكان فى تواضعه مثل أبى بكر. فهو ينفقد النساء اللاتي ذهب رجالهن فى الغزو ويأخذ خطاباتهن إلى أزواجهن، أو ليكتب لهن. ويأخذ غلمانهن معه إلى السوق ليشاركهم الشراء حتى لا يخدعوا، ويمشى فى الليل ليتفقد أحوال الناس على الطبيعة. وخذ مثلاً هذه الواقعة، فقد وجد إياس بن سلمة فى عرض الطريق، فخفقه بالدرة وأمره بأن يفسح الطريق. وبعد مدة طويلة

راه فقال له أنويت الحج في عامك هذا فقال نعم فأخذ بيده حتى أدخله داره ثم خرج وفي يده كيس فيه ستمائة درهم وقال له "استعن بها على حاجتك، واعلم أنها بتلك الخفقة" فقال له الرجل والله ما ذكرت لها حتى ذكرتنيها فقال عمر ولكني ما نسيته.. فذهب عمر ومرقته ودرته مثلاً في التاريخ وسجل له هذه المآثر شاعر من أعظم شعراء العربية هو حافظ إبراهيم فيما أطلق عليه "عمرية حافظ" التي أثبت فيها معظم مواقفه.. ومن قبله قال الشاعر :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يجر أو يركب جناحاً نعمة ليدرك ما أدركت بالأمس، يسبق

هذه هي حال دولة المدينة عهد الرسول، ثم عهد المتبع الأمين ثم المبتدع العظيم هل نجدها على هذا الحال بعد عمر؟ هل نجد في عثمان ما نجده - أو بعض ما نجده - في عمر وأبي بكر من حزم وعزم وذكاء وإقدام على عظام الأمور وإسقاط لصغائرهما؟ وعزوف عن طبيبات الحياة؟ إننا لا نجد شيئاً، بل نجد ما يخالفها.. ثم نجد بعد عثمان علياً وهو يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها، وأن يحمل الناس على ما كان عليه الشيخان، ولكن هيهات. لقد اتسع الخرق على الراقق.. وتوالت الفتن حتى سالت الدماء. فقتل عثمان قتلة منكورة. ثم تلاقت سيوف المسلمين يقتل بعضهم بعضاً. وهل هناك ما هو أكثر مأساوية من مشهد أم المؤمنين عائشة يحارب دونها الألوفاً.. وتقطع الأيدي بالمئات دون هودجها حتى يعقر الجمل فيسقط بها، ويتلو ذلك صفين، وما أدراك ما صفين ثم تختم المأساة بمقتل الإمام علي وهو يؤذن لصلاة الفجر في رمضان ...

هل يمكن أن يقال إن هذه خلافة راشدة ؟

كلاً... إن الخلافة الراشدة وقفت عند مقتل عمر بيد مجوسى فارسي.. وكل ما حدث بعده لم يكن استمراراً لها، ولكن دليلاً على أنها لا يمكن أن تعود..

* * *

الباب الثانى

السلطة تفسد العقيدة

(الأيدولوجيا)

رأينا فى الباب الأول كيف أن الأحداث التاريخية قد أدت إلى هجرة الرسول إلى المدينة، وكيف أن الهجرة أدت إلى تكوين "دولة" ذات طبيعة خاصة فهى بنت التاريخ من ناحية الحدوث، وبنت الدعوة من ناحية الطبيعة وكانت نتيجة ذلك دولة يرأسها رسول يوحى إليه، ثم شاهدنا مسلسل الأحداث التى أخذت بعضها برقاب بعض بصورة سريعة متلاحقة بحيث لم تدع للمسلمين وقتئذ متنفساً، أو تصرفاً آخر، وهذه السرعة والتلاحق مع أنها لم تدع للمسلمين سلوكاً آخر فإنها ربطت ما بين عهد الرسول والخلافة التى أعقبته، وقد ولدت الخلافة والرسول مسجى فى بيته، قبل أن يودع مثواه الأخير، وفى ظل هذا الحكم عاشت وكأنما أنفاس الرسول تتردد حولها وتحفظها وكان من توفيق الله أن ولى أمرها "المتبع الأمين" أبو بكر الذى أظهرت الحوادث أنه رجل دولة من الطراز الأول وأعقبه عمر بن الخطاب "المبتدع العظيم" الذى أرسى أسس الدولة الإسلامية.

ولكن لما كانت الدولة تقوم على ساقين هما الإيمان من ناحية والضرورات الاجتماعية من ناحية أخرى. ولما كان الإيمان يزيد وينقص، أو لنقل ينقص أكثر مما يزيد فقد انحسر الإيمان، وانحسر معه المقوم الإيمانى لدولة الخلافة الراشدة. وبدأ الإيمان يتقلص وينحسر مع طعن عمر بن الخطاب، وأخذ هذا الانحسار يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ الفتنة الكبرى التى كانت إيذاناً بنهاية الخلافة الراشدة.

ومن هذا نعلم أن الخلافة الراشدة تدين بظهورها إلى أنها ارتبطت بالرسول، ولم يحدث انفصام (باستثناء انقطاع الوحي طبعاً) بحيث أمكنها أن تُسبّر الأحداث فى ظل الرسول وأثره، وأن تتغلب بهذه الصفة على ما جابهها من صعاب، لعل أوقعها أثراً كان حروب الردة. وهو ما يشير إلى توفيق الخلافة الراشدة فى قائديها الأولين أبو بكر وعمر ثم تعثرها فى قائديها الآخرين عثمان وعلى مما أدى إلى انحسار الإيمان وإلى النهاية المحتومة.

ومع طى صفحة الخلافة الراشدة يبدأ الباب الثانى بفتح صفحة جديدة تقوم على فكرة محورية هى أن السلطة تفسد العقيدة (الأيدولوجيا) وأن هذا أمر محتّم لا مفر منه بحكم طبيعتها والسلطة فى الوقت نفسه هى الخصيصة التى تميز الدولة، ومعنى هذا أن الدولة لا يمكن أن تكون راعية لعقيدة أو فكرة لأن السلطة الكامنة فيها لا بد وأن تفسد العقيدة، ويثبت الباب ذلك بشواهد من التاريخ الإسلامى والمسيحى واليهودى والأوربى مما يوضح أن إفساد السلطة ليس مقصوراً على العقيدة الإسلامية، ولكنه يحق ويفسد كل عقيدة لها طابع القيم والمثل العليا. وتنوع الأمثلة التى أوردناها أكبر دليل على صدق الفكرة المحورية فيه، إلا وهى أن السلطة تفسد العقيدة.

الفصل الرابع الأمة - الدولة - السلطة

فى الجزء الأول من هذا البحث عالجتا دولة المدينة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لأنها أول ما يرتكز عليه دعاء الدولة الإسلامية وأثبتنا أن دولة المدينة تجربة فريدة لا تتكرر، ولكن تستلهم وأن الخلافة الراشدة كانت برزخا بين رحمة الحكم النبوى وغشومة المُلْك العضوض. وأن عامل نجاحها كان هو قرب العهد بالرسول، وأنها كانت امتداداً له، ورأينا أنها انتهت مع طعن عمر بن الخطاب، وتوقفت فترة فى عهد عثمان وأراد على بن أبى طالب إعادتها. فلم يستطع لأن القوة المحركة لها وهنت وتلاشت دفعتها مع بُعد العهد بالرسول.

وننتقل فى الباب الثانى الذى يحمل عنوان "السلطة تفسد العقيدة (أو الأيدلوجيا) إلى دراسة السلطة وأنها مفسدة بطبيعتها. وأنها تفسد كل ما يتصل بها. ولما كانت السلطة هى الخصيصة المميزة للدولة، ولما كانت السلطة مفسدة، فمعنى هذا أن لابد وأنه يفسد الحكم الإسلامى إذا جاء عن طريق الدولة وانبثق من سلطتها.

وقد كان هذا أقوى عامل دفعنا لرفض أن يكون الإسلام دولة، كما كان هناك من الناحية الإيجابية عوامل أخرى تدفعنا للتركيز على الأمة.. وبهذا يكون هناك مبررات إيجابية وسلبية ترفض الدولة وتفرض الأمة.

ومن الضرورى أن نقدم لهذا الحكم بتعريف موجز للأمة، والدولة، والسلطة.

الأمة..

لا نريد أن نعذب القارئ ونضيع وقته فى مباحثات أكاديمية حول تعريف الأمة، خاصة وأن لنا فكرنا الخاص الذى قد يختلف عن علماء القانون الدستورى أو النظم السياسية أو علماء الاجتماع. من هنا فإننا نقول باختصار ووضوح إن ما نعنيه فى بحثنا هذا بالأمة الإسلامية هو الشعب والجماهير التى تؤمن بالإسلام بصرف النظر عن لغاتهم وأجناسهم وألوانهم وتباعد بلادهم واختلاف نظمهم السياسية.. ذلك أن الإسلام بحكم قوته الذاتية الخاصة يمكن أن يكون عاملاً موحداً لهذه الجموع أو على الأقل يؤثر تأثيراً فعالاً فيها..

فى هذه الأمة نجد أن العنصر البارز الذى يجمعها ويوحدها ويميزها عن غيرها هو العقيدة.. كما نجد عنصراً آخر هو الإرادة. فمع أن المسلمين يولدون مسلمين ولا يكون لهم إرادة فى هذا، إلا أنهم لا يحملون هذه الصفة كعباً، ولكن ككسب. وهم لا يضيقون بها بل هم يعتزون بها وقد يهمل الكثير منهم فى أداء التزاماته العبادية، ولكنه يظل متمسكا بالإسلام، معترفاً عن تقصيره وهنا يظهر جانب الإرادة إلى جانب العقيدة.

وهذه الأمة ليست من صنع التاريخ أو الجغرافيا أو عمل ملك أو حاكم كالفرعون مينا مثلاً الذى وحد الوجه البحرى والوجه القبلى مكونا الأمة المصرية من أقدم العصور. ولكنها من صنع الإسلام فقد بدأت

عندما بدأ الرسول دعوته بعشيرته الأقربين ثم اتسعت حتى شملت المدينة، وجزيرة العرب.. ثم انتشرت حينما انتشر الإسلام.

هذه هي أمة الإسلام التي أرادها الله تعالى في قرآنه عندما قال ﴿وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾. فإنه وحدها.. ووحد عقيدتها، ولعل هذا أن يكون أبرز الظواهر الاجتماعية للتوحيد الديني، وكانت هذه الأمة في ذهن الفقهاء الذين أبدعوا تعبير "دار الإسلام" وكانت هي التي أوحى إلى الشاعر :

بك اتصلت أسبابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

أو الآخر..

أبي الإسلام، لا أبا لي سواه إذا افتخروا بقرىس أو تميم

الدولة :

إن العنصر الهام الذي يميز الدولة عن الأمة هو وجود الحكومة. فقد توجد الأمة دون أن توجد الحكومة، ولكن لا يتصور قيام دولة دون حكومة أى الجهاز الذى يقوم بعملية الحكم، وهو أمر لا يتحقق إلا بالسلطة. فالسلطة هي خصيصة الحكم فى الدولة. والسلطة معناها وجود جهاز للقمع يلزم المخالفين الطاعة.

وعندما نقول إن الإسلام دين وأمة، وليس ديناً ودولة، فإننا نلاحظ أن الدولة هي فى حقيقتها السلطة - ومن الناحية المبدئية والتاريخية والواقعية. فإن السلطة تفسد الأيدلوجيا (أو العقيدة) فما أن يحدث خلط بينهما فلا بد، ولا مناص من أن تفسد السلطة العقيدة، لأن السلطة بطبيعتها، ليست فحسب فاسدة بل هي مفسدة أيضاً، وليس من الطبيعي إصلاحها.

وقد يوضح لنا شيئاً ما هذه الحقيقة. الطريقة التي ظهرت بها الدولة، وهناك ثلاث رؤى عن هذا...

الرؤية الأولى: رؤية علماء الاجتماع ويقول هؤلاء - كما صور ذلك الدكتور محمد معروف

الدواليبى فى كتابه "الدولة والسلطة فى الإسلام" (من ص ٢٤ - ٢٨)..

"مضى على المجتمعات البشرية الأولى حين من الدهر لم يكن فيها (للمجتمع) الواحد من كيان ومفهوم حينذاك غير كيان (الأسرة) الواحدة ومفهومها، سواء ضاق نطاق هذه الأسرة فى التبعية لأب واحد حى، أو اتسع نطاقها لتشمل أسراً متعددة تحت اسم (القبيلة) الواحدة التي ترجع فى أصولها البعيدة إلى جد أعلى واحد.

وكذلك لم يكن لمفهوم (السلطة) فى المجتمع والأسرة من مفهوم غير مفهوم (السلطة الأبوية المطلقة) والمحصورة فعلاً بأبى الأسرة وكبيرها. وكان هذا الأب هو فى آن واحد سيد الأسرة وملكها، وحاكمها وكاهنها فى شؤونها الدينية، وبالجملة فإن أبا الأسرة كان وحده الأمر الناهى من غير منازع، وله بموجب سلطته الأبوية المطلقة حق الموت والحياة على جميع أفراد الأسرة على نحو ما هو ثابت ومعروف مثلاً فى تاريخ روما القديمة.

ولما تطور المجتمع وظهرت فيه (الدولة) انتقلت جميع خصائص (السلطة الأبوية المطلقة) إلى

(رئيس الدولة) فكان هو أيضاً الحاكم المطلق فيها، وكان الويل كل الويل عندئذ للمجتمع من نزواته المطلقة.

وفى ظل ذلك الحكم المطلق ظهرت فئة المقربين الأشراف، ثم من عداهم من عامة الناس، وانتهت بتقسيم المجتمع إلى طبقات متفاوتة فى الحقوق وفى الكرامة. وهكذا كان هناك امتياز للبراهمة على المنبوذين فى شرائع الهند، وامتياز لأعيان الدولة على فلاحها فى الصين، وامتياز للأشراف على العامة لدى اليونان والرومان، بل وامتياز لجنس الرجل على جنس المرأة لدى الجميع.

وهكذا فإن ذلك الحكم المطلق، وذلك التفاوت فى طبقات الشعب وفى حقوق الأفراد، قد جعل (مفاهيم الدولة وسلطاتها) فيما يتعلق بالسلطة والشعب والقانون، لا تظهر إلا :

- من خلال (السلطة المطلقة للحاكم) على الشعب من جهة، وذلك بما يشبه (السلطة الأبوية) فى حق الحياة والموت على أفراد أسرتها كما كانت من قبل.
- من خلال (التبعية المطلقة) المفروضة على (الشعب) تجاه الحاكم دون أن يكون للشعب أية شخصية حقوقية، أو أى اعتبار له أمام سلطة الحاكم المطلقة.

وأما القانون - إن وجد فى مراحل وجوده - فما هو إلا تلك الأحكام الصادرة عن إرادة ذلك الحاكم المطلق إن شاء. وذلك من دون أن يكون فى تلك الأحكام ما يعبر عن شئ من القيم الاجتماعية السامية أو المصالح الإنسانية غير تثبيت الأمر الواقع فى تلك السلطة المطلقة للحاكم، وتبعية الشعب له كشئ من أشيائه، مع تمايز فئاته وطبقاته فى الحقوق والاعتبار فضلاً عن التمايز بين شعوب الإمبراطوريات فى الأعراق، والأوطان، والأجناس.

ففى ظل تلك المفاهيم تظهر الدولة فى :

- سلطات الحاكم المطلقة على شعبه.
- تبعية الشعوب لقادتها بدون (أية شخصية حقوقية) أو أى اعتبار لهم أمام حكامهم.
- التمايز بمقتضى العرف أو القانون بين فئات شعوبهم تبعاً لأصولهم وأعرافهم وأجناسهم" انتهى الاقتباس من كتاب الدكتور معروف الدواليبي.

ولم ينفرد علماء الاجتماع فى الرجوع بالدولة إلى الأسرة وأن هذا هو أصل الاستبداد فيها. فإن من علماء السياسة من ذهب إلى هذا المذهب وأشهرهم بودان الذى نشر فى عام ١٥٧٦ كتابه "الجمهورية" الذى ذهب فيه إلى أن الاستبداد الفردى المطلق هو النظام الذى يتفق مع القانون الطبيعى ذلك لأن الطبيعة قد شكلت أول مجتمع فى صورة الأسرة. والأسرة هى مجتمع صغير متعدد الأفراد وذو مصالح مشتركة لا بد من أن يقوم فيها واحد من أفرادها لتكفل إليه الأسرة إدارة شئونها، هو رب الأسرة. ولم يكن من الممكن أن يقوم فيها "ربان" وإلا تمزقت، لأن الأمر فى الأسرة كالأمر فى السفينة أن تعدد فيها الربابنة غرقت. والأسرة هى النموذج المصغر للدولة. ومن هنا فإن الدولة "الطبيعية" هى التى يكفل أفرادها سيادتهم إلى واحد منهم ليمارسها. وهم لا يستطيعون إلا أن يكلوها إليه كاملة لأن السلطة لا تتجزأ ولا يمكنهم أن يسحبوها بعد أن يكلوها إليه لأن مبررات التخلّى عنها إليه مبررات دائمة ولا يجوز أن تنقطع.

وكان يشفع له أن الوحدة الاجتماعية الأولى فى تاريخ الأجناس البشرية كانت هى الأسرة. وكان لرب الأسرة السلطة الكاملة فهو صاحب ومالك وسيد الناس وما يحوزون. وما تزال مفردات اللغة تحمل

أثراً من ذلك الاستبداد البائد. فقد كانت كلمة أسرة عند الرومان (فاميلوس وفاميليا) تعنى العبيد. وحتى أيام المشرع الرومانى جايوس (القرن الثانى قبل الميلاد) كانت كلمة "أسرة" تعنى الميراث (أنجلز - أصل العائلة - ١٨٢٠) ولم يكن الأمر مختلفاً عن هذا فى المجتمع الأنجلو سكسونى قبيل الفتح النورماندى لانجلترا إلا فى أمرين. الأول هو أن الولد كان يتحول من عبد مملوك لأبيه إلى حر ببلوغه سن الرجولة. والثانى أن الأسرة كانت تضم قرابة من الأبوين لا من الأب وحده كما كان الشأن عند الرومان. وتنبئ بعض الآثار المنقولة عن نظام الأسرة فى الجاهلية العربية، مثل وأد البنات وزواج المقت، والعضال، بأن رب الأسرة كان السيد المطلق على أفراد أسرته إلى حد التصرف فى حياتهم. وهو ما أدى إلى القول بأن قد كان لرب الأسرة عند العرب فى أيام الجاهلية، سلطة على أفرادها مماثلة لما كان لرب الأسرة عند الرومان من سيادة مطلقة على أفراد أسرته تشمل أشخاصهم وأموالهم (دارست: أبحاث تاريخية) (١٦).

الرؤية الثانية: هى رؤيتنا الخاصة. وهى ببساطة أن الدولة نشأت عندما نشأ الجيش المحترف.

ذلك أن وجود تجمع من الناس وحده لا يوجد دولة، ولكن يوجد "شعباً" ولا يتطور هذا الشعب فى دولة إلا عندما تنشأ له "حكومة" أى نظام يفصل فى العلاقات التى يثمرها تجمع الناس والتى لا يمكن أن تترك لهوى كل واحد وإرادة كل واحد، ولا بد أن تحدد الحقوق والواجبات وتنظم شئون هذا المجتمع.

هذا الدور الهام هو ما تقوم به الحكومة، وهو فى حقيقة الحال ما يمثل وظيفتها ولكن كيف تتوصل الحكومة إلى القيام بهذه الوظيفة؟ إنها لا يمكن أن تقوم بذلك بدعوة فلاسفة يوضحون للجماهير الخطأ والصواب، الحكمة والضلال، المفيد النافع والضرار السئ لأن فى النفس الإنسانية غرائز أقوى لتعزير ذاتها على حساب غيرها. وإرواء شهواتها والتكاثر والاستعلاء الخ... ووجود أفراد ضعفاء جنباً إلى جنب أفراد أقوياء فى حد ذاته يغرى الأقوياء بالسيطرة على الضعفاء.

فى النهاية نجد أنه لا بد من "سلطة" أى قوة تلزم وتخضع الأفراد لطاعتها والالتزام بأوامرها، ولا بد من أداة أو تنظيم يستخدم القوة لإرغام الناس على الطاعة والالتزام بها، وقد تكون هذه القوى هى القوة الجسدية والعضلية فى المرحلة البدائية كسيطرة الرجل على المرأة والأب على الأبناء ثم بطريق السلاح فى المراحل التالية، وما يتميز به من تنظيم وضبط وربط واحتراف.

ومنذ أن توصل حاكم نكى إلى تفريغ عدد من الرجال، وتنظيمهم وتدريبهم ووضع فى أيديهم السلاح وفرغهم لهذا ظهرت الصورة الأولى للجيش، وبفضل هذه الأداة استطاع الحاكم أن يلزم إلزاماً، ويكره إكراهاً، المجموعات التى تحاول التمرد عليه بينما كان مجرد وجود هذا الجيش كافياً لأن يحمل الآخرين على الطاعة، حتى لا يتعرضوا لما يمكن أن يقوم به الجيش من غارة عليهم..

ويلحق بالجيش عادة البوليس. وهو تنظيم مخفف نشأ فى فترة لاحقة عندما ظهر أن إخضاع الجمهور قد لا يتطلب تحرك الجيش بسلاحه الثقيل، ولكن يكفى "البوليس بسلاحه الخفيف" وتكون مهمة البوليس تطبيق إرادة الحكومة فى الداخل بينما تكون مهمة الجيش تطبيق إرادتها فى الخارج أو صد أى هجوم على الدولة.. ولا يمنع هذا من تدخل الجيش عندما تحدث صراعات فى الداخل.

(١٦) الاستبداد الديمقراطي. د عصمت سيف الدولة - دار المستقبل العربى ص ٢٥.

ويلحق بالجيش أو البوليس "السجون" التي هي إحدى وسائل العقوبة لمن يرفض تطبيق الأوامر أو يتمرد على الطاعة.. ويقترن بالسجون القيود والإصفاد الحديدية والاحتباس في زنانات ضيقه رطبة والاقتصار على أسوأ أنواع التغذية وكثيراً ما يتعدى الأمر إلى التعذيب.

هذه هي فكرتنا عن نشأة الدولة..

فلا يمكن لمجموعات من الناس تقطن إقليماً واحداً وتتكلم لغة واحدة، ولها مصالح واحدة أن تكون دولة.

إنها يمكن أن تكون أمه، وليس دولة..

الدولة لا تنشأ إلا عندما توجد في هذه الأمة الحكومة أى الجهاز المسئول عن تنظيم العلاقات بين أفراد هذه المجموعة.

ولا تستطيع الحكومة القيام بذلك إلا بالسلطة..

ولا سلطة إلا بجيش يملك القوة الجبرية التي تلزم الناس الطاعة وتحول بينهم وبين التمرد فالأمر في النهاية إلى الجيش.

وقلما يذكر علماء النظم السياسية كلمة الجيش كما نصرح بها وعادة ما يكون عنها بكلمة "القوة".

وقد قال بعض النقاد إن نظرية القوة.. لا يمكن التسليم بها على طول الخط لأنه "ما من سلطة تستطيع أن تحقق لنفسها الاستقرار والدوام مستندة إلى القوة وحدها، بل يلزم أن تكسب رضاء الأفراد وقبولهم لها، وإلا كان من الضروري تخصيص جندي لكل مواطن ووراء كل جندي يجب وضع جندي آخر لحراسته... وهكذا "انظر النظم السياسية للدكتور ثروت بدوى - دار النهضة العربية - ص ١٣١".

وهذا كلام سليم نظرياً، ولكنه بعيد عن منطق الواقع. إذ الواقع أنه لا بد أولاً وقبل كل شئ من القوة (الجيش) لتقلد السلطة وعندما يتم هذا فإن الحاكم لا يعجز عن استخدام وسائل التزييف والاصطناع والضغوط الخ... ليتوصل إلى تعزيز سلطته بحيث لا تكون قائمة على وجود الجيش ولكن بفضل وجود الجيش.

وذهب بعض المفكرين إلى أن العلاقة ما بين القوة والقانون الذي يفترض أنه العمود الفقري للدولة أو إطارها العام ليست كما ذهب البعض علاقة السيد بالعبد، أو العبد بالسيد ولكنها علاقة تزاوج، ولكن هؤلاء المفكرين لم يوضحوا لنا من هو الزوج ومن هي الزوجة في هذه العلاقة، لأن الحقوق والواجبات ليست متكافئة. ولأن المساواة تحول دون الحسم بينما ذهب مفكرون آخرون إلى أن عنصر القوة هو الأكثر تأثيراً في ظهور القانون فيقول :

" يبدو لنا مما سبق أن جانباً كبيراً من فلسفة القانون تعترف بصراحة أن القوة هي التي تنشئ القانون وتحميه، فالقوة تخلق القانون وفي الغالب لمصالحها الخاصة، وهي أيضاً التي تحمي تطبيقه وتحل محله في أوقات الأزمات.

ويبدو لنا أيضاً مما تقدم أن فكرة القوة تنشئ الحق وتحميه ترتبط في الغالب من الأحيان ببداية تكوين المجتمعات الإنسانية، ففي بداية أى مجتمع إنسانى لابد من استعمال القوة لتنظيم المجتمع ولتحديد النظم القانونية وفرضها، فغالبا يكون هناك انقلاب أو ثورة أو صراع اجتماعى يتولد منه القانون (١٧) .

وقد يدل على هذا التعبير المشهور **might is right** وأن يطلق أيضاً تعبير "الإمبراطور" وهو أصلاً قائد الجيش على رئيس الدولة فى التاريخ الرومانى الأوروبى وأن يطلق لقب "قاضى عسكر" فى الدولة العثمانية على قاضى القضاة.

وأقصى ما يمكن أن يوجه من نقد لنظرية الجيش أنها لا تكفى وحدها لظهور الدولة ولكن - فى مقابل هذا - لا يمكن أن تظهر الدولة بدونها. فهى العامل الحاسم، وإن لم تكن كل العوامل أو هى العامل الذى يمكن عن طريقه التوصل إلى بقية العوامل..

ولو راجعنا التاريخ فى الشرق والغرب لوجدنا أن العامل الحاسم فى ظهور الدول والإمبراطوريات كان هو الجيش. ففي العهد القديم كان السيف الرومانى العريض والتنظيم الدقيق للجيش هو الذى جعل "كل الطرق تؤدى إلى روما" وهو الذى مكن روما من السيطرة على العالم القديم وكان السيف الرومانى هو الذى حقق "السلام الرومانى" المزعوم وفى مستهل العصر الحديث كان نابليون وقنابله هى التى هزمت المماليك وفرسانهم وجعلت المصريين يصيحون "يا خفى الألفاف.. نجنا مما نخاف" وهى الصيحة نفسها التى قالها قبل خمسة قرون القديس لويس التاسع عندما فوجئ "بالنار اليونانية" التى استخدمها المصريون ضده.

وكانت مدافع الأسطول البريطانى هى التى مكنت بريطانيا من أن تتوغل فى أعماق آسيا وأفريقيا وتلك الحصون والقلاع وتمهد الطريق أمام الجيش.

وقبل هذا طبقت مصر تجربة فريدة فى الحكم عندما استقدم - أو بمعنى أصح استورد - حكامها جموعاً من المماليك الذين كان يأتى بهم النخاسون أطفالاً - ليربوا ويدربوا على المهام القتالية، واستطاع هؤلاء المماليك أن يحكموا مصر قرابة ثلاثة قرون. وكانت سيوفهم هى التى هزمت لويس التاسع فى المنصورة. وهى التى ردت التتار فى عين جالوت كما كان هؤلاء المماليك هم الذين شيدوا من المساجد ما يوازى المعابد الفرعونية القديمة، وأدى المماليك هذا كله بينما كان شعب مصر عاكفا على زراعة الأرض محافظاً على روح الحضارة التى حماها المماليك بسيوفهم.

وهذا ما يمكن أن يقال - إلى حد ما - على الفرقة العسكرية التى كانت زهرة الجيش العثمانى وكفلت للترك الانتصار فى كثير من المعارك - فرقة الانكشارية التى كانت تتكون من صبيان صغار من البلاد المفتوحة يؤتى بهم إلى تركيا فيربون تربية عسكرية خالصة، ويعتزلون المجتمع بحيث يكون العالم الوحيد الذى يعرفونه هو عالم القتال.

وفى الحقبة المعاصرة، فإن ما مكن أمريكا من السيطرة والقوة هو أنها بدءاً من الحرب العالمية الأولى ١٤ - ١٨ جعلت نفسها مصنع سلاح العالم وتعزز هذا بحرب ٣٩ - ٤٥ فمع أن أرضها لم تتعرض لحرب، ولم تنزل قوات عليها، فإنها صنعت السلاح الذى مكن الحلفاء فى الحربين العالميتين من الانتصار

(١٧) كتاب "الأصول التاريخية للقانون" ج ١ ص ١٥٥ تأليف الدكتور/ حسن عبد الحميد.

وأصبحت حاملات الطائرات أشبه بقلاع متحركة لا يمكن أن يحملها إلا المحيطات التي تمخرها. ومن هذه القلاع السابحة يمكن أن تتطلق طائراتها فتصيب الأهداف في أى مكان من العالم..

وقد فرضت الضرورات التسليح على الأديان نفسها، وهى دعوات الحب والسلام والضمير - عندما هدد الطغاة الدعوات الدينية، واضطر دعائها إلى حمل السلاح دفاعاً عن أنفسهم وحتى لا يفتنون عن دينهم، كما لم يكن بد من الجيش فى العهد الإسلامى الأول. لتفويض نظم إمبراطوريات طبقه وعنصرية جائرة وإحلال نظم تقوم على المساواة وعدم التمييز. وهكذا نرى جانبا من جوانب التعقيد الاجتماعى. ولكن هناك فرق بالطبع بين الحرب الدفاعية، والحرب الهجومية. بين جيش كالجيش الإسلامى يرفع الكتاب والميزان وجيش كجيش روما يتبعه البغايا والنخاسون

فالقوة العسكرية التى يحملها الجيش هى لحمة وسدى تاريخ ظهور الدول والإمبراطوريات ونحن نسلم بأن وراء السيف والمدفع والطائرة كان هناك عامل نفسى من زهو قومى. أو تفوق حضارى أو وجود نظام اجتماعى رصين أو الدفاع عن العقيدة الخ... ولكن فى نهاية الملاذ يكون الجيش هو الذى يقوم عمليا بالمهمة ويصدق كلام الشاعر :

"تكلم السيف. فاسكت أيها القلم".

وهناك دول عديدة ظهرت إلى الوجود وأخذت شهادة ميلادها من "توحيد" مناطق ودمجها بعضها فى بعض لتكون دولة. وهذا بالطبع ما لا يتأتى لولا الجيش، ويمكن أن يقال إن هذا ظهر مع ظهور أول دولة قومية فى التاريخ - مصر - عندما وحد مينا الوجه الشمالى والوجه الجنوبى فى دولة واحدة.

ثالثا: الرؤية اللينينية : النظريات الاشتراكية على اختلافها تؤمن بأن الدولة جهاز قمع طبقى تحكم به القلة المنظمة المسلحة الكثرة المفرقة العزلاء. ولا يختلف عن نظرية الجيش إلا فى الوسيلة، وليس الطبيعية لأنها جهاز قمع، ولكن جهاز القمع هذا له طبيعة خاصة.

ولما ظهر لينين قدم إضافته التى تتمثل فى نظرية الحزب باعتباره "جيشاً مدنياً" فهو يقوم على ثوريين محترفين يعملون تحت قيادة منظرين اشتراكيين. وأن هذا الحزب الذى يمكن أن يتحول إلى جيش - كما حدث فى الاتحاد السوفيتى فى الأيام الأولى لظهور ثورة ١٧ عندما تحلل الجيش القيصرى ولم يتيسر للسلطة الجديدة تكوين جيش، فقدمت النقابات عمالها كجنود وقدم الحزب الضباط وبذلك نشأ الجيش البلشفى الذى تصدى لقوات الحلفاء الذين أرادوا وأد الاتحاد السوفيتى. ولكن مع أن الحزب يمكن أن يتميز عن الجيش فى أنه يلوذ بنظرية لا بسلاح ويعتمد على الإقناع والدعوة وليس الضرب والأسر وأن هذا سيقدم الغطاء الأيدلوجى لقمع الجيش مع هذا كله فمن الغريب أننا لا نجد فى التنظيرات ما يماثل صراحة التنظير اللينينى فى أن الدولة هى جهاز "إرهاب" وأن هذا الإرهاب لا يستخدم ضد الذين يهددون الأمن الخارجى للبلاد فحسب، ولكن ضد الذين يهددون الأمن الداخلى. وقد كتب تروتسكى - منظر الحزب والرجل الثانى بعد لينين كتاباً كبيراً عن الإرهاب والشيوعية (ترجمه الأستاذ جورج طرابيشى وطبع فى دمشق) دافع فيه دفاعاً حاراً عن الإرهاب كجزء لا يتجزأ من نظام وقوام الدولة الشيوعية ليس فحسب لإرهاب الأعداء فى الخارج، أو حتى مخلفات وسلالات الإقطاعيين والرأسماليين. ولكن بالنسبة للعمال أنفسهم وهم الذين من أجلهم قامت الثورة، فإن الشعارات ما كانت لتجوز على تروتسكى ولا تحمله على إغفال الحقائق الصعبة

التي تسيطر على الطبيعة البشرية. فقال بدون موارية إن العمال - بدون دفع الإرهاب - سيستسلمون للكسل الفطري، وأنه لابد من إكراههم إكراها على العمل جميعاً لما تتطلبه الدول الشيوعية، ووصل في هذا إلى درجة "عسكرة العمل" التي لا تختلف عن "السخرة" فأظهر إلى أى مدى يمكن للسلطة أن تفسد الأيدلوجيا.

خصائص أخرى للدولة :

قدمنا أن العامل الأعظم الذى جعلنا نرفض الدولة هو أن الدولة ترتبط ارتباطاً لا مناص منه بالسلطة المفسدة بطبيعتها، ولكن هناك عوامل أخرى تجعلنا نرفض فكرة الدولة.. يجمعها أنها عوامل محددة ومفرقة تبرا منها الأمة التي لا يوجد فيها إلا عامل واحد مجمع وموحد.. وهو العقيدة الإسلامية..

من عوامل التفرقة والتمييز فى الدولة أنها :

أولاً: تختص الدولة بإقليم واحد لا تتعداه. فالحدود الجغرافية هي إحدى محددات الدولة.. وعندما نقول إن الإسلام دين ودولة.. فأى دولة.. وقد قسمتها الجغرافيا إلى عشرات الدول لكل منها نظمها وطبيعتها..

لقد زرع الاستعمار بذرة صراعات الحدود لتشتعل بعده الحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضاً حرصاً على عدة أمتار من الكيلو مترات من الأرض.. كل دولة تدعى أنها جزء لا يتجزأ من تربة الوطن المقدس التي يفتنونها بالدم..

ثانياً: أن الدولة تفرض "جنسية" فأبناء الدولة المصرية يكتسبون جنسية مصرية. ولا يمكن لغيرهم أن يحملوا هذه الجنسية ويتبع الجنسية أن تكون حقوق المواطن الدستورية والاجتماعية والاقتصادية مقصورة على من يحملون جنسية الدولة. بما فى ذلك الدخول أو الخروج منها عن طريق "جوازات سفر" ولا يمكن لغير صاحب الجنسية أن يدخل ويخرج من دولة لا يحمل جنسيتها إلا وفق ضوابط خاصة وما أكثر الفروق بين السكان الأصليين، ومن يطرأ عليهم أو يعيش معهم عشرات السنين، ولكنه لا يحصل على الجنسية، بل هناك فروق بين من يحصل على هذه الجنسية دون أن يكون أصلاً منها وبين صاحب الجنسية الأصلي، فيطلقون على الأول "متجنس".

وبتأثير الحدود الجغرافية وقيود الجنسيات تنشأ النزعة القومية ولا يعد الاستسلام لها أو التشدد فيها مأخذاً بل إنها توجب على المصرى القومى أن يحارب حتى لا تضم جغوب إلى ليبيا أو حلايب إلى السودان. فى حين أن المصرى المسلم لا يرى فرقاً كبيراً فليبيا دولة إسلامية جارة، والسودان دولة إسلامية جارة، وهما مع مصر فى إطار دار الإسلام الواحدة، فلا داعى للتشنج أو سفك الدماء مقابل حفنة رمال، ما أكثرها فى الدول الثلاث.

ثالثاً: أن الدولة لا تتضمن قيماً معنوية ولا إرادة شخصية فقد كونها أصحابها لأنهم يعيشون على هذه القطعة من الأرض التي هي مصر أو السودان أو فرنسا الخ... ورثوا ذلك عن أجدادهم وليس لهم من إرادة فى هذا، كما أن قيام الدولة لا يرتبط بقيم معينة. وهى فى هذا تختلف عن الأمة الإسلامية التي يكون الرابط فيها هو الإسلام، وبالطبع فإن شعوب كل دولة توصلوا إلى عالم القيم، ولكن هذا لم يكن فى أصل تكوين الدولة أو يعد خصيصة مميزة لها.

رابعاً: أن مصالح الدولة متعارضة، وقد لا توجد دولتان متفتحتان تماماً، لأن الأوضاع الدولية تجعل شبكة العلاقات تتلاقى وتتقاطع طبقاً للسياسات والمصالح بحيث لا تكون هناك صداقة دائمة ولا عداوة دائمة، ولكن مصالح دائمة، ومصالحة هذه غير مصلحة تلك.

وأخيراً فيمكن القول إن تعبير الدولة - كما نفهمه الآن - كان قريباً على المجتمع القديم، فنحن لا نجد له تعريفاً في معاجم اللغة ففي المصباح المنير "تداول القوم الشيء تداولاً وهو حصوله في يد هذا تارة وفي يد هذا تارة أخرى والاسم الدولة بفتح الدال وضمها، وجمع المفتوح دول بالكسر مثل قصعة وقصع وجمع المضموم دول بالضم مثل غرفة وغرف، ومنهم من يقول الدولة بالضم في المال وبالفتح في الحرب. ودالت الأيام تداول مثل دارت تدور وزنا ومعنى"^(١٨).

وفي مختار الصحاح "الدولة في الحرب أن تداول إحدى الفئتين على الأخرى يقال كانت لنا عليهم الدولة والجمع الدول بكسر الدال. والدولة بالضم في المال يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول. وقال أبو عبيد "الدولة بالضم اسم الذي يتداول به بعينه والدولة بالفتح الفعل. وقال بعضهم: هما لغتان بمعنى واحد... وأدالنا الله من عدونا من الدولة. والأدالة الغلبة يقال اللهم أدلني على فلان وأنصرني عليه. ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة"^(١٩).

فهذه كلها عوامل تدفع المفكر المسلم لأن يقول الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة.. ولا يخالجننا شك في أن مقولة "الإسلام دين ودولة" إنما قيلت لقلّة الدراية السياسية للدعاة المسلمين، ولأن الجوانب التي كشفنا عنها أي ارتباطها المحتوم بالسلطة المفسدة لم تكن واضحة لديهم، أو لأنهم أرادوا إعادة نموذج دولة المدينة التي قلنا أنها تجربة لا تتكرر ويغلب أنهم أرادوا بالدولة، الدولة الإسلامية بمعنى الخلافة التي تضم كل المسلمين، قبل أن يحدث التطور الذي أدى إلى ظهور القوميات والدول التي استقلت بوجودها عن الخلافة، وظهرت الأسوار والحواجز بينها وكأنهم أرادوا الأمة فاخطأهم التعبير.

لماذا تكون السلطة - ولا بد - مفسدة :

لم نوضح في الكلمات السابقة لماذا تكون السلطة ولا بد مفسدة. وقد آن الأوان لإيضاح ذلك، فالسلطة هي أعظم الإغراءات. فإذا كان إغراء المال والثروات والاستمتاع بالترف بحمل الألواف المؤلفة على العمل لكسب الثروات، فإن كل الثروات تحت رحمة السلطة، ويمكن للسلطة أن تصادر الأثرياء بعد أن يكونوا قد أمضوا حياتهم في الكد لتحصيلها فيأتي قرار المصادرة بكلمة يكتبها الحاكم.. فتنقل هذه الثروات من بيت صاحبها إلى بيت الحاكم، كما كان الشأن قديماً عندما كان كل وزير عباسي، لا بد وأن يصادر في النهاية..

وإذا كان الجمال والجنس هو الذي يستأثر بأفئدة مجموعات عديدة من الناس، فإن الجمال والجنس - كالمال - تحت رحمة السلطة.. وما أكثر ما حفل به حريم السلطان من جواري لا يقف العدد عند المئات.. بل يتعداه للألواف فأى "روميو" أو "دون جوان" يمكن أن يصل إلى هذا..

(١٨) المصباح المنير - الجزء الأول ص ٣١٣ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٠٩م.

(١٩) مختار الصحاح ص ٢١٥ - ٢١٦ المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣م.

وإذا كان الإغراء الأعظم عند أناس ترفعوا عن الثراء أو شهوات الجنس ولكن استأثرت بهم إرادة الرئاسة والهيمنة والأمر والنهي، فهذا ما تقدمه السلطة أكثر من أى هيئة أخرى.. لأنه جوهر وطبيعة السلطة...

**السلطة إذن هي مجمع الإغراءات وإليها تنتهي ومعها تلتقى كل الإغراءات وخمر
إغراءات السلطة مما لا يمكن أن يقف أمامه أحد أنه يسكر أعتى الأجسام وأذكى العقول.**

من أجل هذا كانت مقصد الجبارين والطغاة والذين يفوق ذكاؤهم ضمائرهم والنرجسيين الذى تتغلب عليهم الأنانية وحب النفس فهؤلاء جميعاً يجدون فى السلطة ما يروى غلتهم ويشبعها، ولم يكن عبثاً أن يسمى مقعد الملك - عندما كان صاحب الأمر والنهي بالعرش.

من ذا يستطيع أن يصمد ؟.

لقد قال يوسف عندما تعرض لإغراء الجمال ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. {٣٣ يوسف}..

من أجل هذا فإن السلطة لا تقبل شريكاً لها فى نفس صاحبها لأن "المُلك عقيم" كما قال عبد الملك بن مروان - أى لا يقبل شريكاً من أخ أو ابن، ومن هنا أجاز بعض الفقهاء لسلطين الترك أن يقتلوا إخوانهم عندما تكررت ثورات هؤلاء الأخوة ومطالبتهم بالعرش على أساس أن الفتنة أشد من القتل. وعندما تتملك السلطة فرداً ما، فإنها تمحق ما عداها ويصل لدد خصومتها إلى مثل ما قاله الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم جمعاً تروينى

وعندما يهدد الحاكم بفقد السلطة، فإنه يؤثر الموت ولكنه عادة لا يموت وحيداً إنه يأخذ معه أعداءه "على وعلى أعدائى" كما قال شمشون. أو عليه وعلى خصمه كما قال عبد الله بن الزبير.

اقتلونى ومالكاً (٢٠) واقتلوا مالكاً معى

وشهوة التسلط والزهو بطاعات الجموع وأنه مالك الحياة والموت على الناس وأنه يرفع من يشاء ويذل من يشاء أقوى من أى شهوة أخرى. أقوى من شهوة الجنس أو المال وما أكثر ما يخطر على الذهن لو أن هتلر أو موسوليني أو لينين أو ستالين أو غيرهم من الطغاة ابتلوا بحب المأكّل والمشرب والاستمتاع بالحياة لكان هذا أفضل للبشرية آلاف المرات من تحكم شهوة السلطة. فلم يكن هتلر يذوق اللحم، ولكنه أوقد أكبر محرقة "شوى" فيها الملايين من الرجال والنساء.

ووسائل السلطة - كسلطة - للتعامل محدودة، فقد تكون الإرهاب والبطش والجبروت واستخدام القوة.. لإخراس الخصوم والتخلص من الأعداء وقد تكون الاصطناع والإرشاء والإغراء بالمال أو المناصب، وقد تكون الخداع والدهاء ونصب المكائد وتزييف الحقائق.

أى خير يرجى من رجل يقول لحاكمه..

إملاً وطابى فضة وذهباً قتلت خير الناس أما وأباً

(٢٠) هو الأشر وكان قد دخل فى مبارزة مع عبد الله بن الزبير فى صفين.

فهذا التعس تملكه حب المال وجعله يقتل - أو يشارك فى قتل الحسين - وهو يعلم أنه خير الناس أماً وأباً حتى يظفر بما يملأ رداءه فضة وذهباً، فهل يرجى منه وأمثاله خير؟.

أى خير يأتى من حاكم يقول إن الله جنوداً من عسل! متباهياً بنجاحه فى تسميم خصم سياسى بالعتل.
وأى خير يمكن أن يأتى من هذه كلها..

إنها أسوأ الشرور فهل يمكن أن يتمخض عنها خير؟.

ولو تصفحت دفاتر السلطة - أى سلطة - فلن تجد إلا هذه الصفحات: صفحات القتل وصفحات الارتشاء وصفحات الخداع والدهاء..

إن قصارى ما تصل إليه السلطات أن تثير الخوف فى نفوس الناس حتى يصبح كل واحد "عبد المأمور" (لاحظ المفارقة أنه عبد المأمور وليس الأمر!) أو أن يصطنع بعضهم بالرشا والمناصب والمال ليعملوا له.. أو أن يخدع بعضهم ويكيد له المكائد.

فأين هذا الإرهاب والإغراء والإفساد من الإسلام الذى كره نبيه أن يتمثل له الرجال وقوفاً وقال "حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع" وأمر "إذا قابلتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب"..

إن السلطة تمسخ الإنسان السوى الذى خلقه الله فى أحسن تقويم وجعل له القلب والوجدان ومملكة التمييز بين الخير والشر إلى كائن منحط لا يلحظ إلا ولا ذمة، يستحل قتل الابن والزوجة - بل وحتى الأم كما فعل نيرون - فى سبيل السلطة ثم لا يقنع بما قد يكون ضرورياً لإخضاع الناس وضمن استسلامهم، بل ينحط إلى صنوف من الخسة والدناءة يعف عنها الوحش المفترس الذى لا يهاجم غيره إلا عندما يعضه الجوع. وما ظل شعباناً فإنه يظل مسالماً وديعاً.. وليس فى هذا أى مبالغة فإن سيرة نيرون وكاليجولا فى روما وسيرة أبى مسلم الخرسانى والسفاح. وما سلكه يزيد تجاه "الأنصار" الأتقياء البررة الذين رفعوا لواء الإسلام فأجبرهم قائده الأثيم على أن يكونوا "خول يزيد" ثم الجرائم التى اقترفها التتار فى اكتساحهم بغداد وخراسان. والجرائم التى اقترفها الأمريكيون فى إبادة الهنود الحمر وتفريغ القارة الإفريقية من رجالها ونسائها لاستعبادهم فى مزارع القطن والدخان وقصب السكر الخ... وأنواع التعذيب التى مارستها محاكم التفتيش فى أسبانيا ضد بقايا المسلمين، أو بالنسبة لمن رأت أنهم هراطقه ثم جرائم الاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث بدء من الهند وإندونيسيا حتى شمال أفريقيا وجنوبها وما بين ذلك مصر.

لا ريب أن الملائكة كان لهم حق عندما تساءلوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. {٣٠} البقرة}..

لقد قيل إن المبرر الأول لإقامة الخلافة هى حماية الدين وإقامة الشعائر الخ... ولكن الدولة - حتى لو كانت خلافة - هى أعجز الهيئات عن أن تقوم بهذا، لأن أى عمل تقوم الدولة به يحمل طبيعة السلطة من إرهاب أو اصطناع. وقد تستطيع أن تقيم المساجد، ولكنها تعجز عن تعمير هذه المساجد بالمصلين، والصلاة، بعد تجوز فى الفلاة. ويمكن أن توظف عشرات الألوف من الوعاظ الذين يعظون الناس بحكم المنصب ولأنهم يتقاضون مرتباتهم لهذا، فيغلب أن تكون كلماتهم من طرف اللسان ولا تصل إلى القلب ويمكن أن تطبع مئات الألوف من كتب التراث فلا يفيد هذا بل قد يضر.. والدور الحقيقى للدولة هو إقامة

العدل الذى يأخذ الاسم الإسلامى "الشريعة" ولكن هذا هو آخر ما تفكر فيه الدول الإسلامية، وما نفتقده فيها ونجده فى الدول التى ترفع راية الصليب.. لأن إقامة العدل هى الوظيفة المنشودة من الدولة إسلامية أو غير إسلامية.

باختصار فإن كل تدخل من الدولة فى شئون الدين يسئ إلى الدين ويشوّهه ويوظفه لخدمتها. وهذا هو أسوأ صور الاستغلال.

كيف نتعامل مع السلطة :

مع كل سوءات السلطة، وإنها مفسدة بطبيعتها فالحقيقة المرة هى أن السلطة لازمة، وأنه لا يمكن تصور المجتمع البشرى فى أحكم تنظيّماته بدون السلطة. لأن الإرادات البشرية لا بد وأن تتضارب، وأن المصالح لا بد وأن تتعارض وأن هوى النفوس لا يقف عند حد إلا عندما يوجد ما يلزمه الوقوف وما يكبح جماحه..

والأفراد عندما يجتمعون فإن مجرد هذا الاجتماع يجعل من هذا الاجتماع ما هو أكثر من مجموع أفراد وهو يولد قضايا ذات طابع اجتماعى تتطلب الحسم الذى لا يتحقق إلا بقدر من السلطة.

السلطة إذن أمر واقع، ولا يقودنا التنديد بها إلى أن نتصور إمكان التخلص منها نهائياً كما تصور أبو حاتم الأصم، أو كما أراد العدميون **anarchists** الذين جعلوا شعارهم "لا إله.. ولا سيد" ولا حتى الشيوعيين فى أحلامهم الخيالية عن "ذبول الدولة"..

فلا مناص عن الدولة.. ولا مناص عن السلطة ولا بد أن نجد معادلة للتعامل معها نحيّد أو نضائل بها شرورها. وقد نصل إلى مزايا تفوق شرورها.

السلطة نار حامية، جحيم يحترق فيه كل من يحتك بها احتكاكاً مباشراً.

ولا حل إلا أن نحيط هذا الجحيم ببحر من ماء. تتلاطم أمواجه وتستطيع أن تطفئ النيران المشتعلة للسلطة أو تحدها فى نطاق ضيق..

هذا البحر هو الحرية ...

ومن الجلى بالطبع أن هذا البحر لا يمكن أن يكون داخل السلطة لأنه لو كان بداخلها لبخرت الحرارة العالية لجحيم السلطة سيولته، وإنما يحيط بها بحيث تكون الدولة جزيرة وسطه..

بهذه الحالة لا يكون البحر - داخل الجحيم ولكن الجحيم يكون محاصراً ومحاطاً بالبحر

ولن نجد هذا البحر إلا فى الأمة، وفى تنظيّماتها الطوعية، وفى دعواتها الإصلاحية، وفى رجالها ونسائها المؤمنين ...

وقد يسأل سائل..

".. الحرية فقط.."

فنقول إن الحرية لا يمكن أن تكون "فقط"..

إن لها توابعها التي توجد فيها بحكم طبيعتها..

فلا يُتصور وجود الحرية - دون أن يوجد العدل لأنه عندما تغرى الحرية فريقاً بالظلم والاستغلال فإن الحرية نفسها ستدفع فريقاً للمطالبة بالعدل والإنصاف. إن اللواز بالظلم هو إساءة استخدام الحرية أو تجاوزها لها. لأن الحرية والعدل وجهان لعملة واحدة..

بهذه الطريقة وحدها يمكن أن نحول نار السلطة الحامية الحارقة.. إلى نار هادئة لا تحرق الطبخة ولكن تمكنها من النضج المطلوب..

كيف تجسد الأمة الحرية..

وكيف تتحقق عملياً هذه الحرية ...

إنها يمكن أن تتحقق بفضل الأمة وما تمثله من هيئات تطوعيه حرة تعمل في مختلف المجالات. فالأحزاب تستهدف الحرية السياسية ومشاركة الشعب وصد الطغيان والنقابات تحمي العمال وتصد جائحة الاستغلال الاقتصادي وهيئات الإصلاح الاجتماعي تحارب وجوه النقص في المجتمع كالجهل والمرض والهيئات النسائية ترفع صوت المرأة وتعمل لمساواتها بالرجال ونيلها حقوقها.. بل إن الأفراد كأفراد يمكن أن يقوموا كل على حده - بدور في هذا وهو ما أطلق عليه القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما أوجبه الحديث على كل واحد بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو الحديث الذي يحاول البعض أن يحيف عليه في حين أنه يمثل أحد وسائل تطبيق التكافل الاجتماعي. وقد أساء البعض تطبيقه، ولكن المبادئ كلها معرضة لإساءة التطبيق.

لعل هذا يجعل القارئ أخيراً يعرف لماذا قلنا إن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة. إننا نعيد الأمور إلى نصابها. ونبدأ مع الجماهير والقاعدة ونجعل غرسنا من الأسفل للأعلى كما هي طبيعة كل نمو ونتخلص من مضاعفات وتعقيدات الدولة ونغسل أيدينا من أقدار السلطة عليها اللعنة! ونقصر أسلوبنا على ما أراده الله للمؤمنين: الحكمة والموعظة الحسنة."

الفصل الخامس

السلطة تفسد الخلافة الراشدة وتحولها إلى ملك عضوض

تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض على يدى معاوية بن أبى سفيان..

وكان هذا أبرز دليل على جريمة السلطة، وأنها لا بد وأن تفسد أى نظام يعتمد عليها.

فالجديد فى حكم معاوية الذى اختلف عن حكم أبى بكر وعمر أن معاوية اعتمد على هذه الوسيلة الجديدة التى لم تكن موجودة فى الخلافة الراشدة - أى السلطة فى رمزيها السيف.. والمال..

وكانوا قد اعتبروا أن من التحول السيئ الذى حدث فى الخلافة أن عثمان "جاوز الخيزران إلى السوط" وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس وإنما كان ضرب الخيفتين قبله بالدرة والخيزران" كما أنه تصرف فى أموال بيت المال فى غير ما خصصت له، فجاء معاوية فتمادى فى استخدام السلطة فقتل صبراً حُجر بن عدى (له صحبه) وزملاءه وتوسع فى الاصطناع كأن يعطى عمرو بن العاص "مصر طعمة" وأن يعطى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان "طعمة" ولجأ إلى الخداع الذميمة مثل أن يغرى بعض الأعوان باستخدام السم ويقول "إن لله جنوداً من عسل" ومع هذا فسئرى أن عهد معاوية رغم تجاوزاته لا يعد شيئاً مذكوراً أمام تجاوزات يزيد ابنه، ثم من خلفه. ثم يطرّد الأمر فى الخلافة العباسية وما بعدها حتى إنهاء الخلافة سنة ١٩٢٤ لا يشذ الأمر فيها إلا ما كان من خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أطلق عليه أبو جعفر المنصور "أعور بين عميان" والذى استُخدم معه السم للقضاء عليه.

وقد حلل بن خلدون ببصيرته الثاقبة هذا التحول، وإن كان قد أبرزه بصورة لا يصدىم فيها أفكار الناس. فبعد أن ذكر ذم الإسلام للملك، والعصبية، قال إن الإسلام إنما ذم السيئ فى هذين. على أنه بعد أن قدم هذا التقرير، قدم ما يشبه المهادنة عندما تحدث عن الثروات التى انهالت على العرب نتيجة الفتوح وأن تصرفهم لم يكن قادحاً فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً ثم يستطرد..

".. ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن

نفسه وقومه فهو أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها".

ولكن هذه العصبية وإن تحولت إلى ملك فإنها - فيما رأى ابن خلدون "احتفظت بمعانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان ديناً، ثم انقلب عصبية وسيفاً. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك، والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والمُلك فى الطورين مُلتبسين بعضهما ببعض. ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء

جيلهم وتلاشى أحوالهم، وبقي الأمر ملكا بحثا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون، بطاعة الخليفة تبركا، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم".

وما نختلف فيه عن ابن خلدون هو أنه أبقى لبنى أمية وصدر من الخلافة العباسية بعضاً من "معانى الخلافة" إذ نحن نرى أن هذه المعانى قد قضى عليها تماماً مع هيمنة معاوية.

وقد عرف معاوية الرسول ﷺ واختاره الرسول تقريباً لأبيه - أبو سفيان - كاتباً له، ولكن هذا كان نوعاً من تأليف القلوب.. وكانت هذه الصفة ذات طابع رمزي على أننا نرى في معاوية في فترات حلمه وعفوه أثراً من تلك العلاقة بالرسول - حتى وإن كانت وهنائة - ثم نرى السلطة وهي تدفعه لأعمال وسياسات تناقض مناقضة صريحة أصول الحكم الإسلامى. ثم لا يكون لها داع إلا تلوّث سمعة خصومه كذلك الفعلة القميئة التي أقدم عليها وهي لعن على بن أبى طالب على المنابر. فهذا إجراء سلطوى خالص ينضح بأثر السلطة وينم عن شأن الخصومة وقد كان من بين الأمويين من يلعن علياً في اليوم ١٤٠ مرة "فقط كما علق على ذلك مؤلف "قراءة في كتب العقائد" الأستاذ حسن بن فرحان المالكى" وقرأت وأنا أتصفح كتب الحديث رواية "عن أبى زينب" فعجبت فإن الإرهاب الأموى جعل هذا المحدث يلتجئ إلى هذا التعبير لأنه لا يستطيع أن يقول عن على بن أبى طالب ولا يمكن أن يقول عن أبى الحسن لأنه معروف أو الحسين.. فاضطر لأن يقول عن أبى زينب. وليس هناك ما هو أكثر دلالة على جريرة السلطة من أن يصل إرهابها إلى هذا المدى ...

على أن السوءة الكبرى لمعاوية، والتي تكشف لنا كيف أن حب السلطة يمكن أن يغلب الحلم، والحكمة، والأسس المتبعة والمتفق عليها. هي أنه قضى على مبدأ اختيار الخليفة وأخذ بمبدأ الوراثة وكان من سوء حظه، وحتى تبلغ المفارقة أوجها، أن ابنه يزيد الذى رشحه لوراثة كان أبعد الناس عن التمسك بالدين أو الالتزام بأدابه كما لم تذكر له سابقة تكشف عن موهبة أو مقدرة، وحتى لو استبعدنا ما أحاطته الشائعات عن "يزيد القروء، ويزيد القيان، ويزيد الخمرور" فإن المبدأ فى حد ذاته فى منتهى الخطورة، إذ بهذا الإجراء أصبحت الخلافة - كما قال الجاحظ فى رسالته عن بنى أمية "ملكاً كسروياً وغصبا قيصرياً"..

وهو ما أعلنه سعد بن أبى وقاص وصارح معاوية به عندما دخل عليه فقال "السلام عليك أيها الملك" فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت "يا أمير المؤمنين فقال سعد أتقولها جذلان ضاحكاً. والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به".

والاعتذار الذى قدمه بن خلدون من أن بنى أمية ما كانوا يقبلون أحداً من غيرهم ليلى الخلافة. وأن هذا كان يمكن أن يفتح باب فنتة اعتذار كسيح بادی الركاكة، فضلاً عن أن بيعة يزيد هي التي فتحت الفتن بالفعل. وكانت سبباً فيما اقترف من المنكرات التي كان أولها الهجوم على المدينة وقتل الأنصار واستباحة أموالهم وانتهاك نسائهم. قيل قتل فى موقعة الحرة ألف وسبعمائة من وجوه الناس من قريش ومن الأنصار وعشرة آلاف من عامتهم سوى النساء والصبيان، وقتل من أصحاب الرسول ثمانون ولم يبق بدرى بعد ذلك. ثم أخذ قائد هذا الجيش البيعة على من بقى على أموالهم وأنفسهم على أنهم خول يزيد يقضى فيهم ما يشاء فأى مهانة يمكن أن تماثل هذه، وكان أهل المدينة أعز الناس حتى كانت موقعة الحرة فهانوا.

ثم كانت الكارثة المدلهمة كارثة كربلاء وقتل الحسين وكل من كان معه من رجال، وكانوا قرابة سبعين، ولم يتركوا رجلاً واحداً بينما حزت رأس الحسين وأرسلت إلى يزيد وقيل إن عمر بن سعد أمر أن تطأ الخيل أجساد القتلى، وإن استبعد بن كثير ذلك. وعمر هذا هو ابن سعد بن أبي وقاص الذى اعتزل الفتنة أيام عثمان فما أعظم الفرق بين الأب الذى يعتزل الفتن والابن الذى يتولى أشنع فتنة ويقوم بأسوأ فعله. لم تبق كربلاء من نسل الحسين إلا على الصغير والمريض الذى لم يكن قد بلغ الحلم، واحتضنته أخته زينب ودافعت عنه بينما كان عبيد الله بن زياد يقول "دعوني أقتله، فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة".

إن كربلاء قد أوجدت شقاً فى وحدة الأمة الإسلامية لم يسد حتى الآن. وقد كانت هى التى أوقدت نار الشيعة وأعطتها إرثها التاريخى، ولم تصلح أمية بعدها. فقد تتبع المختار قتلة الحسين واحداً واحداً فقتلهم، وأرسل إبراهيم بن الأشتر إلى ابن زياد فهزمه وقتله ومع أن انتصارات وجبروت عبد الملك بن مروان مكن لخلافة أمية، فإن ثأر الحسين كان وراء هزيمتها والقضاء عليها.

وجاء دور عبد الله بن الزبير، وكأنما عز على يزيد أن لا ينتهك حرمة مكة بعد أن انتهك حرمة المدينة. وتحصن بها عبد الله فنصب الجيش الأموى المنجنيق الذى أخذ يرمى الكعبة حتى احترقت ولولا أن جاء النذير بموت يزيد وعودة الجيش لكان من المحتمل أن تحدث فى مكة "حرة" أخرى تشبه حرة المدينة. فهذه الأفعال تنفى عن أصحابها أية إثارة من دين أو إسلام وتثبت أن خمر السلطة قد أذهبت العقول والأحلام وأن الخلافة أصبحت ملكاً كأسوأ ما يكون الملك.

ولقد وضح لنا زياد بن أبيه - رجل معاوية ويزيد - قسمات وطرائق هذا الحكم الجبرى فى خطبته البتراء التى لم تبدأ ببسمة أو بحمد الله - وأنى لها ذلك - وجاء فيها..

- "حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً.."
- ".. وإنى أقسم بالله لأخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصى والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى منكم الرجل أخاه فيقول "أنج سعد فقد هلك سعيد".."
- "... إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه.."
- وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه. ومن أحرق قوماً حرقناه. ومن ثقب بيتنا ثقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه. فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولسانى ولا تظهر من أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.."
- أيها الناس

إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زاده نسوسكم بسطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذى حولنا فلنا عليكم السمع والطاعة الخ ...

- وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى".
- هذه خطبة يمكن أن تكون "مانيفستو إرهاب" لأى حكم ديكتاتورى ليس فحسب لأنها عدت عقوبات رادعة، ولكن لروحها العامة التى تستهدف إشاعة الإرهاب وإيقاع الخوف فى القلوب وإيثار السلبية والتسليم

"أنج سعد فقد هلك سعيد" وإلزام الناس بيوتهم بالليل الذى عادة ما يكون وقت النشاط العام.. ثم تحذير كل واحد من أن يكون من ضحايا هذا الحكم.

أما مخالفة ما جاء بها من عقوبات لنص القرآن الكريم وروح التشريع فمما لا نرى أنفسنا فى حاجة لإيضاحه.

ومع أن معاوية بذل جهداً واستخدم الإرهاب والاصطناع والرشوة والسم لكى يمكن لابنه فإن مبدأ الوراثة فشل بعد موت يزيد وأثبت المجتمع الإسلامى أنه لا يمكن أن يقبله لأن العهد كان لا يزال قريباً بالخلافة الراشدة، مما جعل معاوية الثانى ابن يزيد يعتزل ويدع الأمر لبنى أمية.

كان لآبد من جبروت عبد الملك بن مروان حتى يمكن غرس تلك النبتة الخبيثة - فى تربة الحكم الإسلامى.

وجاء عبد الملك جبار بنى أمية والرجل الذى قال "من قال لى اتق الله قطعت عنقه" ..

جاء ومعه الحجاج كما جاء يزيد ومعه زياد ...

وكما عبر زياد عن حكم ديكتاتورية أمية فى خطبته، فإن الحجاج قدم خطبة لا تقل عن خطبة زياد، وتؤدى المعنى نفسه بأسلوب مختلف. ويكفى فحسب أن يسمع الناس مستهلهما "إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأنى لصاحبها" ولم يتردد فى أن يطبق هذا للتو واللحظة لأنه كان قد فرق جنده بين المصلين يحملون سيوفهم تحت أريدتهم وجعل لهم إشارة أن يضع عمامته (أى يخلعها) وعندما بدأ المصلون يحتجون على هذا المطلع ويحصبونه وضع عمامته. فأعمل الجنود سيوفهم فى الناس وقطفوا تلك الرؤوس اليائعة ...

ظهر عبد الملك بن مروان - جبار بنى أمية والمؤسس الثانى للخلافة الأموية بعد معاوية والذى مات سنة ٦٥ هجرية (٦٨٥ ميلادية) وهشام ابنه الذى مات سنة ١٠٥ (٧٤٣ ميلادية) الذى يعد المجدد الثالث للدولة.. وحاول عمر بن عبد العزيز آخر محاولات العودة إلى الخلافة الراشدة ولكن هيهات، فأين تذهب تلك الدماء والحروب والصراعات لم يستطع عمر بن عبد العزيز أن يعيد الخلافة الراشدة، وكان لآبد من إزاحته، وقد أزيح بالسم بعد عامين من خلافته. كما كانت تلك أيضاً نهاية يزيد الثالث بن الوليد الذى نادى بالإصلاح، فلم يطل به الحال. لأن جرائم وأوزار حكم بنى أمية كان لآبد أن تأتى عليها وكان لآبد أن يأتى يوم يؤخذ فيه بثأر الحسين، وبثأر زيد بن على الذى قتله هشام وصلبه..

وانتهى ملك بنى أمية عندما قتل مروان الثانى فى مصر.. وظهرت الخلافة العباسية..

هل كانت الخلافة العباسية أفضل من الخلافة الأموية ؟ على العكس لقد بدأت بخليفة حمل اسم السفاح! أعلن فى أولى خطبه له "أنا السفاح المبيح والثائر المنيح" فأى شئ يرجى من مثل هذا ...

إن مأساة بنى العباس أو قل مأساة السلطة، أن انتقامهم لم يقف عند بنى أمية الذين أعلنوا عليهم الحرب، ولكنها شملت بعد الانتهاء من الأمويين الهاشميين - سلالة الإمام على بن أبى طالب، وكان المفروض أن تؤول إليهم الخلافة ولكنها انحرفت من الفرع العلوى إلى الفرع العباسى وفعل العباسيون الأفاعيل ببني هاشم حتى تمنى بعضهم أن يعود "جور بنى مروان"

وإذا احتجنا إلى دليل على أن هذه الخلافة قامت على أساس استخلاص المُلْك العضوض بأى طريقة بل وبكل طريقة فتكفى توصيه إبراهيم الإمام "لأبى مسلم الخراسانى" .. إنك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتى انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعه فى أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وأن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ."

وعلق المقرئى فى رسالته النزاع والتخاصم ما بين أميه وهاشم "فأين أعزك الله هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم وتالله لو توجه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يوصى بهذا فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب لينزع من أيديهم ما فتحه آبائهم من أرض الشرك ليتخذ مال الله دولا وعبيده خولا فعمل أبو مسلم بوصية إبراهيم الإمام حتى غلب على ممالك خراسان وتخطت عساكره إلى العراق فيقال إنه قتل ستمائة ألف إنسان وسار فى الناس بالعسف والجبرية . وكان المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس هو أبو جعفر المنصور وهو لا يقل جبروتا ودموية عن عبد الملك بن مروان وقد جرت فى عهده دماء الطالبين أنهاراً .

وعاشت دولة بنى العباس قرابة خمسة قرون قبل أن يأتى "هولاكو" ليقضى عليها ويخرب بغداد.. وإن كانت قد استطالت فى مصر، ثم انتقلت إلى آل عثمان... وسيطر عليها بدءاً من خلافة المعتصم الأتراك وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية من ديلم أو فرس أو غيرهم من ذوى الرطانات غير العربية، فاستحال عليهم التفاعل مع القرآن الكريم وصعب عليهم فهم السنة حتى انتهت الخلافة إلى الزوال النهائى عام ١٩٢٤ على يد مصطفى كمال أتاتورك.

ونحن بالطبع لا نؤرخ للحكم الذى ادعى الإسلام وتقمص بقميصه وهو برئ منه غريب عنه مضاد له.. وإنما نريد هنا - بمنطق الوقائع والأحداث أن تثبت أن السلطة التى كانت هى السبب الأول فى ثورة معاوية على على أفست هذا النظام من الحكم الذى حمل اسم الخلافة. وقد بدء ذلك من عهد معاوية بن أبى سفيان سنة أربعين من الهجرة حتى القضاء عليها فى تركيا عام ١٩٢٤ وقد ركزنا الحديث على الخلافة الأموية لأنها هى التى تحملت وزر تحويل الخلافة الراشدة إلى مُلْك عضوض متحدية بذلك تقاليد الشيخين ومحاولة على بن أبى طالب العودة إلى الخلافة الراشدة، وكان رمزاً للحكم الإسلامى النقى النبيل وكان الصحابة متوافرين.. وذكرى النبوة لم تبعد... ثم سارت الأمور بعدها من سيئ إلى أسوأ ...

وطوال هذه المدة - أى قرابة ألف وثلاثمائة سنة لم تكن الخلافة خلافة حقاً ولكن صور متفاوتة من الحكم العضوض بكل سواته..

الفصل السادس

السلطة تفسد التشيع العلوى وتحوله إلى تشيع صفوى

هناك حساسية خاصة فى الحديث عن الشيعة..

من ناحية، فإن الفكر الشيعى هو أشد الأفكار الإسلامية تمسكاً بالدولة، ويجعل هذه الدولة "تيولوجية" يحكمها أئمة معصومون كما أننا لا نعدم فى ثنايا هذا الفكر آراء بعيدة كل البعد عن العقلانية مثل العصمة، والشفاعة والتقية والإمام الغائب الخ ...

ومن ناحية ثانية فإن الشيعة هى الفرقة الإسلامية التى تمكنت من إقامة دولة فى منطقة فسيحة من العالم، غنية بالثروات الطبيعية وفيها من المؤهلات ما يجعلها تدخل فى إطار الدول المتقدمة ...

وفى التعامل مع الشيعة، كما فى التعامل مع السنة، نحن نتخذ منطلقنا من القرآن الكريم نفسه ووحده دون تفسيرات كانت ثمرة ثقافات وميول أصحابها وتحكم فيها روح العصر كما نرفض مع هذه التفسيرات ما جاءت به من أسباب نزول أو نسخ أو غير ذلك مما انتهت إليه هذه الاجتهادات..

كما أننا نضبط السنة بمعايير من القرآن الكريم، فما اتفق معها أخذنا به وما اختلف معها توقفنا فيه.

وهذا المنهج قد يقربنا من الشيعة فى بعض القضايا، كما قد يجعلنا نختلف معها - كما اختلفنا من قبل مع المنهج السلفى التقليدى السنى..

ولكننا نؤمن أن الشيعة تمثل إضافة هامة وأصيلة فى الفكر الإسلامى تثرى المجتمع وتقوم بدور مطلوب فيه، ونحن أبعد الناس عن تعميق الخلاف ما بين الشيعة والسنة واعتبار الشيعة فرقة مارقة أو خارجة، لأن الاختلافات كلها تدور حول الخلافة أو الإمامة وليست هى من أمور العقيدة التى تؤثر على الإيمان الإسلامى. فالشيعة أخوة لنا فى الإسلام، ولهم معزتهم الخاصة.. وإن كنا نؤمن - فى الوقت نفسه - أن الشيعة تعرضت لمؤثرات خارجية عنها أثرت عليها. ثم عندما أصبحت مذهباً لدولة، فإنها - بتأثير السلطة - انحرفت تماماً عن مسارها.

ونحن نفرق بين ثلاثة أنماط تحمل اسم الشيعة:

النمط الأول: التشيع العلوى/ الحسينى. وهو الذى نراه التشيع الحقيقى الذى يمثل إضافة أصلية وله دور مطلوب.

النمط الثانى: ما أضيف إلى هذا التشيع عندما ارتوى اعطائه مضمونا سياسياً يجعله أساساً للحكم..

وهذا النمط - فيما نرى - مستحدث بحكم الملابس والاجتهاد، وفرض فرضاً على التشيع الأول وشوّهه حتى كاد أن يصل به إلى حد الخرافة ...

النمط الثالث: التشيع عندما أصبح حكماً ودولة باستيلاء الصفويين على الحكم وعندئذ فإن السلطة أفسدته إفساداً جعله لا يمت فى الحقيقة إلى التشيع العلوى / الحسينى رغم أن كل شعاراته وشعاراته ودعاياته تدور حول الإمام على والإمام الحسين.

أولاً: التشيع العلوى / الحسينى:

لعل مفتاح هذا التشيع هو الخصوصية التي تكتسبها شخصية الإمام على بن أبى طالب. وقلنا "الخصوصية" حتى لا تقع فى "الأفضلية" فنصدر أحكاماً بأن هذا أفضل من ذلك على غير أساس إلا الاجتهاد الذاتى الذى قد يخطئ ويصيب علماً بأننا لا نرى حرجاً فى أن يكون على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر وعمر فهذه مسألة تقدير ذاتى. وقد يكون حكم التاريخ أكثر سلامة من تقديرات تقوم على أقوال. **فالأفضلية قضية جدلية، أما الخصوصية فهي صفة ثابتة مقررة للإمام على** فالإمام من صميم البيت النبوى وصفوة الهاشميين وقد أراد الله له أن ينشأ فى بيت الرسول، وأن يقضى طفولته بين خديجة ومحمد وأنعم بهما وأن يكون أول من يسلم من الصبيان.

وكان الرسول يؤثره بمحبة خاصة، وزوجه ابنته الأثيرة فاطمة فأنجبت منه الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين الرسول.

وعرف على بشجاعته الباهرة التي أبدأها فى بدر وخيبر وغيرها من الغزوات التي جعلته فارس الإسلام.

كما عرف بزهده وتعاليه عن الحرص على الثراء أو الاستمتاع بالحياة الدنيا. وقد أراد الله له أن يعيش متقشفاً فقيراً.

وأورثه ذلك نوعاً من النفور من الثراء، وظل يعيش طوال حياته معيشة آحاد الناس وعامتهم. وعندما ولى الخلافة لم يكن ليدخل بيت المال شيئاً من الأموال والثروات حتى يقسمه فوراً، ثم يأمر بكنس بيت المال ويصلى فيه ركعتين "وكان الأموال قد قذرت أرضه فكنسها لتصح صلاته عليها" ..

وهو تصرف يماثل تصرف الرسول الذى انزعج عندما وجد تحت وسادته دراهم معدودة وخشى أن يسائله الله عنها..

وهذا إعداد إلهى لتخليص القادة الذين يصطفاهم الله من أدران الثروة التي تعزل صاحبها عن عامة الناس وتجعله مميّزاً له أرسنقراطية تعود إلى هذه الثروة التي هى عرض ومتاع من متاع الحياة الدنيا وليجعله قريباً من عامة الناس بحيث يتفاعل معهم ويتفاعلون معه، وهى صفة لم تتوفر بهذه الدرجة لأبى بكر أو عمر.

وعبر الرسول عن إعزازه لعلى وعن خصوصيته له فى مناسبتين: الأولى عندما استخلفه على المدينة لما خرج لغزوة تبوك، وأراد على أن يصحب الرسول، ولكن الرسول قال له "أما ترضى بأن تكون منى كهارون من موسى.. غير أن لا نبى بعد".

وجاءت المناسبة الأخرى فى حادثة غدیر خم - فى السنة الحادية عشر للهجرة "من كنت مولاه - فعلى مولاه. اللهم وأول من والاه وعادى من عاداه..". ونحن نأخذ بهذا الحديث، ولا نرى داعياً للتشكيك فيه لأنه روى عن كثير من الصحابة لأن معظم ما أورده بسند حسن، ولأنه ليس فيه من المعانى ما يثير اعتراضاً..

وولاية على (بفتح الواو) هى الإرث الأول والإضافة التي يفترض أن تقدمها الشيعة..

الولاية (بفتح الواو) هي الإرشاد الروحي، هي إشاعة الإيمان الذي تطمئن إليه النفوس وتقر به القلوب ويشيع السلام بين الناس.. والولى يقوم بهذه المهمة التي يقوم بها الأنبياء عادة. وما يميز الأنبياء هو أنهم يقومون بها بوحى من الله تعالى، أما الأولياء فيقومون بها بأسوة من الأنبياء..

أراد الرسول أن يكون عليا خليفته في الولاية بالفتح.. وليس في الولاية (بالكسر)..

وهذا هو ما فهمه بعض أحفاده. فقد قيل للحسن بن الحسن بن علي الذي كان كبير الطالبين في عهده، وكان وصى أبيه. وولى صدقة جده ألم يقل رسول الله "من كنت مولاه فعلى مولاه فقال بلى ولكن لم يعن رسول الله بذلك الإمامة والسلطان ولو أراد لأفصح لهم به" (٢١)

يضاف إلى الخصوصية التي منحها الرسول ﷺ للإمام علي وتمثلت في الولاية، طريقة حكم عليّ عندما آلت إليه الخلافة، وكيف حاول أن يعيدها خلافة راشدة، وكيف قاوم كل دعاة السلطة، وكيف تعذب وعانى طيلة خلافته ثم استشهد في النهاية.

وتأتى الإضافة الثانية التي قدمها الإمام الحسين، وهي الشهادة التي تمثل التضحية بالنفس في سبيل الكرامة، وهذه قيمة عظيمة لو استظهرها المسلمون واستوعبوها لاختلف التاريخ الإسلامى لأنها حدثت بطريقة "مساوية دراماتيكية" عميقة التأثير.

وتختلف شهادة الحسين عن شهادة الذين يقتلون في حرب مشروعة وفي سبيل الله في أنها شهادة مقصودة، فلم يكن هناك أى احتمال لنجاة ٧٢ رجلاً أمام بضعة آلاف وكان هناك منأى عنها في الاستجابة لمطلب زياد. ولكن الحسين رفض بإباء وأصر على أن يقتل أمام عينيه كل أفراد أسرته ثم يقتل هو نفسه في النهاية في مشهد يثير الحزن والأسى حتى بالنسبة لأقصى الناس ...

في نظرنا إذن، أن ما يحق للشيعنة أن تفخر به، وأن تقدمه في التاريخ الإسلامى، وأن تعتبره الأساس الفكرى لها هو ولاية علي.. وشهادة الحسين.

ولكن للأسف الشديد أن هاتين القيمتين فقدتا طبيعتهما عندما أدمجا في مضمون سياسى يستهدف الحكم.

فحدث التشويه الأول للفكر الشيعى الذى أقحمته دعوى الحكم وأبعدت الولاية (بكسر الواو) المدعاة الولاية (بفتح الواو) المقررة لعلى بن أبى طالب بحديث الرسول ﷺ.

نحن نأخذ بالحذر والشك كل ما نسجه الدعاة الشيعيون من أحاديث عن الوصاية لعلى بالخلافة. ونحن نستبعده لعدم ثبوته أولاً. إذ لو كان له أصل لأعلنه الرسول. وقد ولى الرسول زيد بن حارثة على أحد الجيوش وولى ابنه الشاب أسامة على جيش فى جلة الصحابة - بما فيهم عمر بن الخطاب. فلو كان الرسول يريد توصيه لأعلنها ولنفذهها.

ونحن نستبعدها لأنها تخالف طبيعة الإسلام كدين هداية ولأن مبادئه المقدسة عن المساواة تفرض ألا يكون لأحد فخر أو صفة خاصة بحكم النسب أو الدم أو الجاه الخ... ولأن الوصية تجعل من الإسلام حكماً ثيولوجياً وراثياً محصوراً فى فرع واحد من الأسرة النبوية، والقرآن الكريم يقول ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

(٢١) ابن عساکر، التهذيب ج٤ ص ١٦٢.

ونحن نستبعدهما لأن أقوال الرسول تخالفها فالرسول يقول "يا فاطمة.. يا صفية.. اعلمى فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً، ويقول "لا يأتونى الناس بالأعمال.. وتأتونى بالأنساب" فالعمل والتقوى هو معيار الصلاحية والأفضلية وليس الحسب والنسب.

ونحن نستبعدهما لأنها تخالف أعمال الرسول.

وقد عالج هذه النقطة أحد المؤرخين القدامى الذين أزعجه طموح بنى أمية، ثم توليهم بالفعل الخلافة.. دون على بن أبى طالب هو المقريزى فى رسالته النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم فقال "فإنى كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله ﷺ وقرب بنى هاشم - وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم فى أيام جاهليتها ثم شدة عداوة بنى أمية لرسول الله ﷺ ومبالغتهم فى أذاه وتماديهم على تكذيبه.

ويستطرد ...

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكرى فى هذا وأشباهه التى يطول ذكرها وأذاكر به من أدركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد فى طول عمرى سوى رجلين إما رجل عراه ماعرانى وساءه ما قد دهانى فهو يحذو فى المقال حذوى ويشكو من الألم شكوى وإما رجل يرتع فى ميدان تقليده ويجول فى عرصات تهوره وتفنيده فلا يزيدنى على التهويل والهذر الطويل إلى أن اتضح لى والحمد لله وحده سبب أخذ بنى أمية الخلافة ومنعها بنى هاشم، وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد الأخبار وعلماء السير والآثار أن رسول الله ﷺ توفى وعامله على مكة أبو عبد الرحمن عتاب بن أسيد ابن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها الله على رسول الله ﷺ عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل فاقر أبو بكر الصديق رضى الله عنه عتاباً حتى ماتا فى يوم واحد وكان النبى ﷺ قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سعيد على صنعاء والمهاجر ابن أبى أمية على كندة وزيايد بن ليبيد على حضرموت ومعاذ بن جبل على الجند وأبا موسى الأشعرى على زبيد ورمع وعدن فكان عامل رسول الله على صنعاء اليمن كما تقدم خالد بن سعيد بن العاصى بن أمية بن عبد شمس بعثه ﷺ إليها سنة عشر من الهجرة فتوفى رسول الله ﷺ وخالد على اليمن وكان أبان بن سعيد بن العاصى بن أمية على البحرين برها وبحرها منذ عزل العلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية وقيل بل مات رسول الله ﷺ والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر تبوك وفدك.

فإذا كان رسول الله ﷺ قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يحتد فى الولاية أملهم أم كيف لا يضعف أمل بنى هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أملهم.

فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ﷺ ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفنل أمراسهم.

لما كانت بنو هاشم من بنى قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعنى الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقي وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة لهذا أزواها الله

تعالى عنهم تنبيها على شرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد ﷺ كما ثبت أنه ﷺ لما خير اختار أن يكون نبيا عبداً ولم يختار أن يكون نبيا ملكا وسأل مثل ذلك لآله".

وقطع المقریزی بأن علي بن أبي طالب كان يعلم أن رسول الله ﷺ يربأ ببني هاشم عن ولاية الأعمال وقال "وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلم أن آل البيت أرفع قدراً من أن يبتليهم بأعمال الدنيا مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى سأل الحسين أين تريد قال العراق قال لا تأتهم قال هذه كتبهم وبيعتهم فقال إن الله عز وجل خير نبيه ﷺ بين الآخرة والدنيا فاختر الآخرة ولم يرد الدنيا وإنك بضعة من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم فارجع فأبى الحسين وقال هذه كتبهم وبيعتهم فاعتنقه عبد الله بن عمر وقال استودعك الله من قتيل فكان كما قال ابن عمر وكذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما للحسين والله يا ابن أخى ما كان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة وهذا من فقههما".

ونحن نستبعد الوصاية على أساس موضوعي. لأن الأساس الذى قدمه الشيعة هو أن العدالة الإلهية ولطف الله بعبده يستلزمان ألا تترك مسألة الإمامة دون حسم، وكما أوجب العقل إرسال الأنبياء والرسول، فإنه يوجب أيضاً تعيين أئمة معصومين فى غيابهم من أجل رعاية أتباعهم أو اصطلاحاً "ولايتهم". وعلاوة على هذا فإن النتيجة المنطقية لقبول تعاليم الرسول هو التعهد بالقيام بها، والفهم الصحيح النقي للمعاني الحقيقية للقرآن والأحاديث النبوية هو الذى كان يستطيع أن يتقدم بالمجتمع الإسلامى فى هذا الاتجاه، وهذا العلم كان فى حوزة أشخاص من خواص الرسول ﷺ ومن المقربين إليه وبخاصة على رضى الله عنه، وعن طريقه انتقل للأئمة الإحدى عشر أو أعقابه من الذكور.. وهذا هو الأقل رأى الشيعة الأثنى عشرية.

وهم يرون أن مبدأ اختيار خلفاء الرسول ﷺ أو انتخابهم، ليس هو الأمثل، لأن "قيادة الأمة أكثر أهمية من أن تناط بآراء أفراد عاديين وأنظارهم بحيث يكون من الممكن أن يختاروا لها شخصاً غير صالح، وهذا مما يتعارض مع الهدف الأسمى الإلهي من تنزيل الكتاب وإرسال الرسول، والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم مدى علم الناس وعصمتهم، ويستطيع عن طريق تعريف رسله بأولئك الذين يتميزون بالعلم والعصمة أن يضمن انتصار وحيه وتنزيله. وهنا تطرح قضية الشخصيات على بساط البحث إذ يعتقد الشيعة أن أولئك الذين كانوا على علاقة وثيقة بالرسول ﷺ هم الذين كانوا يستطيعون التحلى بهذه الصفات ومن ثم فإن هذه الصفات لم تجتمع إلا فى علي وأعقابه من الذكور.

وهذا الجزء من الجدلية الشيعية يكمل رأيهم الآخر الذى يعد أهم عنصر فى نظرية الشيعة السياسية: أى الضرورة المطلقة القاطعة للعدل كشرط الإمامة، وهذا طبقاً للآية الواردة فى القرآن الكريم صراحة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. {البقرة 124} ويدور بقية جدل الشيعة عن الإمامة حول تفسير مقام العلماء والمجتهدين فى المجتمع الإسلامى فى غيبة الأئمة، فالعلماء وهم جمع عالم تعنى به ذلك المحقق فى أمور الدين أو المعنى الخاص للكلمة عالم الدين أو الفقيه، والمجتهد لغة هو كل من يبذل كل جهده فى استخدام قواه الذهنية، لكنه يعنى اصطلاحاً العالم الذى يستنبط الأحكام الفقهية ويستخرجها من منابعها الأصلية، وإذا كان الأئمة هم المسئولين عن إرشاد المسلمين بعد غياب الوحي، أى بعد وفاة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ فإن العلماء والمجتهدين مسئولون عن مهمة إرشاد المسلمين بعد انتهاء فترة الإمامة أى بعد غيبة الإمام،

وهناك بلا شك فرق بين الفئتين وهو أن العلماء لا يشتركون مع الأئمة في العصمة أو سائر صفاتهم غير العادية^(٢٢).

ولكننا نرى أن تحرير القول في الشيعة يتطلب الفصل بين مرحلتين: المرحلة الشيعية كفرقة مكافحة معارضة لممارسات الدولة الأموية والعباسية دون أن تلى حكماً.. والمرحلة الثانية: عندما استطاع الفرع الأقوى من الشيعة - الأثنى عشرية - تكوين دولة الصفويين في إيران في القرن الخامس عشر. ونرى أن التكلف في استخلاص النتائج هو من الوضوح بحيث لا تكون في حاجة لرد بالتفصيل.

كما أن منهجنا في معالجة الشيعة في المرحلتين يختلف عن المعالجات التقليدية خاصة في العهود المظلمة القديمة التي دفعت التعصبات بكل من السنة والشيعة لأن يكفر بعضها بعضاً.. وهو ما يعود إلى أننا كما ذكرنا - لا نعتمد إلا على القرآن الكريم، وليس على أقوال أئمة يعدون خصوماً بعضهم لبعض في هذه القضية..

وانطلاقاً من هذا المنهج فنحن لا نرى أن الاختلافات ما بين الفكر الشيعي والفكر السني - رغم أنها عميقة فإنها لا يمكن أن تزيل عن الشيعة الالتزام بالإيمان الإسلامي الذي يبسط مظلمته على كل من يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" بل إننا نرى أن هذه الاختلافات أمر طبيعي، وأنه يثرى الموضوع لأنه يعبر عن آثار العصر والملابسات على الفكر ويعين على استبعاد هذه الآثار متى انتهى دورها، والعودة إلى العناصر الأساسية في القضية. وقلنا أكثر من مرة إن "الغلو" نفسه ليس شراً خالصاً لأنه في عنفه قد يصل إلى مدى يقصر عنه اللين والمعالجة المألوفة فيخدم القضية أيضاً..

ونحن نرى أن فكرة "الخلافة" أو "الإمامة" التي تعد أكبر فارق بين الفكر السني والشيعي وأكبر مميزات للفكر الشيعي، وما يلحق بها مما جاءت الإشارة إليه عندما عرضنا للفكر الشيعي لم تكن هي جوهر الفكر الشيعي ولكنها من عمل الملابسات والسياق التاريخي الذي فرضها على الشيعة كما فرض على الفكر السني فكرة الخلافة ...

ومن المسلم به أن الشيعة تبدأ من علي بن أبي طالب ويفترض أن تكون أنقى صورها وأكثرها أصالة بلورة لشخصية هذا الرجل، وهناك عدد كبير من العوامل أثرت على شخصية علي بن أبي طالب وساعدت على إبرازه في صورة مميزة..

وعلي بن أبي طالب مع أنه فرع من الدوحة الهاشمية إلا أن أباه - أبو طالب - لم يكن له حظ من ثراء - وقد رأى الرسول أن يضم إليه علياً تخفيفاً عن أبيه.

وهكذا أراد الله تعالى لحكمة خفية سامية أن يبعده عن عالم الثراء الذي كانت تتصف به بنو أمية، وأن تقربه إلى بيت الدعوة ليعيش بين محمد وخديجة: وليكون أول من يسلم من الصبيان.

وعندما لحق الرسول بربه وتطلبت الأمور تعيين خليفة أدت الملابسات إلى اختيار أبي بكر، وبعد أبي بكر جاء دور عمر بن الخطاب ثم تولاها عثمان. وأخيراً انتهت إلى علي.

ونحن نختلف مع الفكرة الشعبية المقررة عن أن علياً ظلم حقه في الخلافة، سواء لأن الرسول أوصى له بها، أو لأنه كان أفضل المرشحين..

(٢٢) الفكر الإسلامي المعاصر الدكتور حميد الله ترجمة الدكتور إبراهيم الدسوقي.

فليس من العسير أن يتبين أى دارس أنه لو أن الرسول أوصى له بشيء فى هذا الأمر الخطير لكان قد أعلمه صراحة حتى لا يحدث خلاف أو شقاق أو يحيق به ظلم. وقد أمر الرسول أسامة بن زيد، كما أمر أباه من قبل ولم يرفض أحد من الصحابة، ولو أراد الرسول أن يخلفه على لما عارضه أحد ...

ولكن الرسول لم يفعل هذا، وما يسوقونه من أحاديث لا تقتضى ذلك صراحة وتحديداً فضلاً عما عرضه المقريزى، وأوردناه آنفاً عن أن النبى كان يربأ ببنى هاشم عن الولاية.

ولم يكن من المعقول أن لا يدرك على بن أبى طالب ذلك. ولكن هذا لم يكن ليحول دون أن يكون له حق بحكم سابقته وكفاحه فى الترشيح للخلافة

وقضية أفضلية الإمام على على أبى بكر وعمر قضية لم يكن هناك ما يحول دون أن تثار، سواء من ناحية على نفسه، أو من بعض أصحابه وليس الحكم فيها بأن علياً أفضل مما يمس الإيمان فى شيء، لأنها قضية تقدير مبنى على اعتبارات حول الكفاءات لأفراد، وهى قضية بعيدة عن العقيدة والإيمان الخ... وكان يمكن أن تعد من القضايا الجدلية كقضية الفكر المعتزلى مثلاً - لا تثير حروباً أو دماء. ولكن ما جعلها كذلك هو ما ألصق بها من دعوى الوصاية وفكرة "الدولة" وفى النهاية السلطة..

ونحن نرى أن كل ما قيل عن الوصية لعلى إنما هى من الآثار التى أضيفت فى مرحلة لاحقة إلى على لأنه هو نفسه لم يدعيها ولأن ما سبق من أحاديث لا تقتضيتها فحديث "أنت منى بمنزلة هارون من موسى" لا تجعل له خلافة، فلم يرث هارون موسى، وكان الذى قام بعد موسى بالقيادة هو يوشع، وليس هو من سبط "لاوى" الذى يمت إليه موسى وهارون ولكن من سبط أفرائيم بن يوسف. بينما خص سلالة هارون بنوع من الكهانة.. كما أن حديث غدير حم لا يتضمن حقاً ولكن ولاية (بفتح الواو) وهى منزلة دينية خالصة تجعل علياً "ولى" هذه الأمة. وما فى هذا الولى من صفات الإرشاد والتوجيه الدينى وليس الحكم السياسى..

وهذه الآثار كلها تفقد دعوى الوصاية، وتثبت أنها إنما أضيفت إلى الفكر الشيعى فيما أضيفت إليه من روايات فى مراحل لاحقة.

وقدم الحسين لأرث الشيعة فكرة "الشهادة" عندما أثار أن يقاتل جيش ابن زياد وهو فى اثنين وسبعين رجلاً وجيش زياد فى أكثر من ألفين. ولم يكن من معنى لهذا إلا إثارة الشهادة وجاءت نتيجة المعركة، أو المجزرة - مؤكدة هذا المعنى بحيث أصبح من المأثورات فى الفكر الشيعى.

الولاية (بفتح الواو) التى أرادها الرسول لعلى بن أبى طالب فى حديثى غدير خم وأنت منى بمنزلة هارون من موسى والشهادة التى قدمها الحسين هما فى الحقيقة الركيزتان الأساسيتان للشيعة، بالإضافة التى تقدمها للفكر السياسى الإسلامى.

ومن المؤسف أن لم تلحظ هاتين الركيزتين لأن فكرة السلطة التصقت بهما فأفسدتهما..

ويجب أن نفرق بين مقاومة ظلم الحكام واستبدادهم والرغبة فى تولى السلطة. والأول واجب نبيل، مقدس أوجبه القرآن والرسول على المسلمين جميعاً باعتباره أسمى درجة من درجات النهى عن المنكر...

وأما الرغبة فى السلطة فإنها - مهما كانت دعاويها - مذمومة. ولم يكن عبثاً أن يُرسى الرسول نفسه مبدأ "طالب الولاية لا يولى" وإنا لا نولى هذا الأمر رجلاً طلبه.

الولاية (بفتح الواو) نقيض الولاية بكسرهما هى كالحمام (بفتح الحاء) والحمام بكسرهما. وما أبعد الفرق بين المعنيين.

ولو تفحصنا مسالك كبار أئمة الشيعة حتى جعفر الصادق لرأينا أنهم كانوا عازفين عن الولاية، ولعل مسلك الحسن أصدق مثال لذلك، يتلوه مسلك علي زين العابدين.. ومحمد الباقر.. وأخيراً جعفر الصادق الذي عندما جاءت إغراءات بالحكم أحرقها ...

المفارقة المذهلة أن الذين لم يفهموا هذا المسلك زيفوا على جعفر الصادق بالذات من الأحاديث والروايات ما تئن به الجبال من ادعاءات الحكم، ليس فحسب على هذه الأرض، ولكن على الكون بأسره..

أما قومات زيد بن علي، وهو الذي يماثل جعفر الصادق في منزلته، وابنه يحيى من بعده - فإنهما كانا يؤمنان كما هو معروف عند الزيدية - بضرورة مقاومة الباغي من الحكام وهو قريب مما فعله الحسين. وقد قتل زيد كما قتل ابنه يحيى وحملت رؤوسهما إلى الحكام الجناة.

وكما قلنا فإن مقاومة الحكام شئ - وطلب السلطة والولاية شئ آخر.. وقد نجد هذا في الحركة الشيعية نفسها. فإن الفرع الإسماعيلي الذي انحرف عن الخط الجعفري هو الذي استهدف الولاية وانتهى به الأمر إلى المؤامرات والباطنية وظهر منهم "الحشاشون" و "السفاحون" كما نشأت فيهم "القرامطة" الذين حكموا البحرين وعمان واستولوا على مكة. كما أقامت فرقة منهم حكماً في تونس وهم الفاطميون الذين استولوا على مصر وأسسوا الأزهر وحكموا مصر حتى أعادها صلاح الدين إلى المذهب السني.

وكان النشاط السياسي الذي قام به الفرع الإسماعيلي واستهدف مباشرة الحكم هو الصورة الأولى لإفساد السلطة للفكر الشيعي ...

أما الصورة الثانية، والتي لا تزال الحركة الشيعية تعاني منها حتى الآن فقد ظهرت عندما استولى الصفويون على الحكم في إيران وجعل الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي هو المذهب المقرر (من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر) ووصل الهوس المذهبي إلى درجة لا يمكن تصورها. وفرض الشاه إسماعيل لعن أبي بكر وعمر وعائشة وقتل قرابة أربعين ألفاً ترددوا أو رفضوا ذلك وأقيمت احتفالات في ذكرى "مصرع عمر" تحت اسم "عمر كشان" وفي الوقت نفسه فإن تقديس الإمام علي وصل إلى درجة أن اللقب الرسمي للشاه عباس الكبير كان "كلب أستان علي" أي كلب عتبة علي.. ولم يكن لدى هذا الشاه ذرة إيمان حقيقي بالإسلام لأنه أفطر مع حاشيته علناً مع مسيحي أصفهان وأكل معهم لحم الخنزير ويذكر الكاتب الذي نقل لنا هذه الواقعة^(٢٣) وهو الدكتور الدسوقي شتاً.

"أصبح التشيع مذهباً للدولة تفرضه كتائب الحكومة بقوة السلاح، ونوعاً من العقيدة الجبرية التي ينبغي على كل الأفكار والعقائد أن تتوارى أمامها، وبدأت التشكيلات الشيعية تظهر في المراكز العلمية، ليست تلك التشكيلات الثورية ذات الفكر المتقدم، بل ساد نوع من الجمود الفكري الديني، لم يكن المذهب الشيعي الإثني عشري الحقيقي هو الذي ساد الدولة الصفوية، بل كان نوعاً من الالتزام المتعصب في مواجهة أهل السنة من العثمانيين، وبلغ بعض ملوك الصفوية حداً في تقديس "مظاهر" المذهب يبلغ مبلغ الإسفاف، فلم يعد من المذهب إلا الاحتفال بشخصيات الأئمة، والمبالغة في تزيين المساجد والمشاهد الإمامية بصحائف الذهب، كان المذهب على يد الصفويين صورة بدائية وقبلية، ونوعاً من العقيدة الجامدة، أو على حد تعبير

(٢٣) الثورة الإيرانية - الجذور - الأيدلوجية بقلم الدكتور إبراهيم الدسوقي شتاً ص ٢٩ - ٣٠ - دار الوطن العربي - بيروت.

أحد الباحثين المعاصرين "كان مهتماً بأن يجعل جميع المؤمنين كلابا لعتبة الولاية " وشاع في إيران أسماء مثل كلب حسين و كلب علي^(٢٤).

والى هذا العهد - عهد التشيع الصفوى - تعود كل ما طفحت به كتب الشيعة من ادعاءات مثل مصحف فاطمة، والجفر، وكل التفسيرات الباطنية للقرآن وكلها مفتريات على الشيعة تعود إلى العداوة المريرة التي نشبت ما بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية السنية وجعلت الدولة الصفوية تعتبر السنة هي عدوتها الأولى ...

وقد عالج هذه النقطة بوضوح وقوة كاتب إيران البارز الدكتور على شريعتى وهو الكاتب الذى يمكن مقارنته بإقبال، ومحمد عبده، ومالك بن نبي ومحمد أسد، وأبرز كيف أفسد الحكم الصفوى التشيع العلوى ورأى أنه "مذهب المساجد ذات القباب الذهبية والتي لا يتردد عليها مصلون، مذهب تجليد القرآن الكريم وتذهيبه وتمجيده وليس البحث فيه وليس تفسيره، تقديس القرآن لا لفتحه ولا لقراءته مذهب التوسل بكتب الأدعية لغلق القرآن الكريم، لأن القرآن يعلم المسئولية، والتشيع الصفوى هو الذى أشاع البكاء وقراءة الروضة، وقراءة دعاء على الدرجة الرابعة للصفاء والمروة يجلب الغنى، هو الذى أشاع كل ما ظنه أعداء التشيع تشيعاً حقيقياً وكل ما يزاوله الشيعة على أنه التشيع الحقيقى، وكل هذا البكاء والضرب بالقمة (سيف قصير) ليست من الإسلام وليست من التشيع"^(٢٥).

وأجرى الدكتور شريعتى مقارنة ما بين التشيع العلوى، والتشيع الصفوى نقلها الأستاذ فاضل رسول فى كتابه "هكذا تكلم على شريعتى" ..

فى التشيع العلوى

الوصاية:

تعنى أن الرسول/ طبقاً لأوامر الله تعالى، أوصى بأفضل الأشخاص وأكثرهم كفاءة فى أهل بيته، على أساس كونه أكثرهم علماً وتقوى واستحقاقاً

الإمامة:

تعنى قيادة ثورية، تهدى الناس فى الكفاح من أجل بناء مجتمع سليم، وتقوم بتوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال فى الرأى. إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملى لمبادئ ورسالة الإسلام، ويمكن بالعمل تحت قيادتهم أن نتربى ونعى أكثر فأكثر..

العصمة:

تعنى الاعتقاد بالنقوى الفكرية والاجتماعية للقادة المؤمنين، الشاعرين بالمسئولية، والساعين من أجل العلم وحكم الشعب. ويعنى هذا، رفض حكم الجور، رفض طاعة العلماء المشكوك بنزاهتهم ورجال الدين المزيفين المرتبطين بأجهزة الخلافة.

الولاية:

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) المرجع السابق ص ٣١.

تعنى القبول بحب على، والتصرف اقتداءً بسلوك على، باعتباره نموذجاً راقياً لأحد عباد الله. كانت قيادته تهدى الناس كسراج منير، وحكمه كان كتطلع الإنسان نفسه عبر التاريخ: أمل فى العدل والحرية والمساواة. فى سنوات حكمه الخمس خير دليل، ينشدها الناس ولا زالوا كقدوة.

الشفاعة:

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة فى الآخرة.

الاجتهاد:

عنصر الحركة والتطور فى الدين عبر الزمن، وخطوة فخطوة مع التاريخ والثورة الدائمة للإنسان. إنه تطور فى نظرة الدين يسمح بتطور منسجم فى الفقه حسب التغييرات.

التقليد:

علاقة منطقية وعلمية ضرورية بين عامة الناس وعلماء الدين المتخصصين فى المسائل العملية والحقوق وقضايا أخرى ذات طابع فنى ومتخصص.

العدل:

الاعتقاد بوجود صفة العدالة فى الله، وبأن الكون قائم على التوازن والعدل، فالنظام الاجتماعى والحياة أيضاً يجب أن ترسى على أسس العدل. إن الظلم واللامساواة هما نظام غير طبيعى وغير إلهى، بل إنه ضد الله. إن العدل هو أحد ركنين أساسيين فى الدين، فالعدل هو هدف الرسالة والشعار العظيم للإسلام.

* * *

إن التشيع العلوى هو تشيع المعرفة والمحبة.

إن التشيع العلوى هو تشيع السنة.

إن التشيع العلوى هو تشيع الوحدة.

إن التشيع العلوى هو تشيع العدل، (العدل فى العلم، فى المجتمع فى الحياة).

إن التشيع العلوى هو تشيع الممارسة.

إن التشيع العلوى هو تشيع الالتزام.

إن التشيع العلوى هو تشيع الاجتهاد.

إنه تشيع المسئولية.

تشيع الحرية.

تشيع ثورة كربلاء.

تشيع الشهادة.

تشيع السعى وراء التقدم والتطور.

فى التشيع الصفوى

الوصاية:

تعنى تعيين سلطة غير منتخبة، وراثية تستند إلى التسلسل الوراثى وعلاقة الدم والقراية

الإمامة:

هى الاعتقاد بـ (١٢) إسماء، باعتبارهم معصومين ومقدسین عناصر فوق البشر ومن ما وراء الطبيعة، وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب والشفاعة. إنهم ١٢ ملاكاً يمكن عبادتهم، فهم مخلوقات غيبية، بل وآلهة صغيرة تتحكم بالدنيا وبمشيئة الناس إلى جانب الإله الأكبر فى السماء.

العصمة:

تعنى مفهوماً ذاتياً، صفة استثنائية خارقة لمخلوقات غيبية، ليست من طينة البشر، ولا يمكن أن يخطئوا فى شىء، ويعنى هذا بأن ١٢ شخصاً فقط امتلكوا هذه الذات الخاصة وهذه الصفات. هذا يعنى أيضاً، الاعتراف بأن انحراف وعدم نزاهة الحكومات القائمة هى أمر طبيعى (لأنها ليست معصومة) والقبول بعلماء الدين غير النزيهين ورجال الدين غير المتقين، بحجة أنهم غير معصومين ولا يمكن توقع الكمال منهم.

الولاية:

تعنى حب على فقط، والتتصل من كل مسئولية عملية. تعنى الأمل بالجنة فقط، بسبب الاعتقاد بولاية على. أى أن الولاية هى لضمان الآخرة، وليست شيئاً يفيد المجتمع والشعب. إنها مسألة لا تهم الناس بل تهم الله. إذ إنها تعنى فى مفهوم التشيع الصفوى التشارك مع الله فى إدارة الكون والعالم

الشفاعة:

وسيلة لنجاة من لا يستحق !

الاجتهاد:

عنصر الجمود والتحجر فى الدين، وعائق أمام التقدم والتجديد والتغيير. وسيلة لإدانة وتكفير وتقسيق كل عمل جديد، كل كلمة جديدة، وكل نهج جديد فى الدين ونظام الحياة والعلم والفكر وفى المجتمع.

التقليد:

الطاعة العمياء لرجال الدين. التبعية المطلقة وغير القابلة للنقاش لرجال الدين، وذلك فى العقل والعقيدة والحكم. أى حسب تعبير القرآن، عبادة رجال الدين "عبادة الأحبار والرهبان من دون الله" ..

العدل:

طرح إلهى، يتعلق بما بعد الموت. أما كيف يحكم الله فى الآخرة وكيف يقضى بين الناس، فلا علاقة له بالدنيا، لأن الدنيا هى من شئون "الشاه عباس!!" انسجاماً مع القول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. الدنيا وما قبل الموت هى من صلاحيات الشاه عباس، والآخرة هى من صلاحيات الله !.

الدعاء:

تكرار ممل، مخدر، يعد الناس بآمال واهية. يطمع البعض بثواب عن حسنات لم يعلموها، ويقدم بديلاً عن بذل الجهود وتحمل الشدائد والمخاطر في الحياة.

الانتظار:

الاستسلام الروحي والعملى والعفائدى للأمر الواقع والوضع السائد. تيرير الفساد فى الأرض، والنظر للأمر الواقع وكأنه قدر لا يمكن رده. إلغاء الدور المسئول للإنسان. اليأس من كل إصلاح وتغيير وإدانة أية محاولة فى هذا المجال، بدعوى استحالتها قبل ظهور الإمام.

الغيبة:

سلب المسئولية من الجميع، تعطيل جميع الأحكام الاجتماعية للإسلام. الاعتقاد بعدم جدوى أى عمل، وبعدم مشروعية أية مسئولية اجتماعية بحجة أن الإمام الغائب وحده يمكن أن يقود، ووحده يستحق الطاعة. نحن مسئولون أمام الإمام وحده، لكنه غائب.. إذن فلا شئ يجدى!!.

التشيع الصفوى هو تشيع الجهل والمحبة.

التشيع الصفوى هو تشيع البدعة.

التشيع الصفوى هو تشيع التفرقة.

الفصل السابع

السلطة تفسد المسيحية وتحولها إلى محكمة تفتيش

من بين الأديان تميزت المسيحية بأنها ديانة الحب، والصفح، والخير والرحمة. وكما اتصف رسولها عيسى بن مريم - المسيح - بالبساطة والشعبية والبعد عما يحرض عليه الناس عادة من مال أو جاه أو قوة فكان رجلاً بسيطاً يمشى في الأسواق ويستخلص دعائه من صيادى الأسماك والفقراء والمنبوذين والنساء والمرضى بالبرص أو الصرع الخ... وقد أجمل لنا فكرة المسيحية ورسالتها وقداستها في الحياة في موعظة الجبل التي يطلق عليها في الكتابات المسيحية "التطويبات" ..

ماذا جاء في موعظة الجبل التي تعد دستور المسيحية؟؟.

إنها على ما رواه متى في إنجيله.

الفصل الخامس:

١. فلما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل. ولما جلس دنا إليه تلاميذه. ٢. ففتح فاه يعلمهم قائلاً.
٣. طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات. ٤. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض. ٥. طوبى للحزان فإنهم يعززون. ٦. طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون. ٧. طوبى للرحماء فإنهم يرحمون. ٨. طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله. ٩. طوبى لفاعلى السلامة فإنهم بنى الله يدعون. ١٠. طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات. ١١. طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجلى كاذبين. ١٢. افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم فى السماوات لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم. ١٣. أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يُملح. إنه لا يصلح لشيء إلا لأن يطرح خارجاً وتدوسه الناس. ١٤. أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل. ١٥. ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من فى البيت. ١٦. هكذا فليضى نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات. ١٧. لا تظنوا أنى أتيت لأحل الناموس والأنبياء إنى لم آت لأحل لكن لأتمم. ١٨. الحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل. ١٩. فكل من يحل واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا فإنه يدعى صغيراً فى ملكوت السماوات، وأما الذى يعمل ويعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات. ٢٠. فإنى أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات. ٢١. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة. ٢٢. أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة. ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل. ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم. ٢٣. فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً. ٢٤. فدع قربانك هناك أمام المذبح وامض أولاً فصالح أخاك وحينئذ أتت وقدم قربانك. ٢٥. بادر إلى موافقة خصمك ما دمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن. ٢٦. الحق أقول لك إنك لا تخرج من هناك حتى توفى آخر فلس. ٢٧. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن. ٢٨. أما أنا فأقول لكم إن كل من نظر

إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. ٢٩. فإن شككتك عينك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. ٣٠. وإن شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يذهب جسدك كله إلى جهنم. ٣١. قد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق. ٣٢. أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا لعله زنى فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى. ٣٣. قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين لا تحنث بل أوف للرب بأقسامك. ٣٤. أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فإنها عرش الله. ٣٥. ولا بالأرض فإنها موطئ قدميه. ولا بأورشليم فإنها مدينة الملك الأعظم. ٣٦. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء. ٣٧. ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير. ٣٨. قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن. ٣٩. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر. ٤٠. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخذ له رداءك أيضاً. ٤١. ومن سخرك ميلاً فامش معه اثنين. ٤٢. من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه. ٤٣. قد سمعتم أنه قيل أحب قريبك وأبغض عدوك. ٤٤. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم. ٢٥. لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السموات لأنه يطلع شمس على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. ٤٦. فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم أليس العشارون يفعلون ذلك. ٤٧. وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل عملتم أليس الوثنيون يفعلون ذلك. ٤٨. فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل.

الفصل السادس:

١. احترزوا ألا تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات. ٢. فإذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المرءون فى المجمع والأزقة لكى يمجدهم الناس. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. ٣. أما أنت فإذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك. ٤. لتكون صدقتك فى خفية وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك. ٥. وإذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فإنهم يحبون القيام فى المجمع وفى زوايا الشوارع يصلون ليظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. ٦. أما أنت فإذا صليت فأدخل مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك فى الخفية وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك. ٧. وإذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم. ٨. فلا تتشبهوا بهم لأن أباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. ٩. وأنتم فصلوا هكذا. أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك. ١٠. لتكون مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. ١١. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. ١٢. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا. ١٣. ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير. آمين. ١٤. فإنكم إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوك السماوى زلاتكم. ١٥. وإن لم تغفروا للناس فأبوك أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم. ١٦. وإذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. ١٧. أما أنت فإذا صمت فأدهن رأسك واغسل وجهك. ١٨. لئلا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذى فى الخفية وأبوك الذى ينظر فى الخفية هو يجازيك. ١٩. لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والأكلة وينقب السارقون ويسرقون. ٢٠. لكن اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا أكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون. ٢١. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك. ٢٢. سراج الجسد العين فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً. ٢٣.

وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. وإذا كان النور الذى فىك ظلاماً فالظلام كيف يكون. ٢٤. لا يستطيع أحد أن يعبد ربين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويرذل الآخر. لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال. ٢٥. فلماذا أقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. ٢٦. انظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها. أفلمستم أنتم أفضل منها. ٢٧. ومن منكم إذا هم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة. ٢٨. ولماذا تهتمون باللباس. اعتبروا زنايق الحقل كيف تنمو. إنها لا تتعب ولا تغزل. ٢٩. وأنا أقول لكم إن سليمان فى كل مجده لم يلبس كواحدة منها. ٣٠. فإذا كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم وفى غد يطرح فى التور يلبسه الله هكذا أفلا يلبسكم بالأحرى أنتم يا قليلى الإيمان. ٣١. فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. ٣٢. لأن هذا كله تطلبه الأمم وأبوكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. ٣٣. فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزداد لكم. ٣٤. فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشأنه يكفى كل يوم شره.

الفصل السابع:

١. لا تدينوا لئلا تدانوا. ٢. فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. ٣. ما بالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ولا تقطن للخشبة التى فى عينك. ٤. أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها إن الخشبة فى عينك. ٥. يا مرأتى أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك. ٦. لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزقكم. ٧. اسالوا فتعطوا. اطلبوا فتجدوا. اقرعوا فيفتح لكم. ٨. لأن كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له. ٩. أى إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً. ١٠. أو إذا سأله سمكة يعطيه حية. ١١. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله. ١٢. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم. فإن هذا هو الناموس والأنبياء. ١٣. ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب، ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك والداخلون فيه كثيرون. ١٤. ما أضيق الباب وأحرج الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون الذين يجدونه. ١٥. احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم فى الباطن ذئاب خاطفة. ١٦. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنى من الشوك عنب أو من العوسج تين. ١٧. هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً. ١٨. لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر رديئاً ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً. ١٩. كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار. ٢٠. فمن ثمارهم تعرفونهم. ٢١. ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات. ٢٢. فإن كثيرين سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب ألم نكن باسمك تتبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. ٢٣. فحينئذ أعلن لهم أنا لم أعرفكم قط فأذهبوا عنى يا فاعلى الإثم. ٢٤. فكل من يسمع كلامى هذا ويعمل به يشبه رجلاً حكيمياً بنى بيته على الصخر. ٢٥. فنزل المطر وجرت الأنهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لأن أساسه كان على الصخر. ٢٦. وكل من يسمع كلامى هذا ولا يعمل به يشبه رجلاً جاهلاً بنى بيته على الرمل. ٢٧. فنزل المطر وجرت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً. ٢٨.

ولما أتم يسوع هذا الكلام كله بهت الجموع من تعليمه. ٢٩. لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين" انتهى.

كان لابد أن ننقلها بطولها ما دمنا نتحدث عن المسيحية التي جاء بها رسول الناصرة لنعرف الحقيقة وليس ما تقدمه الكنائس أو الأقباط. لأنها هي التي تمثل روح المسيحية الحقّة، والتي يكون علينا كمسلمين أن نؤمن بها تطبيقاً لتوجيهات القرآن المتكررة، ولأن عرضها بالكامل سيوضح - عند المقارنة بما آلت إليه المسيحية - جناية السلطة عليها.

وهي تمثل أسمى ما يمكن أن يصل إليه خلق أو سلوك أو تطيب عليه نفس أو تخلص به روح.

ولا يعاب عليها أنها "مثالية" كما يقولون لأن هذا بالذات - تقديم المثل والقيم - هي مهمة الأديان إن عليها أن تقدم هذه القيم والمثل التي تشبه النجوم في السماء لا يلمسها أحد، ولكنه يسير في ضوئها فيهدى ويأمن الضلال.

ومن المسلم به أن التطبيق الحرفي والكامل لها هو ما يصعب على الناس، ولكن عدم التطبيق الحرفي لا يعنى إغفالها، ولا هو يعنى من باب أولى رفضها.

فما لا يمكن إدراكه كله. وما لا يمكن تطبيقه بالكامل لا يترك كله، ففيما يدرك مقنع خاصة إذا اقترن ذلك بشعور الإنسان بعجزه ورغبته في المزيد..

وسيرة المسيحيين الأول هي مصداق ما ذهبنا إليه...

فقد كانوا في السنوات الأولى لهم جماعات تؤلف بينها المحبة والرغبة المحرقة في تطبيق هذه المثل، ومن أجل هذا لم يستهدفوا الثروات والمناصب والاستعلاء، وشارك من كان لديه حظ من مال إخوانه ممن ليس معهم. كانوا يشتركون في كل شيء "سوى زوجاتهم" كما قال تيرتيان. وكانوا يمتنعون عن دخول الملاهي أو مشاهدة الألعاب أو سماع الموسيقى أو حلق اللحية أو التزى بأردية مزينة الخ... كما كان الكثير يعرض عن تناول اللحم أو يكثر من الصيام والتبذل ولا يقرب النساء الخ... وكان أفلوطين. وهو الفيلسوف القبطي المصري رغم تأثره بالفلسفة اليونانية "يستحى أن يكون لروحه جسم!".

وخلال الثلاثمائة سنة الأولى من تاريخ المسيحية انتشرت في عدد كبير من البلاد والدول في أوروبا وأفريقيا بفضل جهود الحواريين والرسول الذين كانوا يمثلون "الصحابة" ومن جاء بعدهم من التابعين ومما يثير الدهشة أن الحماسة للدين الجديد انتصرت على الوحشية الرومانية، وصنوف التعذيب عندما كان المسيحيون يلقون إلى الوحوش المفترسة في الأرينا من أيام نيرون حتى بقية أباطرة الرومان وكانوا يجلدون. حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف وكان الملح أو الخل يصب في جروحهم، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة في انتظارها، أو يشدون إلى الصليبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً. ودقت عصي حادة الأطراف في أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم، وسملت أعين بعضهم، وعلق بعضهم من يده أو قدمه، وصب الرصاص المصهور في حلق

البعض الآخر، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة؛ ومزقت أشلاء البعض بأن شددت أجسامهم إلى غصون أشجار تثبت ثنياً مؤقتاً^(٢٦).

كان من الممكن أن تسير المسيحية في مسالكها الشعبية لولا أن ظهر عاملان غيرا اتجاهها تغييراً بعيداً..

العامل الأول: أن الطابع الحر والتلقائي للمسيحية أدى إلى ظهور العشرات من الشيع والفرق. والتكتلات والتجمعات كل واحدة على ناحية معينة من مجالات العقيدة متأثرة في هذا بظروفها الخاصة. ويجب أن نذكر أن المسيحية ظهرت في قلب اليهودية. وأن أتباعها الأول - بما فيهم المسيح نفسه - كانوا يهوداً، وأن اليهودية هي أقدم الأديان وأكثرها تأثيراً بالمرحل العديدة التي مرت بها من ظهورها في العراق ثم لوازها بمصر وبقائها بها قرابة أربعمئة سنة تأثرت ولا شك بالوثنية الفرعونية ثم خروجها إلى فلسطين وتلاقيها بالأقوام الذين كانوا فيها وما أثمر هذا اللقاء من مسالمات وعلاقات أدت إلى تأثر اليهود. ثم طغيان النفوذ الروماني وأن ملوكها كانوا حلفاء للرومان في حقب عديدة من تاريخها ثم السبي البابلي الذي يعد نقطة تحول وبداية لعهد جديد وما تأثرت به اليهودية فترة هذا الأسر. وأخيراً تأثر الفكر اليهودي بمدرسة الإسكندرية وفكرها اليوناني في مرحلته المتأثرة بالديانة المصرية القديمة.. كل هذه المؤثرات كانت تتفاعل في اليهودية وتتعكس على الذين آمنوا بالدين الجديد من اليهود. ثم لا يقف الأمر عند اليهود فالمسيحية انتشرت في مناطق أوربية كانت وثنية، ولها عادات وتقاليد بيئية لم يكن من السهل دائماً التخلي عنها. نتيجة لهذا كله اصطحبت الزيادة العديدة بالخرافات والخلافات المذهبية التي أثرت على العلاقات بين الكنائس والتكتلات القائمة..

من هنا ظهرت ضرورة "التنظيم" ودخل التنظيم الحلبة بحيث أصبحت هناك ثلاث كنائس رئيسية في القسطنطينية وفي روما وفي الإسكندرية. ورزقت كنيسة روما عوامل موالية منها ما ادعى أن المسيح أوحى إلى بطرس أن يقيم كنيسته على هذه الصخرة.. "الفاتيكان" فضلاً عما رزقته من شأن عظيم في التاريخ. وشيئاً فشيئاً أصبح بابا روما هو سيد المسيحية في أوروبا وفي كثير من دول العالم، ولم تؤثر في سلطته كثيراً معارضة كنيسة الإسكندرية أو بيزنطة.

ويقدم لنا التاريخ درساً في التنظيم لا يتغير ولا يتبدل فما أن يتحول الدين إلى كنيسة والإيمان إلى كهنوت حتى يظهر السدنة والأتباع. وحتى تتكون شيئاً فشيئاً "للمؤسسة الدينية" التي هي ثمرة التنظيم مصالغ خاصة مستقلة عن مصالح الدين الذي قامت له، وفي بعض الحالات متعارضة مع الذي قامت له..

هذا درس لا خلاف عليه، ولا مناص منه، وهو يظهر عندما تتحول الدعوة الدينية إلى ملك. والرياضة من هواية إلى نادي. كما ظهرت في كل المؤسسات التي ترفع راية عقيدة، أو فكرة، أو طائفة، أو معرفة، ثم تكون لها بعد ذلك شخصيتها ومصحتها على حساب الدعوة التي قامت لها.

(٢٦) "قصة الحضارة" لويل دورانت ص ٣٨٠. وستودر الأيام ويعذب ديوان التفتيش المسيحي مسلمي الأندلس. واليهود والفرق التي لا تؤمن بالكاثوليكية إيماناً أعمى. يمثل هذه الأساليب الوحشية، كما سيلى.

أصبحت البابوية أقوى هيئة حاكمة فى أوربا، وأصبح من المؤلف أن يطلق على كرسى القديس بطرس "العرش البابوى" وكان فى حقيقته عرشاً أكثر سطوة من عرش أى ملك آخر، وضمت سلسلة الباباوات عدداً من أكثر الناس فسقا وفحشا ومجونا وأشدهم عتوا واستعلاءً وأعظمهم خبثاً ودهاء وجاء وقت أصبح الملوك بمثابة قطع شطرنج فى أيدي البابوات.

وقد يصور مدى ما وصل إليه استعلاء البابوية البيان الذى أصدره البابا أنوسنت الثالث فى أكتوبر سنة ١٠٦٦.

- البابا هو الذى يضع القوانين الجديدة.
- كل أمراء الأرض يقبلون قدميه.
- البابا مقدس، إنه لا يذنب ولا يأنم.
- ليس لأحد أن يحاكم البابا.
- إن كل فرد يحتمى بالبابا لا يمكن الحكم عليه.
- البابا لا يخطئ ولا يمكن أن يخطئ.

فانظر إلى خليفة السيد المسيح الذى قال "مملكتى ليست فى هذا العالم" والذى أبى أن يتولى قسمة ميراث والذى غسل أقدام المصابين بالجذام.. كيف أصبح يحكم ممالك العالم ويرأس الملوك ويطلب الجميع بتقبيل قدميه !!.

وبعد إصدار هذا القرار بعشرة أعوام جاءت واقعة كانوسا المشهورة عندما تمرد الإمبراطور هنرى الرابع على الكنيسة فأصدر البابا قراراً بحرمانه. فأضطر سنة ١٠٧٧ أن يذهب إلى البابا فى قرية كانوسا حيث كان هناك وأن يقف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالمثل بين يديه ويظفر بالصفح عنه.

وناصبت الكنيسة العلوم والفكر العدا. وأقامت وصاية على نشر الكتب وذلك بإصدار ما يسمونه "الجدول (INDEX LIBRORUM PROHIBITORUM) الذى تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة ٣٢٥ عندما حرم كتاب الأسقف أريوس المعنون **THALIA** ويعود تاريخ ظهوره الفعلى مع تطبيقه على ما سبق إلى مجمع ترينتى سنة ١٥٦٤. وهذا الجدول يصدره البابا ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها. ويدخل فيها بالإضافة إلى نصوص التوراة والأنجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجالييو، وهوبز، وديكارت، وجان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيورات ميل، وفكتور هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون الخ... وتمسكت الكنيسة بحماقة بفكرة ثبات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثاً وأنها أهم من أية قضية تتعلق بالعقيدة المسيحية.

ووقفت الكنيسة دائماً فى صف النبلاء ضد الجماهير، وكان للأساقفة تمثيل كبير خاص بهم فى مجلس اللوردات وقاوموا أولى الانتفاضات الجماهيرية فى بريطانيا التى حملت اسم ثورة الفلاحين فى القرن الرابع عشر. كما قاومت الكنيسة البروتستنتية وعلى رأسها وقتئذ مارتن لوثر نفسه قومة الفلاحين الألمان التى عرفت باسم ثورة الفلاحين فى القرن السادس عشر، ودعا مارتن لوثر النبلاء إلى سحقها بكل قوة.

وكان هذه الضرورة التنظيمية التي أدت إلى ظهور الكنيسة واستئثارها بالمسيحية في العالم الأوربي احتكارها لكل شئون الدين، وما يرتفق من شئون الدين على الدنيا لم تكن كافية إذ اقترنت أيضا بالهيمنة على شئون الحكم وإدارتها للسلطة بحيث كان البابا هو الذى يتوج الملوك والأباطرة.

وألحقت السلطة بالمسيحية وصمتين كانتا أبعد ما تكون عن روح المسيحية الحقه الأولى الحروب الصليبية والثانية محاكم (أو ديوان) التفتيش.

بدأت الحروب الصليبية باجتماع كليرمونت الذى دعا إليه البابا أربان الثانى ١٠٩٥ وطالب المجتمعين نائباً عن الرب قائلاً "لست أنا، ولكن الرب هو الذى يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات الخ...!! وبهذه الكلمات بدأت الحروب الصليبية التى أعلنها البابا باسم الرب، والتى حمل فرسانها علامة الصليب، والتى قاد الحملة الأولى فيها نائب البابا وتوالت الحملات حتى بلغت سبعا كانت أخرها حملة لويس التاسع على مصر التى هزم فيها وأخذ أسيراً واستمرت طوال المدة منذ أن بدأت سنة ١٠٩٥ حتى استعاد السلطان قلاوون كل المناطق الإسلامية التى كان الصليبيون قد فتحوها عام ١٢٩١ وعندما فتح الصليبيون فى حملتهم الأولى بيت المقدس اقترفوا المنكرات ولجأ الناس إلى المسجد الجامع فذبحوهم جميعاً، ودام الذبح فى كل أنحاء المدينة حتى بلغت الدماء سيقان خيلهم وغاصوا حتى الركب فى الدماء وقدر أن سبعين ألفا من الرجال والنساء والأطفال قتلوا..

كانت هذه الحروب أقوى دليل على استغلال السلطة للمسيحية لتحقيق مآرب سياسية دنيوية خالصة..

والوصمة الثانية أشنع من الأولى وهى محاكم التفتيش التى كونتها الكنيسة لمحاربة بعض الفئات التى لم تلتزم بالخط الكاثوليكي وأبرزهم "الالبيين" نسبة إلى "البي" وهى مدينة صغيرة فى جنوب فرنسا، ثم تقرر تكوينها فى فرنسا وإيطاليا، وألمانيا، ولكن أسوأ صورها كانت فى الأندلس "أسبانيا" حيث تولت إبادة المسلمين بحيث ظهر الشيطان فى شكل أحد آباء الكنيسة وهو تريكيومادا الذى حمل الملكة إيزابيلاً. وقد كان كاهنها الخاص. على أن تستصدر من البابا سكتوس الرابع أمراً بتكوين ديوان التفتيش فى قشتاله سنة ١٤٧٨ وديوان آخر فى أشبيليه سنة ١٤٨٠م.

وقيل إن ضحايا محاكم التفتيش منذ أن أسست سنة ١٣٣٣ لملاحقة الألبين حتى ألغيت نهائياً سنة ١٨٣٥ وصل إلى تسعة ملايين^(٢٧).

وقد رأيت، وأنا أتصفح كتاباً عن تاريخ أوربا فى القرون الوسطى صورة أحد المخالفين وقد ربطوه من معصميه ووضعوا تحت إبطيه شمعتين مشتعلتين بينما جلس راهب يقرأ الإنجيل ليساعده على "خلاص" روحه !.

وهذه المحاكم هى التى حكمت على جوردانو برونو بالإعدام حرقاً سنة ١٥٩٨ وهى أيضاً التى تولت تعذيب جاليليو رغم كبر سنه إذ "علق الحديد بعنقه وتولى الجلادون تعذيبه ولما مثل أمام هيئة المحكمة جىء به عريانا حافى القدمين فربط إلى آلة خشبية وجلد وألبس فى رجله حذاء حديدياً محميا له مسامير" فإذا كانت

(٢٧) محاكم التفتيش "تأليف الدكتور على مظهر" ص ٥٠. مطبعة أنصار السنة المحمدية ١٩٤٧ القاهرة.

هذه هي طريقة تعذيب رجل مثل جاليليو، فلنا أن نتصور تعذيب المسلمين الذي عجزوا عن مغادرة أسبانيا والنجاة بجلودهم

ولدينا أوصاف لطرق التعذيب التي مارستها محاكم التفتيش يشيب لهولها الولدان، ولا يتسع لها المجال، ولكن لإعطاء القارئ فكرة ننقل هذه السطور

"... كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء. وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدئت، يعلق عليها بباب من الحديد السميك وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم. وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة ناتئة من الداخل تطوق بها جبهة المعذب ثم يأخذ المعذب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير في الرأس. ثم هناك كلاليب ذات رعوس حادة لسحب أثناء النساء من الصدور، وآلات لسلس اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تحمي لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع في يد أولئك الوحوش، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها في رجل السجين ثم يأخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً، وسفايد حديدية متباينة الأشكال لتحمي في النار وتستعمل لكي المعذب، ثم مشنقة معلقة في السقف لكي تشنق المعذب نصف شنق، فلا هو حي فيرجى ولا هو ميت فيواري. ثم سلاسل ضخمة وأتقال حديدية معلقة أيضاً في نواحي مختلفة من السقف ليربط فيها السجين وبينها، فتتجاذبه وتمزق أعضائه تمزيقاً في جهات عديدة، وتابوت كان عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المعذب وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة. فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان في عيني المعذب فتنفذان من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربته في قلبه وأخرى في معدته وأخريان في بطنه. ثم كانت توجد آلات كثيرة لطى الأسنان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنزال نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل. ثم إسفنج تغمس في الماء المغلى لسلق المعذب، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس، ثم صليب سمى (بصليب اندراوس) لصلب ضحايا التفتيش، ثم مائدة كبيرة وضعت في جانب البهو عليها ملاآت بيض وبجانبها برميل للماء. فإذا ما أغمى على معذب من شدة الألم يضعونه عليها ويلفونه بملاءة تبل بالماء البارد لإنعاشه حتى إذا ما أفاق أعادوا تعذيبه.

وكان يوجد في وسط القاعة (الجحش الخشبي) فكان يربط السجين إليه لإزهاق روحه بواسطة التضييق على رنتيه، فكانوا يطوقون صدوه بألة حديدية ثم يأخذون في تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين.

وكانت أرض قاعة العذاب من خشب قديم قد هراً ونخر السوس في أجزائه تتصاعد منه رائحة كريهة. أما المكان الذي كان يجلس فيه رجال التفتيش فكان مملوءاً بالصلبان وبالكتابة التي تشاهد عادة على القبور يقصد بذلك إلقاء الرعب في قلوب المذنبين، وكانت تشاهد دماء من عذبوا من قبل عليها وكثيراً ما تركت جثث في زوايا القاعة يقع عليها الذباب ويتصاعد منها كريه الروائح ليزيد كل ذلك في خوف المساكين الذين وقفوا أمام محاكم التفتيش. وقد أحاط بهم رهبان في ثياب سوداء وأغطية سودا تغطي وجوههم ورؤوسهم لا تظهر منها إلا عيونهم وقد وقفوا وفي أيديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام محزنة ومخيفة وبأصوات كلها الخشونة.

وكان بعض هؤلاء الرهبان يجلس إلى جوار رئيس المحكمة يمدونه بالنصائح والإرشادات فى مسائل التعذيب والحكم على المضطهدين. وكان من بين هؤلاء القوم راهب يحمل بيده صليبا رسمت عليه صورة المسيح مصلوبا يأمر هذا الراهب المعذبين بإدامة النظر إليه.

وكان يحضر التعذيب طبيب، عمله أن يفحص كل معذب حتى إذا أغمى عليه أمر بإيقاف التعذيب وإنعاش المسكين بشراب ما ليتحمل العذاب فيعاد تعذيبه من جديد.

وكان يحظر على المعذب إبداء أى حركة أو صراخ أو أنين. وكان يكلف بأن لا يرفع صوته.

وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كانوا يضعونها فى فم المعذب المسكين عوضا عن المناديل التى توضع لمنع الصياح. وقد جعلوا فى تلك الآلة مربعا على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه. ومن المستحيل عليه أن لا يصرخ ولا يتألم وكيف يمكن ويتسنى أن يعذب مسكين مثل ذلك العذاب ولا يبدي حراكا أو يصيح من الألم الذى يمزق جلده؟! (٢٨)

ما كان أغنى المسيحية السمحة عن أن ترتكب تلك الموبقات باسمها وبدعوى حمايتها ولكنها السلطة التى تمسخ نفوس الذين يتلبسون بها.

كانت تلك هى بداية الانحراف الذى زج بالمسيحية فى غمار السلطة والحكم والسياسة.. التى أفسدتها تماما وحولتها إلى محكمة تفتيش وجعلتها تزجى وتعبئ الجنود لإثارة الحروب.. ثم دخلت فى صراع مع السلطة هزمت فيه لأنها خلطت ما بين الدين والسياسة وجعلها ذلك تعود لمهمتها الأصلية.

وكل واحد يقرأ موعظة الجبل، التى هى دستور الحياة المسيحية ومنهجها لا يخالجه شك فى أن المسيح استبعد تماما الحكم والسياسة وقال "مملكتى ليست فى هذا العالم" ورفض حتى أن يقسم الإرث بين أفراد عائلته وكانت مهمته الوحيدة تخليص الروح وإنقاذ النفس الإنسانية من الغوايات والشهوات والمآرب التى تستحوز عليها..

لابد أن تخلص المسيحية نفسها من هذا الوباء لتستطيع أن تخلص الناس..

لابد للكنيسة أن تغسل يديها من هذا الماضى وأن تعود إلى المسيحية التى جاء بها المسيح وبلورها فى خطبة الجبل.

لابد أن تفهم أن السياسة والسلطة هى أسوأ ما يمكن أن تبلى به.

لقد تعلمت الكنائس الأوروبية هذا الدرس إلى حد ما، ولكن بعض الكنائس الشرقية فى حاجة لاستيعابه.

وقد يعيننا هنا، ويعين المسيحيين الغيورين على المسيحية، أن نعرض رأيين لعالمين من آباء المسيحية..

أول هذين هو المونسيور باسيلوس موسى وكيل الأقباط الكاثوليك فى مصر سنة ١٩٢٠ والثانى هو الأب متى المسكين وهو أحد آباء الكنيسة الأرثوذكسية فى تلك السنوات التى ارتفعت فيها دعوى "الفتنة الطائفية" وحدث صدام ما بين الكنيسة والسلطة.

(٢٨) المرجع السابق ص ٧٩ إلى ص ٨١.

قال المونسيور باسيلوس موسى^(٢٩) إن المسيحي عليه أن يخدم وطنه بإخلاص حتى لو لم يكن هذا الوطن مسيحي ما دام لا يجبره على تغيير عقيدته أو عبادة آلهة أخرى لأن الوطنية شيء.. والدين شيء آخر واستشهد بسلوك المسيحيين في عهد الرومان، فإنهم قالوا " أيتها الدولة الرومانية إننا حقيقة لا نعبد آلهتك ولا يمكننا أن نعبدها، لكن اعلمي أننا رغما عن ذلك نحن أخلص الناس لك ولاء لأن الدين غير الدولة، الدين هو من اختصاصات الضمير، أما الدولة فإنها إما نتيجة ظروف جغرافية طبيعية، وإما نتيجة الانتصارات، فلا دخل لها فيما يمس الضمير.

ويوجه المؤلف النظر إلى أنه رغم زيادة عدد المسيحيين وانتشار المسيحية في مختلف مستويات الناس ومسالك الحياة، فلم يخطر ببال هذه الجموع، التي لا عداد لها أن تثور يوما من الأيام في وجه الدولة أو وجه ملوكها، بل صبر المسيحيون على الاضطهاد وظلوا ثلاثة أجيال تُسْفَك دماؤهم عن طيب خاطر، وهذا دليل قطعي على أنهم مع تمسكهم الشديد بالنصرانية كانوا موالين لملوكهم في نفس الوقت والزمن الذي كان هؤلاء الملوك يوقعون بهم كل أصناف الأذى والتعذيب.

وقد استشهد المؤلف بحقيقة أن التجنيد في الجيش الروماني لم يكن إجباريا ولكن عددا كبيرا من المسيحيين تطوعوا في الجيش الروماني وحاربوا تحت ألوية "النسر" ببسالة مع تمسكهم بدينهم، وأورد المؤلف حالات عديدة لفرق أو مجموعات من الجنود المسيحيين أراد الإمبراطور أو القادة إجبارهم على تقديم الذبائح للآلهة الرومانية ولكنهم رفضوا وتعرضوا للنفاء وكان لسان حالهم كما ذكر أحد أفرادهم "حضرت سبع مواقع شهيرة لم أُنْقَهَر في واحدة منها وقت القتال بل كنت مثال الهمة والشجاعة كما يشهد رؤسائي فهل تظن أني بعدما قمت بواجبي نحو الدولة بذمة وأمانة أخون واجبي الأسمى نحو الله".

وفي كل هذه الحالات لم يدفع المسيحيون محاولة الرومان بالقوة أو يدافعوا عن أنفسهم بحد السلاح، رغم أنهم كانوا مدججين به ومحنكين في استعماله، ولكنهم آثروا أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا لأعدائهم، وهذه الوقائع كلها تدل على أن "المسيحي خادم أمين لدولته كما أنه خادم أمين لربه، وأن الدين والوطن هما شيئان متميزان من يقوم بفروضهما لا يقبل أن يخون أحدهما ولو اضطره الأمر أن يسفك دمه".

ويعيد المؤلف هذا الموقف على أساس مبدئي هو "اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وأن المسيح حقق في حياته ذلك بدفعه الجباية عندما طوَلب بها، ودفع الجباية إقرار واعتراف بسلطان من يطلب الجباية، ولما سأله الفريسيون هل يلزم دفع الجزية أم لا؟ أجابهم بالإيجاب وأضاف إلى ذلك الآية الشهيرة التي تدل صراحة على التمييز بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وهي "أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ثم لما قصده أحد الناس وقال له يا معلم قل لأخي يقاسمني الميراث "أجابه يسوع" قائلاً: "يا رجل من أقامني عليكم قاضيا أو مقسما؟" فصرح بكلامه هذا بأنه لم يأت إلى العالم ليكون ملكا أرضيا بل ملكا روحيا، وأن كل خلاف يدور حول الأرضيات يجب رفعه للسلطة المدنية.

وأن ما عمله المسيح قد عمله الحواريون.

(٢٩) انظر كتيب "الدين والوطنية" الذي ألفه المونسيور باسيلوس موسى سنة ١٩٢٠ وأقر طبعه مكسيموس صدفاوى مدير رسولى بطبركية الأقباط الكاثوليك "قائدة الشبيبة المسيحية".

قال ماربولس "لتخضع كل نفس للسلطين العالية فإنه لا سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة إنما رتبها الله، فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله، والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم، فذلك يلزم الخضوع للسلطان".

إن هذا النص لا يحتاج إلى تأويل؛ لأن معناه واضح، وهو أنه يتحتم على المسيحي - من باب الذمة وتبعاً لأوامر الضمير - أن يخضع للسلطة المدنية الشرعية، وقد جاءت هذه الآية في رسالة ماربولس الموجهة إلى المسيحيين الرومانيين الذين كان يحكمهم في ذلك العهد نيرون عدو النصرانية، والذي طوح به الجنون إلى أن يحرق روما لينسب هذه الجريمة إلى المسيحيين حتى يهيج عليهم الرأي العام ويفتك بهم، فكان بولس يقول: "ليس لكم يا مسيحي روما عدو ألد من نيرون، ولكن بما أنه صاحب السلطة الشرعية فيلزمكم من باب الذمة والضمير أن تخضعوا له وقد أمر ماربولس الأسقف طيطس أن يذكر الشعب بوجوب الخضوع للرئاسات والسلطين".

وما علمه بولس فقد علمه بطرس رأس الحواريين، إذ قال: "فأخضعوا إذن لكل خليفة لها عليكم سلطة شرعية، وأما للملك فكالأعلى (أي مثل الأعلى) وأما للولاة فكالمراسلين من قبله للانتقام من فاعلي الشر وللثناء على فاعلي الخير".

ويستطرد المؤلف:

"فهل يوجد شك بعد كل هذه البراهين الجلية والأدلة القطعية في ان حقيقة التمييز بين الدين والوطن هي من أصول المسيحية؟".

وقد علم الرسل أنه يلزم الولاء الكلي للسلطة المدنية، وأمر بولس الرسول "أن تقام تضرعات وصلوات وتوسلات وتشكرات من أجل جميع الناس، من أجل الملوك وكل ذي منصب، لنقضى حياة مطمئنة ذات دعة في كل تقوى وعفاف فإن هذا حسن ومقبول لدى الله مخلصنا".

وعملاً بأمر الرسول لم تنزل الكنيسة منذ نشأتها تطلب إلى الله في صلواتها الرسمية أن يحفظ الملوك في سلام، ويوطد بينهم الاتحاد والائتلاف، ولو كان هؤلاء الملوك غرباء عن النصرانية أو أعداء لها. ومن الجيل الأول إلى يومنا هذا ما فتئت الكنيسة القبطية مثلاً تصلى كل يوم في أثناء القداس الإلهي (وهو أسمى عمل ديني تعمله) من أجل الملوك والجنود والرؤساء والوزراء مع أنه منذ الجيل السابع لم يحكم مصر إلا حكام غير مسيحيين والبعض منهم أساءوا إليهم وعاملوهم بمعاملة لو ذكرت لما شكرت".

والثاني من هذين هو الراهب المتجرد - متى المسكين - كبير رهبان دير وادي النطرون. الذي كان أشد صراحة ووضوحاً في إظهار أن الكنيسة المسيحية لها مهمة واضحة يجب ألا تتجاوزها أبداً، وهذه المهمة هي تخليص النفوس بالبشارة المفرحة وكلمات الرب عندما أجرت معه جريدة الأهرام القاهرية حديثاً طويلاً عرض فيه هذه الفكرة^(٣٠).

وهو يرى أن تدخل الكنيسة حتى في الخدمات الاجتماعية يخرجها عن مهمتها، ويوقعها في متاهات، ويورطها في مواقف تتعارض مع دورها. وعندما سأله المحرر ماذا عن علاقة الكنيسة بالمجتمع؟ قال: إن

(٣٠) جريدة الأهرام في ١٧/٤/١٩٨٠ ص ٣ "قراءة في أوراق الأب متى المسكين" الأستاذ مكرم محمد أحمد.

مهمة الكنيسة ليست أن تخدم المجتمع ولكن أن تخدم الإيمان وأن تخدم المسيح في أشخاص الخطاة والعرايا والأذلاء والمشردين - وكلما خرجت الكنيسة عن اختصاصات مسيحها وبدأت تنزع إلى السلطان الزمنى وتجيش العواطف والمشاعر باسم الصليب وزاغت وراء أموال الأغنياء وارتمت في أحضان أصحاب النفوذ وحاولت الجمع بين السلطان الدينى والسلطان الزمنى ودأبت على المطالبة بحقوق طائفية وعنصرية - فشلت المسيحية في تأدية رسالتها ودب فيها الخصام والنزاع والوهن وأقل في وجهها ملكوت السماء وصارت فى حاجة إلى من ينتشلها من ورطتها ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأولى.

إن متى المسكين وهو يسعى إلى إنقاذ المسيح فى إنقاذ كنيسته صارم فى حدوده. إنه يرى حتى فى ذلك الدور الذى تؤديه الكنيسة تحت عناوين من الخدمة الاجتماعية وغيرها خروجاً عن دور الكنيسة.

لماذا؟

لأن الخدمة الاجتماعية - هكذا قول متى المسكين - إذ تشمل رعاية الشباب اجتماعياً وتوجيههم وتنقيف العمال وفحص أحوالهم ومطالبهم والعناية بالطلبة وإقامة النوادي والمعسكرات وترتيب المؤتمرات لبحث المشاكل الداخلية والخارجية للشباب بل وإقامة المستشفيات والملاجئ تدخل فى اختصاص نظام الحكم، فإذا علمنا أن أى نظام للحكم لأبد أن يكون له اتجاهه الخاص وخطه فى التوجيه والرعاية الاجتماعية لجميع ما عنده من الفئات فإنه يتحتم فى جميع الأحوال أن تكون الكنيسة دارسة لنظام الحكم حتى يكون مخطط الكنيسة الاجتماعى موافقاً ومطابقاً لمخطط الحكومة، وإلا فالصدام بين الكنيسة والدولة أمر لا مفر منه.

إن أردنا الاستفاضة يجيبنا متى المسكين قائلاً:

إذا عجزت الكنيسة عن أن تضبط الإيمان بالإقناع والمحبة وهرعت إلى الملوك والرؤساء لتستصدر منشوراً بالإيمان تكون قد أخطأت الطريق. إن الإيمان لا يحميه السيف ولا يحميه القانون وإنما تحميه البشارة المفرحة وكلمات الرب والإقناع بكلماته.

وعندما احتمت الكنيسة فى سيف قسطنطين الملك فى القرن الرابع ليتولى حماية الإيمان بالسيف ماذا حدث؟؟ قاد قسطنطين حرباً صليبية فى العالم رافعاً راية الصليب على سارى العداوة جاعلاً شعار الحياة هو نفسه شعار الموت، ربما لم يكن من العار أن يحارب أعداءه ولكن كان العار عليه - كل العار - أن يحارب أعداءه باسم الصليب.

إنه سيان أن تطلب الكنيسة القوة من السلطان الزمنى، أو تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمنى، لأن فى الأولى خروجاً على اختصاص الكنيسة، وفى الثانية خروجاً على منطق المسيح ووقوعاً فى دينونة الله. إن الحض على الاستهتار بسلطة الدولة متمثلة فى السلطان الزمنى هو تشجيع للشراً لأن الكنيسة لا ينبغى أبداً أن تأخذ موقف العداوة من الدولة والوطنية، ومصدر الخطر أن الذين يلقنون الدين للجميع يبنون الفرقة والتحيز والانقسام والتكتل.

إن يسوع المسيح يقول ليس سلطان إلا من الله. كما أنه يقول أعطوا الجميع حقوقهم، الخوف لمن له الخوف، والسلطان لمن له السلطان، والإكرام لمن له الإكرام، وبالتالي فإن تصرفات المواطن المسيحي فيما يختص بأمور السلطان الزمنى لا تقع تحت سلطان الكنيسة، فالكنيسة لا تستطيع ولا ينبغى لها أن تستطيع

أن تلتفت نظر وزير أو مسئول مسيحي في تصرفاته الحكومية لأنه ليس تحت سلطانها، الكنيسة فقط تسأل المواطن المسيحي فيما يختص بإيمانه وعقيدته وسلوكه الروحي، إن ذلك يؤدي إلى أن تكون حرية المواطن المسيحي مكفولة في التصرف وإبداء الرأي والاشترك في كل ما يخص وطنه في كل الأمور دون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تصرفه ودون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تقصير أبنائها في أدائهم الواجب الوطني، ودون أن توحى الكنيسة لأبنائها بالالتزام خطة معينة أو بسلوك تصرف معين تجاه الدولة حتى لا تكون الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمني عن تصرف زمني، لأن مسئولية الكنيسة فقط أمام المسيح وهي مسئولة فقط عن تصرفها الروحي.

وباختصار يقول متى المسكين: إن وطنية المسيحي وكل ما يتعلق بها من تصرفات خاصة وعامة سواء في الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة إنما تنبع من كيان المواطن لا من كيان الكنيسة، لأن الدولة هي المسئولة في النهاية عن وطنية المواطن المسيحي لا الكنيسة أو رجال الدين.

إذا لم تكن تلك هي مهمة الكنيسة فما مهمتها على وجه التحديد؟.

إن صوت متى المسكين يصل إلينا من صومعته في وادي النظرون خافتاً خاشعاً ولكنه صوت واضح ومحذر، إنه يريد أن ينقذ الكنيسة من الخطر الذي يتهدد مصيرها إذا ما نسيت رسالتها الأصلية، إذا ما نسيت أن أخطر عدو يهدد كيانها بالانحلال هو أن يهتم القائلون على أمرها بموضوع آخر غير خطيئة الإنسان فيتركوا دعوة المسيح للخطاة وهي التي كانت مهمته العظمى لينشغلوا بالإنسان من جهة حياته الاجتماعية، إن ذلك في رأيه ليس فقط خروجاً على المسيحية، ولكنه مقاومة لها.

كيف ذلك؟ مرة أخرى يعيد متى المسكين على مسامعنا صوت بولس الرسول "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم: أنا!".

إن الأمر في رأيه وفي رأى بولس الرسول بالغ الخطورة، لأن الذين يحاولون أن يخرجوا الكنيسة عن مهمتها إنما يفعلون ذلك لعدم قدرتهم على الكرازة بالتوبة لتجديد الإنسان وخلصه؛ لأن الخسارة التي سوف تجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضيع جديدة للكرازة سوف تنتهي أخيراً بانطفاء سراج المناداة بالتوبة لخلص الخطاة.

إن القائمين على الكرازة فقدوا الطريق الموصل إلى قلب الإنسان، فأخذوا يدورون في مآهات جانبية بعيدة تماماً عن مهمة الكنيسة، بل لقد ضيع هؤلاء بموقفهم، ذلك المفتاح المقدس الذي سلمه الرب يسوع إلى الكنيسة ليدخلوا به إلى قلوب الخطاة؛ لأن المفتاح الكبير الذي سلمه الرب إلى الكنيسة هو أن تفتح ملكوت السماوات للخطاة ولكنها ضيعت المفتاح عندما انشغلت بأموال الدنيا وتلاهدت عن خلاص الخطاة بمهمة أخرى.

إن هؤلاء ينسون أن المسيح لم يخلط أبداً بين مملكة الله ومملكة الدهر، لأن محاولة الكنيسة الاهتمام بالأمور الزمنية باسم المسيح هو بمثابة تنصيب المسيح ملكاً على الأرض، كما أن تقوية سلطان الكنيسة بدعوى المطالبة بحقوق الجماعة هو رجعة لإقامة ملك المسيا كما يحلم به اليهود.

إنه فيما لو صُفي فكر الكنيسة من كل أطماع الدنيا وفيما لو نفضت عنها كل الحقوق المطلوبة والحقوق المسلوبة حينئذ ستتذكر الكنيسة قول سيدها "مملكتي ليست من هذا العالم" ستتذكر أن التوبة ينبغي أن تكون شغل الكنيسة الشاغل لأنها رسالتها.

* * *

وعندما يقول الأب باسيلوس إن الدين شيء والوطنية شيء آخر، وإن المسيحي الأمين يخدم دولته حتى وإن لم تكن مسيحية ما دامت تكفل له حرية عقيدته المسيحية. وعندما يقول الأب متى المسكين إن المهمة الوحيدة للكنيسة هي أن تكفل الإيمان للإيمان للمسيحي بحيث يكون الخلاص - خلاص النفس، وخلاص الجسد هو الأمل الأسمى.

وعندما يستشهدان بكلام السيد المسيح وأباء الكنيسة، فإنهما في الحقيقة يتلاقيان مع القرآن الذي يقول - ويكرر إن الدين لله، وإذا كان الدين لله فعندئذ يتسع الوطن للجميع فالمسيحي لا يرفض خدمة الدولة غير المسيحية. والدولة المسلمة لا ترفض خدمة المسيحي.

الأديان تُجمَع وتصلح، ولكن السلطة تفرق وتفسد..

الفصل الثامن

السلطة تفسد الاشتراكية

وتجعلها دولة الحكم الشمولى

لم ترزق دعوة من الدعوات - باستثناء الأديان - ما رزقته الاشتراكية من الذبوع والانتشار والتأثير، وقد ظهر ذلك بمجرد أن صدر فى عام ١٨٤٤ المانيستو الشيوعى الذى صاغه ماركس وأنجلز فى عبارات كالرصاص المصهور، وتبنى دعوة المظلومين والمستغلين وتنبأ بخراب بيوت الرأسماليين، وانهارها وقيام دولة العمال..

كان سر قوة الاشتراكية أنها قدمت تنظيراً يتزيا بالعلم، ويتقدم بأسلوب أشد الدعوات حرارة وعاطفية، وأنها رفعت راية العدل ضد الاستغلال وجاء هذا فى وقت كانت الكنيسة - الممثلة للضمير المسيحى - قد تحجرت وتقولبت وانحصرت رسالتها فى الطقوس فأمن بالاشتراكية كل ذوى القلوب الطيبة والضمان الحية وانتشرت أكثر من أى نظرية سياسية فى العصر الحديث وتأثر بها الفكر السياسى حتى فى الولايات المتحدة ومن يقرأ كتاب فوكوياما عن "نهاية التاريخ" يجد أنه متأثر بمنطق وجدلية ماركس أكثر من قواعد آدم سميث رسول الرأسمالية ومنظرها.

وعندما ظهرت الاشتراكية فى أسبانيا فى ثلاثينات القرن الماضى وأرادت إيطاليا الفاشية قهرها تقاطر على مدريد قوافل من المتطوعين والمفكرين من كل دول القارة الأوربية للدفاع عن الجمهورية الاشتراكية الأسبانية - مما يذكرنا بنقاطر المتطوعين الإسلاميين على أفغانستان والبوسنة والهرسك، وقد لاقى معظم المتطوعين الأوربيين ما لاقاه "الأفغان العرب" أو المتطوعون فى البوسنة ...

ولأن الاشتراكية - حتى عند ماركس - كانت نظرية أكثر مما هى عقيدة - وبوجه خاص فى مرحلته الأولى - فإنها كانت كتاباً مفتوحاً أمام المفكرين فظهرت فيها من التيارات ما يفوق ألوان الطيف وتحت معطفها الواسع ظهر الفوضويون، والفابيون والبرلمانيون والثوريون الخ ...

لقد أمن الملايين من الرجال والنساء من عمال ونقائيين وفنانين وأدباء الخ... فى أربعة أركان الأرض بالمثاليات التى تصوروها فى الاشتراكية: العدل، المساواة، التحرر من الفاقة، كرامة الإنسان، حكم الجماهير، مقاومة الاستغلال الرأسمالى والاستعباد الإمبريالى الخ... وتعرضوا فى سبيل هذا - على مدار قرابة قرن - من منتصف القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين لكل صور الاضطهاد والترهيب. وضحوا بحياتهم فى السجون المظلمة أو تحت وطأة التعذيب فما استسلموا ولا استكانوا حتى نجحوا أخيراً وبصورة فاقت أحلامهم عندما قامت "دولة العمال والفلاحين" فى روسيا - على سدس العالم ورمز الرجعية والأتوقراطية، وبزعامة شخصية أسطورية بلورت كل أحلام البطولة ومثاليات الكفاح والتضحية ووصلت الثقة فيها والإيمان بها درجة التقديس.

ولنا أن نتصور الفجيرة التي أطبقت على الأجيال التي قدر لها البقاء عندما رأت أن الأمل الوردى الذى كافحت فى سبيله وضحى الآباء والأجداد لتحقيقه أصبح كابوساً رهيباً أفضع وأشنع من الرأسمالية المستغلة، ومن يد هذا المنقذ نفسه نبي الماركسية المعصوم تجرعوا كؤوس السم وغصص العذاب وزج بهم فى السجون ...

فهل هناك "دراما" أشد مأساوية من هذه... وما عسى أن تبلغ أى تراجيديا عن رجل وامرأة - حبيب وعشيقة أمام هذه الجائحة التي اجتاحت الملايين وقضت على آمال الأجيال.

لقد ظن العمال - ولهم الحق - أن قد آن الأوان لكى يتحرروا من التبعية المهينة للقيصر، والكنيسة، والنبلاء، والإقطاعيين، والرأسماليين، وأن يتخلصوا من عبودية الأجور. وكل صور الاستغلال الرأسمالى وما تؤدى إليه من قضاء على الشخصية وإصابة بالاغتراب.. وظنوا أنهم إذا لم يتولوا بأنفسهم إدارة الدولة، فلا أقل من الاقتصاد بعد استئصال الرأسمالية والرأسماليين وتحل نقاباتهم المحبوبة محل الرأسماليين..

ولكن من كانوا فى السلطة. وعلقوا عليهم الآمال كان لهم رأى آخر.. يختلف عن أراء العمال من الألف للياء..

هيمن لينين وتروتسكى على الثورة وكانا فى حقيقة الحال من بناء الإمبراطوريات وليسا من دعاة الاشتراكيات وكان لديهما من الحسم والإرادة والعزيمة والمقدرة والذكاء ما يجعلهما أمثال إيفان الرهيب أو بطرس الأكبر. وكان فى لينين عرق تترى يقربه من جنكيزخان. كما كان لتروتسكى جذر توراتى يجعله يوشع العصر. يفعل كما فعل يوشع التوراتى من تدمير وتقتيل وتذبيح ...

وكان كل منهما يؤمن بالثورة إيماناً ملاً جنبيه ولم يدع مكاناً لأى شئ آخر. وأما أن الثورة هى وسيلة السلطة، وأن السلطة هى وسيلة القضاء على الرأسمالية، وإقامة الاشتراكية، ولكنهما نسيا أن بلاء الرأسمالية جاء من الملكية الفردية لوسائل الإنتاج وهذه الملكية ليست إلا جزءاً صغيراً من السلطة، التي أفسدت الرأسمالية، لأن السلطة مفسدة، وأثبتت تجربة التاريخ أن كل واحد يستخدم السلطة لتحقيق أغراض - مهما كانت نبيلة - فإن السلطة تستخدمه وتخضعه لإفسادها.. وكل واحد يريد أن يصبح سيدها لا يلبث أن يصبح عبدها لأن السلطة هى المصدر الأكبر للشرور ومن يتحراها فإنه يضع نفسه تحت رحمة هذه الشرور، بل ويعمل تبعاً لها.

ومما ضاعف، وفاقم، فى شر السلطة اللينينية/ التروتسكية أنها كانت مطلقة لأن فكرة الثورة جعلت لينين يبدع نظريته فى الحزب ودفعت تروتسكى لأن يقحم نظريته فى عسكرة العمل.

والحزب اللينينى هو الحزب الثورى، أى الحزب الذى يتكون من ثوريين محترفين يعملون تحت قيادة منظرين اشتراكيين ويختلف هذا الحزب عن الأحزاب الاشتراكية التي كانت سائدة طوال الدولية الثانية، وكانت تحمل اسم الحزب الاشتراكى الديمقراطى وتعمل بوسائل إصلاحية وتساهم فى الانتخابات البرلمانية وينخرط فيها كل من يدفع اشتراكاً. كان حزب لينين شيئاً مختلفاً، إنه لا يقوم على هواة أو يضم كل من يدفع اشتراكاً شهرياً أو يحضر اجتماعاً. إنه يقوم على ثوار محترفين يجعلون الثورة حرفتهم الأساسية، والسلطة

هدفهم الوحيد ويصبح هذا الحزب هو "دينامو" الثورة الذى يجذب إليه الهيئات الجماهيرية كالثقافات واتحادات الطلبة الخ... وتكون هذه منه بمثابة "السير ناقل القوى" من الحزب الذى هو الدينامو والمحرك إلى الجماهير..

وتقتضى طبيعة هذا الحزب أن يكون محدود العدد لأنه لا يأخذ كل من هب ودب وإنما يأخذ أصلح وأصلب العناصر فى الهيئات الجماهيرية ويعد طليعة لها. ويستطيع - وإن كان أقلية - بفضل تنظيمه وضبطه أن يهيمن على المجتمع ويكفل السيطرة على الهيئات الجماهيرية، ومن ثم على الشعب..

وكانت هذه الفكرة عن الحزب من أكبر أسباب ثورة لينين على الدولية الثانية وأحزابها ولم يسترح إلا بعد أن توصل بعد نجاح ثورة أكتوبر - إلى تحويل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التقليدية إلى النمط الذى اختاره وكانت الخطوة الأولى هى تحويل اسم "الاشتراكي الديمقراطي" إلى "الشيوعي"، ثم وضعت الدولية الثالثة ٢١ شرطاً لمن تنضم إليها.. كانت تجعلها على غرار الحزب اللينيني وتجعل ولاءها كله للاتحاد السوفيتي.

فإذا كانت الفكرة فى الحزب هى التوصل إلى السلطة، فإن فكرة لينين تعد إبداعاً فقد أحل محل الجيش الذى كان يقوم بالانقلابات العسكرية جيشاً مدنياً يستطيع السيطرة على المجتمع بحكم تنظيمه حتى وإن لم يستخدم المدافع والقنابل. وإنما الإرادة الثورية والتنظيم الدقيق.

ولما كان هدف لينين من الثورة هو السلطة، فإن الحزب هو الأداة المناسبة. وقد نجح بالفعل فى أن يصل إلى السلطة، وأن يحافظ عليها بضعة عقود من السنين..

ولكن هذه الفكرة كانت تتضمن عديداً من المخاطر لم ينتبه لها لينين لاستغراقه فى الممارسات الثورية - أولها: وأهمها ما أشرنا إليه آنفاً من إفساد السلطة لكل من يستخدمها وليست الملكية التى أفسدت الرأسمالية إلا نوعاً من السلطة. وثانياً: لأن حزباً بهذا الشكل - يمكن أن يكون نواة لطبقة جديدة تظهر فى المجتمع، نواة محدودة العدد وفى يدها أزمة السلطة، وبهذا يظهر المجتمع الطبقي ويحل أعضاء الحزب محل الرأسماليين أو الإقطاعيين وأن يكون هؤلاء من العمال أو أنهم يستهدفون الثورة لا يغنى فتياً لأن نجاح الثورة يعنى استحوذهم على السلطة، وتحولهم من ثوريين إلى حكام والنتيجة هى غرس طبقة جديدة فى مجتمع أريد من ثورته القضاء على الطبقات. وهذه ولا شك واحدة من أكبر المفارقات السيئة التى لوثت النظام رغم كل محاولات لينين إيجاد ضمانات لكى لا يفسد هؤلاء الأعضاء.. إلا أن السلطة فى النهاية انتصرت فظهرت الطبقة التى تحدث عنها اليوجوسلافي ميلوفان دجيلاس..

وثالثاً: لأن تكوين حزب محدود العدد بهذا الشكل لا بد وأن يكون أقلية بالنسبة للهيئات الجماهيرية لأن الحزب لا يضم كل العناصر، ولكن أذكى وأقوى العناصر - وهؤلاء قلة بالنسبة للباقيين. فضلاً عن أن تدريب أعضاء هذا الحزب لا يتأتى إذا كان عدده جسيماً. فقلة عدد الحزب الذى يلى السلطة لا يعنى إلا أمراً

واحداً: الديكتاتورية. التي لا بد منها ليتمكن للأقلية أن تحكم الأكثرية" ومن هنا جاءت فكرة الإرهاب بالجملة **Wholesale Terror** كما ذكر صراحة في الجلسة السرية للحزب في بتروجراد قبيل الثورة^(٣١).

ولكن لينين كان متقبلاً لهذه الديكتاتورية على أساس أن ديكتاتورية البلوريتاريا ليست ديكتاتورية عسكرية أو إقطاعية. وما فاته هو أن الديكتاتورية واحدة ولا علاقة لها بطبيعة الأشخاص لأنها ممارسات. وإذا اقترنت بنظام سياسى فلا مفر من سقوطه فى النهاية مهما طال الأمد فضلاً عن أنها تفضى إلى ارتكاب ويلات لا عداد لها لأفراد لا عداد لهم والوقوع فى أخطاء لا تجد من ينبه عليها ويحذر منها حتى تتفاقم ويأتى السقوط والموت فى النهاية - كما حدث فعلاً للهزم الذى أقامه لينين فإنه أنهار كبيت من ورق بعد سبعين عاماً وانهارت معه كل "إنجازات" لينين..

وأخيراً فإن الحزب الذى يقوم على الاحتراف الثورى يجد نفسه فى مأزق عند النجاح فى الثورة والاستحواز على السلطة لأن هذا يعنى نهاية المرحلة الثورية وبدء مرحلة الاستحواز على السلطة. وهما مختلفتان تماماً فى الأولى الجهاد والتضحية والتعرض للسجون الخ... وفى الثانية إغراء السلطة من مال وكبرياء أو استمتاع. وكان من المآزق التى تعرض لها الحزب أنه إذا كان من العمال فقلما يتوفر فيهم المهارات الفنية ويصبح من الضرورى استقطاب جموع من الطبقة الوسطى يحملون - رغم أنفهم - رواسب طبقتهم وسيكولوجيتها، ولا يكون الحزب عندئذ عمالياً أو بلوريتاريا ولكن بورجوازيا..

* * *

لم تكن هذه المخاطر ماثلة فى ذهن لينين لأن فكرته كانت من البساطة والوضوح بحيث لا تفسح مجالاً للتفصيل. فالثورة هى الطريقة إلى السلطة والسلطة هى وسيلة تحقيق الاشتراكية.. والحزب البلوريتارى هو الذى سيمارسها. أما من لم يصل به الإيمان بالسلطة إلى حد الهوس مثل روزا لوكسمبرج وبليخانوف وكاوتسكى وكانوا من أساطين الاشتراكية وأطلق فيما أطلق عليهم لينين الانتهازيين والهرطقة والمنشفيك - فإنهم تبيينوا هذه المخاطر وكان ذلك فى أساس معارضتهم له، والسبب الذى من أجله صب عليهم جام غضبه.

ومن الإنصاف للينيين أن نقول إنه لم يتردد فى إعلان آرائه والدفاع عنها، وفى وقت مبكر (١٩٠٥) فى كتابه الهام جداً "ما العمل" صرح العمال بفضاظة أنهم لا يستطيعون تكوين حزب، وإنما يستطيع ذلك

The Russian Revolution in today perspective by Ernest Bock, p. 830. (٣١)

ويجب أن نقول إن جانباً كبيراً مما حدث فى الثورة قد لا يكون مكتوباً لأنه تم على أساس أوامر شفوية أو سرية وكمثال فقد جاء فى مقال للكاتب اليسارى الأستاذ محمد عودة فى مجلة الأهالى القاهرية نقلاً عن مجلة السياسة الدولية لثلاثة من الكتاب السوفيت عن "البيروسترويكا والدين" هم سيمسوف - كوفاليف - لينين ما يلى: "وفى الوثائق التى نشرت أخيراً عثر على خطاب سرى وخاص وبخط اليد أرسله لينين إلى مولوتوف وطلب منه أن يقرأه على أعضاء المكتب السياسى كل على حدة وألا تطبع منه أى نسخة وجاء فيه "لا بد من إتخاذ أشد الإجراءات وإنزال أقصى العقوبات برجال الكنيسة الأرثوذكسية وأوصى بأنه كلما قضينا على أكبر عدد من القسس الرجعيين أو من البرجوازيين الرجعيين رمية بالرصاص كان ذلك أفضل لا بد أن نلقنهم درساً لا ينسونه ويشل أى تفكير فى المقاومة لحقب طويلة" ويقول الكاتب - الأستاذ محمد عودة - إن ذنب الكنيسة والقسس أنهم قاوموا مصادرة أموال وكنوز الكنيسة لمقاومة المجاعة.

الانتلجنسيا المتعاطفة مع العمال من الطبقة الوسطى وأن ماركس وإنجلز لم يكونا من العمال وأن قصارى ما يستطيعه العمال هو تكوين النقابات التي قد تستطيع رفع الأجور شيئاً ما.

ولكن آراء لينين لم تكن تصل إلى القاعدة العريضة من العمال أو الملايين منهم الذين لم يعرفوا عنه إلا الصلابة والتفانى والحسم والبساطة فى المظهر والبعد عن كل مظاهر التميز والترف والترفع. وأنه ليس من النوع الذى يتأثر بالمديح أو يخدع بالإطراء... فهذه الخلائق التى كانت تقربه من العمال هى ما كان العمال يعرفونه عنه. أما آراؤه النظرية فهذه كانت تثار فى دوائر الحزب، وكان لدى لينين مقدرة فذه على انتزاع الموافقة على آرائه. وكان يبذل فى هذا جهداً جباراً ويستخدم كل الوسائل فىلوث خصومه ويصفهم بأفزع الصفات^(٣٢). ويخلط الأوراق ويستعين بمزيج من السفطة والشواهد التاريخية.. باختصار لا ينتهى فى النهاية حتى "ينزع" موافقة المجتمعين. وبهذه الطريقة حول مجموعته من "منشفيك" أى أقلية إلى "بولشفيك" أى أغلبية.

* * *

بالإضافة إلى نظرية الحزب، فإن لينين أبدع قاعدة المركزية الديمقراطية كأساس للأداء وهى ٩٠% مركزية و ١٠% ديمقراطية أريد بها تحقيق المركزية تحت غطاء ديمقراطى لأنها تقتضى :

أ- كل الهيئات الجماهيرية تنتخب من القاعدة بواسطة الأعضاء وتُسأل أمامهم.

ب- تتبع الهيئات الجماهيرية فى إدارتها لنشاطاتها القواعد التى تقررها الهيئات الأعلى

ج- يبت فى القرارات بمقتضى أغلبية الأصوات.

د- تتبع الهيئات الدنيا الهيئات الأعلى منها.

ولم يكن النظام الحديدى للحزب يسمح بأى درجة من الحرية خارج الإطار المقرر ويعتبر ذلك "فوضوية" "إنحراف" "انتهازية" ويتعرض من يتهم بها ليس فحسب للطرد من الحزب بل وفقد مركزه فى المجتمع.

لا جدال أن رجلاً بمثل صفات لينين ما كان يؤمن أبداً بديمقراطية أو حرية.. ولا يعرف إلا الحسم وعندما تولى السلطة وجد أمامه أكداً من المشاكل وأعداء عديدين ينفسون عليه الانتصار السهل الذى حصل عليه فى أكتوبر... لم يكن لديه وقت لفك العقد.. وكان يجب قطعها ولم يكن هناك وقت لتأجيل أو إرجاء خاصة وأن العالم الرأسمالى بدأ المقاومة.. ولما كان لا يؤمن بحرية أو ديمقراطية بل يرى فيها أكاذيب وتحايلات من البورجوازية، ولما كان لا يمثل إلا أقلية، فلم يكن هناك مناص من أن يفرض القرارات بالقوة ولتأمين ذلك أسس أكبر جهاز مخابرات عرف حتى ذلك الوقت فى العالم بأسره وسماه "درع الثورة" وأطلق له الحرية فى ملاحقة "أعداء الثورة" ..

(٣٢) تحدث إحدى المرات عن كاوتسكى بأنه "يعوى ككلب صغير ضال" وقد كان كاوتسكى يُسمى "بابا الماركسية" ويأتى بعد ماركس وإنجلز مباشرة.

وكانت آراؤه فى إدارة العمل والاقتصاد والإنتاج مما يتفق مع هذا المجرى الرئيسى، وكان كثورى لا يثق فى النقابات وكرجل "محترف" لا يؤمن بالهواية وكان يرى أن الإنتاج معركة كبيرة صعبة، ومعقدة، وتتطلب خبرات ومهارات وقدرات لا تتوفر للعمال ...

فى الوقت نفسه، فإن العمال ما إن بدأت الثورة حتى أخذوا زمام الأمور فى أيديهم فتكونت فى المصانع لجان تولت إدارتها كما قامت النقابات بدور فى ذلك.

وهكذا ظهر فى الأيام الأولى للثورة نوع من التقطب ما بين لينين وآرائه عن الإدارة وأنها يجب أن تقوم على فرد واحد مسؤول يصدر الأوامر التى يطبقها العمال، وما بين رأى القاعدة عن الإدارة العمالية التى تقوم بها لجان من العمال أو مسئولون نقابيون.

وشاهدت الفترة ما بين مارس ونوفمبر سنة ١٩١٧ نموا ملحوظاً للجان المصانع وفى أبريل سنة ١٩١٧ أعلن اجتماع لجان المصانع فى بتروجراد "أن كل التعليمات الخاصة بالإدارة الصناعية فى المصنع مثل طول عمل اليوم، الأجور، تعيين وفصل العمال، الإجازات الغياب الخ... يجب أن تصدر عن لجنة المصنع" كما عقد مؤتمر آخر للجان المصانع فى بتروجراد أيضاً (يونيو سنة ١٩١٧) سيطر فيه الشيوعيون. ودعا إلى تنظيم دقيق لرقابة العمال على الإنتاج والتوزيع "وإلى وجود أغلبية بلوريتارية فى أجهزة السلطة التنفيذية" ..

لقد ظن العمال أن الفرصة التاريخية لتحقيق علاقات العمل الاشتراكية قد حانت. ولكن لينين لم يكن يؤمن بهذا. إن الخيانة التاريخية التى لا تغتفر أبداً للينيين هى أنه أجهض فرصة الجماهير الاشتراكية لتقوم بإرساء علاقات عمل تخلص بها من سياسة الرأسمالية البغيضة وعبودية الأجور، كأن تقوم إدارة ينتخبها العمال بدلاً من الرأسمالى. وأن يحل وازع الإيمان الاشتراكى محل وازع الربح. وكان هذا ممكناً للمرة الأولى فى التاريخ الاقتصادى بعد القضاء على الملكية الفردية للمصانع وانتفاء التناقض ما بين العمال والرأسماليين. تلك كانت اللحظة التاريخية التى أضعها لينين على التجربة الاشتراكية فى العالم أجمع واستحق بذلك سخط بل، لعنة العمال الاشتراكيين حقاً.

ولم يكن لدى لينين إيمان خاص بأساس اشتراكى فى العمل مع أن قطار التطور كان مستعداً ليبدأ مسيرة علاقات العمل الاشتراكية البديلة عن الرأسمالية البغيضة، ولكن سائق القطار لينين غير مسار القطار بحيث يسير فى الطريق الرأسمالى نفسه.

كان لينين قد قال أن "كهربة" الاتحاد الاشتراكى هى أهم شىء ورأى أن الكهرباء + الاتحاد السوفيتى = الاشتراكية، ولكن الولايات المتحدة كهربت بلادها دون حاجة إلى اشتراكية، وعندما تم هذا لم تصبح اشتراكية. والنقطة الهامة التى فانتت لينين - وكان لابد أن تفوته لما سنعرضه من أسباب - أنه من الممكن للاتحاد السوفيتى رغم تخلفه أن يصل إلى الكهرباء بفضل إيمان عمال الاتحاد السوفيتى. وقد كانوا يؤمنون بذلك ولكن لينين لم يثق بهذا النوع من الإيمان لأنه يقوم على النفس الإنسانية، وهو كالرأسماليين لا يؤمن بالنفس الإنسانية وإنما يؤمن بالمادية التاريخية وبالتالي بالوسائل العملية، وفى سباقات العربات فى العصور القديمة كان كل سائق يلهب خيوله أكثر من غيره ليستخلص منها كل ما يمكن أن تقدمه. وكان هذا الأسلوب أحد الضرورات البغيضة لأن الخيل لا تبذل أقصى الجهد إلا عندما تتعرض لأقصى ألم مادي. ولكن الإنسان

يختلف عن الخيول. وفيه طاقة إيمانية يمكن أن تفعل المعجزات، ولكن الالتجاء إلى هذا كان التجاء إلى "الإيمان" ويمكن أن يجعل الاشتراكية "دعوة" ولينين لا يرى فيها سوى أنها أداة المادة التاريخية ومن ثم فإنه لجأ - كأصحاب السباق القديم - لإلهاب ظهور العمال ليستخرجوا آخر قطرة عرق، وكانت هذه صورة بدائية من صور الاستغلال تجاوزتها الرأسمالية نفسها التي لجأت إلى وسائل "المحفزات" فى الأجور، بل وبعض صور "العلاقات الإنسانية".

كان لينين يؤمن "بالإنتاج" أكثر مما يؤمن "بالإنسان" يؤمن بفاعلية الثواب والعقاب أكثر مما يؤمن بفاعلية الإيمان الاشتراكي، وكان ككبار الرأسماليين الذين أقاموا صناعات الحديد والصلب والبتروك والسيارات الخ... وإن كان أسرع تطبيقاً للإدارة العلمية من هؤلاء العباقرة الرأسماليين.

وبهذا فوت على التطور العالمى الفرصة الفريدة لإمكان وضع علاقات عمل اشتراكية محل الرأسمالية. وهذا الخطأ، وهذا الانحراف وهذه الخيانة.. مما لا يمكن على الأقل من وجهة النظر الاشتراكية أن يغتفر..

ووصل الصراع ما بين العمال الذين كانوا يريدون إقامة علاقات عمل اشتراكية وبين لينين الذى آمن بالإدارة العلمية إلى قمته خلال مايو ويونيو ١٩١٨ فى المؤتمر الأول للمجالس الاقتصادية فتحدث لينين بقوة مؤيداً "انضباط العمل" وإدارة الفرد الواحد، والحاجة إلى استخدام الخبراء البورجوازيين، بينما طالب العمال بإدارة عمالية لا تكون من أعلى فحسب، ولكن من أسفل أيضاً، وأن يكون ثلثا أعضاء مجلس الإدارة من العمال المنتخبين ونجحوا فى أن يحملوا المؤتمر على تعيين لجنة فرعية تمهيداً لقبول هذا الاقتراح، وغضب لينين غضباً شديداً لهذا "القرار الغبى" وبتوجيهه عقدت جلسة كاملة للمؤتمر "صححت" القرار وذلك بأن نصت بأن لا يزيد المنتخبون من العمال عن الثلث، ووضعت بنيانا هرماً معقداً يعطى حق "الفييتو" للمجلس الاقتصادى الأعلى. وهو قمة الهرم الإدارى.

وخلال سنة ١٩١٩ والشهور الأولى من سنة ١٩٢٠ ظفرت المعارضة ضد لينين وأفكاره عن "إدارة الفرد الواحد فى الصناعة" بتأييد النقابات. فقد دعا لينين وتروتسكى معاً المجلس التنفيذى للنقابات يوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٠ لقبول فكرة "عسكرة العمل" فلم يؤيدها سوى اثنين من ما يزيد على ستين مندوبين الشيوعيين وعلق "دوتشر": "لم يسبق أن قوبل تروتسكى ولينين بمثل هذا الصد العنيف".

وفى أبريل سنة ١٩١٨ نشرت ازفستيا مقال لينين عن "المهام العاجلة للحكومة السوفيتية" "اليوم، وجاء فيه إن الثورة تطلب - لمصلحة الاشتراكية - أن تطيع الجماهير بدون مناقشة الإرادة الفردية لقادة

العمل Unquestionably obey the Single will of the leaders of labor process

وكتب لينين: "إن الإدارة الجماعية تمثل شكلاً بدائياً rudimentary لازماً للمرحلة الأدنى - عندما يكون من الضرورى البناء الجديد. ولكن التحول إلى العمل الفعال practical work يرتبط بالسلطة الفردية. فهذا هو النظام الذى يضمن أكثر من أى نظام آخر الانتفاع الأمثل بالموارد البشرية. وفى افتراضاته إلى المؤتمر التاسع (مارس سنة ١٩٢٠) كتب: "إن المبدأ الانتخابى يجب أن لا يحل محل الانتقاء selective ورفض الإدارة الجماعية باعتبارها "يوتوبيا" وغير عملية وضارة".

وتوضح هذه العبارات أن لينين لم يتصور أن وجود العمال فى مجتمع اشتراكى لا يغير من سلوكهم كما لو كانوا فى مجتمع رأسمالى. وهذا أمر غريب. إذ ما الفرق إذن ما بين الاشتراكية والرأسمالية. إذا كان سلوك العمال فى المجتمع الاشتراكى لا يختلف عن سلوكهم فى المجتمع الرأسمالى؟ فقيم إذن كانت الاشتراكية، إن الاشتراكية الحقه تعنى مبادءه العمال وأن إيمانهم بالاشتراكية سيكون أفضل من الحوافز والضوابط التى تلجأ إليها الرأسمالية لعدم إيمان العمال بها (أى بالرأسمالية).

ووصلت آراء لينين إلى غايتها عندما طالب صراحة بالأخذ بوسائل الإدارة العلمية التى أبدعها المهندس الأمريكى فريدريك تيلور بعد دراسات طويلة للوقت والحركة ودراسة الطرق المختلفة للأداء بحيث توصل إلى الاستغلال الأمثل لكل حركة وسكنة يقوم بها العامل.

ولم يتردد لينين فى أن يدعو للأخذ بها فى رسالة "المهام المباشرة لسلطة السوفيت ١٩١٨" قال: علينا إدخال نظام تيلور إلى كل روسيا ورفع إنتاجية العمل حسب الطرق العلمية وحسب الخط الأمريكى.

وفى الدولة والثورة قال :

" لا يمكننا خلق أو إقامة الاشتراكية دون اللجوء إلى مدرسة منظمى الترسنات إن الاشتراكية ليست ابتكاراً. بل هى أن تفهم طليعة البروليتاريا التى استولت على السلطة ما ابتكرته الترسنات وتطبقه.

"نحن لا نخترع شكلاً لتنظيم العمل بل نأخذ كما هو من الرأسمالية..". ورأى لينين أن النظام الذى وضعه تيلور يجمع "الاكتشافات العملية الأكثر أهمية فيما يخص تحليل الحركات التى يقوم بها العامل أثناء العمل والقضاء على الحركات غير المجدية وغير الماهرة وابتكار طرائق العمل الأكثر عقلانية وإدخال أفضل نظم الإحصاء والرقابة".

وكان تيلور يرى أن ليس للعمال أن يفكروا، فهناك من يفكر لهم، ومن هو أقدر منهم على ذلك وأن المطلوب منهم أن يطبقوا الأفكار والخطط التى توضع لهم. وهذا هو ما كان يؤمن به لينين، ربما أكثر من تيلور.

وهذه من وجهة النظر الاشتراكية، ردة تكرر دفاع الرأسمالى عن أساليبه، أما الاشتراكية فيفترض أن يكون لديها نظام آخر وجهاز آخر، وأساس آخر لدفع الانتاج غير "السوط" الذى ظل من العهود القديمة حتى الرأسمالية الأسلوب المفضل. إن إيمان العمال بالاشتراكية أفضل وأدق من ساعات تيلور الكرونومترية ودراسات الوقت والحركة. وكان يمكن أن ينهض بالإنتاج ويحسم مفارقات علاقات "الإدارة - العمال" ويحمل عن أجهزة الدولة عبأ ثقيلًا..

وكلام لينين يدل على أن السلطة قد مسخته تماماً. ومحت كل القيم وأحلت محلها ضرورات تحقيق الخطة المقدسة كأنما خلق الناس للخطة، ولم توضح الخطة للناس. كان أحد بناءة الأمبراطورية، وكان بين جنبيه "إيفان رهيب" وبطرس الأكبر.. وكذلك باتو الشنيع سليل جنكيزخان والذى اكتسح أوربا ولم يوقفه إلا موت جنكيزخان. وبهذه الروح كان يريد أن يقيم "روسيا العظمى" التى أطلق عليها مجازاً "الاتحاد السوفيتى".

* * *

هذا عن لينين الذى قدم الإضافة الهامة عن الحزب الشيوعى باعتباره حزبا من ثوريين محترفين،
وقدم المركزية الديمقراطية كقاعدة تنظيم العمل فى كل الهيئات.. ودعا جهرة إلى التيلورية التى اعتبرها
عمال الولايات المتحدة أداة استغلال العمال على أسس علمية وعملية.

فماذا عن تروتسكى ؟

كان تروتسكى قد شغل وزارة الدفاع فجال وصال فى روسيا من شرقها لغربها فى قطاره المشهور
الذى كان يضم فيما يضم مطبعة ولاحق كل أعداء الثورة.. كما شغل حيناً وزارة الخارجية وهو صاحب
شعار "لا حرب ولا سلم" الذى أراد به أن يخلص من مأزق مقاومة الجيوش الألمانية أو الصلح معها..
وأخيراً ضمت إليه وزارة النقل..

كانت الفكرة التى قدمها تروتسكى هى "عسكرة العمل" أى تطبيق وسائل الضبط والربط التى تمارس
فى الجيش على العمال" وقد كان تروتسكى قد ألف كتاباً بعنوان "دفاعاً عن الإرهاب"^(٣٣) دافع فيه دفاعاً
مستميماً عن الإرهاب وأنه جزء لا يتجزأ من كيان الدولة الشيوعية وشن هجوماً كاسحاً على كاوتسكى لأنه
انتقد إرهاب السوفييت وعدم وجود الحرية أو الديمقراطية فى الممارسات السوفيتية، وأفرد باباً من أهم أبوابه
عن عسكرة العمل.

والفكرة الرئيسية فى عسكرة العمل أن الإنسان حيوان كسول وأنه ما لم يدفع دفعا إلى العمل فإنه لا
يعمل.. والصورة الوحيدة للدفع المنظم هى فى الجيش، إذا كان الجيش لم يستخدم فى العمل فذاك لأن العمل
كان واقعاً فى يد الملكية الفردية. أما وقد تحررنا من الملكية الفردية فيمكن ممارسته، وإن الإلزام، وبالتالي
الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى البورجوازية وتشريك وسائل العمل والإنتاج وإعادة بناء
النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة وأنه لا توجد لدينا وسيلة أخرى للانتقال إلى الاشتراكية غير القيادة
الحازمة للقوى والموارد الاقتصادية فى البلاد، وغير التوزيع المركزى للقوة العاملة حسب الخطة الحكومية
العامة. إن الدولة العمالية تعتبر أن لها الحق فى أن ترسل كل شغيل إلى المكان الذى يحتاج عمله. وأنه ما
من اشتراكى جاد ينكر على الحكومة العمالية حقها فى وضع يدها على الشغيل الذى قد يرفض تنفيذ المهمة
التي أوكلت إليه.

فى كتابه "دفاع عن الإرهاب" كتب تروتسكى :

"لا مجال للانتقال من الفوضى البورجوازية إلى الاقتصاد الاشتراكى دون اللجوء إلى الديكتاتورية
الثورية وإلى طرائق التنظيم القائمة على الإكراه. ص ٢٠٦ من الترجمة العربية.

"إن عنصر الإكراه المادى الفيزيائى يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً فهذا يتعلق بالكثير من الشروط
وبدرجة غنى البلاد أو فقرها الخ... لكن الإلزام وبالتالي الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى
البورجوازية وتشريك وسائل الإنتاج والعمل وإعادة بناء النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة.

"إن الجيش وحده - على وجه التحديد، لأنه حسم بطريقته الخاصة مسائل حياة وموت الأمم والدول
والطبقات الحاكمة وقد اكتسب الحق بأن يتطلب من كل فرد خضوعاً تاماً للمهام والأهداف والتعليمات

(٣٣) كما فى الطبعة الإنجليزية وقد صدرت الطبعة العربية بعنوان "الإرهاب والشيوعية" مصدر سابق.

والأوامر. لقد توصل إلى ذلك لأن مهام التنظيم العسكرى بوجه خاص، كانت تتفق مع ضرورات التطور الاجتماعى. ص ٢٠٨.

وتصور أن الحرب الإمبريالية والنتائج التى نجمت عنها جعلت من المستحيل وجود مجتمع قائم على العمل الحر!!^(٣٤).

وعرض تصوره الاشتراكى للنقابات :

"فالنقابات، بدون إلزامية العمل وبدون الحق فى إصدار الأوامر، وطلب تنفيذها، تفقد مقوماتها، ذلك أنها ضرورية للدولة الاشتراكية التى فى طريق البناء، لا لتنازل من أجل شروط أفضل للعمل - فهذه مهمة مجموع التنظيم الاجتماعى الحكومى - بل من أجل تنظيم الطبقة العاملة بهدف الإنتاج، ومن أجل ضبطها وتوزيعها وتنقيفها وتعيين بعض الفئات وبعض العمال فى مراكزهم لمدة معينة من الزمن، وبكلمة واحدة من أجل تنظيم الشغيلة بحزم، وباتفاق تام مع السلطة، فى إطار الخطة الاقتصادية الموحدة".

ولجأ إلى النقطة المموجة نقطة "إن المسألة تكمن فى أن نعرف من يمارس الإكراه وضد من ولماذا..!! كأن هذا يمكن أن يغير طبيعة الإكراه ولم يكن عجباً أن يدافع عن نظام الرق، وأنه كان فى بعض الشروط تقدماً وأدى إلى زيادة الإنتاج.

"إن كل تاريخ الإنسانية هو تاريخ تنظيم وتربية الإنسان الاجتماعى بالعمل، بهدف الحصول منه على إنتاجية أكبر. إن الإنسان فى الحقيقة - كما سمحت لنفسى أنفاً أن أعبر - كسول، أى يحاول بالغريزة أن يحصل بأقل جهد ممكن على أكبر حد ممكن من المنتجات. وبدون هذا الميل، لن يكون ثمة وجود للتطور الاقتصادى. إن نمو الحضارة يقاس بإنتاجية الإنسان، وكل شكل جديد من أشكال العلاقات الاجتماعىة ينبغى أن يمتحن على حجر المحك هذا".

* * *

كان طبيعياً أن ينشأ خلاف حاد بين القواعد العمالية وما بين القيادة السوفيتية بزعامة لينين وتروتسكى. وقد ظهر هذا الخلاف ودخل فى مرحلة جديدة بظهور "المعارضة العمالية" التى رأسها زعيم عمال الصناعات المعدنية شليابنكوف ورفعت لوائها مدام كولونتاى. وعندما عقد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى ٨ - ١٦ مارس ٢١ تقطبت المعسكرات وكانت قضية إدارة العمل وعلاقة النقابات بالدولة والبيروقراطية الحزبية هى المواضيع الرئيسية التى احتدم فيها الحوار.

فى هذا المؤتمر قدم لينين بياناً حمل اسم بيان العشرة وقدم تروتسكى بياناً آخر، بينما قدمت مدام كولونتاى بيان المعارضة العمالية وشرحت الفكرة فيها فى رسالة بأسم المعارضة العمالية تحت ثلاثة عناوين أساسية الأولى (جنود المعارضة العمالية) شرحت فيه الملابسات السياسية والاقتصادية التى تحكمت فى الاتحاد السوفيتى وقضت على الحزب الشيوعى بانتهاج سياسة معينة. والفصل التالى عن (النقابات ودورها ومشكلاتها) وعرضت فيه انعكاسات السياسة التى انتهجها الحزب على الحركة النقابية باعتبارها أكبر حركة

(٣٤) هذا يعطينا صورة كيف أن الخيال يشط بأكثر العقلانيين إلى أودية الأوهام. فقد تصور تروتسكى أن الحرب العالمية الأولى (١٤ - ١٩) جعلت من المستحيل وجود مجتمع ما يقوم على العمل الحر!!

تضم الطبقة العاملة وانتقدت - بالطبع - وبقدر من الصراحة سياسات لينين وتروتسكى وزينوفيف وبوخارين وبقية قيادات الحزب وهذا الفصل على أنه الذى يمثل فى الأذهان الموضوع الرئيسى، ليس هو أكبر الفصول الثلاثة. إن أكبرها هو الفصل الثالث الذى جاء بعنوان (البيروقراطية والنشاط الذاتى للجماهير) فهذا الفصل يتضمن أفسى نقد للبيروقراطية والمركزية وما يمكن أن تجره على الحزب وعلى البلاد بأسرها^(٣٥).

وافتح لينين المؤتمر فوصم المعارضة العمالية بأنها "تهديد للثورة". وأنها فوضوية وسينديكالية وأنثال الآخرون وسادت هستيرية لم تعرف من قبل فى مؤتمرات الحزب، بينما نددت المعارضة العمالية بالبيروقراطية داخل الحزب باعتبارها سبب الفجوة ما بين القيادات والجماهير، وطالبت أعضاء الحزب بأن يقوموا بممارسة العمل اليدوى لفترات منتظمة من الوقت لجعلهم على صلة مباشرة بظروف عمل العمال. ووصف ميلنوف - وهو أحد قيادات المعارضة العمالية لينين بأنه "القمة العظمى للهرمية البيروقراطية القيصرية". بينما ذكر إجناتوف المجتمعين أن أساس الحزب يتغير ولم يعد بروليتاريا، وطالب بأن يكون ثلثا لجان الحزب من العمال. وانفجر الغيظ المكبوت، ولكن المجموعة اللينينية التى كانت تسيطر على جهاز الحزب، وبمساعدة التروتسكيين نجحت فى النهاية فى إجازة بيان العشرة الذى قدمه لينين، وكذلك إجازة "قرار الوحدة" الذى يحرم تكوين الخلايا، وطالب كل المجموعات التى تتمحور حول مشروعات واحدة بأن تحل نفسها فوراً ودون استثناء وهدد بأن الإهمال فى تنفيذ ذلك يؤدى إلى الفصل من الحزب بصورة عاجلة وغير مشروطة، وأعطى القرار اللجنة المركزية سلطة تأديب مطلق "إن المؤتمر يعطى اللجنة المركزية السلطة التامة فى مواجهة حالات التشرذم وانتهاك الضبط وتقرير العقوبات حتى الفصل من الحزب" وإذا جاءت المخالفة من أعضاء اللجنة المركزية فاقترح القرار تنزيلهم إلى مرتبة مرشحين وفى الحالات الخطيرة فصلهم من الحزب وأعلن القرار أن المهمة العاجلة للجنة المركزية هى تحقيق وحدة وفعالية بنيران لجان الحزب، وخصص خمسة من أعضاء اللجنة للتفرغ لزيارة اللجان الإقليمية وحضور الاجتماعات الإقليمية للحزب.

وقام تروتسكى بقسط كبير فى مهاجمة المعارضة العمالية وقال: "إنها جاءت بشعارات خطيرة، وجعلت من المبادئ الديمقراطية وثناً ووضع مبدأ حق العمال فى انتخاب ممثليهم فوق الحزب، كما لو لم يكن من حق الحزب أن يوطد ديكتاتوريته - حتى لو تصادمت هذه الديكتاتوريات مؤقتاً مع الاتجاهات المعارضة للديمقراطية العمالية" وتحدث عن حق الميلاد التاريخى والثورى للحزب قائلاً: "إن الحزب مجبر على الحفاظ على ديكتاتوريته بصرف النظر عن التذبذبات فى الطبقة العاملة، فإن الديكتاتوريات لا تقيم نفسها فى كل لحظة معينة، على الأساس الصورى لمبدأ الديمقراطية العمالية"

وفى أعقاب المؤتمر العاشر أخضعت المعارضة العمالية لسلسلة من الاضطهادات. وكان على الحزب أن يقضى على نفوذ المعارضة فى نقابة الصناعات المعدنية التى يتزعمها مدفوف **Medvedov** وفى مؤتمر النقابة العامة الذى عقد فى مايو سنة ١٩٢١ قدمت اللجنة المركزية للحزب قائمة بأسماء المرشحين الذين تزكيتهم لقيادة النقابة. وصوت العمال ضد قائمة الحزب. ولكن هذا الأمر كان عقيماً، فقد عين الحزب رجاله فى مناصب القيادة وفشلت المعارضة. وفى مارس سنة ١٩٢٢ عقد مؤتمر آخر للنقابة

(٣٥) لقد عالجت قضية المعارضة العمالية بإفاضة فى كتابنا "المعارضة العمالية فى عهد لينين - دار الفكر الإسلامى".

نفذت فيه سياسة الحزب عن طريق "خلية الحزب" التي حضر اجتماعاتها شخصيات بارزة من الحزب مثل - زينوفيف - لينين - ستالين - مولوتوف - كامنيف وكلارازتكين.

وبعد بضعة شهور أسس المؤتمر الحادى عشر للحزب الذى عقد فى ٢٧ مارس - ٢ أبريل سنة ١٩٢٢ لجنة خاصة لتقصى نشاط "المعارضة العمالية" وأعلنت أن كل صور المعارضة المنظمة خلال السوفيات تعد غير مشروعة.

وعين المؤتمر الحادى عشر ستالين سكرتيراً عاماً للحزب ...

* * *

إن استعراض ما جاء فى هذا الفصل يوضح كيف أن السلطة أفسدت أعظم أمل للعمال فى بناء مجمع اشتراكى وجعلت الاتحاد السوفيتى بؤرة للإرهاب الحكومى والتسلط وأن رجال الحزب ومن حولهم كونوا طبقة استحوزت على السلطة واحتكرت المناصب وقتلت كل مبادئ الخلافة. وأن البيروقراطية وما يتصف به التخطيط المركزى من جمود جعل الأداء الاشتراكى عقيماً متخلفاً.

* * *

لن يغفر التاريخ للينين وتروتسكى أنهما عندما ظفرا بثقة العمال وطاعتهم وعندما دعم العمال بكل قوة الثورة الناشئة والسلطة التى تمخضت عنها.. لم يحاولوا الإفادة من هذا الجمهور وهذا التأييد لإبداع خطط للإدارة: إدارة الإنتاج أو إدارة الدولة.. تقوم على إيمان الجمهور وتجاوبه مع قاداته، وما يتفرع عنه من أساليب تختلف عن الأساليب التى وضعتها النظم الرأسمالية والعسكرية، والتى - لما كانت لا تتمتع بمحبة العمال أو تجاوبهم، بل تقوم على استغلالهم، لم يكن أمامها إلا سبيل الإجبار والإرهاب والضببط والربط والتسيير من أعلى.. ولكن لينين وتروتسكى ظفراً بما لم يظفر به أى حاكم، عندما رفعوا الشعار الذى استحوز على قلوب العمال شعار العدالة، شعار إسقاط الرأسمالية وعبودية الأجور واستغلال النفوس فظفراً بأعظم رأس مال إيمانى يمكن لحاكم أن يتمتع به. ويبدع منه وسائل جديدة للعمل. فأهدرا رأس المال الإنسانى الاشتراكى الذى تراكم عبر القرون كأن لم يكن. وسلكا سبيل الرأسماليين والطغاة والظلمة، وفجعا البشرية فى أجمل آمالها وجعلوا من ثوب زفافها قميص كتافها. وقابلاً العمال بسوط العذاب وعسكرة العمل.

لقد كانت محاولة لينين وتروتسكى إرغام العمال على الإنتاج، وعسكرة العمل أسوأ من الرأسمالية أنها رأسمالية الدولة التى جعلت العمل سخرة وعندئذ يكون كل كلام لينين وتروتسكى مكابرة، بل نوعاً من التشنج المذهبى وهذا فى الحقيقة هو شأن معظم كتابات لينين وتروتسكى. ومما يفاقم فى مسئولياتهما أن أسلوبهما الفج اعتُبر هو الأسلوب الاشتراكى الذى أبدعه منظرا الاشتراكية وطبق هذا الأسلوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا وجر أنهاراً من الدماء.. وأقام جبلاً من الأخطاء.. ظلّمت بعضها فوق بعض وعوالم من الزيف والضلال والتعصب.

وبدلاً من أن يدفن الاتحاد السوفيتى الرأسمالية فإنه تهاوى بحكم فساد العوامل الداخلية التى كان يخفيها النظام ودعايته حتى أودت به دون أن تطلق الرأسمالية عليه طلقة واحدة..

* * *

إذا كانت هذه هي سطوة الدولة على العمال - شعب الاشتراكية الأثير، فلنا أن نتصور ماذا تكون سطوه الدولة على غيرهم؟ لم يتسع الوقت للنين لأن يطبق سياسته الاقتصادية الاشتراكية، بل إنه اضطر لأن يقلع عنها فيما سمي بالسياسة الاقتصادية الجديدة NEP ووقع تطبيق التصور الاشتراكي للزراعة على ستالين الذى طبقه بكل ما عهد فيه من فظاظة وفجاجة ووحشية إذ أراد أن يطبق المزارع الجماعية. والزراعة هي آخر مجال يمكن أن يصبح جماعياً. فالفلاح فردى بالطبيعة، ولا يمكن للتخطيط أن يفرض نفسه على ملايين الفلاحين الذين لا يعلمون إلا ما ورثوه عن آبائهم. وكان يمكن وضع سياسة لتحديث الزراعة. مع منح كل فلاح قطعة أرض صغيرة. فهذا كان متاحاً، وكان يرضى الفلاحين جميعاً وينهض بالزراعة ويؤدى إلى تحسين الحال الذى سيعود على الدولة فى النهاية، ولكن هذا الجورجى المتوحش ستالين، أراد بجذع الأنف أن يحقق سياسة المزارع الجماعية فأوفد فيالق الحزب والجيش لمصادرة كل ما لدى الفلاحين من أقوات وأطلق على هؤلاء البؤساء اسم "الكولاك" أى الملاك وترك هؤلاء الملاك ليموتوا جوعاً فى برد وصقيع سيبرياً ويقدر أن ما لا يقل عن عشرة ملايين فلاح مات فى معركة الزراعة الجماعية الفاشلة.

وأصبحت الفنون والآداب ملك للدولة. وصودرت كل الصحف باستثناء صحيفتين يوميتين إحداهما تحمل اسم الأخبار والأخرى اسم الحقيقة وقال معلق "ليس فى الأخبار حقيقة. وليس فى الحقيقة أخبار".

أما النقابات فإنها اعتبرت "السير ناقل القوى" من الحزب للجماهير ويعنى هذا أنه ليس لديها حرية أو استقلال أو مبادئ لأنها ليست إلا سيراً ينقل عن الحزب الذى اعتبر هو مصدر الحركة والطاقة ووصلت المأساة درجة أقامت فيها النقابات سجونا للعمال المقصرين !!.

لقد أثبتت نظرية الحزب التى أبدعها لينين قوتها وفعاليتها. وأصبحت هى التى تربط الاتحاد السوفيتى رغم أن هذا الاسم لا يمثل حقيقة لأنه ليس اتحاداً إذ كلمة اتحاد توحى بوجود وحدات لها قدر من الحرية قبلت أن تتحد مع غيرها. وقد أجبرت إجباراً كل ولايات ومقاطعات القارة الروسية على الاندماج وأن تكون كتلة واحدة بفضل حزم الحزب لها وربطه إياها برباط وثيق. وليس "سوفيتياً" لأن السوفيات كانت من خلق ثورة مارس الديمقراطية. وما أن تمكن لينين من السلطة حتى وأدها وأصبح الحزب - وليس السوفيات هو الحاكم.

ولعل الإنجاز الحقيقى للنين أنه حيد الجيش فلم يتحرك الجيش طوال سنوات ستالين الطائشة، لأن الحزب كان قابضاً على الزمام بصورة فاقت كل ما يمكن أن يصل إليه الجيش. لأنه كما قلنا كان جيشاً مدنياً يحكم البلاد من داخلها.

فى النهاية نجد أن السلطة أفسدت الاشتراكية وحولتها إلى المدرسة الأم للحكم الشمولى تعلم على يدها وفيها هتلر وموسولنى وبقية الطغاة. وطبقت الأحزاب الاشتراكية أساليبها الشنيعة القاتلة على العالم بأسره فى أفغانستان وكمبوديا والحبشة والبلقان وأقامت أهرامات من الجماجم أكبر من أهرامات مصر.

* * *

وهناك جنابة أخرى ارتكبها لينين فى حق التطور السياسى العالمى هى شل حركة الاشتراكية الديمقراطية التى كانت قد ازدهرت فى السنوات الأولى للقرن العشرين تحت قيادة سدنة الماركسية وحملة

وصية ماركس كاوتسكى وبيرنشتين الألمانين الذين قادا الحزب الديمقراطي الألماني. وعندما ظهر لينين أعلن حرباً شعواء على كاوتسكى وبيرنشتين وأطلق عليهما كل ما فى قاموسه من بذاءات واتهامات بالعمالة، والانتهازية والهرطقة والانحراف الخ... ولم يسترح إلا بعد أن شطب كلمتى الاشتراكي الديمقراطي من الأحزاب الاشتراكية الأوروبية. وكانت الضحية الأولى لهذه الحملة هى جمهورية فايمار التى قامت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٩) بقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي فقد قاوم الشيوعيون بكل قوة وعرامة هذه الجمهورية وأطلقوا على الاشتراكيين الألمان لفظ الفاشية وناصروا هتلر بفكرة أنه ما إن يقضى عليهم حتى يأتى دورهم هم (أى الشيوعيين) فى الحكم. ومن سخریات الأقدار أن هذه الحرب على فايمار هى التى مكنت هتلر من الصعود وهى التى جعلته يقضى على الحزب الشيوعى الألمانى قضاء مبرماً ثم يتحول إلى الاتحاد السوفيتى ويحاربه حرباً ضروساً مدمرة أوقفته على شفا الهزيمة لولا مساعدة الحلفاء وقضت على قرابة عشرين مليوناً من شباب الاتحاد السوفيتى.

ونتيجة للحرب الشعواء التى شنّها لينين على الاشتراكية الديمقراطية، تدهورت، وفقدت صدارتها للحركة الاشتراكية حتى تهاوى الاتحاد السوفيتى أخيراً، وعادت الديمقراطية الاشتراكية، بعد أن حجبها لينين قرابة خمسين عاماً كان يمكن أن توفر فيها التخبط السياسى والمأساة الدموية: مأساة الحرب العالمية الثانية.

* * *

ولاقى لينين الذى فعل كل هذه الأفاعيل نهاية غير متوقعة أشار إليها دوتشر فى كتابه "سخریات التاريخ" فى المؤتمر الأخير الذى حضره (أبريل ١٩٢٢) عبر عن أنه يحس بما يحس به السائق عندما يرى العربى تسير فى غير الطريق التى وجهها له. وأن قوى كبيرة حولت الدولة السوفيتية عن هدفها السليم. وعندما أقعده الشلل وانفسح المجال لستالين ليمارس فظاظته حتى مع زوجة لينين ورفيقة كفاحه "كروبسكايا" تبين لينين خطأه الفظيع عندما حطم المعارضة العمالية التى كانت تتدد ببيروقراطية المركزية الديمقراطية وسيطرة الحزب والقضاء على كل صور الديمقراطية وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ غافل أطباءه وممرضاته وبدأ ما عرف بوصيته التى بدأها "إنه ل يبدو أننى مذنب أمام عمال روسيا **I am, it seems, strongly guilty before the workers of Russia**

لم يقرأ الشعب الروسى هذه الكلمات وما تلاها فقد تكتم عليها ستالين وزملاؤه لمدة ثلاث وثلاثين سنة. قبل أن يعلنها خروشوف فى المؤتمر العشرين^(٣٦)..

إنها إحدى سخریات التاريخ، ولكنها سخرية تراجيدية محزنة تعرض لنا فرعوناً آخر غير فرعون مصر يتوب عند الغرغرة، قبل أن تبتلعه الأمواج..

الفصل التاسع السلطة تفسد اليهودية

وتحولها إلى صهيونية

فى الفصول السابقة التى أظهرنا فيها كيف تفسد السلطة الأيدلوجيا كان الصراع يدور حول السلطة بطبيعتها المفسدة من ناحية وبين معنويات وقيم موضوعية كالتى جاءت بها الأديان أو أوحى بها الاشتراكية. ولكننا فى هذا الفصل نجد السلطة بطبيعتها المفسدة ونجد أمامها أيدلوجية مشوهة تشويهاً أفقدها طبيعتها الموضوعية. فالأيدلوجية اليهودية كما تقدمها التوراة التى بين أيدينا تقوم على إله غيور يتفقد ذنوب الأبناء فى الجيل الرابع من الأبناء وهو يغضب أو يرضى بما يقدم إليه من ذبائح أو يرفع إليه من تضرعات وهذا الإله الغيور يختص سلالة - هى أبناء يعقوب الذى سُمى إسرائيل بأفضلية فوق العالمين، وأن العلاقة بينه وبينهم الختان. وأنه يملكهم منطقة كبيرة من الأرض تمتد من نهر مصر حتى نهر الفرات مسكونة بكثير من الناس ويأمر صراحة، وبصورة متكررة، بأن على جنسه المختار هذا أن يستحوز على الأرض ويقتل أهلها جميعاً رجالاً ونساءً "بحد السيف" بل ويقتل الحيوانات ويحذرهم من الاختلاط بالأجناس الأخرى والتعايش معهم أو التزوج منهم.

وهكذا نرى أن الأيدلوجيا اليهودية ليست - كما هى فى الإسلام مثلاً - أن تكون كلمة الله هى العليا، ولكن أن يكون الجنس اليهودى هو الأعلى، وأن يستحوز على الأرض التى ملكها يهوه لهم وأن يقتلوا بحد السيف أهلها.

ومن هنا فإن الأيدلوجيا اليهودية التى تقدمها التوراة لها طبيعة السلطة فى ذاتيتها واستهدافها الاستحواز بل إن وسيلتها هى شر الوسائل وأكثرها وحشية وهى القتل بلا رحمة، فلم يعد للسلطة شىء تفسده وإنما تطبق هذه التوجيهات وعندئذ نرى أمامنا أسوأ صورة للحكم.. صورة تتعاون السلطة مع الأيديولوجية لبلوغ أقصى درجة من الفساد. وهذا هو ما يعمل شارون لتطبيقه الآن فى فلسطين - رغم كل القوى المعارضة.

نحن المسلمين نؤمن أن اليهودية هى أحد الأديان السماوية الكبرى، بل هى أولها وأن الله تعالى أنزلها على إبراهيم الذى يعد أبا الأنبياء وأن مضمونها هو مضمون كل الأديان من الإيمان بالله والكفر بالوثنيات والشور والعمل لتطبيق القيم النبيلة من حب وإخاء ومساواة وحرية ومعرفة.. وأن الله تعالى اختص إبراهيم وسلالته بحمل هذه الرأسمالية وفضلهم بهذا على العالمين، ولكنهم لم يقوموا بهذه الرسالة، بل قاموا بعكسها فقتلوا الأنبياء وأشاعوا الفساد فأنزلهم الله من مستوى أفضل العالمين إلى مستوى القردة والخنزير. إن الأوامر التى تضمنتها التوراة (المحرفة بالطبع) عن القتل حتى الإبادة، ليس فحسب للإنسان بل والحيوان أيضاً هى ما يبرر هذا الحكم..

وقصة هذا التحول من ديانة سماوية سامية إلى شرعة أرضية منحطه والدور المساعد للسلطة هي ما ستوضحه النبذات التالية:

- ١ -

خصوصية الدين اليهودي

يتميز الدين اليهودي عن بقية الأديان بثلاث خصائص قلما نجدها في دين آخر. أولى هذه الخصائص أنه أقدمها عهداً فهو يعود إلى أربعة آلاف سنة مضت إذا أخذنا بتاريخ دعوة إبراهيم ١٩٥٥ قبل الميلاد، والثانية أنه دين مغلق، مقصور على جنس واحد هو بني إسرائيل. ومع أنه يبدأ من إبراهيم، وأن إبراهيم كان له من الأبناء إسماعيل، بل هو ابنه البكر، فقد استبعد التاريخ الإسرائيلي إسماعيل، بل وصفه بصفة تكاد تكون من "الإسقاط" السيكولوجي "يده على الجميع، ويد الجميع عليه" وهو ما يصدق على أبناء إسرائيل أكثر مما يصدق على أبناء إسماعيل.. ومن أول سطر ولعله أقدس سطر - نجد أن إله إسرائيل يصطفى إسرائيل ونسله ويفضلهم على العالمين ويهب لهم كل الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات على أن تكون العلاقة بينه وبينهم الختان. كما أن تقديس السبت يأخذ أهمية كبرى بحيث حكم على حطاب احتطب يوم السبت بالإعدام رجماً بالحجارة وسنرى أن التقاليد والعادات والمواسم والأعياد كلها مرتبطة بالجنس اليهودي أو بمناسبات تعلقت بتاريخه، وأخيراً فإن الخاصية الثالثة هي أن هذا التاريخ الطويل حتم على اليهود التعايش مع "الأغيار" وفي فترات القوة فإنهم لا يرقبون إلا ولا ذمه فيهم، فأرضهم وناسهم ونساؤهم كلها مباحة للجنس اليهودي المختار. ولكنهم في فترات الضعف يتسللون إلى المجتمعات الأخرى بصورة تبقى عليهم، وفي حالات كثيرة. تسمح لهم بالبروز، وهم مع هذا يحتفظون بشخصيتهم الخاصة ولا يفرطون فيها. ولما كان تاريخهم طويلاً فقد شهد عدوان الإسرائيليين على جيرانهم في عهد قوتهم، ثم شهد مقاومتهم المستنيسة للشعوب والحضارات الأقوى، ثم استسلامهم وتسليمهم.

ومع أن من مقتضى هذه الخصائص الاحتفاظ بشخصيتهم المميزة وعدم التأثر بالشعوب والحضارات الأخرى وهو ما حدث بالفعل - كما ذكرنا - إلا أن طبائع الأشياء أغلب. وكان لا بد أن تؤثر الحضارات الأخرى التي كانت تماثل الدين اليهودي في العراقة - كالحضارة المصرية القديمة وحضارة الرافدين على العادات والتقاليد اليهودية وأن تثرها بعناصر ليست في الديانة المغلقة المقصورة على جنس واحد.

وقد نشأت الديانة اليهودية أولاً في أور في الرافدين ومركز الحضارة الكلدانية الآشورية وكان إبراهيم معاصراً لعمورابي الملك والمشرع الكبير وقد بدأ دعوته في السنة الأولى لملك هذا العاهل الذي عرف بقوانينه، ثم انتقل إبراهيم إلى كنعان (فلسطين) بناء على رؤية، واصطحب معه زوجته سارة ولوطا ابن أخيه. ثم انتقل إلى مصر عندما أصاب الجفاف فلسطين وعاد مرة أخرى إلى كنعان حيث ولد له إسماعيل واسحق وأبعد إسماعيل وأمه إلى الحجاز بينما استقر اسحق وتزوج وانجب يعقوب الذي سيحمل اسم إسرائيل. ورزق يعقوب اثني عشر ولداً هم الأسباط. أبرزهم يهوذا الذي منحه حق "البكورية" ومنهم يوسف وهو أحب أبنائه إلى نفسه. وهو الذي ائتمر عليه أخوته وباعوه لقافلة مسافرة إلى مصر.

وتكررت قصة هجرة إبراهيم إلى مصر إذ أصاب الجفاف فلسطين فأرسل يعقوب أبنائه ليمتاروا. وكان يوسف الذي بيع لوزير ملك مصر قد وصل إلى منصب رفيع في الدولة لأنه نجح في تأويل حلم الملك

عن السبع بقرات العجاف التي تأكل سبع بقرات سمان بأنه سيحل بالبلاد جفاف يستمر لسبع سنوات تسبقه سبع سنوات رخاء. وعندما جاء أخوته ليمتاروا عرفهم ولم يعرفوه.. وفي النهاية دعاهم للإقامة في مصر في رعاية الحِيثيين الذين كانوا يحكمون مصر وقتئذ. وحسنت حالتهم، ولكن طرد المصريين للحِيثيين وزيادة عدد بنى إسرائيل جعل المصريين يسيئون معاملتهم ويستخدمونهم في الأعمال الشاقة وبناء المعابد الخ... حتى ظهر فيهم موسى (سنة ١٦٠٠ ق.م) الذي أشفقت عليه أمه عند ولادته أن يقتله المصريون فوضعتة في سلة ودفعت بها إلى النيل. فالتقطتها ابنة فرعون وتبنته فنشأ موسى في بلاط فرعون كما لو كان نبيلاً مصرياً. واصطفاه الله لينفذ بنى إسرائيل ويحررهم، وتم هذا، وسار بهم إلى فلسطين، ومات موسى قبل أن يدخل فلسطين وقام بهذه المهمة يوشع. وبدأ استقرار الإسرائيليين الأول في فلسطين، وتكونت مملكتان هي مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ومملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم ثم السامرة. ودامت الأولى ٣٤٦ سنة حتى أسر بابل ودامت الثانية ٢١٠، وفي المرتين هدم الهيكل ونقل الإسرائيليون أسرى إلى بابل، وبهذا عاد اليهود مرة أخرى إلى موطنهم الأصلي الذي أصبح منفاهم ودار غربتهم. ولكنهم رجعوا إلى فلسطين بعد أن حررهم الفرس من حكم الكلدانيين. وأعادوا مرة أخرى بناء الهيكل. وجاء الإسكندر وهزم الفرس وخضعت إسرائيل للبطالسة بمصر ثم للسوقيين بسوريا حيناً من الدهر ليخضعوا للرومان (سنة ٤٠ ق.م) وحصل هيرود كبير اليهود من الرومان على لقب "ملك اليهود" وظل اليهود تحت حكم الرومان رداً من الدهر ولكن الصراع بين اليهود والرومان كان متصلاً وهدم المعبد مرتين مرة سنة ٧٠ قبل الميلاد ومرة سنة ١٣٣ ميلادية عندما دمر نهائياً وحظر الرومان الديانة اليهودية وهاجر معظم اليهود إلى بابل.

وعندما ظهر الإسلام اتصل اليهود بالمسلمين في الدولة العباسية والدولة الفاطمية وفي دول الأندلس وشغلوا مناصب رفيعة وكان موسى بن ميمون - أكبر فيلسوف يهودى - يكتب بالعربية والعبرية ويبدو مسلماً في القاهرة ويهودياً في قرطبة. وعندما أزال الأسبان للمرة الأخيرة حكم المسلمين من غرناطة واضطهدوا المسلمين اضطهدوا معهم اليهود واستطاع معظم اليهود أن يفروا إلى مختلف بلاد العالم وبوجه خاص تركيا التي فتحت بابها لهم وأسلم فريق كبير منهم في الظاهر وهم الذين يطلق عليهم يهود الدونمة، ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب.

وعمقت هذه الاحتكاكات خبرة ومعرفة اليهود بطرق التعايش مع النظم بصورة تمكنهم من أن يكونوا أصحاب نفوذ دون أن يفقدوا شخصيتهم. ولم يبلغ شعب من الشعوب ما بلغوه في هذا الصدد وقد تغلغلوا في المجتمعات الأوروبية واستطاعوا - رغم موجات الاضطهاد في بعض الحالات - أن يكونوا صيارفة أوروبا وأصحاب المهن. وعن طريق العلم والمال احتلوا منزلة رفيعة في المجتمعات الأوروبية وفي الوقت الذي تكون إنجلترا محاربة لفرنسا، وتكون فرنسا محاربة لألمانيا، فإن أبناء روتشلد في إنجلترا، وفي فرنسا وفي ألمانيا يحصدون ثمرة هذه الحروب.

وعندما أراد دزرائيلي أن تشتري إنجلترا أسهم شركة قناة السويس من مصر ولم يكن البرلمان منعقدا أرسل دزرائيلي سكرتيره إلى روتشلد ليطلب إليه تقديم أربعة ملايين جنيه إسترليني قيمة الأسهم فزاره وهو على مائدة الطعام، وعلى مائدة الطعام أمر روتشلد بتقديم المبلغ.

وفي الأيام الأولى لدخولهم المجتمع الأوربي، فإن لفيفا من كبرائهم تنصر لأن المسيحية كانت شرطاً لازماً، ولكن فيما بعد لم يعد ذلك لازماً وعندما اختير البارون ليونيل روتشلد نائباً في مجلس العموم

البريطاني ثارت مسألة قسمه على غير الإنجيل. وعندما عين دزرائيلي رئيساً للوزارة وهناك صديق له رد دزرائيلي التهئة وختمها: "وكما نقول في الشرق "الله أكبر" فهو الآن أكبر من أى وقت آخر". وكان دزرائيلي يقول للإنجليز إن اسلافه كانوا يعيشون في قصور عندما كان الإنجليز يعيشون في الكهوف والغابات.

لم يكن، والأمر هكذا، من الغريب أن يتسلل النفوذ اليهودي إلى أعلى دوائر المال والسياسة في إنجلترا والولايات المتحدة وأن يظفر اليهود أخيراً بإعلان بلفور، ويفتح باب فلسطين لليهود ليقيموا فيها وطناً قومياً.

- ٢ -

الميثولوجيا التي صنعت النفسية اليهودية

يطلق تعبير "الميثولوجيا" عادة على منظومة الآلهة اليونانية التي سجلها هوميروس وهزيود وغيرهما من شعراء اليونان الأقدمين وأبدعوا عالم "الأوليمب" بما فيه من آلهة يرأسهم زيوس ويحف به بقية الآلهة هيرا، وفينوس، ومارس وأبولو الخ... وتحدثت الميثولوجيا طويلاً عن مغامرات هذه الآلهة التي وهبت قوة الآلهة ونزق البشر، وتدخلها في مصائر الدول والجماهير، وعندما ذكر خبا اليونان وعلا ذكر روما نقلت روما عنها هذه الميثولوجيا بعد أن غيرت الأسماء إلى أسماء رومانية.

وانغرس عميقاً أثر الميثولوجيا في النفسية اليونانية والرومانية، وورثتها عنها المجتمعات الأوروبية التي أحييت الحضارة اليونانية - الرومانية

وتقف الميثولوجيا على مشارف الفن والدين وقد تبدأ من نقطة تمثل أبرز ما في شخصية اليونان أو الرومان، ولكنها تمد هذه النقطة وتكثفها وتضفي عليها من عطاء الفنان - عادة الشاعر - وعبقريته الخاصة أطيافاً وأعماقاً تعطيها قوة وتجعل لها تأثيراً فعالاً بحيث تضاعف - أضعافاً مضاعفة - النقطة التي بدأت منها.

ولا نعدم في الميثولوجيا خيطاً من نبوة لم يستسغها الوضع (كما هو الحال بالنسبة لكل الدعوات الدينية) فشوهت وحولت إلى كهانة فالميثولوجيا هي أبرز تجليات "الوثنية" أى الشخص التي يصنعها الإنسان ويضفي عليها صفة الألوهية، وينسب إليها ما يشاء من قوى.

ولم يلحظ معظم المؤرخين السياسيين هذا الأثر، لأن دراسة الميثولوجيا عولجت في الآداب أو الاجتماع وليس في مجال التاريخ ولهذا لم يظهر أثرها في تطور المجتمعات. خاصة وأن الدراسات الأكاديمية شغلت نفسها بالجزئيات التي تضحى بالكليات، وتحصر نفسها في دوائر الدراسات الجامعية المغلقة، ومن ثم دق إدراك الأثر الكبير للميثولوجيا على المجتمعات الحديثة، وتطورها التاريخي، ولعل خير من أدرك ذلك هو الكاتب الفرنسي القديم جوستاف لوبون الذي رأى أن العقل يصنع العلوم، ولكن العاطفة والأحاسيس والمشاعر هي التي تصنع التاريخ وتطور المجتمعات.

ولعل خير ترجمة عربية لكلمة الميثولوجيا هي ما جاء في القرآن الكريم "أساطير الأولين".

وإلى حد ما لكل دين "ميثولوجيته" والاختلاف بينها هو في الدرجة. وهو في الإسلام أخفها، ولكن لا ينكر أن الفقهاء أقاموا قلعة من الفكر السلفي تخالف في كثير مما ذهب إلى ما نص عليه القرآن. وتأثروا بالثقافات الفارسية واليونانية وأقحموها في الفقه والتفسير، كما أدى وجود "الموالى" إلى تطوير في المجتمع الإسلامي الخ...

كما أن الخرافات والتقاليد التي كانت قائمة عندما ظهر الإسلام، وحاول القضاء عليها، بقي بعضها، فالعصبية التي وصفها الرسول بأنها منتنة عادت مرة وأصبحت هي دعائم النظام الاجتماعي في السعودية ومناطق الخليج - وعاد السحر، والتفديس، والشفاعة والأولياء، وهي كلها سمات للوثنية التي أوجدت الميثولوجيا، نقول إن هذه زحفت على الإسلام وزاحمت أفكاره الحقه وظفرت بتأييد الجمهور. ذلك لأن الأديان تتطلب درجة من السمو قد لا يتأتى للجميع بلوغها، في حين تتحدث الميثولوجيا عن واقع الجماهير كما هو.. وأفعالهم وتصرفاتهم فلا عجب أن تكون أقرب إلى قلوب الجماهير. ومعروف بالطبع ما عاناه الأنبياء من مشاق ليتوصلوا إلى إيمان المجتمع. وأنهم رغم صفتهم الاستثنائية - لم يحققوا نجاحاً تاماً، ولم يكتسبوا الأغلبية دائماً.

وقد أثرت الميثولوجيا اليونانية/ الرومانية تأثيراً بالغاً على الشخصية الأوروبية بحيث نجد أحداثها وأبطالها في الفنون والاجتماع، بل وتطلق على الأفلاك وعلى أعماق علم النفس كما هو واضح تماماً في التحليل النفسي لفرويد. وقد كانت دراسة الآداب اليونانية هي أهم دروس "المدارس العامة" - كما يقولون مثل ايتون ورجبي وهي التي تعلم أبناء الخاصة والأرستقراطية.

وأثرت الميثولوجيا اليهودية على المجتمع الأوربي. لأنها كانت كالميثولوجيا اليونانية حافلة بأحداث الحروب والهزائم والانتصارات والمؤامرات والعواطف والشخصيات التي تقوم بأدوار معينة، ولأن إله بني إسرائيل يشبه إله الميثولوجيا اليونانية فهو يغضب ويرضى ويحايى شعبه ويوقع الهزائم بالشعوب الأخرى كما أن التاريخ الذي تقدمه حافل بالمؤامرات والدهاء الخ... وهناك أناشيد طويلة، وأمثال حكيمة، وشعر عاطفي وابتهالات وروايات عن أولياء وكهنة، بحيث يمكن القول إن التوراة استكمل كل المواصفات التي تخلق "ميثولوجيا" ناجحة ومن هنا دخلت الميثولوجيا اليهودية المتمثلة في التوراة الآداب والمجتمعات الأوروبية. وقد كان اليهود من الذكاء بحيث أقحموا التوراة في المسيحية بحيث أصبحت مطالعة التوراة جزءاً من واجبات المسيحي التقليدي. ولم يكن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التي وضعت وعد بلفور جاهلاً بحدود "الميثاق" الذي وضعه "يهوه" لإبراهيم ووعده فيه "بالأرض من نيل مصر إلى النهر الكبير الفرات" وقال لكلمنصو أن إعلان بلفور يضم أراض فلسطينية حسبما تشير التوراة من "بانياس إلى بئر السبع".

إذا كان هذا هو أثر "الميثولوجيا" اليهودية على المجتمع الأوربي. فلنا أن نتصور أثرها العميق والشامل على اليهود لأنها تضم الدين، والفنون، والتاريخ، والشريعة الخ... ولأن المحور الذي يدور عليه كل هذا هو أفضلية الشعب المختار وحقه في السيادة على العالمين. وأن هذا الحق إنما جاء من إله بني إسرائيل فالتاريخ أصبح ديناً، والدين تاريخاً، واستطاع اليهود وهم أقدم أقلية في التاريخ - وفي يدهم هذه الوثيقة، أن يتقدموا - بفضل تراكمات متوالية عبر القرون - بحيث شغلوا منزلة تفوق بمراحل نسبتهم العددية. واندمجوا بذكاء في المجتمعات الأوروبية، وفي الوقت نفسه احتفظوا بشخصيتهم "التوراتية"، ولم يحل دون ذلك أن يؤمنوا بالإسلام كما في يهود "الدونمة" أو بالمسيحية كما في "ذرائلي" الذي تغلغل في الأرستقراطية البريطانية ورأس حزب المحافظين والوزارات أكثر من مرة، ومع هذا واصل إصدار الروايات التي تتم عن جذره اليهودي..

لقد عايشَت اليهودية الحضارة الفرعونية المصرية، وعايشَت الحضارة البابلية عشرة قرون، في كل منها ثم، عاصرت في مرحلتها الأخيرة الحضارة الرومانية حتى دورها السكندري. ولم تكن هذه مجرد اتصالات ولكنها معايشة طويلة فقد ولد إبراهيم في بابل وعاش فترة فيها ثم ذهب إلى مصر وعاد منها. وعاش نسله في هذه المناطق وعاشروا أهلها وتشرّبوا بها - حتى في الأسر البابلي اختلط اليهود بالمجتمع البابلي وكان لهم وجود بارز وهناك من الآثار ما ينم عن مؤسسة مالية ظلت عاملة لأكثر من قرنين متوالين في بابل. وقبلها عاش اليهود في مصر وتربى موسى في بلاط الفرعون كما لو كان نبياً مصرياً وخضع اليهود بعد فترة الترحاب بهم أيام يوسف إلى موجات من السخط عندما تحالفوا مع الحيثيين الغازين ولما خرجوا إلى فلسطين تأثروا بحضارة الكنعانيين وأخيراً عندما بسط الرومان حكمهم على هذه المناطق كلها تأثر اليهود بالحضارة الرومانية/ الهلنسية وكانت الإسكندرية معقلاً لليهود كما كانت معقلاً للحضارة الهلنسية. وفيها ترجمت التوراة وبقية كتب اليهود.

هذه المعايشة الطويلة للمجتمعات الوثنية ذات الميثولوجيات المختلفة أثرت طويلاً على اليهود بحيث طُوعت كلمة إبراهيم ودعوته الحق للإيمان بالله لهذه الميثولوجيات فاختلفت بها وأوجدت ميثولوجيا يهودية خالصة عبرت عنها التوراة بوجه خاص في أسفارها الخمسة التكوين - والخروج - واللاويين والعدد والتثنية وهي الأسفار التي يقولون إن موسى كتبها بخط يده (وكيف يكتب بخط يده خبر وفاته، وما بعده).

كيف تم هذا؟ إن هذا تم بعشرات الطرق، وعلى امتداد عشرات ومئات السنين وعمل فيه جنود مجهولون لم تسجل صفاتهم أو تعرف أسمائهم وأسلمه الأسلاف إلى الاخلاف ليقدموا إضافتهم وليسلموه مرة أخرى إلى أجيال جديدة... ووراء هذا كله التطورات التاريخية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تملى على البشر تكيف تصوراتهم طبقاً لما اقتضته ضرورة هذه الأوضاع.

هذا هو الحل الوحيد للمأزق الذي يجد المفكر المسلم نفسه فيه، فهناك تأكيد لوجود إبراهيم وأنه كان رجلاً ممتازاً وأن الله تعالى خصه برسالة التوحيد وأنه دعا قومه إلى الله فكذبوه هذا هو ما يمكن أن يؤكد التاريخ - وهو ما نص عليه القرآن أيضاً - أما ما تورده الروايات عن هذا الإله يهوه الذي عشق عشقاً إبراهيم ونسله وفضلهم على كل العالمين ولم تكن له همة إلا إعطاءهم العهود بتمكينهم من الأرض "من نهر مصر حتى نهر الفرات الكبير". وتكررت هذه العهود لإبراهيم، ثم ليعقوب ثم لموسى ثم من بعده.. وأنهم هم الشعب المختار والمميز وأن العلاقة بينهم وبينه الختان.. وأنه إله غيور يفتقد ذنوب الآباء في الجيل الرابع من الأبناء الخ... فهذا كله ما يضرب عنه المفكر صفحاً، وما لا يرى فيه إلا صياغة لميثولوجيا يهودية وضعها رجال الدين اليهودي في أوقات متأخرة لتمكين هذه العقيدة في نفوس اليهود بحيث تحكمهم حكماً لا فكاك لهم منه لأنها في الوقت الذي تخضعهم لها فإنها تؤكد لهم أنهم الجنس المختار، وأن ليس للأُميين منزلة تقارب، فضلاً عن أن تضارع - الجنس اليهودي المختار..

إن ماركس قدم لنا مفتاحاً لحل المسألة اليهودية عندما قال **إننا لن نبحث عن سمة اليهودي في دينه، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي** ولا يختلف الرأي الذي ينتهي إليه المفكر المسلم عن هذا "أن معظم ما تضمنته التوراة إنما هو من وضع اليهود. فقد وضع اليهود دينهم بأنفسهم، كما اختاروا الالههم. وهذا الدين يختلف - بل ويتناقض - مع ما أنزله الله على إبراهيم من دين يتسم ككل الأديان الإلهية بالموضوعية والانفتاح وليس الذاتية والانغلاق وأن ظلت بعض توجيهاته، وهي التي أكسبت الإعجاب ومثلت إضافة اليهودية في عالم الأديان.

نحن لا يخالنا شك في أن هذا هو سبب ما أضيف إلى دعوة إبراهيم السمحة، من إقامة حكم باسم الدين وهذه الأوامر التي يصدرها يهوه إلى قادة بنى إسرائيل باستئصال أعدائهم استئصالاً وقتل الرجال والنساء وسبى الأطفال وقتل البهائم واقتلاع المزروعات، وأن من يعمل في يوم السبت يرحم.

ويجب أن نذكر أن وعد إبراهيم المزعوم جاء في سفر التكوين الحافل بتقديرات وهمية عن تكوين الأرض وظهور الإنسان ونسل آدم الخ... وعندما يرد فيه أن موسى كتب الأسفار الخمسة بيده فهذا نفسه دليل على أن هذا نص كتبه غيره.

وهذا ما ينطبق بوجه خاص على الوعد الذي أعطاه يهوه لإبراهيم بأن يملكه ونسله الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات، إذ لا معنى له. فقد ولد إبراهيم في أور واستقر بها والمفروض أنه دعا قومه إلى الإيمان وإذا كان سيملكهم أرضاً، فيكون ذلك في الأرض التي ظهر فيها، ولا داعى لتمليكهم أرضاً بعيداً عنها واعتبار هذه الأرض أرض غربة والأرض الجديدة موطننا. فإدراج هذا النص أمر ينم - فيما يشبه اليقين - أن أحبار بنى إسرائيل قد وضعوه في فترة متخلفة ليكون أساساً لحق مزعوم في فلسطين. وما يمكن التسليم به هو أن موسى دعا قومه للذهاب إلى فلسطين عندما أراد أن يحررهم من مصر "أرض العبودية" سواء كان هذا نتيجة أمر إلهي، أو أنه كان التصرف الوحيد العملي، مما دام قد قرر أن يخلص من مصر، فليس أمامه إلا فلسطين، لأنه لا يعقل أن يخوض بهم فلات الصحراء ليذهب إلى ليبيا أو العراق. ففلسطين كانت هي أقرب الأراضي التي يمكن أن يلجأ إليها. وكان يمكنه هذا بالطبع بالاتفاق مع الأهليين، أو حتى عند رفض هؤلاء بحرب محدودة. وينتهي الأمر..

* * *

من المهم أن نعلم إن عدم اتفاق الميثولوجيا مع العلم أو العقل لا يوهنها، أو يضائل الإيمان بها، لأنها تعتمد على الوجدان والمشاعر والعواطف التي يكون لها منطقها الخاص ومكانها في النفس البشرية. ومن هنا كان الكثير من "العلمانيين" يؤمنون بها في مجالها ولا يؤثر هذا على عقلانيتهم في المجالات الأخرى. ولعل هذا الإيمان أن يستكمل لهم ناحية معينة في النفس البشرية. وكان أكبر دعاه الصهيونية من العلمانيين مثل هيرزل ووايزمان وبن جوريون. ولكنهم مع هذا يأنسون إلى الميثولوجيا اليهودية كما جاءت بها التوراة. وكان إيمان بن جوريون بها يختزل ثلاثة آلاف سنة ويراها كما كانت حية وكان يفخر على الأوروبيين الذين لا يذكرون ماذا أكلوا في أسبوع مضى في حين أنه يعلم ماذا أكل أسلافه عندما خرجوا من مصر منذ ثلاثة آلاف عام. لقد أكلوا خبزاً فطيراً بلحم مشوى وأكلوه وهم وقوف. وأحقاؤهم منطقة ونعالهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم كمن هو على أهبة السفر. وكان هذا يثير دهشة مستمعيه وإعجابهم.. ووجد دزرائيلي - وهو في منصب الوزارة البريطانية - في الميثولوجيا اليهودية - مادة لروايته كمنجسبي وتكريد.

لا عجب إذن إذا كانت الميثولوجيا اليهودية التي وضعت من أقدم الأباد هي التي كونت "النفسية اليهودية" وكانت الرباط الذي يجمعهم في الشتات في أوربا، وفي آسيا الخ... ويجعلهم أمة واحدة. أمة التوراة.. وقد يزيد بعضهم أمة التوراة والسبت، واليوم هم يزيدون "أمة التوراة. والسبت والهيكل".

* * *

من الخروج إلى الدياسبورا (٣٧)

خرج موسى ببني إسرائيل من مصر "أرض العبودية" مستقبلاً أرضاً جديدة. أرض الحرية. وأعانه الله تعالى على ذلك حتى دخل صحراء سيناء وتمرد عليه اليهود وعادوا مرة أخرى لعبادة العجل الذهبى وحنوا إلى مصر وفولها وعدسها.. فعاقبهم الله بالثية فيها طوال أربعين عاماً.. انتهى خلالها الجيل الذى عاش فى العبودية وحن إليها. ومات موسى وهارون نفسه وتعين على يوشع أن يدخل الأرض المقدسة فعبر بهم نهر الأردن وأمر يوشع أن يختتن الشعب كله لأن هذه الشعيرة هى العلامة ما بين إسرائيل وإلهم^(٣٨)، وهى بمثابة المعمودية عند المسيحيين. ثم دخل أريحا بعد أن نبأه الرب أنه ما إن يطوفوا حول الأسوار سبع مرات وينفخ الكهنة فى الأبواق حتى تتداعى أسوار المدينة.. وأهلك اليهود كل من وجدوه من رجل أو امرأة حتى البقر والغنم بحد السيف "كما أمر الرب".

وبدأت سلسلة من الحروب والقتال ارتوى فيها أن يقوم القضاة بالحكم، وبدأ حكم القضاة الذين ساسوا فى الفترة من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك لليهود.. وتبلغ هذه الفترة أربعمئة سنة على وجه التقريب.

ويتحدث أحد المراجع عن هؤلاء القضاة "بيد أن هؤلاء لم يكونوا حكماً، ولا حتى قواداً عسكريين بكل معنى الكلمة، بل أبطالاً اختارهم الله رأساً من بين الشعب لمهمة معينة، حسبما كانت تقتضيه الظروف، وذلك لتخليص الشعب من أعدائهم ومضايقيهم.

ومن ثم لم تكن هناك خلافة متسلسلة الحلقات بين هؤلاء القضاة، الذين لم تتعد سلطة القاضى منهم فى بعض الأحيان سبطه الخاص. وربما كان بعضهم معاصراً لبعض.

أما من جهة أخلاقهم فلم تكن، على الدوام، على ما يرام، ولا سيما أخلاق بعضهم. فهم فى الواقع قادة عسكريون أكثر منهم مصلحون، وإن اهتم بعضهم بهدم معابد الأصنام وتطهير شعبه من أرجاس الوثنية^(٣٩).

إن أشهر هؤلاء القضاة، هم: عتنيئيل، وأهود، ودبورة النبيه، وبارق. ثم جدعون. ويفتاح وشمشون. ويلحظ هنا أن هؤلاء القضاة، وهم أفضل بنى إسرائيل، وأن بعضهم كان يتلقى وحى إله بنى إسرائيل ويبتهل إليه.. نقول إن تأثير الميثولوجيا عليهم كان عميقاً وجعلهم "محامين" لشعب إسرائيل، وليسوا قضاة يحكمون بالعدل، وليس عبثاً أن يكون أحدهم "شمشون" الجبار الذى استطاع "بفك حمار" ميت قتل قرابة ألف

(٣٧) الخروج أى الخروج من مصر بقيادة موسى والدياسبورا هى التسمية اليهودية لحالة الشتات التى عاشها اليهود فى مختلف دول العالم بعد طردهم من فلسطين.

(٣٨) يبدو أن الأحبار اليهود لا يزالون يتمسكون بهذا التقليد. فقد جاء فى الهيرالد تريبيون فى ١٢/١١/١٩٩٣ أن الحاخامات اليهود فى إسرائيل يقومون بعملية ختان على جثث اليهود الروس قبل دفنهم.

(٣٩) التاريخ المقدس للأب لويس برسوم الفرنسيسكانى ص ١٣٠ - مركز الثقافة الشرقية - القاهرة ١٩٥٤.

من الفلسطينيين. وهو نفسه الذى استسلم لإغراء "دليلة" حتى ذكر لها أن سر قوته هو فى شعره، فحلقت شعره وهو نائم وأسلمته إلى الفلسطينيين أعداءه الذين طربوا لذلك. ولكن شمشون تاب إلى الله فأعاد الله إليه قوته وعندما أراد الفلسطينيون أن يسخروا منه، وكان واقفاً بين عمودين من الهيكل شد بيديه العمودين فسقطاً وانهدم الهيكل وهو يقول علىّ وعلى أعدائى يارب"، ويقال إنه بهذه الصورة قتل من الفلسطينيين أضعاف ما قتلهم فى حياته.

ولعل أفضل هؤلاء القضاة هو صموئيل الذى استطاع أن يخلص إسرائيل من هيمنة الفلسطينيين وعبادة الآلهة الغريبة، فاعترف كل الإسرائيليين به قاضياً عليهم وتولى هذه المهمة حتى شاخ وكبر.. وعندئذ طلب الإسرائيليون منه أن يولى عليهم ملكاً.. وتضمنت الفقرة التى جاءت فى سفر القضاة عن هذه النقطة كلاماً حكيماً فعندما ساء ذلك صموئيل ابتهل إلى الله أن يهديه أجابه الله "اسمع لكلام الشعب فى جميع ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم. ولكن أشهدهم وأخبرهم بوسائل الملك الذى يملك عليهم حتى إذا ما أثقل عليهم لا يلوموا إلا أنفسهم".

فجمعهم صموئيل وقال لهم هذا هو ما سيفعله الملك بكم إذا حكمكم. سيأخذ أبناءكم ليستعبدكم فى أعماله، وليسعون بين يدي عرباته وسيعين بعضهم قادة ليكونوا ضباطاً فى جيشه، وآخرين ليكدحوا فى حقوله ومزارعه وآخرين لإعداد عرباته وأسلحته وسيأخذ بناتكم ليكن وصائف وخدامات وخبازات وطباخات، وسيأخذ أفضل حقولكم وأشجار الزيتون والأعناب، وسيأخذ العشر من الحبوب ليعطيها لأتباعه، وسيأخذ أفضل ماشيتكم، وسيثقل كواهلكم بالضرائب وأنتم تكونون عبيداً له.

فأبى الشعب أن يسمع لهذا التحذير، وقالوا بإلحاح كلا بل يملك علينا ملك كسائر الأمم يقضى بيننا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا.

فلما رأى إصرارهم اختار لهم شاول ملكاً.

وبدأ عهد الملوك..

ولكن شاول انحرف عن طريق الله وخالف وصاياه. فتعدى على سلطة الكهنوت فقد كان متفقاً على ألا يبدأ المعركة، قبل تمام سبعة أيام. وإذ ذاك يأتى صموئيل، فيقرب محرقة للرب، طالباً معونته وحماية جنود إسرائيل.

وحل اليوم السابع، وطال انتظار شاول، ولم يأت صموئيل. ورأى شاول الشعب يتفرقون من حوله، وطلّاع الفلسطينيين تقترب من معسكره، فنقد صبره. وطلب أن يقدموا إليه المحرقة وذبائح السلامة، فقدموها. وما هى إلا لحظة حتى أخذ يصعدها بنفسه.

وأغضب هذا صموئيل وقال له "إنك بحماقة فعلت حيث لم تحفظ وصية الرب إلهك. فإن الرب كان قد أقر ملكك على إسرائيل إلى الأبد، فأما الآن فلا يدوم ملكك (١ مل ١٣ : ٥-١٤).

أما المعصية الثانية الكبرى التى ارتكبها شاول فكانت بمناسبة الحرب ضد العمالقة، وكانت حرباً انتقامية، أمر بها الله لإبادة هؤلاء العمالقة، الذين تعرضوا لإسرائيل عند دخوله أرض الموعد.

وعلى ذلك فقد أمر شاول بإبادة جميع السكان وكل مواشيهم: الغنم والإبل والحمير، بحيث لا يبقى على حى إطلاقاً.

غير أن شاول قتل شعب العمالقة فقط. أما ملكهم فلم يشأ أن يقتله، بل جاء به حياً، ليشهد بنصره عند القاصى والدانى. كما أنه أعدم كل ما كان حقيراً مهزولاً. أما خيار الغنم والبقر، وكل ثمين فقد احتفظ به. ولهذه المعصية غضب إله إسرائيل على شاول وقرر أن يكون داود ملكاً^(٤٠).

وخلف شاول داود، الذى برز عندما استطاع أن يقتل العملاق الفلسطينى جالوت (جليات) بحجر من مقلعه، وملك داود ولكن شيعة شاول، نازعته الملك فقامت الحرب بين بيت داود وبيت شاول لما يقرب من سبع سنين وانتصر داود فى النهاية وملك داود على كل إسرائيل لمدة أربعين سنة. ونقل عاصمة ملكه من حبرون إلى أورشليم بعد أن أخرج من القطاع الأعلى منها اليوسيين سكانها الأصليين بحد السيف ونقل "التابوت" إلى أورشليم باحتفالات باذخة وحدث وقتئذ أن جمحت الثيران التى تجر التابوت فمد "عزة" وهو أحد قوادهم يده ليسند التابوت "ولكن لما كان لمس التابوت غير مسموحاً به إلا للكهنة. فقد اشتد غضب الرب على عزة وضربه لأجل جسارته هذه فمات".

"فشق على داود ضرب الرب لعزة، وخاف خوفاً شديداً من أن ينزل تابوت الرب عنده. ومن ثم فقد عدل به مؤقتاً إلى بيت عوبيد أدوم. فبقى تابوت الرب فى بيت عوبيد ثلاثة أشهر، كانت ميمونة على عوبيد وكل بيته، حيث باركه الله وكل ماله، بركة غزيرة.

فلما سمع داود ذلك، مضى فى موكب عظيم، وأصعد تابوت الرب من بيت عوبيد إلى مدينة داود، كما كان مقرراً من ذى قبل. وكان الفرح شاملاً. فكان كلما خطا حاملو التابوت ست خطوات يذبحون ثوراً وكبشاً مسماً.

وكان داود يرقص بكل قوته أمام تابوت الرب طوال الطريق، حتى وصلوا به إلى أورشليم، إلى حصن صهيون، وأدخلوه السرادق الفخم المقام له خصيصاً بذلك الحصن. وكان بعد ذلك أن أصعدت المحرقات، ونحرت ذبائح السلامة، ووزع لحمها على جميع الحاضرين رجالاً ونساء. ثم بارك داود الشعب وصرفهم^(٤١).

ومع هذا فقد تمرد على داود ابنه أبشالوم وقامت حرب أهليه حتى هرب داود وعبر الأردن، ولكنه انتصر بعد مدة ورفرف السلام على ربوع المملكة إلى أن أمر داود بعمل إحصاء للشعب.

"وبما أن طلب ذلك الإحصاء كان بدافع الكبرياء، فقد غضب الرب على داود، فأرسل إليه جاد النبى، قائلاً: "إنى عارض عليك ثلاثاً. فاختر لنفسك واحدة منها، فأنزله بك: أن تأتى عليك سبع سنين جوع فى أرضك. أم تهرب أمام أعدائك ثلاثة أشهر. أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك.

(٤٠) هذه الفقرة، والفقرات الأخرى التالية فى الفصل والمنقولة عن التوراة مقتبسة من كتاب التاريخ المقدس للأب لويس

برسوم الفرنسيسكانى - مرجع سابق.

(٤١) التاريخ المقدس - مرجع سابق ص ١٧١.

فقال داود لجاد، وقد علم خطأه: لقد ضاق بى الأمر جداً، ولا أعلم ماذا أختار، ولكن إن كان لابد من ذلك، فالأحرى أن أقع فى يد الرب، ذى المراحم الكثيرة، من الوقوع فى يد الناس.

فبعث الرب فى كل إسرائيل وباءً شديداً جداً، فمات من الشعب سبع وسبعون ألف رجل. ولم تكف الضربة، إلا عندما رفع داود أكف الضراعة إلى العلى. ليرحم ذلك الشعب البرىء قائلاً: أنا الذى فعلت السوء. وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا؟.

فتعطف الله على عبده داود وعلى الشعب، فكفت الضربة (٢ مل ٢٤..).

وقبل أن يموت داود جمع جميع رؤساء إسرائيل وخاطبهم قائلاً "لقد كان فى نفسى أن أبنى بيتاً لتابوت عهد الرب، وقد أعددت كل مواد البناء. إلا أن الله قال لى: أنت لا تبني بيتاً لاسمى، لأنك رجل حروب، وقد سفكت الدماء! بل سليمان ابنك هو بينى بيتى، لأنى إياه اصطفيت لى ابناً. وأنا أكون له أباً. وأقر ملكه إلى الأبد، إن ثبت على العمل بوصاياى وأحكامى.

وبعد توصية قصيرة للشعب، حثهم فيها على الثبات فى حفظ جميع وصايا الله، أبرز رسم بيت الرب وملحقاته، مع تصميم جميع الآنية وأمتعة الخدمة، ودفعتها إلى سليمان ابنه.. (١ أى ٢٨..) وقال للرؤساء: إن العمل عظيم، لأن الهيكل ليس لبشر، بل للرب الإله... وبعد فإنى لرغبتى فى تحقيق هذا الأمر، لدى مال خاص من الذهب والفضة، وهبته لبيت إلهى، علاوة على جميع ما أعددته - من مال الدولة وأسلاب الحروب - لبيت القدس: ثلاثة آلاف قنطار من ذهب، وسبعة آلاف قنطار من فضة.

حينئذ تطوع الرؤساء، وأدوا لخدمة بيت الله خمسة آلاف قنطار من الذهب، وعشرة آلاف من الفضة، وكميات كبيرة جداً من النحاس والحديد.

وبارك داود الرب قائلاً: مبارك أنت أيها الرب إله إسرائيل... لك يا رب، العظمة والجبروت والجلال والبهاء... من لذك الغنى والمجد، وأنت مالك على الجميع، وفى يدك القدرة... أيها الرب إلهنا إن كل هذه الثروة التى أعددناها لنبنى لك بيتاً، إنما هى من يدك والجميع لك.

وبارك الشعب كلهم الرب إله آبائهم، وخرّوا وسجدوا للرب وللملك. وذبجوا للرب ذبائح كثيرة. ثم توجهوا سليمان، فجلس على عرش إسرائيل مكان أبيه (١ أى ٢٩..).

وملك سليمان وامتد سلطانه على كل الممالك الصغيرة المجاورة لإسرائيل من نهر الفرات إلى أرض فلسطين إلى حدود مصر.

وفى السنة الرابعة من ملكه بدأ فى إقامة الهيكل..

وتورد التوراة أرقاماً "فلكية".."بلغ عدد العمال الذين استخدمهم سليمان لإنجاز هذا العمل العظيم ما يقرب من المئتى ألف عامل، منهم: ثلاثون ألف عامل سخرة، كان يرسل منهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر مناوبة، لقطع الأخشاب مع عبيد حيرام ملك صور، صديق سليمان. وسبعون ألف عامل لحمل الأثقال فقط ونقلها، وثمانون ألفاً لقطع الأحجار ونحتها قبل تصديرها إلى أورشليم. هذا ما عدا الرؤساء وكلاء سليمان القائمين على الأعمال، والبالغ عددهم نيف وثلاثة آلاف رجل (٣ مل ٥: ١٣..).

ويتكون الهيكل أو بيت "يهوه" بحصر المعنى، من القدس وقدس الأقداس، وهو ضعف مساحة المسكن الذى أقامه موسى تماماً. ومن ثم كان طوله ثلاثين متراً وعرضه عشرة أمتار. ويمتد أمام القدس الدهليز، وهو بعرض البيت فى طول خمسة أمتار.

وكان للقدس، الذى لم يكن مسموحاً بدخوله إلا للكهنة، شبابيك مرتفعة. أما قدس الأقداس أو المحراب الذى لم يكن مسموحاً بدخوله إلا لرئيس الكهنة، ومرة واحدة فى السنة فقط، فكان مظلماً تماماً. وكانت تمتد على محيط بيت الله ثلاثة طبقات من الغرف، لحفظ أدوات الهيكل، والأقداس والنذور (٣ مل ٦ : ١ - ١٠).

ويبلغ ارتفاع رواق القدس أو الدهليز ثلاثون متراً، والقدس خمسة عشر متراً. أما ارتفاع قدس الأقداس أو المحراب، فكان كطوله وعرضه أى عشرة أمتار، وإذن فهو عبارة عن عشرة أمتار مكعبة. ولكى نعطى فكرة للقارئ عن فخامة هذا البناء وعظمته، نقول: إنه بنى جميعه بحجارة ثمينة تامة النحت. وقد ألبست جدرانه وسقفه وأرضيته بخشب الأرز والسرو، ثم غشيت جميعها بالذهب الخالص. وقد نقشت على جميع جدران البيت صور ملائكة ونخيل وزهور مفتحة بارزة محكمة النقش. كما أن جميع أدوات بيت الله، التى صنعها سليمان كانت من الذهب الخالص (٣ مل ٦ : ١٤).

وكان يحيط بالهيكل من مدخله وجانبيه، على أيام سليمان ساحتان كبيرتان: ساحة الكهنة، وساحة إسرائيل. وكانت الأولى، وهى المقام عليها الهيكل، أعلى من الثانية بخمس عشرة درجة، وفى وسطها مذبح المحرقات، والبحر، والمغتسلات العشرة، التى صنعها سليمان من النحاس المجلو. وكان حول هاتين الساحتين أروقة كبيرة فسيحة، ذات أعمدة مرتفعة من الرخام، يتخللها عدد كبير من الغرف لسكنى الكهنة، والأغراض الأخرى المختلفة.

فى تدشين الهيكل:

ولما تم بناء الهيكل بجميع أقسامه، أدخل سليمان جميع الأقداس، التى أعطاه إياها داود أبوه، من الفضة والذهب، وجعلها فى خزائن بيت الرب (٣ مل ٧ : ٥١).

حينئذ جمع إليه شيوخ إسرائيل، وجميع رؤساء الأسباط، وكل عظماء الدولة إلى أورشليم، ليصعدوا تابوت عهد الرب من "صهيون" إلى الهيكل الجديد. فأصعدوه بفرح واحتفال عظيمين.

وما أن أدخل الكهنة تابوت الرب إلى مكانه فى قدس الأقداس، تحت أجنحة الكروبيين العظمين، اللذين صنعهما سليمان من داخل المحراب، حتى ملأ الغمام بيت الرب. فلم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب الغمام، المشير والمعلن بحلول الله فى بيته.

وإذ رأى سليمان أن مجد الرب قد ملأ الهيكل، قام فجثا على ركبتيه أمام مذبح الرب، أمام جماعة بنى إسرائيل كلها، وبسط يديه نحو السماء، وصلى صلاة طويلة، نقتبس منها الفقرات التالية، قال: أيها الرب إله إسرائيل، ليس إله مثلك فى السماء من فوق، ولا فى الأرض من أسفل.. إن السماوات، وسماوات السماوات لا تسعك، فكيف هذا البيت؟.. اللهم التفت إلى صلاة عبدك وتضرعه. ولتكن عيناك مفتوحتين على هذا الباب، والنهار والليل.. نحو تضرع عبدك وشعبك، واصغ إليهم فى كل ما يدعونك فيه.

وكان لما أتم سليمان صلاته، أن هببت النار من السماء، فأكلت المحرقة والذبائح، وملاً مجد الرب البيت. وبذا تم تكريس الهيكل بجميع مذابحه وأدواته.

وعاين جميع بنى إسرائيل هبوط النار، ومجد الرب، فخرؤا بؤجؤهؤ إلى الأرض، وسجدوا لله جلّ جلاله، معترفين بصلاحه تعالى ورحمته.

وذبح سليمان الملك أمام الرب ذبائح: اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومئة وعشرين ألفاً من الغنم، ما عدا ما ذبحه الشعب.

واحتفل سليمان وكل جماعه بنى إسرائيل بتدشين الهيكل أربعة عشر يوماً. صرفهؤ بعدها الملك إلى بيوتهم فرحين طيبى القلوب (٣ مل ٨...).

وتجلى الرب لسليمان ليلاً، وقال له: قد سمعت صلاتك، واخترت لى هذا المكان بيت ذبيحة، وقدرته ليكون اسمى فيه إلى الأبد (٣ مل ٩..) "٤٢".

مع هذا كله، فقد حاد سليمان عن طريق الحكمة واستسلم للشهوات على ما روت التوراة "ولذلك فإن كثيراً من العلماء ومفسرى الكتاب يشكون فى أمر خلاصه.

بعد موت سليمان انشقت دولة إسرائيل إلى مملكتين مملكة يهوذا الخاضعة لرحبعام بن سليمان وعاصمتها أورشليم ومملكة إسرائيل الخاضعة لياربعام وعاصمتها شكيم ثم السامرة.

ومملكة إسرائيل يمتد عمرها من سنة ٩٣٢ إلى سنة ٧٢٢ ق. م.

ويمكن تقسيم تاريخ هذه المملكة إلى ثلاث فترات: الأولى، فترة الحروب بين الدولتين الناشئتين، وتمتد حتى أواخر ملك آحاب.

الثانية: فترة سلام بين المملكتين الشقيقتين. وتمتاز هذه الفترة بظهور الأنبياء، ومنهم إيليا، وأليشع الخ...

الثالثة: فترة حروب أيضاً بين الدولتين، حتى خراب دولة إسرائيل على يد شلمنأسر ملك آشور، وجلائها إلى نينوى.

ويمكن القول أن كل ملوكها كانوا أشراراً، بما فى ذلك الملك عمرى الذى ملك ١٢ سنة (٨٨٦ - ٨٧٥ ق. م). والذى أسس مدينة السامرا التى صارت عاصمة الدولة، وكان معظمهم يعبدون العجل، أو البعل. وظهر وقتئذ بينهم إيليا الذى أوحى له الرب بأن يعظ الملك آحاب - سابع ملوك إسرائيل. ولما أمر الملك بقتله أوحى له الرب بأن يهرب إلى نهر كريت تجاه الأردن ويشرب منه وأن الغربان ستأتيه بطعامه. فكان يشرب من النهر وتأتيه الغربان بخبز ولحم كل يوم صباحاً ومساءً (٣ مل ١٧: ١-٦). وأجرى الله على يدى إيليا معجزات عديدة حتى يرتدع حكامها وفى النهاية جاءت مركبة نارية، وخيل نارية فصلت ما بين إيليا وتلميذه المخلص أليشع وطلع إيليا فى العاصفة النارية إلى السماء بينما خلفه أليشع الذى حلت فيه روح إيليا فأطاعه بنو إسرائيل. وأظهر أليشع معجزات عديدة منها تحويل المياه المرة إلى مياه حلوة. ومنها

(٤٢) التاريخ المقدس - مرجع سابق من ص ١٨٦ - ١٨٩.

معاقبة فريق استهتر به فخرجت دابتان من الغاب وافترستا منهم اثنين وأربعين صيباً!.. (٤ مل ٢ : ٢٢) ومنها تكثير الزيت، ومنها إحياء ابن لامرأة تقية بعد أن مات من ضربة شمس، ومنها إصلاح الطعام السام، ومنها تكثير الخبز إذ جعل مائة رجل يأكلون من عشرين رغيفاً حتى شبعوا وفضل عنهم.. (٤ مل ٤ : ٤٢). وشفاء نعمان الشامي قائد الجيش، كما كشف عن خطط ملك سوريا ضد مملكة إسرائيل، وكذلك إنقاذ مدينة السامرة.

وحدثت فتن أدت إلى قتل بيت آحاب الملك ومسح ياهو ملكاً على إسرائيل، وطهر المملكة من عبادة البعل، بعد أن أوهم الناس أنه سيقوم بتقديس البعل فجاء كل عباد البعل من كل أنحاء إسرائيل إلى السامرة، وفيما هم يقدمون الذبائح، للبعل أمر ياهو رجاله فضربوهم ضرباً بحد السيف.

وملك ياهو على كل إسرائيل ثمانى وعشرين سنة. وهو مؤسس الأسرة الملكية الخامسة، التي قدر لها أن تعيش ما يقرب من المائة سنة. فقد قال الرب لياهو: حيث إنك أحسنت فى كل ما صنعت ببيت آحاب، فسيجلس من بنيك على عرش إسرائيل إلى الجيل الرابع.

بيد أن ياهو، وإن طهر مملكة إسرائيل من عبادة البعل الرجسة، إلا أنه لم يحد عن آثام ياربعام بن نباط، فعبد مثله الرب الإله تحت صورة عجل الذهب، اللذين فى بيت إيل ودان.

ولذا فإن الرب سلط عليه حزائيل ملك أورام. فكال حزائيل الضربات لإسرائيل قاسية، حسب نبوة أليشاع رجل الله. واقتطع من تلك المملكة، التي كانت تحيط بها الأعداء من الجنوب والشمال، كل مدن شرقى الأردن، من عروعر إلى جلعاد وباشان. ولم ينج ياهو من نير آشور، فدفع الجزية لملكها شلمنأسر الثالث (٤ مل ١٠).

ومات ياهو، فخلفه على عرش إسرائيل ابنه يوآحاز (٨١٤ - ٧٩٨ ق. م). الذى أضحت فى أيامه دولة إسرائيل - فى فترة من الزمن على الأقل - عبارة عن ولاية خاضعة لملوك دمشق الآراميين.

فلم يكن ليوآحاز سوى خمسين فارساً، وعشر مراكب حربية، وعشرة آلاف راجل. وهى القوة التى كان يسمح بها لحكام الأقاليم الخاضعة للممالك الكبرى فى ذلك الزمن (مل ٣ : ١ - ٨).

ونفضت بعد ذلك إسرائيل نهضة بلغت أوجها فى عهد ياربعام الثانى الذى ملك إحدى وأربعين سنة (٧٨٤ - ٧٤٤ ق. م) على أن هذه النهضة المادية العظيمة، التى لم تكن تستند على أسس ثابتة من الأخلاق وروح الدين، لم تلبث أن أخذت فى الانهيار. وقد بدأ هذا الانهيار بوضوح بعد موت ياربعام، وارتقاء زكريا ابنه بالعرش. وهنا تبدأ الفترة الثالثة والأخيرة من تاريخ دولة إسرائيل. وهى فترة تفهقر واضمحلال بطيء انتهى بفناء هذه الدولة.

ومن ملوك هذه الحقبة الأخيرة :

زكريا بن ياربعام، هو آخر ملوك الأسرة الخامسة، التى أسسها ياهو. لم يملك على إسرائيل أكثر من ستة أشهر، فقد تأمر عليه شلوم بن يابيش، وقتله علناً أمام الشعب، وملك مكانه. (٤ مل ١٥ : ٨ - ١٢).

ولم يتمتع شلوم قاتل سيده، بالحكم أكثر من شهر، فقد تحالف عليه منحيم الترصى، وقتله فى السامرة، وملك مكانه (٤ مل ١٥ : ١٣ - ١٥).

واستطاع منحيم أن يملك على إسرائيل عشر سنين (٧٤٤ - ٧٣٥ ق. م)، ولكن بالقوة الجبرية. وبما أنه كان يعرف أن عرشه متزعزع، فقد أعطى لفلو، وهو تجلت فلأسر الثالث ملك آشور، ألف قنطار من الفضة، حتى تكون يده معه لإقرار الملك في يده. فكان يدفع بانتظام هذه الجزية سنوياً، مغتصباً قيمتها من الشعب. (٤ مل ١٥ : ١٦ - ٢٢).

أما ابنه فقحيا فلم يملك أكثر من سنتين (٧٣٥ - ٧٣٣ ق. م)، فقد تأمر عليه أحد قواده المدعو فاقح، وقتله في قصره مع عدد من حاشيته، وملك مكانه. (٤ مل ١٥ : ٢٣ - ٢٦).

وفى عهد فاقح (٧٣٣ - ٧٣١ ق. م) اكتسح آشور إسرائيل، وأضحت خراباً يباباً، ولم يبق منها إلا مقاطعة السامرة وما يحيط بها من أقاليم جبلية، وجاء دورها هي الأخرى على يد سرجون الأشورى الذى حاصرها وفتحها وأعمل السيف فى رقاب أهلها، وأخذ معه من رجال إسرائيل قرابة ثلاثين ألف أسرى إلى آشور وذلك فى سنة ٧٢٢ ق. م. (٤ مل ١٧ : ٥ - ٦).

كما أسكن لفيفاً من آشور وأعمالها مدينة السامرة فنشأ عن ذلك الشعب الذى عرف باسم السامريين.

مملكة يهوذا:

أما مملكة يهوذا فمع أنها لم تكن لها مساحة ولا كثافة مملكة إسرائيل، إلا أنها كانت تمتاز عنها بطابع الوحدة كما أنها كانت تضم أورشليم وهى العاصمة القديمة ولهذا قدر لها أن تعيش قرابة ٣٤٦ سنة تبدأ من ٩٣٢ - ٥٨٦ ق. م.

ويمكن تقسيم تاريخ مملكة يهوذا إلى فترتين طويلتين، تمتد الأولى: من نشأة هذه الدولة، حتى سقوط دولة إسرائيل. والثانية: من سقوط دولة إسرائيل حتى سبى بابل.

وتمتاز الفترة الأخيرة من تاريخ يهوذا، بصراع هذه الدولة المستميت ضد أعداء أشداء، كملوك مصر وبابل. وكان صراعاً للبقاء، انتهى بغلبة الأقوى، أى بغلبة بابل، وزوال دولة اليهود، ولو إلى حين.

وفى عهد الملك رحبعام هاجم شيشان ملك مصر أورشليم ونهبها وأخذ كل نفائس بيت الرب. وخلف رحبعام ابنه أبيا أو أبيام وجرى على جميع خطايا أبيه من عبادة الأصنام والإلهة الغربية. وحارب أبيا وشعبه ياربعام وهزمه وسقط من إسرائيل خمس مائة ألف رجل (٣ مل: ١ - ٨). وجاء بعده آسا ابنه، ومن بعده يوشافاط الذى يعد من أتقى ملوك يهوذا، إلا أن نهايته لم تكن سعيدة لأنه ارتكب عدة أخطاء كان منها زواج ولى عهده يورام من عتيليا ابنه إيزابيل ذات الشهرة السيئة. ولهذا فعندما ولى يورام العرش كان من أسوأ ملوك يهوذا وأول عمل قام به هو أنه قتل جميع إخوته بحد السيف مع جماعة من رؤساء إسرائيل فغضب عليه الرب وأرسل إليه رسالة عن طريق إيليا وأنذره فيها بضربة عظيمة من الرب مع بنيك وأزواجك ويضربك أنت بأمراض كثيرة حتى تتساقط أعضائك بسبب المرض. وتحققت هذه النبوءة بهجوم الفلسطينيين والعرب على يهوذا وافتتحوها وأصيب يورام بالمرض حتى خرجت أعضاؤه.

ويتوالى الملوك أحزيا (٨٤٢ ق. م) وعتليا وهى أم أحزيا (٨٤٢ - ٨٣٦) وبواش (٨٣٦ - ٧٩٧) وأمصيا ٧٩٧ - ٧٦٩ وعزيا وهو المدعو أيضاً عذريا ٧٦٩ - ٧٣٧ وهو الذى استولى على إيلت على البحر الأحمر وجدد بناءها بحيث أصبحت من أعظم أسواق التجارة ببلاد الجنوب إلا أنه لما تمكن، طمح قلبه

للفساد، وشاء أن يستأثر بالسلطة الكهنوتية أيضاً. ودخل يوماً الهيكل ليقرب على مذبح البخور، فقاومه عزريا رئيس الكهنة وكان ليف الكهنة معه، غير أنه لم يسمع لهم، واشتد حنقه عليهم، فضربه الله إذاك بالبرص، فاضطر إلى الخروج من الهيكل، وقد شمله الخزي والخجل. ويوتام (٧٣٧ - ٧٣٣) وآحاز (٧٣٣ - ٧١٨) الذى استتجد بملك آشور وحزقيا (٧١٨ - ٦٨٩ ق. م) الذى يعد أعظم ملوك يهوذا بعد داوود. لم يكن بعده مثله فى جميع ملوك يهوذا ولا فى الذين كانوا من قبله (٤ مل ١٨ : ٣ - ٥) وأعاد الإيمان بالدين وخلص البلاد من آثار الوثنية. وفى عهده زحف سنحاريب ملك آشور على مدن يهوذا وأخذها جميعاً ما عدا العاصمة واضطر حزقيا إلى أن يطلب الصلح معه على أن يدفع جزية. وقبل سنحاريب بعد أن فرض جزية ثقيلة للغاية أتت على كل ما فى أورشليم وأرسل ثلاثة من قواده على رأس جيش عظيم.

فلما سمع حزقيا تهديد وتجديف رسل ملك آشور، مزق ثيابه ودخل بيت الرب لابساً المسح^(٤٣) متذللاً. وسمع أشعيا النبى بالأمر فأرسل إلى حزقيا يقول: هكذا يقول الرب، لا تخف من الكلام الذى سمعته، مما جدف به على غلمان ملك آشور، فإنى أجعل فيه روحاً، فيسمع خيراً، فيرجع إلى أرضه، وأسقطه بالسيف فى أرضه.

وكان فى تلك الليلة أن خرج ملاك الرب وقتل من جيش آشور مائة وخمسة وثمانين ألفاً فرجع سنحاريب إلى أرضه وأقام بنيوى. وفيما هو ساجد، يوماً، فى بيت "نسروخ" إلهه قتله أدرملك وشراصر ابناه بالسيف، وهربا إلى أرض أراط.

وفى تلك الأيام مرض حزقيا، حتى أشرف على الموت، فوفاه أشعيا بن أموص النبى وقال له: "هكذا يقول الرب: أوص لبينك لأنك تموت ولا تعيش". فحول حزقيا وجهه إلى الحائط، وأخذ يبكى، وصلى قائلاً: "اذكر يا رب كيف سلكت أمامك بالحق وسلامة القلب".

فلم يخرج أشعيا إلى وسط الدار، حتى صار إليه كلام الرب قائلاً: ارجع وقل لحزقيا، إنى قد سمعت صلاتك ورأيت دموعك وهاءنذا أشفيك وفى اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وسأزيدك على أيامك خمس عشرة سنة.

وقال حزقيا لأشعيا: ما الآية على أن الرب يشفينى فأصعد فى اليوم الثالث إلى بيت الرب؟ فقال أشعيا هذه آية لك، أيتقدم الظل عشر درجات، أم يرجع عشر درجات؟ فقال حزقيا: ليرجع الظل إلى الوراى عشر درجات. فهتف أشعيا إلى الرب. فأرجع تعالى الظل فى الدرجات التى نزلها عشر درجات إلى الوراى.

ومع هذا كله فقد تملكته روح الكبرياء حتى استحق غضب الرب الذى أعلن له على لسان أشعيا. "أنها ستأتى أيام يؤخذ منك كل ما فى بيتك مما أذخره آباؤك إلى هذا اليوم. إلى بابل ويؤخذ من بنيك فيكونون خصيانا فى قصر ملك بابل (٤ مل ٢٠ : ١٧ - ١٨).

وكانت تلك نبوءة تحققت فى عهد ابنه منسى الذى كان شر خلف لأصلح سلف إذ استخدم السحر وأقام المذابح الوثنية داخل بيت الرب فى المكان المقدس نفسه فكان عاقبة ذلك أن سلب الله قواد جيش آشور فأخذوه فى الأصفاد وأوثقوه بسلسلتين من نحاس وذهبوا به إلى بابل.

(٤٣) المسح لباس خشن من نسيج الشعر يلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد.

وملك آمون ابنه مكانه. فصنع الشر كما صنع منسى أبوه، وعبد الأصنام، تاركا الرب إلهه. فتحالف عليه عبيده، وقتلوه فى بيته، بعد سنتين فقط من ملكه (٦٤١ - ٦٣٩ ق. م). (٤ مل ٢١ - ١٨.. ٢ أى ٣٣: ٢٠).

وأقام الشعب خلفاً لآمون يوشيا ابنه، وكان ابن ثمانى سنين. وقد ملك بأورشليم إحدى وثلاثين سنة (٦٣٩ - ٦٠٩ ق. م). وصنع يوشيا القويم فى عينى الرب. ومضى فى كل طرق داود أبيه، ولم يعدل عنها يمناً أو يسرة.

وأول عمل قام به لما بلغ أشده، وكان ذلك فى السنة الثامنة عشرة لملكه، ترميم الهيكل ترميماً شاملاً، وتطهيره من تماثيل الآلهة الوثنية، وأدوات عبادتها، وحرقت الكل فى وادى قدرون، خارج أورشليم.

وفىما كانت أعمال الترميم قائمة على قدم وساق فى بيت الرب، وجد حلقيا الكاهن العظيم سفر التوراة، فدفعه إلى شافان كاتب الملك. ودفعه شافان إلى الملك، فلما قرأه يوشيا مزق ثيابه، لأنهم لم يعملوا بأحكامه، لا هم ولا آباؤهم.

وسألوا حُلدة النبىة بخصوص ما جاء فى السفر، فقالت لهم: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: هأنذا جالب الشر على هذا المكان وعلى سكانه، من أجل أنهم تركونى وقربوا لآلهة غريبة، فاضطرم غضبى على هذا المكان ولن ينطفئ.

وأما ملك يهوذا، فهكذا تقولون له: من أجل أنه لان قلبك وخشعت عند سماعك ما قلته على هذا المكان وعلى سكانه، فمزقت ثيابك وبكيت أمامى، فهأنذا أضمتك إلى آباءك، فتنضوى إلى قبرك بسلام، ولا ترى عينك الشر، الذى أنا جالبه على هذا المكان.

وامتدت حركة الإصلاح، التى قام بها يوشيا إلى جميع أطراف يهوذا وإسرائيل، فأزال المذابح والمشارف التى تجاه أورشليم، التى بناها سليمان لعشتاروت، وملكوم، وكموش، وحطم الأنصاب، وقطع الغابات. وأيضاً المذبح الذى فى بيت إيل فى المشرف الذى أقامه ياربعام بن نباط هدمه مع المشرف، وأخذ عظماً من القبور فأحرقها على المذبح، ونجسه على حسب قول الرب.

وذبح يوشيا جميع كهنة المشارف الوثنية التى بالسامرة، وأحرق عظام الموتى عليهم تتجيساً لهم. كما أزال أصحاب التوابع والعرافين من أورشليم ويهوذا.

كما قد يمكن الإشارة إلى يواحاز (٦٠٩ ق. م) الذى أسره فرعون مصر هو وبعض اليهود حيث مات فى الأسر بمصر.

على أن النهاية الحقيقية لأورشليم جاءت مع تولى نبوكدنصر (بختنصر) الحكم فى بابل إذ أرسل جيشاً إلى يهوذا استولى على أملاكها وأعمل السيف فى رقاب أهلها وبدعوا فى حصار أورشليم واستسلم الملك يويا كين فأخذه ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه وكل عظمائه، وأجلاهم إلى بابل، مع نفائس آنية بيت الرب.

كما أجلى جميع الرؤساء والمقتدرين من ذوى الأملاك، عشرة آلاف نفس، ومن رجال الحرب، سبعة آلاف نفس، ومن الصناع المهرة ألف نفس، وعدداً آخر غير معلوم من السكان، ولم يبق فى المدينة إلا فقراء

الشعب (٤ مل ٢٤ : ٦ - ١٦). وأقام نبوكدنصر، صدقيا واليا وأخذ عليه العهود على أن يكون مخلصاً لبابل. ولكنه بعد عدة سنوات ثار على نبوكدنصر، الذى عاد على رأس جيش عظيم قهر صدقيا، وأخذوه إلى ملك بابل الذى ذبح جميع أبنائه أمام ناظريه وبقأوا عينيهِ وأوثقوه بسلسلتين من نحاس وأخذوه إلى بابل.

ودخل الجيش الظافر المدينة المقدسة وأعملوا السيف فى رقاب جميع سكانها، دون أن يشفقوا على فتى أو عذراء، ولا على شيخ أو أشيب.

وما أن جمعوا كل نفيس فى المدينة، وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة، وخزائن بيت الرب، وخزائن الملك ورؤسائه لتضم إلى كنوز نبوكدنصر ببابل، حتى أخذوا فى حرق الهيكل، وبيت الملك، وجميع بيوت العظماء. وبعد ما أحرقوا ودكوا كل معالم المدينة وما فيها من قصور، هدموا أسوارها جميعها، فلم يبق من أورشليم المدينة الزاهرة غير كوم من الخرائب (٥٨٦ ق. م).

أما الذين نجوا من السيف فجلاهم نبوكدنصر إلى بابل، حيث صاروا عبيداً له ولبنيه، حتى ملكت دولة فارس لكى يتم ما تكلم به الرب بقم إرميا النبى، حتى استوفت الأرض سبوتها، لأنها سبتت كل أيام خرابها، إلى تمام سبعين سنة.

وأما من بقى من الشعب فى أرض يهوذا، فقد ولى أمرهم يهودى اسمه "جدليا". فلما مات هذا، بمؤامرة من اليهود أنفسهم، قاموا جميعاً من الصغير إلى الكبير، وأتوا مصر، لأنهم خافوا انتقام الكلدانيين. وفى مصر أسسوا جالية كبرى زاهرة. (٤ مل ١٧: ٢٤.. ٢٥ و ٢٠: ١٠: ٣٦).

* * *

فى الفترة الأخيرة من ملك يهوذا والتي عاصرت تدمير الهيكل وسبى الشعب إلى بابل ظهر الأنبياء الكبار الذين حفظوا التراث اليهودى من الاندثار، وأضافوا إليه إضافات تعززه، بما فى ذلك - فيما نرى - الوعد المحورى وعد يهوه لإبراهيم بامتلاك الأرض التى من نهر مصر إلى نهر الفرات الكبير. من هؤلاء الأنبياء أشعيا الذى أمر الملك منسى بنشره حيا فمات شهيداً سنة ٦٩٦ ق. م. ويعد أشعيا من أعظم كتبة العهد القديم.

أما إرميا فهو الذى ندب إسرائيل وتنبأ لها بكل مصيرها. وكان إرميا من جمله من أبقاهم نبوكدنصر فى أرض يهوذا حيث جلس وسط ذلك الخراب يبكى ويرثى شعبه بتلك المرائى التى طبقت شهرتها الآفاق مثل "كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب!.. صارت كأرملة، العظيمة فى الأمم. السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية. كل شعبها متتهدون، ملتسون طعاماً. بسطت صهيون يديها، ولا معزى لها. ألم يبلغكم يا جميع عابرى الطريق؟ تأملوا وانظروا، هل من وجع كوجعى.. بماذا أعظك، وماذا أشبه بك، يا بنت أورشليم؟ إن حطمك عظيم كالبحر، فمن ذا يشفيك".

وكان لما هرب اليهود، الذين بقوا فى يهوذا، إلى مصر، أنهم اضطروا إرميا النبى إلى الذهاب معهم. وهناك بعد مدة رجموه، لكى يتخلصوا من توبيخه لهم على سوء سلوكهم، فمات شهيداً.

ومن أشهر نبواته: نبوته عن السبعين سنة، التي دامها الأسر البابلي وعن عودة مملكتهم إلى الظهور من جديد، بعد تلك المدة (٤٤).

أما حزقيال فقد كان من أصل كهنوتي من جملة من جلاهم بنوكدنصر إلى بابل وبدأ رسالته كنبى فى بابل فى السنة الخامسة من الجلاء

وقد تنبأ حزقيال فى بابل اثنين وعشرين سنة. ونبواته مليئة بالرموز والرؤى، مما يجعل فهمها وتفسيرها فى غاية الصعوبة. ومن أشهر نبواته: وصف الإنجيليين الأربعة، والدينونة العامة، وقيامه الموتى فى اليوم الأخير.

وأخيراً فهناك دانيال النبى الذى كان من جملة الذين أخذوا فى السبى إلى بابل واشتهر بتفسير الرؤيا وتحقيق معجزات عديدة وقد شغل منزلة رفيعة لدى ملك الآشوريين.

من هذا يتضح أن السبى البابلي وإن قضى على اليهود كدولة، فإنه عزز وجودهم كشعب، وهذه الفترة بالذات هى التى سجلت أجمل ما جاء فى "الميثولوجيا اليهودية" خاصة تصوير لوعتهم من الأسر وشوقهم المحرق للعودة إلى أورشليم، "والتي أصبحت من مآثرات الكتابات اليهودية" على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون. على الصفاصاف فى وسطها علقنا كنانيرنا. هناك سألنا الذين سبونا نشيداً، أن رنموا لنا من ترانيم صهيون. كيف نرنم ترانيم الرب فى أرض غربة. إن نسيتهك يا أورشليم، فلتسنى يمينى. ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك".

ولكن الواقع أن اليهود لم يقضوا حياتهم فى ندب صهيون فإنهم عوملوا معاملة حسنة حتى إن كثيراً من اليهود، حينما صرح لهم بالعودة إلى بلادهم، فضلوا البقاء فى أرض المنفى، على العودة إلى وطنهم. "ولعلنا نذكر أنها هى نفسها المقر الأسمى لإبراهيم، وأن صهيون هى أرض الغربة التى جعلوها أرض الميعاد، ومن ثم وطنهم"، ولا سيما أن البعض كان قد أثرى ثراءً فاحشاً، وارتقى البعض الآخر أرقى مناصب الدولة، مثل دانيال النبى، ويكنيا الملك، الذى ردت له منزلته ومقامه الملكى (٤ مل ٢٥ : ٢٧ و ٢٨).

كما أعطيت لأفراد الجالية اليهودية حريات واسعة، فيما يتعلق بشؤون دينهم، فكان لهم الحق فى أن يجتمعوا كيفما شاءوا لقراءة التوراة، وإقامة الشعائر الدينية. (باروك ١ : ٣).

وازدهرت أحوالهم فيها كما لم تزدهر خلال تلك السنوات الحافلة بالحروب والمؤامرات والدسائس والهزائم فى فلسطين. ومن هنا فنحن نظن أن هذه الفقرات التى تمثل اللوعة لمغادرة أورشليم إنما أدرجت فى مراحل لاحقة عندما تركز الأمل الصهيونى فى فلسطين.

على كل حال عاد اليهود إلى أورشليم بفضل سماحة كورش الفارسى الذى انتصر على الآشوريين والبابليين - بعد سبعين سنة من خروجهم منها. ولم يكن هذا الرجوع عاماً لأن الكثيرين فضلوا البقاء حيث أثروا ثراءً عظيماً - فضلاً عن أن عدداً آخر تأثر بالحضارة البابلية وآدابها وعقائدها.. بحيث أثر البقاء..

وبعد جهد جهد، ومرور اثنين وعشرين عاماً أعاد اليهود بناء الهيكل. وقد ساعدهم كورس مساعدة كبيرة ولكن الفلسطينيين بمختلف طوائفهم حالوا دون أن يمضى العمل بسهولة، مما دفعهم لبناء أسوار حول أورشليم.

لم ينعم اليهود بعد عودتهم من جلاء بابل، بالاستقلال التام، إلا فى عهد المكابيين. أما فيما عدا هذه الفترة، التى تقدر بثمانين سنة، فقد ظلوا خاضعين لنفوذ الدول الأجنبية، حتى اندثار أمتهم وتشتتها بين الشعوب فى السنة السبعين للميلاد على يد الرومان.

فمن سنة ٥٣٧ إلى سنة ٣٣٠ كان اليهود يدفعون الجزية لدولة الفرس. ومن سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٢٣ للاسكندر الأكبر. ثم للبطالسة بمصر من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٢٠٣ ثم للسلاوقيين بسوريا من سنة ٢٠٣ إلى سنة ١٦٦ ق. م.

وفى سنة ١٦٦ ق. م استطاع اليهود بعد جهاد طويل، أن يتخلصوا من حكم السلاوقيين الجائر. ويرجع الفضل فى ذلك للأخوة المكابيين، الذين استقلوا بحكم بلادهم منذ تلك السنة حتى سنة ٤٠ ق. م أخيراً خضع اليهود للدولة الرومانية، وذلك من سنة ٤٠ ق. م إلى سنة ٧٠ للميلاد.

خلال الحقبة الرومانية (حوالى سبعة قرون) خضدت شوكة اليهود فى فلسطين بعد المعارك الطاحنة مع الرومان التى استأصل فيها الرومان المقدسات اليهودية، وساء الوضع عندما اصطنعت الإمبراطورية الرومانية المسيحية لأن المسيحيين يؤمنون بأن اليهود هم سبب صلب المسيح وأن الوالى الرومانى عندما عرض العفو عن واحد من المحكوم عليهم بالصلب وهما المسيح ولص يدعى بارباس أجمع اليهود على أن يعفو عن بارباس فلم تكن الإمبراطورية الرومانية البيزنطية بأحنى على اليهود من الإمبراطورية الرومانية الوثنية. وأنست هذه التطورات الكاسحة اليهود وساوسهم ثم جاء العرب مع الإسلام، وكان لليهود موقف معادى للإسلام ومع هذا فإن سماحته حالت دون النيل من حقوقهم. ولكن لم يكن بالطبع لليهود أمل فى "صهيون" فى ظل الإسلام لأن أورشليم أصبحت مقدسة لدى المسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثانى الحرمين وغاية الإسراء وبداية المعراج.

وفى هذا الوقت كانت الحظوظ تتقلب باليهود فى أوربا فطوراً تسمح لهم وطوراً تطردهم وعرف عن روسيا وبولندا اضطهاد اليهود وحدث مذابح لهم. ولكن اليهود فى النهاية تمكنوا من دخول المجتمع الأوروبى، بل والتغلغل فيه طريق الميثولوجيا اليهودية (التوراة) التى اعتبرت أصلاً للديانة المسيحية، ونتيجة لامتلاك اليهود الأموال لأنهم كانوا الذين يتعاملون مع الذهب والفضة كسلعة باعتبارهم الصاغة، ولأنهم وحدهم كانوا يقرضون النبلاء والملوك بفائدة، إذ كانت الفائدة محرمة على المسيحيين. ومكنهم هذا من تكوين البنوك وأن يكونوا سادة المال. يضاف إلى هذا حرصهم على العلوم باعتبارها أقوى وسيلة ترفع من منزلتهم لذلك فإنهم فى بريطانيا، وفى فرنسا، وفى ألمانيا والنمسا احتلوا مراكز مرموقة تفوق ما وصلت إليه أقلية أخرى. وكان ذلك مثار ضيق فى فرنسا ظهر فى قضية "دريفوس" وفى ألمانيا عندما رأى هتلر أن اليهود قد هيمنوا على الصحافة، والرأى العام، والمهن - باختصار على الشعب الألمانى - وكانت الدولة التى ركزوا جهودهم عليها هى بريطانيا واستطاعوا فى النهاية الحصول على وعد بلفور..

من وعد بلفور حتى الفترة الراهنة

كان المخاض الذى أدى لظهور دولة إسرائيل مخاضاً دموياً عسيراً نشأ عن زيجة انعدمت فيها الشرعية تماماً. فلم يكن من حق بريطانيا أن تعطى اليهود وطناً قومياً فى فلسطين لأنه لا علاقة شرعية بين بريطانيا وفلسطين التى كانت وقتئذ تحت حكم الأتراك وكان وعد بلفور ينص على "وطن قومى" لليهود مع ملاحظة عدم المساس بحقوق السكان الموجودين فى فلسطين. ولكن اليهود ما إن تمكنوا حتى أعلنوا عن دولة إسرائيل التى بدأت من اليوم الأول لها فى اغتيال حقوق السكان، بل قل إنها قامت على حقوق الفلسطينيين.

إن ظهور إسرائيل، وما سبقه من إرهاب ثم ما لحقه من مخاض دموى عسير لم يقف عند ولادة إسرائيل، بل تفاقم بولادتها الذى لم يكن إلا نتيجة لعاملين مفتعلين حكماً المأساة اليهودية..

العامل الأول: إننا نرى فى سفر التكوين، وجنبا إلى جنب التصورات البدائية الخرافية لتكوين الكون ونشأة الإنسان منذ أربعة آلاف سنة وظهور آدم وتسلسل أبنائه ابنا ابنا حتى ظهور إبراهيم فى مدينة أور. نرى المبدأ الذى بلور المأساة كلها. نرى إليها يهب شعباً واحداً على وجه التعيين أراض شاسعة من "نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" ولم تكن هذه المنطقة خلاء أو دون سكان. بل كان فيها سكانٌ يعددهم الوعد القلزانين، والقدمانيين، والحيثيين واليابوسيين والكنعانيين، ويكفل الوعد لإبراهيم ونسله (من ابنه اسحق) وابن اسحق يعقوب الغلبة والسيطرة على هذه الأقوام، وأن سلالة يعقوب - الذى سيحمل اسم إسرائيل هو الجنس المختار من الإله، وأنه أفضل العالمين.

هذه البداية "الغلط" والتى لا نجد لها فى أى دين، ولا يستسيغها أى نظام سياسى هى التى هيمنت وحكمت القضية من العهود القديمة حتى آباء الصهيونية الحديثة: إله. وجنس. وأرض وكانت هذه هى لب "الميثولوجيا اليهودية" لأنه لا يعقل أن يصدر إله هذا الوعد لهذا الجنس، ولكن هذا القسم من الميثولوجيا كان هو الذى استبد بلب وفكر ونفس اليهود فكلهم يعودون إلى الوعد الذى وعده الرب لإبراهيم..

ومنه بدأت المشاكل...

بدأت مع دخول يوشع هذه الأرض التى أطلق عليها أرض الميعاد وبدأت سلسلة لا تنتهى من الحروب والمؤامرات والهزائم والانتصارات تمكن فيها الفلسطينيين من هزيمة اليهود مراراً وأخذوا فى إحدى المرات "تابوت العهد" كما انتصر اليهود فى حالات أخرى، ولكن الميثولوجيا اليهودية تتسبب هذه الانتصارات إلى يهوه - إله اليهود الذى يؤخر لهم الشمس ويفتح لهم النهر، ويجعل دوى الأبواق يسقط أسوار أريحا ويوقع بأعدائهم الآفات والأمراض وينزل ملاك الرب ليقتل منهم عشرات الألوف.. وبالمثل فإن هزائم اليهود تعود إلى أنهم "عملوا الشر" وآمنوا بالهة وثنية، وعبدوا البعل والعجل. وتزوجوا من وثنيات... ففى هذه الحالات يوقع الرب عليهم الهزائم، ولا يرفعها عليهم إلا بعد استجداء أنبيائهم، وتقديم القرابين والمحرفات الخ... وعندئذ يرضى عنهم، وظل هذا من يوشع حتى المكابيين كما يتضح لكل من يلم بالتاريخ اليهودى.

فإذا صدق المؤرخ هذه الروايات. فلا يكون لليهود فضل في الانتصار أو وزر في الهزيمة لأن يهوه هو صاحب الانتصار والهزائم فهو يحارب عنهم، كما يوقع الهزيمة بهم. وإذا شك في هذه الروايات - وهو ما يمليه العقل - فإن هذا يثير الشك في مصداقية الميثولوجيا كلها..

والمؤكد على كل حال أن إقامة اليهود في فلسطين منذ دخول يوشع لم يخل من قلائل وهزائم، وحتى عندما توصلوا إلى تكوين دولتهم فإن بركات ولعنات يهوه كانت هي العامل الفاصل. ولم ينج من لعنة يهوه أكبر ملوكهم داود وسليمان، وقد عنينا بإيراد ملخص تلك الملاحم حتى يأخذ القارئ فكرة عنها..

ومن يراجع تاريخ اليهود في تلك الفترة السحيقة يجد وجوه شبه عجيبة بما تفعله إسرائيل الآن. فقد استولى داود على القطاع الأعلى من أورشليم من سكانه الأصليين البيوسيين لكي يقيم الهيكل وأقام الكاهن نحemia سوراً حول أورشليم ليحميها من غزوات سكان المنطقة. وهي ممارسات يقوم بها شارون الآن...

إن الخطأ هو في صميم القضية. فلا يمكن أن يدعى جنس ملكية أرض لأن إلههم وعدهم، ولا يمكن لإله أن يعد جنساً بأرض لها سكانها ولا يمكن لدين أن يقوم على جنس وأرض، إلا إذا وجد إله "ملاكى" خاص ببني إسرائيل يفضلهم على العالمين. ويكفل لهم النصر ما ظلوا مطيعين لأوامره وتعليماته خاصة الختان وملاحظة يوم السبت.

إننا نجد خليطاً من العنصرية، والعقيدة والسياسة في بوتقة واحدة وهي كلها عناصر متناحرة لا يمكن أن تصهر لتوجد "سيكة".

وإذا كانت السلطة التي هي خصيصة الدولة قد زحفت على المسيحية فأفسدتها، وزحفت على الخلافة الإسلامية فحولتها ملكاً عضواً. فإن السلطة كانت جزءاً لا يتجزأ من القضية اليهودية، لأنها قامت على "أرض" منحت لهم دون سكانها الأصليين فكانت السلطة ممثلة في الجيش هي أداة استخلاص الحق المزعوم ولهذا فإن الفساد صاحبها طوال تاريخها. بل كان جزءاً لا يتجزأ من كيانها، وعندما انطفت جذوة الدولة الفلسطينية بعد الاستئصال الروماني وما تلاه من قرون متوالية جاء هرتزل فأعادها جذعة وقال بصريح العبارة "إن المشكلة اليهودية ليست مشكلة اجتماعية أو دينية مع أنها في بعض الحالات تتخذ هذين الطابعين إنها مسألة قومية. ولإيجاد حل لها يجب أن ننظر إليها على أنها مشكلة سياسية.. والسبيل إلى حل المشكلة اليهودية هو تكوين دولة تتجمع فيها تلك العناصر المشتتة وتكون فيها الإرادة السياسية إرادة يهودية تعبر عن تلك الجماعة التي هي شعب واحد امنحونا السلطة فوق قطعة من الأرض في هذا العالم تكفى حاجتنا القومية المشروعة.. إن خلق دولة جديدة ليس بالأمر الغريب أو الصعب. ألم نرَ تكوين دول في عصرنا هذا علماً أنها أكثر منا فقراً وأقل ثقافة وأكثر ضعفاً؟

فعدت المشكلة مدججة بالأسنة البريطانية وفي حماية الانتداب ومزودة بالمال.. والعلم والمهارات وظهرت آثار ذلك في اختلاف موجات الهجرة التي عاصرت أو أعقبت الفكر الأوربي الصهيوني كما عرضه هرتزل، عن الهجرات السابقة عليها التي كان يتعايش أهلها مع العرب ويتعاطفون معهم. إن الهجرات الجديدة أرادت بناء "دولة" بدون العرب، أو بمعنى أصح بإبعاد العرب..

إلى جانب هذا العامل الأصولي في العقيدة التي شكلت النفسية اليهودية وضمت العنصر والأرض وإله.. فهناك خطأ عملي وقع فيه الذين طالبوا بالدولة اليهودية.. والذين طبقوها بالفعل، فكما قلنا لم تكن

بريطانيا تمثل فلسطين أو لها علاقة رئاسة أو إشراف فقد كانت فلسطين تتبع السلطة العثمانية وكان الإنجليز أنفسهم يتعهدون للشريف حسين بدولة عربية من فلسطين حتى الحجاز...

"وفى ٢٧ فبراير سنة ١٩١٩ وقف مندوب الحركة الصهيونية فى مؤتمر الصلح ميناحيم أو سيسكين" يدافع عن قضيته فيقول "باسم أكبر جماعة يهودية تلك التى توجد بروسيا أقف أمامكم اليوم أنتم يا قادة العالم لأصوغ الطلب التاريخى للشعب اليهودى: أن تدعوه يعود إلى حدوده، أن تعطوا أبناء إسرائيل الأرض التى وعدوا بها منذ أربعة آلاف عام من السلطة العليا، الأرض التى عاش فيها أجدادنا والتى خلفوا فيها حضارة رائعة خالدة، الأرض التى منها عقب ذلك استمدت جميع شعوب الأرض خير ما يملكون من ثروات روحية. هذه الأرض التى انتزعت من اليهود بالعنف منذ ألف وثمانمائة عام بواسطة الرومان أسياى العالم فى تلك الفترة. الشعب اليهودى حكم عليه بأن ينفى من أرضه وبأن يشتت فى جميع أنحاء العالم. وأنا اليوم ابن هؤلاء الذين حكم عليهم بالنفى الإجبارى، وباسم هذا الشعب الجريح قد أتيت أمامكم، أنتم ورثة الرومان سياسياً وحضارياً لأصوغ مطالبى: أعيدوا إلينا موضوع ذلك السطو التاريخى"

إن هذه الدعوى التى تقدم بها صهيونى أوربى إلى السلطة الأوربية العليا وقتئذ، والتى تنسب إلى الرومان القدامى اغتصاب حق اليهود، وتطالب ورثة الرومان بإعادة الحق السليب إلى أهله تنسى أن الأرض التى وعدوا بها من السلطة العليا - ولم يكن يستطيع أن يقول يهوه إله إسرائيل - كان بها سكان وأن اليهود اغتصبوا هذه الأرض من هؤلاء السكان ثم نسى بكل بساطة ألف وأربعمائة سنة من الحكم الإسلامى الذى جاء بعد الرومان، والذى زود المنطقة وأعطاهما اللغة العربية، والإسلام وجعلها مركزاً لحضارة أعظم من الحضارة الرائعة والخالدة التى يشير إليها هذا الدعى سواء كانت الحضارة اليهودية أو الحضارة الرومانية.. فكانت عاصمة للخلافة الأموية الزاهرة وأنجبت أجيالاً بعد أجيال طوال أربعة عشر قرناً ثم يأتى هذا الصهيونى فلا يأبه لهذا، ولا يشير إليه، كأنه لم يحدث وكان التاريخ وقف عند الرومان أو كأن العرب والمسلمين لا يستحقون الإشارة..

إن تجاهل حقيقة أن فلسطين كان لها سكانها عندما دخلها يوشع وطوال السيطرة الرومانية، ثم تجاهل العهد الإسلامى الذى لم ينقطع واعتبارها "أرضاً دون شعب لشعب دون أرض" كان تجاهلاً لحقيقة تاريخية - جغرافية هيمنت ليس فحسب على فلسطين، ولكن على كل الدول التى تحيط بها.. بحيث أصبح من المستحيل إقامة دولة فيها على حساب أهلها وبالمجافاة لكل الدول التى تحيط بها لأنه يتجاهل كل الوقائع الجغرافية والتاريخية الحاكمة فى المنطقة..

وهذا الخطأ لا يعود إلى وعد بلفور وحده، إنه يعود - أولاً - إلى وعد "يهوه" لإبراهيم ونسله بملكته الأرض ما بين مصر والنهر الكبير الفرات فى حين أن هذه الأرض كان بها سكان لهم حضارتهم وعندما أراد يوشع أن يحقق وعد إلهه اصطدم مع هؤلاء السكان الأصليين. ودام هذا الصدام طوال حقبة الوجود اليهودى فى فلسطين. فقد كانت كلها حروب متصلة ولم تنته إلا بقضاء الرومان عليهم... ثم عاد هذا الخطأ مع وعد بلفور مع اختلاف هو أن سكان هذه المنطقة كانوا قبائل شتى فلما ظهر الإسلام تبلوروا فى شعب واحد له دينه ولغته. وحضارته كما أن هذا التطور ساد كل المنطقة فلم تكد كتائب الهاجانا تحاول إقامة الدولة

حتى اصطدمت بالفلسطينيين، ثم بشعوب المنطقة المحيطة بها... بحيث أخذ الصراع شكلاً دولياً جسيماً ومعتاداً.

ولما لم يكن من حل في الحالين: حال الوجود اليهودي الأول بقيادة يوشع.. ثم الوجود الثاني بقيادة بن جوريون إلا السلطة في أسوأ صورها: القوة الوحشية، والقبضة الحديدية فإن هذا هو ما حدث، ويحدث بالفعل. فنحن نرى إفساد السلطة في أسوأ صورها.. وأكثرها إثقالاً في الغشومة. فمع وجود المتناقضات الأصولية والجغرافية والتاريخية لم يكن هناك سبيل لحل.. وكان التصرف الوحيد هو القطع.. القطع بالسيف البتار أو بالتعبير التوراتي "بحد السيف" قديماً، وبالديابات والطيارات حديثاً..

لقد قامت إسرائيل قديماً وحديثاً، على أساس عنصرى دينى واستخدمت السيف والقهر. ولا يزال فيها الآن من يؤمنون بهذا وهم العناصر التوراتية التي تؤمن بكل ما جاء في "الميثولوجيا" اليهودية من أوام وادعاءات وستأتى نهايتها ليس فحسب لصراعها مع العرب والمنطقة ولكن - أيضاً - للصراع الداخلى ما بين هذه الفئة التي تريد إعادة حكم يهو.. وبين الذين يريدون إقامة دولة طبقاً للأصول التي تقوم عليها الدول.

وإذا كانت السلطة تفسد في صلاح الإيديولوجيا فإننا نجد هنا أيديولوجيا فاسدة بالفعل. فزادتها السلطة فساداً، خاصة وأن العقيدة مرتبطة بالجنس، وهذا هو سر الوحشية المضاعفة للصهيونية.

الباب الثالث

الدولة الإسلامية في العصر الحديث بين التنظير والتطبيق

كان تحويل معاوية بن أبي سفيان الخلافة في وقت مبكر للغاية (سنة ٤٠ هجرية) إلى ملك عضوض وجعلها وراثية جبرية. ضربة قاصمة لفكرة الإسلام عن الحكم، وأنهت عمليا الحكم الذي يقوم على أصول إسلامية.

ومع مرور قرنين أو ثلاثة، ظهرت نتائج هذا التحول خاصة مع بروز العناصر الفارسية والتركية والديلم والسلاجقة. فتحل قلبها وانتقضت أطرافها واستقلت عنها مصر، وشمال أفريقيا والأندلس وخراسان.

ولكن الخلافة ظلت متماسكة حتى أصيبت بضربتين قاصمتين الأولى الغزو النترى للعراق الذي قضى على بغداد واسطة العقد النظيم وعاصمة العالم الوسيط والتي كانت "روما" الإسلام. وكانت الضربة من القوة بحيث لم تقم لها قائمة وأخذت تتدهور من عاصمة العالم حتى أصبحت على مشارف العصر قرية كبيرة. وأصاب الضربة الثانية القاهرة، وهي التي قامت بعد اندثار بغداد وحلت الخلافة فيها عندما داهمها الترك بعد هزيمة السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق فتحولت القاهرة من إحدى العواصم الزاهرة والقوى المؤثرة إلى أطلال وأثار تنبئ عن الماضى العريق.

وأسر الأتراك - فيما أسروا من القاهرة الخلافة ونقلوها إلى "الأستانة" فشط بها المزار وظلت غريبة تنطق برطانة تركية لا بلسان عربى مبين حتى قضى عليها مصطفى كمال سنة ١٩٢٤ م.

وخلال القرون الخمسة أو الستة الأخيرة من التاريخ الإسلامى كان الظلام قد أطبق على أرجاء العالم الإسلامى واستسلمت شعوبه لنوم طويل لم تنيقظ منه إلا على مدافع الأسطول البريطانى والجيش الفرنسى أو غيرهما من القوات الأوروبية الغازية التى بدأت مرحلة الاستعمار من القرن التاسع عشر.

* * *

ماذا كان موقف الفقهاء من هذه الصور من الحكم البعيدة عن الإسلام طوال هذه القرون ؟.

إن دفعة المعارضة، التى وصلت إلى الثورة المسلحة فى السنوات الأولى للملك العضوض، وبوجه خاص على يزيد بن معاوية، والتى اتصلت حتى الخلافة العباسية خبت بعد أن فشلت كلها، كما تلاشت على حد السيوف مقاومة الخوارج الباهرة والشجاعة، ولم ينجح الزيديون الذين يؤمنون بالثورة على البغاة فى زعزعة النظم القائمة.

بل لقد انساقوا مع التيار على يد شيخ من شيوخهم هو الإمام يحيى بن حميد الدين الذى جعل خلافته وراثية ضاربا عرض الحائط بأصول الفقه الزيدى وتاريخه وتقاليده. مما يوضح مدى وعمق التطورات التاريخية من ناحية والأثر الأكبر للحكم على العقيدة.

وشيئا فشيئا بدأ نوع من تبرير الاستسلام للقادة الذين يغتصبون الحكم، أو الحكام الظلمة على أساس أن الثورة عليهم - مع عدم التمكين - لابد وأن ينتهى بالهزيمة وسفك الدماء دون نتيجة، بل حتى لو كانت القوى الثائرة فى مثل قوة النظم الحاكمة فإن تصادمهما لن يسفر إلا عن التمزق والفتنة. وكان هاجس "الفتنة" يسيطر على ذهن الفقهاء "من أيام صفين" عندما سفك فريق من المسلمين دماء فريق آخر دفاعاً عن السلطة..

وكان ابن خلدون قد تحدث عن أن الحكم لا بد له من عصبية، وأن العصبية كانت في بنى أمية وكان لابد أن يؤول إليهم الحكم. وبعد بنى أمية، فإن كل من توصل إلى عصبية فإنه يستطيع أن يحكم بمقتضى هذه العصبية "فإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبى الأموال ولا تكون فوق يده يد قاهرة".

وتحدث الغزالي حديثاً مؤثراً عرض فيه محنة العالم الإسلامي وشرح مبررات التسليم

"ولست هذه مسامحة عن الاختيار، ولكن الضرورات تبيح المحظورات. فليت شعري من يقضى ببطلان الإمامة في عصرنا لفوات شروطها - وهو عاجز عن الاستبدال بالمتصدى لها بل هو فاقده للمتصف بشروطها، فأى أحواله أحسن: أن يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة في أقطار العالم غير نافذة وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام، أو يقول الإمامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار؟ ومعلوم أن البعيد مع الأبعد قريب، وأهون الشرين خير بالإضافة، ويجب على العاقل اختياره".

قد يقال.. لماذا لم ينصح الغزالي بالثورة على الحكام أو الهجرة أو ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى آخر درجاته؟ الرد أن الغزالي وكل الفقهاء في القرون التي سبقتهم، والتي لحقته تأكدوا من عجز الشعوب عن الثورة، وأن الثورة إذا قامت فلن تزيد الجماهير إلا ضعفاً والحكم إلا بأساً.. وأن النتيجة ستكون سفكاً لدماء أفضل العناصر - وهي العناصر الثائرة - فإذا فرضنا قدرًا من التعادل ما بين فريق الثائرين، والحاكمين فإنها الفتنة التي تستأصل الفريقين وتجعل كل واحد منهما يقضى على الآخر أو يوهنه وكان هاجس الفتنة - كما ذكرنا - عميقاً لدى الفقهاء بعد أن شاهدوا مصرع كل الثائرين الأول وفشل قوماتهم.

من هنا يمكن أن نفهم موقف الغزالي الذي كتب بجانب سطور الاستسلام في "إحياء علوم الدين" سطوراً أخرى تقطر كراهية ومرارة لكل من يعاشر السلطان أو يسايره في أهوائه.

ومع أن الغزالي كان وثيق الصلة بالوزير نظام الملك فإنه لم يكن أبداً من فقهاء السلاطين.

وقبل الغزالي فإن الإمام أحمد كان أبرز أئمة الأمة تصريحاً بوجوب طاعة الخليفة ما دام الأمر قد استقر له. ولم يؤثر عليه في حكمه ما ناله على يدى المأمون.

بل إن الفقيه الذي عرف بثوريته وهو ابن تيمية سلم بهذا المبدأ مرتكزاً على حديث "أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم".

لهذا لا نرى خلال القرون التي سبقت العصر الحديث حديثاً عن مقاومة، أو مشروعاً لدولة، فقد غرق الشرق في سبات عميق كان من الضروري لإيقاظه أن تزار جيوش نابليون وأن تهدر مدافع الأسطول البريطاني. عندئذ فحسب بدأت اليقظة.

وفي هذا الباب سنعالج ظهور الفكر السياسي لدى الدعاة الإسلاميين بدءاً من جمال الأفغانى الثورى حتى حسن البنا الإصلاحى. ثم نفرد فصلاً خاصاً لفكر المودودى وسيد قطب والإضافة التي قدمها الإمام الخمينى بفكرة "ولاية الفقيه". ثم نعرض لأفكار جماعات الرفض التي تكونت في أعقاب الفكر المودودى والقطبى وكثيرة لهما. ثم تنتقل من مجال التنظير إلى مجال التطبيق فنلقى نظرة على محاولات تكوين دولة إسلامية في الفترة المعاصرة..

الفصل العاشر

من جمال الأفغانى حتى حسن البنا

بظهور جمال الأفغانى بدأت أولى حركات اليقظة السياسية فى العالم الإسلامى. كان قد سبقه أفراد مثل الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى.. إمام البعثة النابغ الذى أصبح أول من حاول أن يجمع ما بين ثقافة العصر وثقافة الإسلام ما بين جمهورية فرنسا ودستورها وما بين نظام الخلافة وشورىها. ولكن الشيخ رفاعة كان أحد رجالات الحكومة. يخضع لتياراتها ونزواتها وقد غضبت عليه أكثر من مرة ولم يكن يملك حرية العمل أو الفكر، كما أنه لم يكن الداعية الذى يتصل بالجماهير بشكل مباشر - وإن لم يمكن إغفال دوره لأنه أول من عرف المجتمع المصرى بالمجتمع الأوروبى. كما ظهر فى تونس السيد خير الدين التونسى الذى كان أكثر تحديداً وتجديداً.

الظاهرة التى توجب الأمانة العلمية أن نسجلها أن كل "إرادات التغيير" إنما جاءت كرد فعل لتعرف المفكرين الإسلاميين على المجتمع الأوروبى ونظم الحكم فيه. وهى الظاهرة التى لفتت انتباه السيد رشيد رضا قبلنا ودفعته لأن يقول "فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوربيين، معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة، واصطباغ نفوسهم بها - أى المعرفة - حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة، بالحكم المطلق الموكول إلى إرادة الأفراد

"لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم - المقيد بالشورى - أصل من أصول الدين ونحن قد استفدناه من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشر الأوربيين والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا اعتبار مجال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك أن هذا من الإسلام"

وقد يكون لهذه الظاهرة انعكاس على مضمون مفهوم الدولة الإسلامية لدى هؤلاء المجددين فإذا كان الإعجاب بما وصلت إليه النظم السياسية الأوربية من تهيج وعدالة وحرية أدت إلى تقدم شعوبها هو الدافع المباشر لهؤلاء المجددين للقيام بدعواتهم، فمن الطبيعى أن تكون فكرتهم عن الدولة قريبة من النموذج الأوروبى مع الاحتفاظ بمساحة من التميز تفصل بين الصورة المنشودة للدولة الإسلامية والصورة الأوربية الحديثة، ولكنها لا تصل إلى النقيض، والأمر المؤكد أن صورة الدولة الإسلامية لدى هؤلاء الرواد تختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التى انتهت إليها بعد ظهور أفكار المودودى وبعد ظهور السعودية كدولة مصدر للبتترول، وأخيراً بعد ظهور الخمينى وقيامه بثورته..

ويجب أن نضع فى تقديرنا أن هؤلاء المجددين لم يكونوا من رجال "المؤسسة الدينية" باستثناء الشيخ محمد عبده الذى قضى وقتاً طويلاً "ينظف رأسه من قاذورات الأزهر" على ما قيل..

وكان سر حماسهم وقوتهم إيمانهم بالحرية. وقد كانت البيئة التى نشأوا فيها أو شدوا إليها الرجال هى مصر التى كانت وقتئذ - رغم كل ما منيت به من كوارث - واحة للحرية يهوى إليها كل الأحرار من المناطق التى أغلقها الحكم العثمانى المتسلط. وكانت الحجاز وقتئذ منطقة فقيرة مهملة لا تذكر إلا وقت الحج

وكان نصف سكانها يعملون مطوفين يخدمون الحجاج بينما يعمل النصف الآخر من الأعراب في نهج الحجاج.. وكانت التكية المصرية والأوقاف الإسلامية الأخرى هي عصمة السكان من المجاعة والفاقة.. وعُرفت مصر حتى في أشد فترات محنتها بصفة مميزة وبطابع من السماحة في الفكر، وكانت بحكم موقعها وبدفعه نهضة محمد على الكبير ملاذاً لأفواج متتالية من الزوار والسياح والأحرار وحافظت على هذه الصفة طوال مرحلتها الليبرالية من ثورة ١٩ حتى انقلاب ٥٢ الذى شوه الأوضاع وعاث فيها فساداً..

من أجل هذا فنحن في حكم اليقين من أن هؤلاء المجددين أرادوا نهضة بالبلاد وتحريرها من الاستعمار والاستبداد والجهالة والتأخر. ووجدوا أن المظلة الفكرية (الأيدلوجية) الوحيدة التى تحقق هذا فى الإسلام. دون أن تكون هذه الدولة على وجه التعيين هى دولة "الشريعة"، دولة الحدود، الدولة التى تطبق ما تتضمنه كتب الفقه من استتابة مهمل الصلاة وتأديبه وقتل منكرها. وكذلك قتل كل من "جدد معلوماً من الدين بالضرورة الخ... مما لا يخلو من دلالة أن كل هؤلاء المجددين كانوا يؤيدون ما منحه القرآن للمرأة من حقوق وما صرح به من حرية فى الفكر والاعتقاد..

وتقصى الملابسات التى أحاطت بهم ودعوتهم يُصدّق هذا جمال الأفغانى الذى ربط المستشرقون بينه وبين "الجامعة الإسلامية" كان هو نفسه جامعة دولية يلتف حوله من اتباعه يعقوب صنوع المصرى اليهودى وأديب أسحق وسليم نقاش المسيحيان اللبنانيين وغيرهما من الإيرانيين، وقد كان هو ومحمد عبده أول من رفع شعار "مصر للمصريين" وعندما ألفا حزبهما كان حزبا مدنياً، وليس حزبا إسلامياً. وكان جمال الأفغانى الذى طوف ما بين الأفغان وإيران والهند ومصر وتركيا وفرنسا وروسيا وإنجلترا رجلاً دولياً، ولم يأنف أن يدخل الماسونية عندما اعتقد أنها ستفيده فى التنظيم الذى يريد إقامته وكان فى مآكله ومشربه (الشاي والسجائر) رجلاً عصبياً..

ولم يرد ببال جمال الأفغانى جامعة إسلامية، لأن هذه الجامعة كانت قائمة بالفعل فى ظل الخلافة، وإنما أراد النهضة بدولة إسلامية، يمكنها أن تنهض ببقية الدول. وقد علق أمله على مصر وأمضى فيها ثمان سنين متصلة، وهو الذى لا يستقر بدولة، ومع أن قوى عديدة حالت دون أن يحقق فكرته، فإن أمله لم يخب تماماً. وكانت البذور التى بذرها هى التى أثمرت التطورات التى نهضت بمصر..

ويجب أن لا ننسى أن هؤلاء الدعاة ظهوروا فى الفترة التى وصلت فيها العقلانية والتنوير والتقدم إلى أقصى غاياتها فى أوروبا. وأن آخر هؤلاء ظهوراً - حسن البنا - هو ابن ثورة ١٩ والذى نشأ وترعرع فى ظل الليبرالية المصرية التى غرسها دستور سنة ٢٣.

ومن الثلث الأخير للقرن التاسع عشر حتى العقد الأول للقرن العشرين ولم تتغير الأطر العامة. بمعنى أن فكر المجددين رأى فى الإسلام مقوماً من مقومات الدولة، وربما يكون أكبر وأبرز مقوم، ولكن لا يذهب فكرهم إلى تكوين دولة إسلامية، على نهج دولة المدينة والخلفاء الراشدين، أو دولة يكون همها الأول تطبيق قواعد الشريعة، كما وضعها الفقهاء - فهذا ما لم يكن مطروحاً وقتئذ وما لم يظهر على الساحة إلا فى فترة لاحقة..

ولم يترك لنا جمال الأفغانى، ولا محمد عبده صورة للدولة الإسلامية المنشودة. وكل ما نقطع به فى هذا المجال هو أنها دولة الحرية والعدالة. فلا يجوز للحاكم أن يكون مستبداً. فإما تاج دون رأس أو رأس

دون تاج كما قال الأفغانى أى أن يكون هناك ملك يملك ولا يحكم على طريقة بريطانيا، أو أن يكون هناك من يحكم دون أن يكون ملكاً، كما فى الجمهورية. ومادة حديث جمال الأفغانى سدى ولحمة هى الثورة على الاستبداد فى الداخل وعلى الاستعمار فى الخارج. كما لم يترك لنا محمد عبده تصوراً للدولة الإسلامية وقد كان فى أيامه الأخيرة كارها للسياسة مؤمناً بالإصلاح التربوى والاجتماعى.

* * *

وهناك صفحة مطوية قد لا يعلم المؤرخون المعاصرون شيئاً كثيراً عنها مع أنها عن أول محاولة لوضع دستور دولة عربية مستقلة هى سوريا. فى العقد الثانى للقرن العشرين عقد فى دمشق مؤتمر لوضع دستور لسوريا التى كانت قد تخلصت من الحكم التركى بانتصار ثورة الحسين بن على ودخول جيش عربى على رأسه فيصل ابن الحسين (الذى طرده الفرنسيون من سوريا عندما دخلوها وأعطى عرش العراق ترضيه له). وسبق هذا المؤتمر جهود وتدابير ودراسات عديدة. وكان من أبرز الذين أسهموا فى هذا العمل مجموعة من المشايخ والعلماء منهم من كان قد هاجر إلى القاهرة مثل السيد رشيد رضا الذى كان قطب حزب اللامركزية وفيما بعد نائب رئيس حزب الاتحاد السورى (الذى كان رئيسه ميشيل لطف الله). والشيخ كامل القصاب، والسيد محب الدين الخطيب، ومن علماء دمشق الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسينى والشيخ مسلم الحصنى، والشيخ عبد القادر الكيلانى والشيخ عبد العظيم الطرابلسى. وعقد المؤتمر الذى ضم هؤلاء جميعاً وآخرين فى ٧ يونيو سنة ١٩١٩ لإعداد دستور الدولة الجديدة التى كان سيرأسها الأمير فيصل، وكشفت المناقشات عن وجود انقسام فى الرأى بالنسبة لموقف الدولة الجديدة من الإسلام فقد كان هناك فريق يتبنى نظام حكم علمانى مدنى لسوريا المستقلة وجاء فى أحد وثائق هذا الفريق "أن يكون الحكم فى سوريا المستقلة على مبدأ من الديمقراطية اللامركزية ويكون أساس قوانينها وأحكامها مدنياً بحتاً ما عداً الأحوال الشخصية" ويعترف الشيخ رشيد رضا فى وقت لاحق أنه رضى أن يكون مع هذا الفريق المخالف لمذهبه السياسى لأجل "الحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطلت الدعوة إلى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر إلا أفراد قليلون"^(٤٥).

واعترضت مجموعة المشايخ على أن مداوات المؤتمر لم تبدأ بالبسملة! ودار نقاش عريض انتهى بالاكتماء ببسملة عامة من كلمتين "باسم الله".

وعاد الانقسام مرة أخرى فى هذا الموضوع، وفى موضوع الحقوق السياسية للمرأة أما فيما يتعلق بالموضوع الأول - هوية الدولة فقد "اقترح بعض الأعضاء من غير المسلمين أن ينص فى قرار المؤتمر على أن حكومة سورية لا دينية "لائكية" ووافق بعض المسلمين وعارضه آخرون مقترحين أن ينص فيه على أنها حكومة إسلامية عربية أو أن دينها الرسمى الإسلام. وحين احتدم الخلاف بين الطرفين تدخل الشيخ رشيد رضا باقتراح السكوت على هذه المسألة لأنه "إذا أعلنت الحكومة لا دينية يفهم منها جميع المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل لا تنقيد بحلال ولا حرام، ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية فلا تجب طاعتها ولا إقرارها بل يجب إسقاطها عند الإمكان". ووافقت غالبية الأعضاء على هذا الاقتراح والاكتماء باشتراط أن يكون دين ملكها الرسمى هو الإسلام. وبعد إعلان استقلال سورية فى اليوم التالى {٨ آذار ١٩٢٠} بدأ المجلس بمناقشة مواد مشروع الدستور الجديد. وتأخر إقرار المادة الأولى التى تتعلق بنظام الحكم حتى ١٢

(٤٥) مقال للأستاذ محمد م. الأرنؤوط. تحت عنوان "علماء دمشق فى مطلع القرن: بين التقليد الموروث والتحديث المفروض" بجريد الحياة - العدد {١٣٤٠٥} السبت الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩ م. ص ٢٣..

تموز ١٩٢٠، حتى جاءت منسجمة مع نتيجة المناقشة التي دارت حول ذلك في جلسة ٧ آذار ١٩٢٠ وهكذا تضمنت المادة الأولى أن "حكومة المملكة السورية العربية حكومة مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكها الإسلام" أى أن العلاقة بين الدولة والدين "الإسلام" انحصرت في ديانة ملكها فقط^(٤٦).

يتضح من هذا أنه عندما سنحت الفرصة لوضع دستور لدولة عربية مثل سوريا، فإن مجموعة كبيرة من المشايخ لم تأنف، ولم ترفض نصاً مدنياً، واستبعدوا أى إشارة إلى الإسلام باستثناء أن يكون دين الملك.

وتوضح هذه الواقعة أن الدعوة إلى الدولة الإسلامية ما كان يمكن أن ترتفع لو ظلت مقصورة على شخصيات الشيوخ رغم المنزلة الرفيعة لهم، ورغم إيمانهم بها.

وقد يؤيد هذا أيضاً أن هذه الفترة شهدت صدور كتاب الشيخ على عبد الرازق الذى كان فى الحقيقة إعلاناً عن مشاعر فريق كبير من المتقنين الإسلاميين، ومع أن الكتاب قوبل بعاصفة من المعارضة، فالحقيقة أن هذه المعارضة لم تتصدى لمضمون الكتاب، باستثناء ما كتبه شيوخ الأزهر وأعادوا ما تحفل به المراجع التراثية. أما غيرهم فقد جاءت المعارضة من إلتباس صدور الكتاب لرغبة الملك فؤاد أن يكون خليفة، بعد أن أعلن مصطفى كمال زوالها. الأمر الذى كان محل معارضة الأحزاب المصرية. فضلاً عن أن الكاتب فى عرضه لفكره كان يردد تقريباً فكرة أبدأها المستشرقون، وفى الوقت نفسه فإنه تجاهل قيام دولة المدينة والخلفاء الراشدين التى استلهمت المبادئ الإسلامية بحيث لا يمكن القول إنها ليست إسلامية..

فهذه العوامل كانت فى أصل كتاب الشيخ على عبد الرازق. ولعل الرد الذى كتبه سعد زغلول فى أغسطس سنة ١٩٢٥م يوضح لنا ذلك.

"لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولاً كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى هذا الموضوع؟!.. وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق، لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنياً ولا هو بنظام يصلح للحكم؟!.. فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام؟!.. هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أى نوع آخر من المعاملات؟!.. ألم يدرس شيئاً من هذا فى الأزهر؟!.. أو لم يقرأ أن أمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهداً طويلة كانت أنصر العصور؟!.. وأن أمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة؟!.. فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم؟!.. وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟!.. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟!..

إنى لا أفهم معنى للحملة المتحيزة التى تثيرها "جريدة السياسة" حول هذا الموضوع.. وما قرار "هيئة كبار العلماء" بإخراج "الشيخ على" من زميرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه، لأن لهم حقاً صريحاً - بمقتضى القانون والمنطق والعقل - أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم، فذاك أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأى، التى تنعياها "السياسة". إن العلماء قد فعلوا ما هو واجب وحق، وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه.

والذى يؤلمنى حقاً أن كثيراً من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أم صواباً، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه "جريدة السياسة" وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق والمصلح الإسلامى والأستاذ الكبير الخ... انتهى.

فهذا النقد الذى عُنَى بإبراز الفقه وأن أما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهداً طويلاً كانت أنصر العصور... لا يتعرض لتحقيق "أصولية" الدولة الإسلامية وليس أدل من أنه كلام مرسل من أن سعد زغلول نفسه كان رائداً للعقلانية والمدنية، بل والعلمانية إلى حد كبير، وأنه عندما شكل وزارته لم يضم إليها فقهاء ولكن أقباط، وأنه كرئيس وزارة لم يضع قانوناً يمكن أن يقال إنه "قانون إسلامى"..

* * *

فى وسط هذا الاتجاه الليبرالى الذى إن لم يكن عازفاً عن الدين فلا يمكن القول إنه يناصره ظهر حسن البناء، وأبدع شعار "الإسلام دين ودولة" ونقله من دائرة المتخصصين - سواء كانوا فقهاء، أو علماء نظم سياسية - إلى الجماهير - بحيث أكتسب شعبية وشهرة مدوية.

ولكن الحقيقة أن حسن البناء عندما وضع شعار "الإسلام دين ودولة" لم يكن يستهدف إقامة الدولة الإسلامية كما تصورهما بعد ذلك المودودى وسيد قطب. والخومينى. ولكنه أراد نظاماً للحكم يستلهم القيم والمبادئ والأصول الإسلامية. وهذه الأصول هى التى عرفتنا عليها النظم الأوربية، وتحدث عنها الإمام البناء كما يتحدث الأوربيون، وليس على طريقة الفقهاء، لأن طريقة الفقهاء مختلفة تماماً. وهذا هو ما يستخلص من رسالته الهامة "مشكلاتنا الداخلية فى ضوء النظام الإسلامى".

فهو يبنى نظام الحكم على ثلاث دعائم :

الأول: مسؤولية الحكم.

الثانية: وحدة الأمة.

الثالثة: احترام إرادة الأمة.

فهذه "تقسيمه" من الأدب السياسى الحديث استعارها الإمام البناء وبرهن عليها بأدلة خالصة من القرآن الكريم والسنة ومن عمل الخلفاء الراشدين.

وتحدث عن موقف الإسلام من النظام النيابى والدستور المصرى فقال

"يقول علماء الفقه الدستورى إن النظام النيابى يقوم على مسؤولية الحاكم، وسلطة الأمة. واحترام إرادتها، وإنه لا مانع فيه يمنع من وحدة الأمة واجتماع كلمتها، وليست الفرقة، والخلاف شرطاً فيه، وإن كان بعضهم يقول إن من دعائم النظام النيابى البرلمانى: الحزبية. ولكن هذا إذا كان عرفاً فليس أصلاً فى قيام هذا النظام، لأنه يمكن تطبيقه بدون هذه الحزبية وبدون إخلال بقواعده الأصلية.

وعلى هذا فليس فى قواعد هذا النظام النيابى ما يتنافى مع القواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامى ولا غريباً عنه. وبهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول فى اطمئنان إن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى لا تتنافى مع قواعد الإسلام، وليست بعيدة من النظام الإسلامى ولا غريبة عنه، بل إن واضع الدستور المصرى رغم أنهم وضعوه على أحدث المبادئ

والآراء الدستورية وأرقاها، فقد توخوا فيه ألا يصطدم أى نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية "دين الدولة الإسلام" وقابلة للتفسير الذى يجعلها لا تتنافى معها كالنص الذى يقول "دين الدولة الإسلام أو قابلة للتفسير الذى يجعلها لا تتنافى معها كالنص الذى يقول "حرية الاعتقاد مكفولة".

وأحب أن أنبه هنا إلى الفرق بين الدستور وبين القوانين التى تسير عليها المحاكم، إذ أن كثيراً من هذه القوانين يتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام، وذلك بحث آخر سنعرض له فى وضعه إن شاء الله.

ومع أن النظام النيابى والدستور المصرى فى قواعدهما الأساسية لا يتنافيان مع ما وضعه الإسلام فى نظام الحكم، فإننا نصرح بأن هناك قصوراً فى عبارات الدستور، وسوءاً فى التطبيق، وتقصيراً فى حماية القواعد الأساسية التى جاء بها الإسلام وقام عليها الدستور، أدت جميعاً إلى ما نشكو منه من فساد، وما وقعنا فيه من اضطراب فى كل هذه الحياة النيابية^(٤٧).

وقدم الإمام البنا ملاحظات على بعض وجوه النقص فى الدستور المصرى كإعفاء رئيس الدولة من المسئولية والغموض فى الدستور المصرى واستشهد بمذكرة كتبها الدكتور إبراهيم مذكور عضو مجلس الشيوخ المصرى، والأستاذ مريت غالى فى مذكرتهما "نظام جديد" قالتا تحت عنوان "الدستور وغموضه" :

"فأما العامل الأول فملخصه أن دستورنا على الرغم من دقته وضبط عباراته، قد وقع فى نفس الغموض الذى وقعت فيه دساتير أسبق منه، وترك أهم نقطة فى الحكم النيابى دون أن يحددها التحديد الكافى، ونعنى بها سلطة الوزراء وصلتهم بالشعب ممثلة فى نوابه من جهة، وإشرافهم على ما يؤدى إليه من خدمات من طريق المصالح والإدارات من جهة أخرى. كما أجمل إجمالاً مخرلاً فى بيان موقفهم من رئيس الدولة ومليك البلاد. واكتفى بأن يصوغ هنا فى عبارات تصلح لكل ما يراد منها. وواضح أن الوزارة هى العمود الفقرى لهيكل النظام النيابى كله، وحلقة الاتصال بين التشريع والتنفيذ، ومبعث الحياة والحركة فى نظام يراد به احترام سلطة الشعب مع تصريف شؤون الدولة تصريفاً محكماً سريعاً. وإذا ما رجعنا إلى الدستور وجدنا أن ما جاء به متصلاً بهذه النقطة الحساسة لا يكاد يتجاوز ثلاثة أسطر كلها غموض وعموم، فيقرر فى المادة ٢٩: "أن السلطة التنفيذية يتولاها الملك فى حدود هذا الدستور" وفى المادة ٤٨: "الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه" وفى المادة ٤٩: "الملك يعين وزراءه ويقيلهم" وفى المادة ٥٧: "مجلس وزرائه هو المهيمن على مصالح الدولة" وفى المادة ٦١: "الوزراء مسؤولون متضامنون لدى مجلس النواب عن السياسة العامة للدولة، وكل منهم مسئول عن أعمال وزارته" وفى المادة ٦٣: "أوامر الملك - شفوية أو كتابية - لا تخلى الوزراء من المسئولية على أية حال".

تلك تقريباً جملة النصوص المتصلة بهذا الموضوع، ولا نظن أن فيها ما يكفى مطلقاً لحل أى مشاكل من المشاكل التى أشرنا إليها". انتهى.

وقد أفاضاً بعد ذلك فى الشرح والتمثيل بما يفصل ما تقدم من هذه المعانى.. والمهم أن هذه النقطة وهى لب الأمر تحتاج إلى إيضاح واستقرار، وهى القاعدة الأولى من قواعد "النظام الإسلامى" أو النيابى على السواء، وبغير ذلك لا يمكن أن تستقيم الأمور أو تسلم^(٤٨).

(٤٧) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا "دار الشهاب" ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٤٨) المرجع السابق ص ٢١٨.

وكان للإمام البنا رحمه الله رأى فى الأحزاب وقد بنى حكمه على أسباب موضوعية واستشهد بآراء كتاب ومفكرين مصريين فقال .

"وهذا الكلام الذى انعقد إجماع الأمة عليه، أعلنه شيوخ ونواب وفقهاء. ودستوريون فى صراحة ووضوح. ومن قرأ ما كتبه علوبة باشا فى كتابه "مبادئ وطنية"، أو الأستاذ حسن الجداوى فى كتابه "عيوب الحكم فى مصر" أو غيرهما من الكتاب، رأى صدق ما نقول. وحسبنا أن ننقل هنا فقرة من كتاب الفقيه الدستورى الأستاذ سيد صبرى "مبادئ القانون الدستورى" عن الأحزاب المصرية قال: "والواقع أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية فى مصر برنامج يدافع عنه أنصار ومريدون، ولهذه النتيجة أهميتها، فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج، فقد أصبحت واحدة للجميع، بل سيقوم على الثقة بالأشخاص أو المفاضلة بينهم، وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية، وبديهي أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعاً وأحزاباً ويثير الشقاق والمنازعات بين الأفراد والأسرات بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول".

وإذا أضيف إلى هذا أن مصر ما زالت بلداً محتلاً إلى الآن، وأن الذى يستفيد من هذه الفرقة هم المحتلون الغاصبون فقط، وأنه إذا استسيع الخلاف - وهو غير مستساغ بحال - فى أمة من الأمم، فإن أمة وادى النيل هى أحوج ما تكون إلى أكمل معانى الوحدة لتتجمع قواها فى نضال الاستقلال وفى عمل الإصلاح الداخلى، إذا أضيف هذا كله كان الأمر أخطر من أن يهمل أو يستهان به .

وبالنسبة للدعامة التالية - احترام إرادة الأمة تناول الإمام البنا "عيوب نظم الانتخاب فى مصر وكان عمدته هو كلام الدكتور سيد صبرى فى كتابه "مبادئ القانون الدستورى" ..

"أنه أوجد هيئة ناخبة لا يمكنها تحقيق الغرض من الانتخابات على الوجه المطلوب، وأنه لم يحقق فكرة تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً، وأنه لم يصل إلى إيجاد هيئة تعمل للصالح العام مجردة من كل قيد.. " وقد أورد بعد ذلك إحصائية دقيقة خلص منها بالأرقام إلى أن قرارات البرلمان المصرى فى أدواره المختلفة لا تعبر إلا عن رأى نسبة ضئيلة من مجموع من له حق الانتخاب، لم تصل يوماً إلى ١٢% .

واقترح الإمام البنا الإصلاحات الآتية :

" لابد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية :

١. وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح. وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب فى مصر. وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها.
٢. وضع حدود للدعاية الانتخابية، وفرض عقوبات على من يخالف هذه الحدود، بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعانى الشخصية البحتة التى لا دخل لها فى أهلية المرشح وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية.

٣. إصلاح جداول الانتخاب، وتعميم نظام تحقيق الشخصية، فقد أصبح أمر جداول الانتخاب أمراً عجباً بعد أن لعبت بها الأهواء الحزبية والأغراض الحكومية طوال هذه الفترات المتعاقبة، وفرض التصويت إجبارياً.

٤. وضع عقوبة قاسية للتزوير من أى نوع كان، وللرشوة الانتخابية كذلك.

٥. وإذا عدل إلى الانتخاب بالقائمة، لا الانتخاب الفردي كان ذلك أولى وأفضل، حتى يتحرر النواب من ضغط ناخبهم، وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية فى تقدير النواب والاتصال بهم. وعلى كل حال فأبواب الإصلاح والتعديل كثيرة، هذه نماذج منها، وإذا صدق العزم وضح السبيل، والخطأ كل الخطأ فى البقاء على هذا الحال والرضا به، والانصراف عن محاولة الإصلاح".

هذا هو ما جاء فى رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ومن الواضح أنها ملاحظات مصلح ديمقراطى يؤمن كل الإيمان بسيادة الأمة وضرورة احترام إرادتها وإقامة النظام السياسى على أساس برلمانى. ولا نجد فيه كلمة واحدة من شنشنة سيد قطب والمودودى أو ادعاءات جماعات الرفض أو حتى فيهمقه الفقهاء. بل لا نجد فيه إشارة إلى "تطبيق الشريعة" أو تنفيذ الحدود أو حتى الخلافة.

من هنا ندرك مدى الخطأ الذى يقع فيه الذين يعتبرون أن الإمام البنا كان رائداً للذين جاءوا من بعده. إن الدولة التى أرادها الإمام البنا هى الدولة الديمقراطية بعد إجراء تعديلات وإن كانت جذرية، ولكنها لا تغيرها عن طبيعتها وإنما تصلح بعضها. ولم يكن هو الوحيد الذى طالب بذلك ولكن لفيف كبير من أساتذة النظم الدستورية والكتاب والمفكرين.

إن حسن البنا أراد دولة إسلامية... ولكن لم يرد "دولة الإسلام" والفرق كبير كما سيتضح من الفصول التالية.

من الواجب علينا بعد أن أشرنا إلى الأفغانى والبنا - أن نشير إلى داعية تركى أصطلى بنيران العمل السياسى حيناً، حتى طلقه طلاقاً لا رجعة فيه، بل رأى فيه عمل الشيطان نفسه - ذلكم هو السيد بديع الزمان سعيد النورسى الذى حاول أن يثنى مصطفى كمال عن غيه، فكانت النتيجة أن اضطهده وكاد أن يقضى عليه حتى لاذ بركن قصى من تركيا عكف فيه على استلهام القرآن ليصدر "رسائل النور" التى كانت أساساً لجماعة إسلامية كبيرة هى "جماعة النور" وكان النورسى يملئها على اتباعه فى منفاه القصى دون أن يرجع إلى كتاب أو يستشير مرجعاً لأنها إنما كانت إلهاماً من القرآن نفسه. ولهذا كان فيها نقاء القرآن وإخلاص صاحبها.

وقد اضطهد الإمام النورسى رحمه الله اضطهاداً لم يقتصر على شخصه بل امتد إلى مدفنه، فنقل مراراً وأخيراً دفن فى مكان مجهول!!!

الفصل الحادى عشر

منظرو الدولة الإسلامية

المودودى - سيد قطب - الخمينى

كيف حدث أن تطورت فكرة الدولة الإسلامية من التصور الفضايف لى جمال الأفغانى وحسن البنا إلى قميص الكتاف المتصلب على يد منظرى الدولة الإسلامية المودودى وسيد قطب والخمينى.

أولى الملابسات التى أدت إلى ذلك اقتران صدور فكرة كل منظر من هؤلاء الثلاثة بحدث تاريخى يعد هو الذى دفع بصاحبه للاتجاه المعين الذى أخذته تلك الملابس وكانت بالنسبة للمودودى هى انشطار الهند وظهور باكستان كدولة مسلمة، وهى بالنسبة لسيد قطب العداوة المريرة التى أعلنها عبد الناصر للتيار الإسلامى وموجة الاعتقالات الوبائية وشيوع التعذيب الوحشى وهى بالنسبة لإيران الثورة على حكم الشاه وإعلان جمهورية إسلامية بقيادة الإمام الخومينى. وكل حدث من هذه الأحداث صاحبه تداعيات دراماتيكية أدت بالمنظرين الثلاثة لأن يسلكوا المسلك الذى يتفق معها، ونتيجة لاقتران هذه الأحداث بالنصوص والآيات كان لابد لهؤلاء المنظرين من أن يصلوا إلى ما انتهوا إليه بالفعل.

- ١ -

المودودى

أول هؤلاء المنظرين ظهوراً هو السيد أبو الأعلى المودودى الذى اصطحب ظهوره بالتطورات التى جعلت القارة الهندية تكسب استقلالها من الاستعمار البريطانى وتقف على شفا مستقبل مجهول متفجر بالمخاطر. فهناك أغلبية هندوسية تريد أن تبني هنداً "هندية" تعود إلى أصول وجذور الحضارة الهندية قبل أن يدهمها الإسلام وهذه الأغلبية تستشعر كراهية عميقة للمسلمين الذى جاءوها فاتحين وغرسوا فيها بذور الإسلام وحكموها قروناً متوالية، ولم يكن حكمهم ممتازاً، ولكنه كان بمعايير الحكم وقتئذ حسناً وكفلوا للأغلبية الهندوستية حرية العبادة، بل وفتحوا أمامهم باب الوظائف وفكر بعضهم مثل السلطان أكبر فى إيجاد دين يمزج ما بين الإسلام والهندوكية، ولكن هذا لم يشف معظم الهنادكة من غيظهم القديم. وكان هناك الأقلية المسلمة (قراية ٣٠ أو ٣٥% من مجموع السكان) استشرفوا ما ينتظرهم من اضطهاد تحت حكم الأغلبية الهندوسية. وكان على رأس الحزب الهندى الأكبر حزب المؤتمر ثلاثة من أكابر السياسيين الذين عرفتهم الهند. أولهم غاندى الذى قاد حملة المقاومة المدنية التى كانت من أكبر الوسائل التى ظفرت للهند باستقلالها. فضلاً عن أنه كان بصفة عامة إنسانى النزعة، وكان الثانى هو نهرو السياسى المثقف المعتدل وأخيراً مولانا أبو الكلام آزاد وهو عالم مسلم درس الفقه والتفسير وكان نفوذه فى المؤتمر لا يقل عن سابقه.. ولكن هذه القيادة الموهوبة لم ترض جماهير المسلمين الهنود وتجعلها تأتمن مشاعر الشعب الهندوسى، وقدرتها على كبح جماح جماهيره. وظهر بينهم وقتئذ قائدان بارزان أولهما محمد على جنبه وثانيهما الدكتور محمد إقبال.

وكان معاً مثقفين ثقافة أوربية رفيعة ولهما مشاعر إسلامية قوية. ولكن هذه المشاعر كانت تأخذ لدى جنبه طابعاً قومياً. فالإسلام هو جنسية المسلمين الهنود ولا بد من إقامة دولة إسلامية بينما كان إيمان الدكتور إقبال إيماناً روحياً عاطفياً صوفياً عميقاً. وتمتعا معاً باحترام وتقدير شعب الهند المسلم. وكان جنبه يرأس حزب "الرابطة الإسلامية" بينما يعد إقبال المرشد الروحي فيه. وكان جنبه بالمهنة محام ومستشاراً قانونياً سياسياً ضليعاً ومفاوضاً ذكياً واستبعد كل المساومات أو أنصاف الحلول مع قادة حزب المؤتمر، وعارض غاندى ونهرو "وأبو" الكلام آزاد الذين أرادوا بكل الطرق الحيلولة دون انقسام الهند، وأصبح من الضروري إقامة الدولة الإسلامية الهندية في المناطق التي تسكنها أغلبية مسلمة.

وسبق ميلاد باكستان مخاض دموى رهيب إذ تطلب الأمر هجرة مئات الألوف من مسلمى شرقى البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية، بينما هاجر الهندوس من البنجاب الغربية التي اعتبرت صميم باكستان، وتعرض المهاجرون من هذه المناطق أو تلك لاضطهادات الأغلبية هندوسا كانوا أو مسلمين.

وعندما تكونت الدولة بالفعل ظهر الطابع "العلماني" لقادتها - وعلى رأسهم جنبه - لأن حماسهم للإسلام كانت نوعاً من العصبية، أو القومية. أما الانصياع إلى "الشريعة" أو حتى "المثل" والقيم الإسلامية في الحكم فإنها كانت بعيدة عنهم. وقد ظفر جنبه باحترام وتقدير الجميع لأنه قاد الشعب وسط الأنواء والعواصف ووصل بها إلى بر السلامة. أما ما بعد ذلك فقد كان محل اختلاف يعكسه تكوين وإيمان شعب باكستان.

هذه الملابس هي التي أدت إلى ظهور المودودي وإلى اتخاذه اتجاهه الخاص. ولم يكن لديه في شبابه ما يدل على الفكرة التي انتهى إليها مما يدل على أن سير الأحداث هي التي قادته، في الوقت الذي أخذ يتعمق في الفقه الإسلامي وساعده على ذلك علمه باللغة العربية الذي مكنه من الرجوع إلى مصادرها..

كان المودودي يرى أن الدولة الوليدة ليس فيها من الإسلام إلا الاسم، ولما كان الإسلام هو مبرر وجودها فيفترض أن يقوم هذا الوجود على أصول إسلامية لم تتوفر لدى قادة الرابطة الإسلامية لأن ثقافتهم كانت أوربية.

وأخذ المودودي يتوغل في العلوم الإسلامية التقليدية من حديث أو تفسير أو فقه وكلما يتوغل كلما كانت تأخذه إلى عالم الأسلاف وإلى ما وضعوه من ضوابط وقواعد تكوّن في مجموعها الفهم السلفي.. وكان دوره هو أن يقدم ترجمة "أورديه" سهلة لهذا الفهم السلفي.. وأن يضعه في إطار الدولة الحديثة وكان حرصه على سلامة وقوة الدولة يرتبط بقيامها على الأسس الإسلامية السليمة التي استخلصها فإذا لم تقم على ذلك فإنها تفقد صفتها المميزة وتصبح دولة كبقية الدول.

وكان المودودي يؤمن بفكرة أن الفاتحين المسلمين للهند سلكوا مسلك الملوك الذين يستكثرون من الأموال ويستجيبون للشهوات، ويقيمون القصور الخ... ولو أنهم سلكوا مسلك السياسة الإسلامية التي وضع أسسها الرسول والخلفاء الراشدون لكانت الهند قد أصبحت أمة مسلمة. ولهذا كان تركيزه على السلوك الإسلامي سواء من الفرد أو المجتمع، في الاقتصاد أو السياسة

وقبل استقلال باكستان بست سنوات، في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ أسس الجماعة الإسلامية من ٧٥ رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بناء على دعوة وجهها المودودي عن طريق مجلته "ترجمان القرآن" وانتخبوا المودودي أميراً لها.

وفى نوفمبر ١٩٧٢ وبعد واحد وثلاثين عاماً من الكفاح قدم الإمام المودودي طلباً إلى الجماعة بإعفائه من منصبه كأmir لها لأسباب صحية وعكف على البحث والقراءة حتى وافته المنية فى سبتمبر سنة ١٩٧٩

وأراد المودودي لجماعته أن تكون جمعية تطبق المثل على الواقع وتكون مجتمعاً إسلامياً حقيقياً يتوفر لأعضائه الإيمان والعمل، أو ما أطلق عليه المودودي الشهادة القولية والفعلية، ويخضع لمعايير صارمة هى التى رأى المودودي أنها تتفق مع متطلبات الإسلام.

وأقامت الجماعة فى قرية عمرتها بنفسها، واستوطنها صفوة من أعضائها كما لو كانت مدرسة للكبار، وكان من واجبات كل عضو أن يأخذ نفسه بأداب الإسلام وأوامره "فلا يعامل أحداً إلا على الصدق، ولا يعاقد قريباً أو أجنبياً إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشريعة، ولو كلفه ذلك قناطر مقلطرة من الذهب والفضة.

فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة - البريطانية - وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام المحاكم التى تحكم بغير ما أنزل الله، وأبوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف)

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد :

فمن الشبان - وهم الأغلبية العظمى - من طرده أبوه وأخرجه من داره وحرم عليه أرضه ومتاعه.. ومنهم من أبى ذوو قرباه أن يزوجه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبي ﷺ وأعفى لحيته التى طالما تعود على حلقتها من قبل.

ومن الشيوخ من ضربه ابنه وأهانته لأنه تخلى عن حياة الجاهلية فى شيخوخته الخ... (٤٩).

وتوضح نشأة الجماعة الإسلامية وتطورها أن من الخطأ الاعتقاد أنه من الممكن إضرام نار الإيمان فى صدور المجموعات لسنوات طوال، وأن الإيمان الذى يحكم الخلق والتصرفات وتخضع الحياة له من الصعب أن يبقى فى جماعة ما بعد فترة من الزمن على ما كان عليه فى البداية. وأن وضع الحسابات على بقاء هذا المستوى من الإيمان هو من الأخطاء التاريخية فى فكر الدعوات الإسلامية فحتى إيمان الصحابة لم يهدم إلى السلوك الأمثل فى الفتنة الكبرى التى كان تأييد على - وهو الأحق - يعنى سفك دماء عشرات الألوف من المسلمين. والدرس الذى يقدمه لنا تطور المستوى الإيماني للجماعة الإسلامية التى بدت عميقة الإيمان ملتزمة بموجبات هذا الإيمان. تجعلنا نقتصد ونضع فى اعتبارنا هامشاً عريضاً لحساب الضعف البشرى وقوة إغراء العوامل الاجتماعية الأخرى، ولا يعنى هذا إهمال هذا المقوم الهام ولكنه يعنى دعمه بمختلف الوسائل الأخرى. وعدم تركه وحده ضحية لعوامل الإغراء والتعرية وفى الوقت نفسه عدم الارتفاع به إلى مستوى لا تسمح به الأوضاع العملية...

(٤٩) رجعنا فى هذا القسم من استعراض تاريخ الإسلام فى الهند إلى الكتيب الذى وضعه السيد مسعود الندوى باسم: "نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند" وطبعته لجنة الشباب المسلم بالحلمية وكتب مقدمته الأستاذ محب الدين الخطيب - رحمه الله - عام ١٣٧٢ هـ.

وما يهمننا هنا هو نظرية المودودي في الدولة الإسلامية وهو ما يوضحه كتيب "منهاج الانقلاب الإسلامي" عن خصائص الدولة الإسلامية كالآتي :

- (١) ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية فإن الحاكم الحقيقي هو الله والسلطة الحقيقية مختصة لذاته تعالى وحده والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه العظيم.
- (٢) ليس لأحد من دون الله شئ من أمر التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدرّون أن يغيروا شيئاً مما شرع الله لهم.
- (٣) أن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنينها إلا على ذلك القانون المشروع الذي جاء به النبي من عند ربه مهما تغيرت الظروف والأحوال. والحكومات التي بيدها زمام هذه الدولة لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه.

من هنا يتضح لنا أن الدولة الإسلامية لا تعد ديمقراطية بالمعنى الشائع لأنها لا تجعل إرادة الشعب هي أصل التشريع، ولكنها حكومة إلهية (ثيوقراطية **Theocracy**) مع اختلاف جذري في المدلول الأوربي للكلمة لأن الحكومة الإسلامية لا تعرف طبقة السدنة (رجال الدين) الذين يتولون وحدهم في الدولة الثيوقراطية بالمفهوم الأوربي التقنين أو التفسير طبقاً للشريعة الإلهية ومن هنا فإن الثيوقراطية الإسلامية يمكن أن تكون (ثيو - ديمقراطية) **Theo democracy** أو الحكومة الإلهية الجمهورية وذلك لأنها خولت للمسلمين حاكمية (أو سيادة) شعبية محدودة **A limited popular sovereignty** تحت سلطة الله القاهرة. ولا تتألف السلطة التنفيذية إلا بأراء المسلمين وبيدهم يكون عزلها من منصبها وكذلك جميع الشؤون التي لا يوجد عنها في الشريعة حكم صريح لا يقطع فيها بشيء إلا بإجماع المسلمين.

وكلما مست الحاجة إلى إيضاح قانون أو شرح نص من نصوص الشرع لا يقوم ببيانه طبقة أو أسرة مخصوصة وحدها بل يتولى شرحه وبيانه كل من بلغ درجة الاجتهاد من عامة المسلمين..

فمن هذه الوجهة يعد الحكم الإسلامي ديمقراطياً إلا أنه - كما تقدم ذكره من قبل - إذا وُجد نص من نصوص الكتاب والسنة في شأن من الشؤون فليس لأحد من امراء المسلمين أو مجتهد أو عالم من علمائهم ولا للمجلس التشريعي (**Legislature**) بل ولا لجميع المسلمين في العالم أن يصلحوا أو يغيروا منه كلمة واحدة، من هذه الجهة يصح إطلاق كلمة "الثيوقراطية" انتهى الاقتباس..

وفي كتابه "الحكومة الإسلامية" وهو من الكتابات المتأخرة للمودودي عرض القضية كالآتي :

إن المطالبة بالحكومة الإسلامية والدستور الإسلامي تتبع من الشعور الأكيد بأن المسلم إذا لم يتبع قانون الله، كان ادعاؤه الإسلام باطلاً لا معنى له

- (١) يقرر القرآن أن الله تعالى هو مالك الملك، ومن ثم فهو صاحب الحق في الحكم بدهاه، كما يقرر أن تنفيذ أوامر أحد غيره، أو حكم أحد سواه في أرضه وعلى خلقه، إنما هو باطل وكفر مبين. والصواب أن يحكم الحاكم بقانون الله ويفصل في الأمور بشريعة الخالق بوصفه خليفة لله ونائباً عنه في أرضه.

(٢) وبناء على هذا سُلِبَ الإنسان حق التقنين لأنه مخلوق ورعية، عبد ومحكوم، ومهمته تتركز في اتباع القانون الذى سنه مالك الملك. وقد أباح الإسلام بالطبع مزاوله الإنسان الاستنباط والاجتهاد وتقريراتها الفقهية، لكنه شرط ذلك بألا يخرج عن إطار حدود الله. كذلك أعطى المؤمنين حق التقنين فيما لم يرد فيه حكم صريح من الله ورسوله، على أن تراعى في التقنين روح الشريعة ومزاج الإسلام، لأن سكوت الشارع عن إصدار حكمه في بعض المسائل يعنى أن للمؤمنين الحق القانونى فى سن أحكامها وضوابطها. لكن الأمر الأساسى الذى لا غمة فيه ولا خفاء أن من يترك قانون الله ويؤمن بقانون آخر وضعه بنفسه أو شرعه له غيره من البشر إنما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق، وأن من يبيع الحكم بهذا القانون الوضعى، ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه أيضاً.

(٣) أن الحكومة الصحيحة العادلة فى أرض الله هى التى تتأسس وتحكم بالقانون الذى بعثه الله على أيدى أنبيائه، واسمها الخلافة.

(٤) أن كل ما يصدر من أعمال من قبل أية حكومة تقوم على أساس شرعة أخرى غير شرعة الله وقانونه الذى جاء به الأنبياء من لدن رب الكون وإله باطل لا قيمة له ولا وزن، مهما اختلفت هذه الحكومات فيما بينها من تفاصيل فى الشكل والنوع، وحكمها غير شرعى البتة، فإذا كان مالك الملك الحقيقى لم يعطها سلطاناً، فأنى لها أن تكون حكومات شرعية.

إن القرآن الكريم يرى كل ما تقوم به هذه الحكومات محض عدم لا وزن له ولا قيمة، وقد يقبل المؤمنون - وأعنى بهم رعايا الله الأوفياء - وجود هذه الحكومات باعتبارها أمراً واقعاً خارجاً عن إرادتهم وقدرتهم، لكنهم لا يعترفون بها وسيلة حكم شرعية، وسلطة تفصل فى أمورهم وقضاياهم، إذ لا يحق لهم طاعة الخارجين على حاكمهم الأسمى (الله) أو قبولهم حكماً فى مجريات حياتهم، ومن يفعل ذلك فقد خرج من زمرة المؤمنين الأوفياء مهما ادعى الإسلام والإيمان " انتهى..

ويمكن تلخيص فكرة المودودى فى القواعد الثلاث الآتية :

أولاً: العبودية لله التى تجعل المسلم يعيش فى كل حركاته ابتغاء مرضاة الله والتزاماً بما وضعه الله.

ثانياً: الحاكمية الإلهية التى تجعل المجتمع يحكم بما أنزل الله ولا يجوز لفرد أو سلطان أو هيئة أو شعب وضع القوانين طبقاً لما يراه..

ثالثاً: الجاهلية. وهى الصفة التى أطلقها المودودى على المجتمعات التى لا تؤمن بالحاكمية الإلهية، حتى لو كانوا من المسلمين.

* * *

وللمودودى رأى عن الإنسان بالنسبة لله تعالى قال فيه :

لقد سبق لى القول من قبل مرة بعد أخرى أن الإسلام يستهدف أن يدخل حياة المرء بجميع مظاهرها فى عبادة الله ويصفها بصفتها. الإنسان خلق عبداً - والعبودية هى فطرته التى فطره الله عليها - فليس له أن يكون حراً لا فى فكره، ولا فى عمله، من هذه العبودية. عليه أن ينظر فى جميع مظاهر حياته وجميع أوقاته ما هو رضا الله؟ وما هو سخطه ليتخذ ما كان يرضى الله ويبتعد عما يسخط الله - ابتعاده عن النار - ويسلك

المسلك الذى يحبه الله ويجتنب الطريق الذى يبغضه. وإذا رأيت أحداً قد صيغت حياته فى هذا قالب صياغة كاملة فاعلم أنه أدى حق عبوديته لسيده ومولاه وأتم الغرض المنشود الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

* * *

ما هى تحفظاتنا على فكر المودودى ؟ :

أولاً: أن العلامة المودودى وقع فى "إسقاط" بشرى على الطبيعة الإلهية وتصور سلطة الله تعالى وحاكميته كما لو كانت سلطة ملك على شعبه أو قائد على جنده. أو مالك على عبده. وكان من أبرز الأدلة على ذلك الأمثلة العديدة التى أراد أن يوضح بها هذا الفهم، ومثل هذا القياس خاطئ تماماً لانتفاء التماثل فى العلة إن لم يكن مستبعداً أصلاً. فالله تعالى غنى عن العالمين، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة - وأى مالك ليس غنياً عن عبده - ولا هو فى حصانة من معصيتهم، أو غنى عن طاعتهم. وعلم الله تعالى الذى يفصل به بين العباد، ويحكم به على الأعمال، يتسامى عن فهمنا المحدود المتأثر بالعوامل الذاتية ونحن يملكنا الغضب لأنفسنا وتأخذنا العزة عند المخالفة - ونحرص على ذواتنا، وأموالنا، ومراكزنا وسلطاننا.. ونحاسب تبعاً لقواعد الحساب.. وهذا كله شئ لا يمكن أن ينسب إلى الله تعالى - فرحمة الله أعظم مما نتصورها - وخزائنه لا تتفد. وهو يكافئ بسبعمائة ضعف وأكثر. وعلمه وحكمته تجعله ينظر إلى المخالف نظرة العارف المتعال: وهم يقولون عن البشر "من يعرف أكثر.. يغفر أكثر..". ومن ثم كانت معاملة الفيلسوف الحكيم تختلف عن معاملة العسكرى الفظ.. وهذا كله بالنسبة للآدميين. فما بالك بالله رب العالمين. إننى لأخشى أن المودودى رحمه الله فى حماسته لتدعيم وجهة نظره كاد أن يقرب من تجسيم إن لم يكن مادياً - فهو فكراً.. وأراد أن يمحي كل أثارة من أثار الشك.. فكاد أن يقع فيما يماثل ذلك عندما كيّف الطبيعة الإلهية تكييفاً بشرياً

ثانياً: أن العبودية لله لا تعنى - كما تصور المودودى - انعدام حرية الإنسان فى الأرض والتصور الذى قدمه المودودى للعبودية الإنسانية الذى رتب عليه انعدام الحرية يخالف مخالفة تامة التصور الإسلامى للحياة واستخلاف الإنسان على الأرض وإرصاد الشياطين لغوايته وإرسال الأنبياء لهدايته. وما ينبى على هذا من وجود حرية فى التصدى وعقل فى التكيف. وكلمة حرية وعقل هما من المحرمات فى كتابات وآداب الرافضة الجديدة - كما يندر أن نجدهما فى كتابات المودودى. وإغفالهما، مع التركيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الذى أراده الإسلام، ولو أعطت كتابات المودودى الحرية الإنسانية. والعقل الإنسانى جزءاً مما ركزته فى العبودية - لاختلف التكيف - وكان هذا أدعى لهداية الإنسان من تجاهلها..

ثالثاً: يختلف الطابع العام لأحكام المودودى ومنطلقاته عن الطابع العام الذى نجده فى القرآن وفى الحديث. ففى هذين نجد العقيدة وتوجيهاتها تعرض "كمثال" ونجد الطبيعة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها.. تعرض كواقع. وتتجاوب الأحكام مع تلاقى المثال بالواقع.. ومدى إخضاع الواقع للمثال، أو مدى توصل الواقع إلى المثال. ومن أجل هذا يقرر القرآن "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" وكان الرسول أيضاً عندما يبائع المؤمنين يردف "فيما استطعتم" وهذه اللمسات الإلهية والنبوية فى معاملة الإنسان وعمق المعرفة بالطبيعة البشرية لا نجدتها فى أحكام المودودى التى تنزع نحو تطبيق المثال كاملاً غير منقوص، وتميل بصفة عامة للتشدد. والإسلام دين اليسر. وتريد قيام مجتمع كامل لا يتضمن نقصاً. فى حين أن

الإسلام افتراض وجود التقصير والضعف أمام الإغراء، بل إنه إفتراض حدوث الكفر. ولم يكن هذا فى حد ذاته ليعنى الإسلام وقد وجه الله تعالى نبيه لأن لا يحزنه الذين يسارعون فى الكفر. لأنه تعالى - لا تضره معصية - ولا تنفعه طاعة - فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ومن شاء فليكفر.. ومن شاء فليؤمن. وقد أراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تضم الكفرة - وغير المؤمنين الخ... ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. {٦١ النحل}..

رابعاً: إن الإلحاح على فكرة العبودية لله مع استبعاد أى إشارة إلى حرية أو عقل يمكن أن يوظف لخدمة الحكام والنظم ويفتح الطريق لهما. لأنه مع استبعاد العقل والحرية، تنبهم العبودية، ولا يمكن التفرقة بين أن تكون لله أو لغير الله ويمكن أن يصبح الإنسان عبداً للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل.

خامساً: أن اتباع النصوص القرآنية يتطلب فهماً لها يتأثر بدرجة الثقافة وملاحظة روح الإسلام ومقاصد الشريعة وضرورات العصر. وهذا الفهم لا يكون جامداً وليس شرطاً أن يتفق مع فهم السلف، ولا مع ما يقرره المفسرون لأن هؤلاء جميعاً من الصحابة حتى الآن ليسوا مشرعين وما جاءوا به من أحكام لا يعد ملزماً. وقد وضح لنا عمر بن الخطاب أن المهم فى النص هو توافر العلة أو الحكمة، وأنه لما انتفت العلة من نص لم يعمل ولا يعد هذا مخالفة بل هو تطبيق لحكمة التشريع كما فى حالة الزكاة والطلاق الخ... فحتى النص القرآنى فيما يتعلق بالدينويات يمكن أن يوقف النظر فيه إذا انتفت العلة التى أدت إلى إصداره كما فعل عمر بن الخطاب من قبل ويدخل فى ذلك ما يخص الحكم.

أما السنة فيجب أن تضبط بمعايير قرآنية حتى لا نكون ضحايا الوضع أو غيره فمما شاب السنة بعد أن تأخر تدوينها مائة عام.

وتطبيق هذه الاعتبارات وإن كان لا يخرج عن الإطار العام الذى وضعه المودودى لأنه التزام بالقرآن والسنة. إلا أن تكيفها هذا يوجد - بكل تأكيد - مفاهيم ونتائج بعيدة كل البعد بل ومنافية لما تصوره المودودى الذى لم يكن لديه من طريقة لفهم وتطبيق النصوص إلا ما جاء به السلف.

والحقيقة أن المودودى يتحدث بأسلوب يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب القرآن فالمودودى يقول "ليس لأحد من دون الله شىء من التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدر أن يغيروا شيئاً مما شرع الله لهم.

وإذا وجد نص من نصوص الكتاب والسنة فى شأن من الشؤون فليس لأحد من أمراء المسلمين ولا لمجتهد ولا لعالم ولا لمجلس تشريعى بل ولا لجميع المسلمين فى العالم أن يصلحوا أو يغيروا منه كلمة واحدة. قارن هذا الكلام بما يقوله القرآن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. وما يأمر به مراراً من التفكير والتدبر فى آيات الله فهناك فرق شاسع بين الموقف المنغلق للمودودى والموقف المنفتح للقرآن.

رؤية للديمقراطية فى الثمانينات:

ليس لدينا الكثير من الوثائق والكتابات عن التطورات الأخيرة للجماعة الإسلامية. وهذه الجهالة هي جزء من القطيعة الفكرية بين بلاد العالم الإسلامي، وعدم احتفال كثير من الهيئات بالإعلام المكتوب - أو الاتصال. خارج أطرها الخاصة. وما تأتينا به أجهزة الإعلام الأوربية مُتهم

وتقلبت الحظوظ بالجماعة الإسلامية عندما دخلت العمل السياسي. ولكن قلبه ما لدينا من مراجع يحول بيننا وبين إصدار الأحكام. وقد وجدنا بين أوراقنا نشرة موجزة بالإنجليزية أصدرتها الجماعة الإسلامية بعنوان الديمقراطية والتضامن القومي: مشروع المودودي للإجماع القومي عن الأسس الفكرية بباكستان. صدرت بعد ٨٣ وهي تمثل التطور الفكري الذي وصلت إليه الجماعة وتكيفها لمفاهيمها للتوصل إلى "إجماع قومي".

وبعد مقدمة موجزة، تعرض النشرة خمسة مبادئ لازمة لتهيئة مناخ رأى عام إيجابي هي :

١. احترام الحق والعدل.

٢. التسامح المشترك (أو المتبادل).

٣. تجنب المعارضة للمعارضة.

٤. تفضيل الإقناع على القسر.

٥. المصلحة القومية فوق المصلحة الشخصية.

وهذه المبادئ توضح مدى تطور فكر الجماعة الإسلامية. ولكن يظل مدى إيمان الجماعة بهذه المبادئ وتكيفها محل نظر.

- ٢ -

سيد قطب

وكتاب "معالم في الطريق"

كان سيد قطب كاتباً ضليعاً تلقى دراساته في دار العلوم - وواصلها بقراءاته. وأظهر من أيامه الأولى نبوغاً في الكتابة واعتبر فترة ما الابن البكر للأستاذ عباس محمود العقاد وأفسحت له مجلة الرسالة صدرها فأثرها بمقالاته عن النقد الأدبي. وكان مما لا يزال عالقاً بالذهن مساجلة بينه وبين الأستاذ محمد سعيد العريان الذي اعتبر أكبر مؤيدي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وكانت المساجلة وكأنها بين الكاتبين الكبيرين "العقاد والرافعي" نفسيهما. وكل واحد يدافع عن وجهة نظره...

ولم يكن الاتجاه الإسلامي بارزاً في سيد قطب في كتاباته الأولى على أنه أصدر كتاباً ممتازاً بعنوان "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ثم جذبته الإعجاز القرآني الذي لا بد أن يجذب كل كاتب عربي. فأصدر "مشاهد القيامة في القرآن والتصوير الفني" وعدداً آخر من الكتب أبرز فيها البلاغة والإعجاز الفني للقرآن..

وأراد الله له أن يرسل فى بعثة إلى الولايات المتحدة وكان وقتئذ قد سلك فى سلك التربويين الذين يعملون فى خدمة وزارة التربية والتعليم ويبدو أن هذه الرحلة أثارت فيه نقطة تحول دفعت به إلى الاتجاه الإسلامى الذى كان قد شارفه، ولعل ظواهر الحضارة الأوربية، وبوجه خاص ما يتعلق بالتححرر الجنىسى وظهور المرأة قد أحدث صدمه فى نفسه وهو "الصعيدى" الذى لم يغادر قريته إلا إلى القاهرة، ولم يتزوج، ومر بمرحلة حب عذرية عابرة.. ولم تكن هذه صدمة "انبهار" بل كانت صدمة احتقار لمشاهد الحياة الأمريكية.

المهم أنه عاد وهو أقرب إلى الإسلام وكان المجتمع المصرى قد تعرض بدوره لتغيير جاء به الانقلاب العسكرى لعبد الناصر. وكان هناك صداقات تجمع ما بين سيد قطب وبعض ضباط الانقلاب الذين ألفوا أن يجتمعوا فى بيته فى حلوان خاصة أيام التقارب ما بين الانقلاب والإخوان عامى ٥٢، ٥٣، وكان له مكتب فى مركز قيادة الثورة.

وكان لدى بعض أصدقائه من الضباط احتمال أن تعينه "الثورة" وزيراً للتربية والتعليم ولكن ما لم يفتنوا إليه وقتئذ هو أن الأمور كانت فى يد جمال عبد الناصر الشكاك الحذر الذى لا يأتى إلا اتباعه.

وجرت الرياح على غير ما تشتهى السفن. فتوترت العلاقات ما بين الإخوان والضباط. بعد ١٩٥٤ فى أعقاب التهمة التى ألصقت بالإخوان تهمة محاولة اغتيال عبد الناصر، وبدأت الاعتقالات..

ولم يكن سيد قطب بالرغم من شخصيته المستقلة، وعلاقاته بالضباط بمنأى عن هذه التطورات التى نالته فىمن نالت ولكنه خرج منها بعد أن أحدثت أول شرخ ما بينه وبين النظام

وأصدر فى هذه الفترة كتابه "معالم فى الطريق" ولم ينتبه القادة إلى خطورة مضمونه وقيل إنه كان يوزع بين الضباط..

واكتسب الأستاذ سيد قطب شهرة مدوية فى أوساط الإخوان.. وانضم إليها بصفة رسمية وكان كتابه "معالم فى الطريق" هو مدخله لقلوب لفيق من شباب الإخوان ورأوا فيه صياغة رصينة، وإيمان عميق مؤصل على نصوص صريحة من الكتاب والسنة وحدث هذا فى فترة التخلخل التى لم يوجد فيها كاتب إخوانى يواصل التأصيل النظرى الذى قام به الإمام البنا.

والحقيقة أن الفكر الذى قدمه سيد قطب وإن كان جديداً فى دوائر الإخوان وغرباً عن كتابات الأستاذ البنا، فإنه لم يكن جديداً على مجموعة صغيرة من شباب الإخوان كانوا يتابعون حركة المودودى فاستقدموا كتاباته واستأجروا محلاً أمام المركز العام للإخوان المسلمين فى سكة راتب وبدعوا تحت اسم "لجنة الشباب المسلم" بترجمة بعض كتاباته وبوجه خاص كتابى نظرية الإسلام السياسية ومنهاج الانقلاب الإسلامى وهما من أقدم كتابات المودودى وكانتا محاضرتين ألقاهما المودودى فى لاهور وتضمنت الأفكار الرئيسية التى أبرزها سيد قطب وهى: الحاكمية الإلهية - العبودية لله - الجاهلية الحديثة وكان فضل سيد قطب فى هذا هو أنه أبرزها بأسلوب عربى رصين مثير..

وفى ١٩٦٥ حدث سباق للاستحواز على السلطة ما بين فريق عامر وفريق ناصر. وأقنعت المخابرات العسكرية التابعة لعامر عبد الناصر بأن مؤامرة إخوانية تحاك وعلى وشك أن تؤدى بدولته. وكانت قد وضعت يدها على نواة صغيرة لمجموعة أرادت أن تدرس فكر سيد قطب. فادعت أنها تخطط لنسف الكبارى وقتل الشخصيات العامة والفنانين الخ... وكانت نتيجة ذلك أن اعتقل سيد قطب ومجموعة من أخلص اتباعه مع ما يزيد على عشرة آلاف معتقل، وتعرضوا لأشنع صنوف التعذيب وقدم سيد قطب والمجموعة المخلصة التي كانت حوله وحكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فوراً، حتى لا يضطر عبد الناصر للاستجابة لرجاءات الشفاعة التي سيتقدم بها بعض القادة، وكان موقف سيد قطب، ورفضه استجداء العفو ثم إعدامه هي ما أعطته الشهرة المدوية وكللت موته بتاج الشهادة..

وقد أصبح "معالم الطريق" هو الذى يلهم كل المجموعات الراضية ومع أن المضامين الثلاثة التي قام عليها ألا وهي: الحاكمية الإلهية والعبودية لله والجاهلية - ليست جديدة تماماً، فقد قالها المودودى من قبل إلا أن الجديد هو حُسن تقديمه وصياغته والبرهنة عليها. لا بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد فى مثل هذا الكتاب، ولكن بنصوص أعطيت بريقاً ليس لها..

وأصبح الكتاب وثيقة ملتهبة..

والنقد الرئيسى الذى يوجه لفكرة "الحاكمية الإلهية" - وهى واسطة العقد فى فكر سيد قطب - هو أنها تجريد للعقيدة عن مضمونها العملى، وإعلاء لهذا التجريد، بحيث يأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذى تقدمه العقيدة فى مضمونها العملى، ويأخذ طابع الشعار، أو حتى الوثن.

"الحاكمية الإلهية" دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة، وتغيير شامل..

فإذا قلنا: وماذا تعنيه الحاكمية الإلهية "عملياً"؟ أو: كيف يمكن لها أن تحقق ثورتها الكاسحة؟ لما وجدنا شيئاً فى مائتى صفحة من صفحات "معالم فى الطريق" إلا هذه السطور:

"ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعاً فهو محدد بشطر الشهادة الثانى "محمد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول ﷺ من النصوص فى الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجىء دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة فى منهج الله ذاته، لا وفق الأهواء والرغبة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. {٥٩ النساء}..

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك - ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة - فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله.. إلا أن تكون الحاكمية العليا لله، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى البشر" انتهى.

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه فى الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أى تجديد.

والنتيجة العملية: أن ليس فى كل الحماسة والعاطفة والثورة أى إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامى التقليدى..

وقد يسأل سأل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره ؟..

السبب: أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدي إلا خلال عشرة سطور وسط مائتي صفحة، وأما الباقي كله فكلام يوحى بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البتة..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هي هذه النتيجة.

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحى بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون. بل يمكن أن يصبح وثنا يعبد في حد ذاته دون أى حكمة أو مضمون.

وعمليا فإن كلمة "الحاكمية الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة.. وضلال السذج: فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلى باطل معاوية على حق على. وانخدع بها الخوارج فخذلوا عليا وهو أنقى النقاء ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة "لا حكم إلا لله".." حكمت الرجال فى دين الله" !!.

وعندما بعثت هذه القالة تكررت المأساة واستغلها بعض الأفراد الأذكياء للسيطرة على شرائح من السذج وتحكموا فيهم..

فإذا كانت الشعارات من نوع "الحاكمية الإلهية".." العبودية لله" تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليا لا تعنى إلا الضلال والانحراف عندما يأتى الأمر للتطبيق. ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعاً.

وإذا كانت "الحاكمية الإلهية" تعنى: تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله، والحكم بما أنزل الله.. فمن الخير أن يقال هذا.

وقد قالتها أم الدعوات الإسلامية فى العصر الحديث "الإخوان المسلمون" فى مقدمة شعاراتهم "الله غايتنا.. القرآن دستورنا.. الرسول زعيمنا".

وقالة أخرى مضلة هي "العبودية لله" فما المقصود بها عمليا؟.. لأنها عقيديا ليست محل خلاف..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلون ويحرمون.. فهذا ما تضمنته دعوة الإخوان وما أشرنا إليه.

وإذا كانت تعنى ألا يكون هناك "شفاعة" أو "ولاية" مع الله.. فهذا ما قالته الوهابية وما أقامت عليه دعوتها..

وإذا كانت تعنى أن تتأصل فكرة العبودية فى النفوس وتتغلغل فيها وتكون دائماً نُصَبَ العيون.. فهذا شئ أقرب إلى الرجاء مما هو إلى التحقيق؛ لأن الله تعالى أوجد فى نفوس البشر ما يشغلها من شهوات وغرائز، وسلط عليها الشياطين، وحرّمها من نقاء وصفاء الملائكة

وفى عهد الرسول استشعر هذا المعنى الصحابي "حنظله" وظن أن النفاق قد تطرق إليه فذهب إلى الرسول وفى طريقه قابل أبا بكر الذى سأله عن حاله فقال "نافق حنظله" ولما استفهم منه أبو بكر عن الحقيقة ذكر له أنهم يكونون عند رسول الله ﷺ وقد تملكهم التقى ثم يؤوبون إلى زوجاتهم فتتملكهم الشهوات، وعندئذ أقر أبو بكر بأن هذا ما يحدث له، فذهبا إلى رسول الله ﷺ وعرضا عليه الأمر فقال: "لو تكونون عند أهلکم كما تكونون معى لصافحتکم الملائكة! ولكن ساعة.. وساعة..".

وليس ما هو أكثر دلالة من هذا الرد المعجز البليغ..

فالنفس الإنسانية لا يمكن أن تخلص تماماً من شواغل الدنيا..

وحسبها أن لا تبعد عما سنه الله تعالى لها..

أو أن توجه مشاغلها لخدمة الأهداف الإسلامية..

وهذا هو ما كان يحدث لعمر بن الخطاب عندما كان يحسب فى صلاته "عطاء البحرين"، وقيادة الجيوش الخ... مما كان يهيمن على نفسه من قضايا المجتمع الإسلامى.

وقد رأينا كيف أن المودودى حاول أن يحقق هذا المعنى عمليا فى المجموعة التى بدأ بها جماعته، ولكن غلبت عليها الطبيعة البشرية كما لا بد أن يحدث بعد فترة من الزمن.

ولم أجد فى كتاب "معالم فى الطريق" بأسره إشارة واحدة إلى "العقل"!!..

وهى سمة يتسم بها دعاة "الحاكمية الإلهية"..

أما العلم؛ فإن الإشارة التى تضمنها الكتاب: هل نحن أعلم أم الله تعالى! ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أما الآية: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. التى يحتج بها أنصار العلم، فإنه أعادهم إلى صدر الآية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. {٩ الزمر}..

فنسفت حجتهم نسفا..

أما الشعب، فقد صب عليه جام غضبه، ورفض أن يكون له من الأمر بشىء.. لأن الأمر كله لله..

وأما الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وأسجد له الملائكة وتقلد الأمانة التى عجزت عنها السموات والأرض والجبال فلا وجود له، فقد استغرقتة تماماً العبودية لله.

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين :

مجتمع إسلامى.. ومجتمع جاهلى.

ولا توسط بينهما :

وكل المجتمعات الحديثة - إسلامية وغير إسلامية - جاهلية.

لأن المجتمعات الإسلامية لا تحقق عمادى دعوته: الحاكمية الإلهية.. والعبودية لله.
فهى جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام..

* * *

إذا كان سيد قطب قد بعث أفكار المودودى، ومن ثم فلا تعد جديدة، فإن الجديد الذى يمكن أن ينسب إليه هو تصويره للجهاد، وأنه لم يكن للدفاع كما يذهب إلى ذلك "المنهزمون" كما ارتأى. وإنما هو أداة الإسلام لحمل رسالته وتوصيلها للعالم أجمع، وهو التصور الذى أدى لظهور جماعة الجهاد، وأثر أثراً كبيراً على فهم هيئات إسلامية لمضمون الجهاد وكان للأسف الشديد - مضمونا يشطح بالجهاد بعيداً عن حقيقته ويحملة ما لا يحمله، بل ونقيض ما يحمله^(٥٠).

* * *

- ٣ -

الإمام الخمينى وولاية الفقيه

من بين كل الحركات التى ظهرت فى الدول الإسلامية فى العصر الحديث تعد الحركة التى قادها الإمام آية الله العظمى الخمينى الوحيدة التى تستحق بجدارة اسم "الثورة" وهى بهذا تختلف تماماً عن كل الانقلابات التى تعرض لها العالم الإسلامى/ العربى وقام بها ضباط للاستحواز على السلطة ولما كانت حركات سفاح ليس لها نظرية أو شرعية تنتسب لها فإنها تنتسب إلى تاريخ وقوعها فيقال ثورة شهر كذا... وليست هى من الثورة فى شىء.

لقد قلنا فى مناسبات سابقة إن الثورة لا بد أن يكون لها نظرية أو عقيدة أصيلة، متكاملة وليست ملفقة أو مطلبية. ولا بد أن تشترك فيها اشتراكاً فعلياً جماهير عريضة. ولا بد أن تستهدف تغييراً جذرياً يشمل الاجتماع والاقتصاد والسياسة. والانقلابات العسكرية التى حدثت فى العالم العربى والإسلامى لا يتحقق فيها مقوم واحد من هذه المقومات. ولهذا لا تعد ثورات. ولكن الحركة التى قام بها الإمام الخمينى تعد ثورة توافرت فيها المقومات الثلاثة للثورة فقد جاءت بنظرية جديدة تستلهم الفقه الشيعى وتطرح النظام المدنى الذى كان سائداً. واشتركت فيها - بل قامت بها - جماهير عريضة جابهت بطش القوة المسلحة. وأدت إلى تغيير كاسح طوى الصفحة السابقة عليه وجاء بأوضاع جديدة فى الحكم والاقتصاد والاجتماع.

من أجل هذا فإن ما حدث فى إيران هو ثورة..

ولكن ليس معنى هذا أن تكون الثورة رشيدة أو صائبة. فالحركة التى قادها لينين كانت ثورة إذ كان لها نظرية، واستهدفت تغييراً واشتركت فيها جماهير ولكن ما تورطت فيه الثورة من أخطاء رغم إنجازها أدى فى النهاية إلى السقوط والتحلل.

(٥٠) لقد عالجتنا هذا الموضوع فى كتابنا "الجهاد" - دار الفكر الإسلامى سنة ٢٠٠٢.

واليوم تقف الثورة الإسلامية الإيرانية موقفاً حرجاً وتتجاذبها القوى المتعارضة. ويمكن أن يحدث فيها ما حدث للاتحاد السوفيتي. وإن كنا نأمل أن توفق في الخروج من مأزقها..

وإيران دولة كبيرة واسعة المساحة كبيرة السكان لها تاريخ عريق يتمثل في الحضارة الفارسية التي كان أبرز ملوكها "كورش" وكسرى الذي قد يطلق على ملوكها كما يطلق لقب فرعون على ملوك مصر القديمة وعندما ظهر الإسلام كانت فارس تسيطر على العراق وتصبغه بالصبغة الفارسية. ولكن الإسلام هزم الفرس في معارك شهيرة وقضى على النفوذ الفارسي ثم لاحق فارس في أرضها. ولكن معظم الفرس اعتنقوا الإسلام وأصبحت عواصم إيران منارات للفكر الإسلامي في الحديث والفقهاء والتفسير.

ومع أن الإسلام أعاد "خلق" هذه المنطقة، وأحل الآداب والثقافة والفكر الإسلامي محل الثقافات الزرادشتية القديمة، إلا أن هذا لم يمح تماماً الرواسب القديمة، خاصة وأن التطورات السياسية جعلت لإيران أهمية عندما ازدهرت الدعوة الشيعية فيها وبدأت الثورة على الخلافة الأموية فيها، ومع أن التطورات السياسية انحرفت بها إلى العباسيين، فإن هذا لا يضائل من أثر الفرس في بناء الدولة الجديدة، ولم يحل دون أن يكونوا أركانها بدرجة حملت الرشيد على القيام باستئصال البرامكة بعد أن كاد نفوذهم أن يعادل نفوذه.. ولم تعدم شاعراً مثل مهيار يفخر على العرب:

قومي استولوا على الدهر فتى
عمموا بالشمس هاماتهم
وأبى كسرى علا إيوانه
قد نسبت المجد من خير أب
ومضمت الفخر من أطرافه
ومشوا فوق رؤوس الحقب
وبنوا بنيانهم بالشهب
أين فى الناس أب مثل أبى
وقبست الدين من خير نبى
سوود الفرس ودين العرب

ولا بأس بهذه الأبيات، فنحن لا نستطيع، ولا نريد، أن نحرم شعباً من أن يتحدث بمفاخره، ويعتز بأمجاده القديمة، ما دام لا يفرض الماضى على الحاضر أو يعلى الذاتية على الموضوعية.

واعتورت إيران ما اعتور بقية الولايات الإسلامية خاصة وأنها تلاصق دولا قوية كالأفغان والهند والترك.. وروسيا حتى انتهى بها الحال إلى ظهور الدولة الصفوية فى القرن السادس عشر وهى التى عمقت المذهب الشيعى الجعفرى أو الأثنا عشرى وجعلته مذهب الدولة. ونشأت بينها وبين الدولة العثمانية التى تمثل السنة وتتبنى مذهب أبى حنيفة حروب طاحنة أو هنت الفريقين. وفى عهد الصفويين نشأت الأساطير الشيعية التى أصبحت مآثورات المذهب الشيعى ودعمها الصفويون لتعميق تميزها عن الدولة العثمانية.

وتدهورت الدولة الصفوية وقامت على أنقاضها الأسرة القاجارية وهى من التركمان.. وحكمت إيران فى الفترة التى تعرض فيها العالم الإسلامى بأسره للاستعمار الأوروبى ووقعت إيران ما بين الاستلحاق الروسى الذى انتزع مناطق كبيرة منها وألحقها بروسيا والأطماع البريطانية التى هيمنت على الاقتصاد وبدأ التغلغل الاستعمارى عندما احتل البرتغاليون جزيرة هرمز سنة ١٥٠٧ وبدعوا بتوسيع تجارتهم مع إيران كما كانت الشركات الهولندية من أوائل الشركات التى حصلت على امتيازات تجارية فى إيران، تبعها البريطانيون، إذ حاولت شركة الهند الشرقية السيطرة على تجارة الحرير، واستطاعت فى عام ١٥٧١ أن تحتكر كل تجارة الحرير الإيرانية. ونشبت فيما بعد منافسة حادة بين هولندا وبريطانيا، إذ حصلت هولندا على امتياز يبيح لها الاحتكار التام للتجارة الخارجية الإيرانية (التصدير والاستيراد) وذلك فى عام ١٦٢٣.

أما روسيا القيصرية التي تأخر فيها النمو الرأسمالي، فقد بدأت سياستها الاستعمارية ضد إيران في القرن الثامن عشر، ولم تلبث أن فرضت اتفاقيات مجحفة على إيران، وخاضت معها حروباً غير متكافئة كانت دائماً وسيلة تهديد وضغط على البلاط الإيراني الضعيف. ففي عام ١٧٢٢ فرضت روسيا اتفاقاً ضمت بموجبه مدينتي دريند وباكو وملحقاتها حتى سواحل بحر الخزر، وفي عام ١٧٨٣ وضعت روسيا منطقة كرجستان تحت سيطرتها وحمايتها.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، تركزت المنافسة الاستعمارية من أجل السيطرة على الاقتصاد الإيراني بين بريطانيا وروسيا القيصرية، إلى أن عقدت اتفاقية "تركمان جاي" عام ١٨٢٨ التي قسمت البلاد إلى منطقتي نفوذ: بريطانية في الجنوب وروسية في الشمال، وذلك لقاء حصة قيمتها (٥ %) فقط من الرسوم الجمركية تدفع للدولة المركزية^(٥١).

وفي مارس ١٨٩٠ منح ناصر الدين شاه امتياز احتكار التبغ الإيراني وبيعه في جميع أنحاء إيران وخارجها لشركة بريطانية لمدة خمسين عاماً، وكانت الاتفاقية تسمى الاقتصاد الإيراني ومصالح مئات الألوف من المزارعين والتجار لهذا عم الاستياء واستصرخ السيد جمال الدين الأفغاني المرجع الديني الأعلى المرزا أحمد حسن الشيرازي الذي أصدر فتوى بتحريم التبغ فلبت الجماهير نداءه. ووصلت مقاطعة التبغ قصر الشاه نفسه. واضطر الشاه إلى التراجع. وكان هذا أول انتصار حقيقي للحركة الوطنية الإيرانية على الاستغلال الأجنبي ومهد السبيل للثورة الدستورية.

وتركزت المطالبات الشعبية حول تقليص سلطان الشاه وإجراء إصلاحات اقتصادية جذرية. وفي سنة ١٨٩٦ اغتيل الشاه ناصر الدين (قيل من قبل أحد اتباع جمال الأفغاني) وارثي العرش مظفر الدين شاه الذي اتسم حكمه بالتنازلات لروسيا حيناً وإنجلترا حيناً آخر مما عمق التغلغل الأجنبي والسيطرة على الاقتصاد الإيراني "وحدث وقتئذ أن نشرت صورة لأحد المستشارين الأجانب في إحدى الحفلات التكريية بملابس رجال الدين وفي الوقت نفسه فإن السلطة قمعت بعض التجار في إحدى المظاهرات بعنف ووضعت أرجلهم في "الفلقة" فثارَت الجماهير وبدأ أول تحصن "بست" أي لجوء جماعي إلى أحد مشاهد آل البيت في إيران ففي ١٣ ديسمبر ١٩٠٤ تحصن عدد كبير من رجال الدين والتجار في مشهد الشاه عبد العظيم (أخي الإمام موسى الكاظم) مطالبين بإقامة دار للعدالة، كان عاشوراء في تلك السنة يوافق السابع من مارس ١٩٠٥، وسرعان ما اتضح الوجه الديني للحركة من انضمام اثنين من كبار علماء الدين إليهما هما سيد محمد الطباطبائي وسيد عبد الله البهبهاني، وسمى هذا التحصن بالهجرة الصغرى، وفي ١٢ يناير ١٩٠٦ أعطى الشاه وعداً بالاستجابة لمطالب الأمة، لكنه لم يف بوعده، كما بدأ عين الدولة من ناحية أخرى في اضطهاد كبار رجال الدين وتفريقهم فنفي آقا سيد جمال وتصدى لعدد من الطلاب الدينيين وقتل بعضهم كما قُتل سيدان والقرآن في أيديهما وأُخلى الشوارع وركز فيها قوات الجيش بينما ظل عدد كبير من الناس متحصنين في "مسجد شاه" ووجه سيد طباطبائي خطاباً شديداً إلى عين الدولة "أين العهود والوعود؟؟ تعلمون جيداً بأمور الدولة الخربة وتعلمون أن صلاحها ينحصر في تأسيس مجلس نيابي يوحد بين الحكومة والأمة مع العلماء" وفي ٢١ يولييه ١٩٠٦ بدأ التحصن الآخر، وخرج التجار فتحصنوا في معسكر كبير أمام السفارة البريطانية بينما زحفت العناصر الدينية في جموع كبيرة على

(٥١) انظر تاريخ الحركة الثورية في إيران. فاضل رسول ص ١٢.

مدينة قم "الهجرة الكبرى"، كانت الحركة شاملة ومنظمة كما كان من العسير جداً على قوة البوليس أو رئيس الوزارة أن تتصدى لها، ويشوه بعض المؤرخين الحركة بأنها كانت من تدبير السفارة البريطانية ضد النفوذ الروسي، لكنه زعم واضح الافتعال ولم يجد مظفر الدين شاه بدأ من الرضوخ، فأصدر فرماناً بتكوين مجلس نيابى منتخب وسرعان ما تمت الانتخابات وافتتح أول مجلس نيابى (٧ أكتوبر ١٩٠٦) ونظرة فاحصة إلى أعضاء هذا المجلس تبين كيف أن الجناح الدينى قد اجتاح الانتخابات بنجاح كبير. ولم يلبث مظفر الدين شاه أن توفى فى أول يناير ١٩٠٧ وتولى مكانه ابنه محمد على قاجار عرش السلطنة" (٥٢).

ولى محمد على عرش السلطة وكان عدواً لدوداً للديمقراطية قدر ما كان عميلاً لروسيا فهاجم المجلس بفرقة القوزاق التى كان يشرف عليها ضباط روس وقصفوا المجلس وقبضوا على من وجدوه من أعضائه فتحركت الجماهير فى تبريز وأصفهان وكيلان وغيرها وزحفت على طهران ولما لم ينجح فى قمع هذه الحركة التجأ فى ١٦ يوليو سنة ١٩٠٩ هو وخمسائة من حرسه الخاص إلى السفارة الروسية بعد أن وضع يديه على مجوهرات الأسرة المالكة.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كانت كل المعسكرات المتقاتلة تتصارع على أرض إيران. كان هناك الإنجليز والروس والألمان والأتراك أيضاً مما أدى إلى ظهور الثورات فى بعض المناطق مثل جيلان (كيلان) وهى المنطقة التى تغطيها الغابات فى الشمال الإيرانى، ومن ثم يطلق عليها ثورة الغابة إذ استطاع إيرانى قدير نشأ نشأة إسلامية ثم تأثر بالأفكار الاشتراكية استنارة الفلاحين فى هذه المنطقة ورزق نصيراً له اتجاهات سوفيتية.. فنجح فى إعلان جمهورية كيلان السوفيتية - ولكن من سوء حظ الجمهورية. أن ثورة أكتوبر نشبت فى روسيا وجعلتها تتخلى (ولو مؤقتاً) عن أطماعها فى إيران فسحبت القوات الروسية التى كانت تناصر جمهورية كيلان مما مكن السلطة المركزية فى طهران أن تقضى عليها. خاصة وقد تولى ذلك قائد جديد برز على الساحة الإيرانية. عرف بالجرأة .

* * *

أيدهم كلما قرب ميعاد عودة الخمينى ورفضوا فكرته فى ضرورة اشتراك كل ممثلى الشعب فى الاحتفال بالخمينى - وقصروا ذلك على رجال الحوزة

وفى سبتمبر سنة ١٩٧٩ توفى طلقانى بصفة فجائية، وأراح ذلك الخمينى من قائد دينى كبير، وفى الوقت نفسه يعارض دائماً الأسلوب الذى انتهجه الخمينى.

وكان هناك مجموعات أخرى من المفكرين والمكافحين السياسيين، القوميين والوطنيين والاشتراكيين. كما أن المنظمة التى قامت بدور كبير فى تعبئة الشعب الإيرانى للثورة. مجاهدى خلق - كانت غريبة على جو "الحوزة" ولها آراء غير تقليدية عن الإسلام.

ولكن...

(٥٢) الثورة الإيرانية (الجذور - الأيديولوجية) للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا ص٤٨-٩٤ طبعة الوطن العربى بيروت ١٩٧٩.

(٥٣) التاج الإيرانى - أسيمه جاتو - مكتبة مدبولى ص٢٢٤ - ٢٢٥.

كان الشخص الوحيد الذى تهيأت له المقومات التى يتطلبها الموقف هو الخمينى.

وقد كان فى حوزة قم من هم أعرق تاريخاً وأكثر علماً وأعظم شهرة من الخمينى. ولكن توفر فى الخمينى الصلابة فى التعامل.. والوعى الثورى بصورة لم تتوفر لدى أقرانه ممن كانوا يؤثرون الاعتدال ويقتعون بنصف الطريق. ويخافون مغبات الثورة. كان الخمينى صلباً لا يلين ومؤمناً بالثورة. ويثبت لنا التاريخ أن الثورة لا تسلم نفسها إلا لمن لا يشرك بها، ومن يدفع مهرها الغالى. وكان الخمينى هو هذا الثورى الذى له من الصلابة والإقدام وعدم الخوف من النتائج ما يجعله يطلب الثورة ويقبل طواعية دفع ثمنها.

وظهر ذلك فى خطاباته حتى لقبوه بمحطم الأصنام وفى دعوته الشعب للثورة وتنديده الصريح بالشاه وسياسته ودعوته الجماهير عدم الالتزام بإحكامه وقراراته، وجاء هذا كله على أسس دينية بينة. ودعا فيها الفقهاء وآيات الله إلى اطراح "التقية" التى كانت أبرز سمات سلبية الشيعة فترة غيبة الإمام وقال التقية حرام، وخاطب الشاه.

- يا سيادة الشاه..

- يا جناب الشاه..

- أيها التعس..

أيها المسكين، خمسة أربعون سنة مرت من عمرك. فكر قليلاً تدبر قليلاً، قدر عواقب الأمور قليلاً
أعتبر قليلاً اتعظ بوالدك.

- جعلوا الشعب الإيرانى أكثر ذلة من كلاب أمريكا إذا داس أحدهم كلباً أمريكياً بعربته لن يسلم من العقاب. حتى شاه إيران لو داس كلباً أمريكياً لن يسلم من المساءلة لكن لو أن طباحاً أمريكياً داس الشاهنشاه فليس لأحد حق التعرض له.

- نريد الحاكم الذى لا يميز بين الناس، الذى ينظر إلى أسرته وإلى الناس نظرة واحدة وإذا سرق ابنه قطع يده، وإذا تاجر أخوه أو أخته فى الهيروين أعدمها لا أن يعدم أحداً من أجل عشرة جرائم من الهيروين فى حين أن أخته عندها الأطنان وتستورد الأطنان لحسابها.
ودعا فقهاء الشيعة..

"التقية حرام، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت. إن التقية تتعلق بالفروع ولكن حينما تكون كرامة الإسلام فى خطر وأصول الإسلام فى خطر، فلا مجال للتقية والسكون.
والله إن من لا يصرخ آثم. والله إن من لا يشكو مرتكب كبيرة.

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الخمينى...

إن الخمينى كان هو الفقيه الذى أخرج النشاط الشيعى من توقعه فى انتظار الإمام الغائب، إلى مجال العمل الثورى بفضل إصراره على نظرية "ولاية الفقيه".

والفقه الشيعي مجمع على أنه لا يمكن النهوض بقضية الحكم ما دام الإمام غائباً. لأن الحكم هو اختصاص الإمام ولا يجوز لأحد مشاركته. وعندما يغيب الإمام فلا يمكن ممارسة مسؤوليات سياسية عليا.

ومن هنا ظهرت فكرة "نيابة" الفقيه وتقبلها بعض العلماء بينما تردد فيها آخرون. ومن تقبلها فإنه حصرها في أداء الواجبات التي لا يستقيم الدين إلا بها، أي القضاء والحدود وصلاة الجمعة.

وعندما أراد الشاه إسماعيل الصفوي إقامة الدولة الصفوية ادعى أنه كان يسير مع مجموعة من رفقائه الصوفية خارجين للصيد في منطقة تبريز، وعندما مروا بنهر، طالبهم بالتوقف عنده وعبر هو النهر بمفرده ودخل كهفاً، ثم خرج متقلداً بسيف، وأخبر رفقائه أنه شاهد في الكهف صاحب الزمان وأنه قال له: "لقد حان وقت الخروج"، وانه أمسك ظهره ورفع ثلاث مرات ووضع على الأرض وشد حزامه بيده ووضع خنجرأ في حزامه وقال له: "أذهب فقد رخصتك".

و ادعى بعد ذلك أنه شاهد الإمام علي بن أبي طالب في المنام، وأنه حثه على القيام وإعلان الدولة الشيعية.

كما أن الشاه طهماسب استقدم المحقق الكركي من جبل عامل الذي كان قد آمن بنظرية الإنابة - ودعاه إلى تبريز ليكون المرجع، وعندما وصل قال له الشاه أنت أحق بالملك لأنك النائب عن الإمام وأنا أكون من عمالك أقوم بأوامرك ونواهيك" وقبل الكركي وأعطى الشاه إجازة لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه باعتباره نائباً عن الإمام المهدي.

ولكن هذه السابقة لم تظفر بتأييد علماء الشيعة لما يمكن أن تسفر عنه من نتائج، وإذا جازت الإنابة فيمكن عندئذ للفقهاء أن يلى الأمور. وإذا جازت الوكالة عن الإنابة فيمكن أن يحكم الملوك ولا يخلو هذا أو ذلك من المخاطر. ولكن الحاج الموقف دعا أخيراً الفقيه أحمد بن محمد مهدي النراقي (توفى ١٢٤٥) لإحياء فكرة ولاية الفقيه وقال بصراحة "كل ما كان للنبي والإمام فيه الولاية، وكان لهم، فللفقيه أيضاً ذلك. إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص أو غيرهما". (عوائد الإمام في بيان قواعد الأحكام).

ولكن تطبيق ذلك عملياً لم يكن متاحاً ولعل الفقهاء أنفسهم لم يكونوا على استعداد له لذلك فقد ظهر الشيخ محمد حسين النائيني في بداية القرن العشرين وأصدر كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" الذي دعا فيه إلى تقييد سلطة الحاكم عن طريق الدستور الذي يجعل الشعب يشارك في السلطة. ونجد عنده أقوى دفاع عن الديمقراطية قدمه آيات الله باستثناء طلقاني الذي سيظهر بعده، وقال "إن الديمقراطية جائزة أو واجبة، من باب مقدمة الواجب، لأن الديمقراطية سبب للرفاه والتقدم والأمن. وكذلك من باب الأحكام الثانوية، وإن النواب خبراء في السياسة وينتدبون لتحديد القوانين الثانوية. ومن باب الأمور العرفية، وإن النواب ينظمون القوانين خارج دائرة الشرع. ومن باب الدفاع عن الوطن الإيراني" (٥٤).

تلك كانت نقله هامة جداً سدت الثغرة ما بين العجز عن ولاية الفقيه. وفي الوقت نفسه ضرورة تقييد سلطات الحاكم حتى لا يتحول إلى مستبد وطاغوت. وكان يمكن أن تتابع لولا أن ظهور رضا شاه العسكري اللفظ طوى هذه الصفحة بحكمه العسكري الذي بسط إرهابه طوال مدة حكمه، ولما أراد ابنه أن يرث هذه السلطات ولم

(٥٤) تطور الفكر السياسي الشيعي: من الشورى إلى ولاية الفقيه: أحمد الكاتب دار الجديد بيروت ص ٤٠٩.

يكن له غشومة وفضاظة أبيه، خاصة في سنواته الأولى - أخذ الفكر الشيوعي يعيد النظر - وعادت مرة أخرى فكرة ولاية الفقيه باعتبارها الحل. وتولاها الخميني بحيث جعلها التطبيق للحكومة الإسلامية، ودعم نظرية ولاية الفقيه بحيث يكون الفقهاء هم الولاة ودلل على ذلك بالفعل والمنطق من ناحية، وحشد من الأخيار عن علي بن أبي طالب أو عبد الله بن جعفر الصادق وتوجيهه المعروف لعمر بن حنظله وغيره. وهذه الأخبار والروايات العديدة هي في نظرنا مما لا تثبت ولا يكون لها مصداقية، ويكون من السذاجة بناء تنظيم سياسي عليها. ولكن يظل المبدأ فإذا كانت الحكومة إسلامية والدولة إسلامية، فليس مما يخالف المنطق أن يكون رجال الإسلام هم قادتها وولايتها.. وقد كان هذا المعنى موجوداً حتى في أيام أسرة قاجار وفي دستور ١٩٠٥ الذي أعلن الدولة إسلامية مذهبيه وأن الفقهاء يراجعون القوانين للتأكد من تطابقها مع الشرع. ولكن الخطوة التي ما كان أحد يستطيعها إلا الخميني هي أنه وحد ما بين الدولة ورجل الدين - وهذا لأن الخميني نفسه كان رجل دولة ورجل سياسة وتوافرت فيه خصائص "بناة الدول" و"قادة الثورات" من ذكاء. وصلابة ودهاء ومرونة وتطويع النصوص تبعاً للظروف وإخضاع الظروف تبعاً للنصوص إلى آخر هذه اللعبة السياسية التي هي أسمرى، وأقسى، وأخطر اللعابات. والتي تتعامل مع المتناقضات بمهارة وذكاء، وليس معنى هذا أنه كان مجرداً من المؤثرات الدينية. فإنه ابن الحوزة، ولكن المقوم السياسي في شخصيته أقوى من المقوم المذهبي. ولهذا استطاع أن يطوع المذهبي وأن يقود الثورة في بحر الهائج حتى يصل بها إلى بر السلام.

وتقصي تاريخه في السنوات الحاسمة من سنة ٦٣ حتى سنة ٧٨ يوضح هذه الخصائص فقد أعلن من البداية رفضه المساومة والمهادنة والحلول الوسطى ولم يقبل في هذا أي وساطة ورفض كل الحلول التي قدمت للإبقاء على الشاه أو غيره فكان في هذا صورة للصلاية والثبات على المبدأ

ثم نرى بجانب هذه الصلاية مرونة وبعد نظر بل ودهاءً لاستقطاب كل المعسكرات له. فعندما كان في فرنسا تحدث عن المثقفين من غير رجال الدين "أحاديث إيجابية في عمومها حيث اعتبرهم حلفاء ودعا أنصاره للتعاون معهم وأشاد بنضالهم ضد القهر والظلم ونهب ثروات الشعب. ووعد الخميني أنه في ظل حكومته الإسلامية المنتظرة، سيتم إدارة القضاء والاقتصاد والمجتمع والحكومة بما يتفق مع آمال هؤلاء المثقفين. وقد أعلن الخميني وقتذاك أن هدفه ليس أن يحكم رجال الدين ولكن أن يوجهوا الشعب إلى تحديد المعايير الإسلامية الصحيحة. ومما لا شك فيه أن مفاهيم الخميني عن الحرية والعدالة كانت غامضة وعامة عن عمد لجذب تأييد قطاعات واسعة من الشعب الإيراني وقواه السياسية. كما كان هناك مدلولات ذات توجه يساري في بيانات الخميني الصادرة في باريس نتيجة تأثير مستشاريه من غير رجال الدين مثل الدكتور أبو الحسن بنى صدر. وورد على لسان الخميني وعود ضمنيه لتحقيق التعددية السياسية والحكم الذاتي للأقاليم الإيرانية والحرية السياسية حتى للقوى اليسارية العلمانية التي شاركت في المظاهرات المعادية للشاه.

"وفي يناير ١٩٧٩، قام بنى صدر وعدد آخر من مستشاري الخميني من غير رجال الدين ببلورة برنامج من ثمانى نقاط. وقد تعهد الخميني في هذا البرنامج بتحقيق استقلال إيران عن الولايات المتحدة، وإنهاء التمايز الطبقي في المجتمع الإيراني، وتحقيق الإصلاح الزراعي وتأميم المشروعات الاقتصادية الرئيسية، وضمان حرية الصحافة والأحزاب وحق الشعب في تنظيم الاجتماعات والمظاهرات، ومساواة الإيرانيين أمام القانون

وتقديم الدعم لكل المناضلين من أجل الحرية فى العالم بأسره. وقد عكست هذه النقاط مطالب مختلف القوى السياسية والاجتماعية فى إيران، بما فيها القوى الإسلامية التقدمية" (٥٥).

وبهذه الطريقة كسب تأييد جماعة مجاهدى خلق القوية التى كان لها خبرة طويلة فى العمل السرى والإضرابات الخ... كما كسب تأييد المتقنين الإسلاميين مثل مهدي بازرجان وبنى صدر وغيرهم مع أن الخط الذى وضعه لولاية الفقيه لم يكن فى الحقيقة يعنى سوى استئثار الفقيه بالحكم طبقاً لمبادئ المذهب. وهو ما يعنى أن مواقفه تلك كانت كلها مواقف "تكتيكية" تطلبتها الظروف. ولكنه بمجرد أن تملك الأمر تماماً فإنه لم يتردد فى إبعاد كل هذه المجموعات، وأطلق على معظمهم لقب "المنافقين" مما يعنى الاستبعاد النهائى لهم.

وحتى بالنسبة لزملائه فى الحوزة، فإنه تقبلهم على مضض ولم يستجب لأى رأى يختلف عما انعقد عليه عزمه. فقد كان رأى آية الله طلقانى انتخاب مجلس من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ عضو يمثل كل القوى والفعاليات فى إيران يكون مخولاً لصياغة مشروع ختامى للدستور. وجاء هذا الموقف لطلقانى متسقاً مع مواقف مجاهدى خلق والجماعات الليبرالية واليسارية والعلمانية. ألا أن طلقانى - نتيجة ارتباطه الطبيعى بمؤسسة رجال الدين الشيعة - أظهر مرونة حول هذه المسألة وتراجع فقبل بترشيح نفسه فى انتخابات مجلس خبراء مصغر مكون من ٧٥ عضو اقترحه أصلاً رجال الدين المؤيدون للحزب الجمهورى الإسلامى. وهو حزب الخمينى، بل حصل طلقانى على أكبر عدد من الأصوات فى انتخابات هذا المجلس.

وكان آية الله منتظرى، الذى رشح لخلافة الخومينى قد حدد فى حياة السيد الخمينى اشتراطاته الفقهية والدستورية للولى الفقيه، سواء من حيث المكانة العلمية والدينية، أو من ناحية التكييف القانونى لاختياره. ففى حين يقضى الدستور الإيرانى بأن أعضاء مجلس الخبراء المنتخبين، من قبل الشعب، يقررون الشخص الذى يملك امتيازاً خاصاً للقيادة، ويعلنون على الشعب باختياره قائداً، أو ينتخب المجلس عدة أشخاص من حائزى امتيازات القيادة ويعلنونهم الشعب باعتبارهم أعضاء مجلس القيادة. رأى العلامة منتظرى أن مجلس الخبراء يسمى للشعب مرشحه للقيادة، لينتخب بالاستفتاء المباشر، لأن القائد، وفقاً للدستور، وبحكم الواقع، يجثم أعلى السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية الأمر الذى يتفق وأطروحات المعارضة الوطنية الليبرالية التى يؤيد منطقها الاحتكام للشعب فى اختيار ممثليه، ففى تلك الحالة تستمد السلطة مشروعيتها من حكم ممثلى الشعب، وهو ما يجسده مبدأ "ولاية الجمهور"، الذى يمكن اعتباره التعبير الشرقى الأقرب لمفاهيم الديمقراطية والمجتمع المدنى (٥٦).

ولم يأبه الخمينى لهذه الآراء وقد توفى آية الله طلقانى فى وقت مبكر - سبتمبر ١٩٧٩ أما آية الله منتظرى فقد أعفى من منصبه وتوترت العلاقات ما بينه وبين الخومينى، واستبعدت فكرة ترشيحه لخلافة الخمينى وحل محله آية الله على خامنئى.

كما أن الخمينى فى قيادته للثورة تغاضى عن كثير من المحاكمات التى حكم فيها بالإعدام على أساس أنه الإفساد فى الأرض، والمحاربة فى حين أن الأمر لا يعدو أن يكون معارضة سياسية. بحيث يمكن القول أنه

(٥٥) إيران صعود وهبوط التيار التقدمى الإسلامى للدكتور وليد عبد الناصر دار المستقبل العربى. ص ٨٦.

(٥٦) الانتخابات الإيرانية - د/ مصطفى اللباد - ص ٣٢ كراسات استراتيجية الأهرام السنة العاشرة العدد ٩٠.

كان أقرب إلى لينين منه إلى الرسول وقد كانت لديه فرصة ليظهر أن الثورة الإسلامية تتبع تقاليد "أذهبوا فأنتم الطلقاء" أكبر مما يتبع تقاليد "لا حرية لأعداء الشعب" الذي وضعه لينين.

إن هذا كله لا ينبغي أن ينسينا أنه قاد مسيرة الثورة في سنتيها الحرجتين ٧٧ و ٧٨ قيادة تكشف عن مهارة ودهاء.. وقد شجع المظاهرات والخروج إلى الشوارع بقدر ما لجأ إلى الدعوة إلى الإضراب. ومن النادر أن نجد زعيماً ثورياً إسلامياً تفهم الإضراب ودعا إليه واستفاد منه كما فعل الخميني.

كان الشاة يتخبط وحاقت به أخطاؤه وحن الوقت ليدفع الثمن. ومع هذا فقد حاول بكل قوة البقاء على العرش، ولعله استعاد ذكرى قومة الشعب أيام مصدق وكيف خلع. ثم عاد منتصراً بفضل مؤامرة الـ C.I.A. ولكن المأساة كانت قد قاربت فصلها الأخير.. ولم يبق معه إلا مجموعة من الضباط الذين تدرّبوا في الولايات المتحدة. واستفادوا من العهد ولم يكن لديهم من المشاعر ما يسمح لهم بالتجاوب مع الشعب. ومع هذا فقد ثار سلاح الجو، واضطرت القيادات العسكرية الأخرى إلى التزام الحياد حتى اكتسحتها الثورة والحرس الثوري فهرب البعض وقتل البعض الآخر وأصدرت عليه المحاكم الثورية أحكام الإعدام. وارتأى آخر رئيس للوزارة في عهد الشاه وهو بختيار أن يغادر الشاه طهران في إجازة لتتقيه الأجواء وأن يتولى الحكم في غيبته مجلس وصاية، فهلاً تذكر هذا الطاغية فاروق الذي كان كل أمه أن يكون له وريث وطلق زوجته في هذا السبيل.. وعندما جاء الوريث كان العرش قد طار.. وأصبح وريثه شريداً في الأرض.. وذهب هو وملكه في أمم قد خلت ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾. {٢٩ الدخان}.

* * *

وصف شاهد عيان اليوم الذي عاد فيه الخميني..

" كل المدن والشوارع والحواري زينت بالورود ونثرت فيها أطنان النُقل. كل مكان غرق في السعادة، كل الشفاه مبتسمة، كل مكان زين بالمصابيح فجعلته يلمع بضوء كضوء الظهيرة، كل العيون حتى عيون السيارات تتألق... كل شخص يبتسم حتى الجنود والحراس... لا أدري في أي دولة وفي أي عصر صارت أمة ما سعيدة مبتسمة إلى هذا الحد. لكني أعلم أن الإيرانيين لم يكونوا هكذا سعداء مرحين منذ قرون. لم أر في حياتي إيرانياً سعيداً إلى هذا الحد، لم أكن قد رأيت قط رجلاً أو امرأة من هذا الجنس الممتحن ضاحكاً إلى هذا الحد... وبالنسبة لأمة أحنث ظهرها لقرون متتالية تحت سياط أكبر جباري المشرق من جنكيز خان إلى آقا محمد خان ومن تيمورلنك إلى محمد رضا بهلوي وهي جريحة متألمة، ولو أنها تنفست لفترة تكون فترة قصيرة جداً وعابرة.. ومع ذلك لا تزال تحلم بسلطان عادل، وبالنسبة لأمة مبتلاة تنتظر لمدة ألف سنة ظهور الإمام الغائب حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وبالنسبة لعرق عظيم أنتج واحدة من أكثر الثقافات حرية وإنسانية على وجه الأرض وهو يعيش أسيراً في أكثر أغوار التاريخ ظلمة، أية حادثة يمكن أن تكون أعظم وأكثر إعزازاً وأكثر بعثاً للروح من أن يقوم رجل من بين أكثر المظلومين تعرضاً للظلم، وهو في نفس الوقت طاهر الجبلة ومتواضع وزاهد ومتقى وفي نفس الوقت عنيد ومناضل وصامد، ويأخذ حق هذه السنوات الألف من ظالم، ويصمد كل هذا الصمود، ويقاوم كل هذا القتال حتى يجتث آخر جذور الظلم من هذا الوطن العزيز" (٥٧).

(٥٧) الثورة الإيرانية - الصراع - اللحمة - النصر للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا دار الزهراء. ص ٣٣١.

هكذا كانت طهران يوم الخميس ١٢ بهمن (أول فبراير ٧٩) يوم عودة الإمام".

"وتصف مجلة "طهران مصور" الصادرة يوم الخميس ١٢ بهمن بعد الظهر من وصول الإمام قائلة: "نزل الإمام من الطائرة، واحتضنه ضباط الطيران وكأنهم سد حوله بحيث تبادر إلى الذهن أنهم يريدونه لأنفسهم فقط ويريدون أن يحرّموا الآخرين منه، الضباط الكبار والضباط الصغار وصف الضباط، كانوا قد نسوا تماماً تسلسل الرتب، كان كل واحد منهم يجاهد بدوره في المحافظة على الإمام.

لم يكن الحب فقط هو الذى فكرت فيه الملايين التى خفت للقاء الإمام فى طهران فى يوم لم يكن له مثيل فى تاريخ إيران.. أجل، كانت الثورة الناضجة قد تعلمت من تجارب السنين.. وكانت قمة نضجها فى الاستعداد لكل ظروف ولكل خيانة، وفى نفس يوم وصول الإمام كان ميلاد حرس الثورة "باسدران انقلاب"، كان الحرص البالغ فى الحصول على السلاح فى سبيل أيام منها هذا اليوم المشهود... كانت المدينة خالية من قوات الجيش وقوات الشرطة.. ومع ذلك كان هناك أكثر من سبعين ألف من المسلحين احتلوا شوارع طهران من المطار وميدان شهيد (الذى سمي ميدان الحرية منذ ذلك اليوم). شمالاً وحتى جبانة بهشت زهرا فى الجنوب، وفى اليوم الأول لنزول الإمام طهران فعل ما لم يكن يجرؤ الشاه على فعله طوال فترة حكمه خاصة منذ ٥٣، فقطع شوارع طهران التى لم تشهد فى تاريخها مثل هذا الجمع فى عربة، قطع المدينة لا فى صورة الغازى الذى يستعرض فتحه، وليس فى طريقه إلى قصر السلطان، بل كإمام ورع زاهد جنّد اعنى نظام عرفه التاريخ المعاصر، متوجهاً من المطار إلى بهشت زهرا حيث دفن شهداء الحرية يصلى عليهم ويدعو لهم ويذكر تضحياتهم التى لولاها ما كان ذلك اليوم".

هذا الحب للإمام الخميني، وتلك القيادة الذكية الناجحة للثورة. وإيمان الشعب الإيراني بها كلها بقدر ما توضع فى مصلحة الثورة، بقدر ما تلقى عليها مسئولية أثقل من مسئولية الثورات أو التجارب الأخرى لإقامة حكم إسلامي. فهنا تهيأت الأوضاع تماماً. فهل أفلحت التجربة وحققت الآمال؟.

الفصل الثانى عشر جماعات الرفضة الجديدة

- ١ -

جماعة التكفير والهجرة

قدمت كتابات المودودى وسيد قطب الأساس الفكرى لتلك المجموعات التى أطلقنا عليها "الرفضة الجديدة".

وحدث هذا فى معتقلات عبد الناصر ورفع رايتها "شكرى مصطفى"

وتحدث أحد رفاقه فى السجن عن تطوره الفكرى خلال فترة الاعتقال فقال :

"فهذا الشاب الطالب بكلية الزراعة جامعة أسيوط قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعذب مثل الآخرين، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاوز فى زنزانة، ولم يشملنا تحقيق واحد، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنا. لم اقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث، وفوجئت أنه لا يعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك. وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى، وكان هذا أدهى لأحاديث الكثيرة بيننا، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا؟ ولماذا؟ وما هو الجهاد فى سبيل الله؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها؟ وما معنى دين ودولة؟ ومصحف وسيف؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذلك فهو مهرج مع المهرجين، ضاحك من الضاحكين فى مرح بالغ، ولا يظهر اهتماما كثيرا بشئون السياسة. وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه، وتزوج أبوه امرأة أخرى، وتزوجت أمه رجلاً آخر، وهو لا يدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه، وكان كثيراً ما يتندر بهذه الحالة، ويقول ضاحكاً :

هذا الاعتقال قد حل لى كثيراً من المشكلات.

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦، وطلبنا أن نمثل مسرحية، ووافقت الإدارة، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيراً وبين لنا ما فيها من إسقاط سياسى، وكتبت بتشجيعه مسرحية "البعد الخامس" ولكن هذه قصة أخرى.

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية، ولم يكن أيضاً من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التوضيح فى سبيله، وكان يسأل ليعرف، ثم انتابته حالة لم تلتفت نظر أحد فهى كثيراً ما تحدث، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية، فهو يصمت ويستمر فى

الصمت حتى إنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرّة، واقتربت منه أيامها وكنت وأنا الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب، ويكتفى بالقعود على بطانيته محديقاً فى لا شىء ويأكل فى موعد الطعام، ويصلى مع المصلين، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لا يخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيداً فى العنبر متأملاً محديقاً حتى يعود الناس، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا، فانضم إليهم وصار واحداً ممن يقومون الليل.

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كتب أحاول أن أدرك ما يفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذى رفض فيه التوقيع على التأييد، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحاً ثرثاراً كما كان من قبل.

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملاً متعجباً أحاول أن أفهم فينغلق علىّ الفهم، ورأى واقترب منى وجلس بجانبى.

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلّة عدد من فيه - وقال لى بشوشا :

- لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد^(٥٨).

- فى الحقيقة نعم.

- تريد أن تعرف السبب.

- قلت له ملحاً: لو سمحت.

وتتهد شكرى مصطفى تتهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحة وبدا جاداً صارماً.

قد رأيت ما حل بنا، وما فعلته حكومتنا معنا، استباحنا أبناءها وضربتهم بالسياط، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والأطفال، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان، فى السجن الحربى كنا سوياً، وضعونى مع الزعماء ولست كذلك قد عرفت بنفسك، لقد سمعت منك قصة الإسلام بالتفصيل، لم اسمعها من قبل - وكلما ازددت معرفة ازددت غيظاً. وأظن أنه إن لم تواتنى الفرصة للمعارضة وإعلانها لمت كمداً. أقل ما نفعه لحكومة مثل التى تحكمننا أن نظهر احتقارنا لها. هذا أقل ما ينبغى على فعله. ولو استطعت أكثر من هذا ما ترددت^(٥٩).

وبعد هذا بمدة نرى شكرى مصطفى، وهو لا يقف عند هذه الدرجة. لأن سياسات الحكومة وتصرفات السجانين تدفعه نحو التطرف، ونحو الإصرار.. والمضى إلى آخر المدى.

وقد يصور ذلك هذا المشهد الذى رواه مؤلف "البوابة السوداء".

".. وجاء حسن طلعت ببذلته "الموهير" اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريرى، وبجذاء "ساكسون" وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسيه أنيقاً جميلاً بهى الطلعة، كأنه مصنوع فى

(٥٨) هذه كانت خطابات أو تلغرافات تطلب إدارة المعتقل من المعتقلين إرسالها للحكومة تأييداً لها فى مناسبات ما. ولم يكن

ليرى بعض المعتقلين ضيراً فى هذا. بينما يرفض البعض الآخر ومنهم شكرى مصطفى، ذلك رفضاً قطعياً.

(٥٩) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص ٣٩٩ - ٤٠١.

مصنع، وبدأ حديثاً سقيماً سخيلاً، تحدث فيه عن عظمة الإله - إلهه هو - الزعيم الذى لا يقهر، وكيف نجاه الله من المهالك، وكيف تغلب عليها وما زال يحكم ويأمر وينهى ويقتل ويحيى ويميت ويفعل بالعباد ما يشاء. كنا جلوساً أمامه على الأرض بملابس الاعتقال المصنوعة من "الخيث" والكل مستغرق فى أفكاره وقال :

تأمرتم عليه بتحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم تفلحوا فجاء غزو سنة ١٩٥٦ لإنجاح ما فشلتم فيه ونجاه الله وتأمرتم عليه فى ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو ١٩٦٧ لإنجاح ما فشلتم فيه، ونجاه الله. ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لا يموت ؟.

وتتمم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف.

- سبحان الحى الذى لا يموت.

وقال حسن طلعت الذى سمع تتمته :

- ماذا تقول ؟.

وانفجر الشيخ عارف :

- ألا تستحى أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟.

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم بالفتك بمن يتمرّد، وصوبت الرشاشات، وكل من الجالسين أعزل لا يحمل سلاحاً إلا "شيشب" قديم متهرئ يضعه فى رجليه، ويصعب استخدامه فى الضرب، وأشار حسن طلعت إلى الحرس فى شجاعة أن كفوا، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه :

- ظلتم الإخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم الله عام ١٩٥٦، وظلمتموهم فى عام ١٩٦٥ فمسح الله بكم الأرض عام ١٩٦٧، وجعلكم سخرية العالم، ولو كان عند الرئيس كرامة لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص. ولو كان عندكم إحساس ما قلتم هذا الكلام.

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاماً شبيهاً من هذا، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء، يرقبون ما يدور ولا تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون.

ثم قام إليه شكرى مصطفى ووجه كلاماً سريعاً حاسماً قاسياً كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكى حديث الصنع.

أنت كافر. ورئيس جمهوريتك كافر. ولئن أحيانى الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً، ولئن مت فسوف يأتى من بعدنا من يقضى عليكم ويدين دولتكم. ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينج أحد منكم يوم القيامة".

قضى الأمر. ومن هذه اللحظة لم يعد هناك رافة أو مهادنة، واستقر رأى شكرى مصطفى وأصبح الشىء الوحيد الذى يكرره.

"والله لئن كتب الله لي الخروج من هذا الجب لأقاتلهم قتالاً ضرورياً بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيداً.." (٦٠).

وقد كان...

فعندما خرج شكري مصطفى. أسس الهيئة الرائدة فكرياً وعملياً من هيئات الرافضة الجديدة.

إذا كانت هذه هي المرحلة الأولى في تطور شكري مصطفى، فلا بد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادئ المودودي وسيد قطب مبدأ "التكفير"، و "مجاهدة الجاهلية" أو "الهجرة" كما تعلق بفكرة "الخلافة" وكتب كتاباً عنها. وفي النهاية أسس الجماعة التي أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم "جماعة التكفير والهجرة" ومع أن "أخبار اليوم" قلما تصدق وإنما تبغى الإثارة دائماً، إلا أنها في هذه التسمية رزقت الصدق وكيفت الهيئة تكيفاً حقيقياً..

ولما لم يكن لهذه الهيئة، ولا لأى هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية، أو فكر أصولي حقيقي فنحن لا نتابع التطور أو نتقصى التاريخ، وإنما نلم بأبرز القسامات والتطورات في كل هيئة.

ومن أبرز ما اتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكري مصطفى من واقع أقواله (٦١) أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧) والتي نشرت في الصحف يوم ٢١/١٠/١٩٧٩

- إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعاً.

- إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

- إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كي يكون المسلم مسلماً، ونرفض ما ابتدعه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل الله، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلماً.

- إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافراً.

- الإسلام الحق هو الذي تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط - وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن.

وبطلان بعض هذه المبادئ ظاهر لا يحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشرين أو ثلاثين شاباً أن جماعته هذه هي وحدها - دون كل الجماعات الإسلامية، والمسلمين عامة - هي التي تمثل الإسلام حقاً، وأن كل ما عداها ضال بما في ذلك جماعة "الإخوان المسلمين" التي تعلم فيها أول ما تعلم، و "الجماعة الإسلامية" في الهند التي يتفق هو نفسه معها في كثير مما ادعاه، وجماعة "الفنية العسكرية" التي سبقتهم على الطريق.

نقول لا يدعى هذا إلا إذا وصل به الغرور درجه أعمته عن كل آثاره من الاتزان والموضوعية.

(٦٠) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص ٥٧٣ - ٥٧٤.

(٦١) من كتاب ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة): عبد الرحمن أبو الخير. دار البحوث العلمية الكويت ص ٩.

وقد كان لشكري مصطفى شخصية قوية ونفوذ مؤثر على أتباعه.. وكان يهيمن عليه هو نفسه مزاج عصبى جعل معاييره ذاتية خالصة.

من ناحية أخرى فإن فكرة رفض أقوال الأئمة (أئمة المذاهب) ورفض الإجماع والقياس هي أفكار واردة وقابلة للدراسة، ولم ينفرد بها شكري مصطفى.

- إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس..

ومن أئمة المسلمين من قال إن أول من قاس هو إبليس!..

ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع..

أما أفكار التكفير، وإقامة الخلافة... فكلها أطياف من الهوس والهذيان..

وقد فهمت سلطات الأمن نفسية شكري مصطفى ونقط الضعف فيه والعوامل المؤثرة عليه، وتبينت أن المبادئ المزعومة والتي هي طابع دعوته إنما هي دلالة على السطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على أتباعه.

ولكنه في الحقيقة على نقبض شدته وتعصبه وشنآن عداوته مساوم لا يرفض أى صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة.

وقد توصلت سلطات الأمن إلى هذا إما عن دراسة لنفسيته أو نقلاً عن بعض أعوانها الذين غرستهم في صحابته.

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعة عندما سأل شكري مصطفى أحد صحابته: هل لو وجد اليهود [الذين يسيطرون على العالم في رأيه] مصلحة لهم في إقامة الخلافة فهل يقيمونها.. فرد عليه: إنهم إذا وجدوا الرجل الذى يحقق لهم أغراضهم عن طريق الخلافة فإنهم يقيمونها.

ومن هذه الفكرة نبتت فكرة: "العمل من خلال خطة العدو".. وتضخمت حتى وصلت إلى مستوى "الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية"، وأنه إذا كانت هناك عملية يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤% فيها ويكسب العدو ٤٦% منها فيجب أن تؤدى!..

وعندما حاول أحد الأعضاء الاعتراض وإيضاح أن هذه لن تكون سوى صفقة خاسرة، فضلاً عن مخالفتها لأسس الجماعة التي ترفض التعاون مع الجاهلية، وأنهم فى النهاية سيستثمرون قال أحدهم: "قبلنا أن نستثمر.. قبلنا أن نستثمر!"^(٦٢).

وكان الطعم الذى قدمته السلطات ادعاءها أنها فى حاجة لمثل هذه الهيئة التى تدعو إلى الهجرة وتصرف الشباب عن المناهج الانقلابية، وأنها مستعدة لدفع تعويض عما نال أعضاءها فى الماضى وطلبت إليهم رفع قضية للحصول على التعويض المناسب، وفى مقابل ذلك يقوم شكري مصطفى وصحابته بالقضاء على بقية "الفنية العسكرية" خاصة بعد أن أوقعت بينهما فتنة.

(٦٢) المرجع السابق ص ٥٩.

وبهذه الطريقة شنت الجماعة حملة على عناصر معينة فى المعصرة والإسكندرية.. وقبض إثر هذه الغارة على سبعة عشر من أعضائها البارزين؛ ولكن هذا لم يثن الجماعة عن أن تمضى فى خطتها لتقع فى الطعم الأكبر..

هذا الطعم هو اختطاف الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف الأسبق والشيخ العالم الجليل، ومطالبة السادات بمبلغ مائتى ألف جنية والإفراج عن المسجونين.

وكان الشيخ الذهبى على وجه التعيين هو آخر من يجوز لهذه الجماعة المساس به لأنه كان أحد العاملين على إصلاح جهاز الدعوة والدعاة والمنتقدين للوسائل التى تقوم عليها..

ولكن كان هناك عامل غلب على أى عامل آخر لدى شكرى مصطفى ذلك هو رغبته المحرقة فى "البلاغ".

أى توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بأى ثمن..

ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا..

وبالفعل فإن كل أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون؛ لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله أذاعت النبأ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة

ولكنها تحدثت عنها كعصابة مهووسة.. مجنونة!!.. خاصة بعد أن قتلوا الشيخ وعذبوه فيما قيل..

وقد أكد هذه الفكرة (فكرة أن اختطاف الشيخ الذهبى كان لكى يتم البلاغ!!) أحد صحابة شكرى مصطفى المقرئين^(٦٣).

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة؟!.

إن شكرى مصطفى فى فعلته تلك أسوأ من مجنون الشهرة الذى أحرق المعبد لكى يشتهر، فقتل إنسان.. أسوأ من إحراق معبد.

الغريب والذى يصور مدى انفصام شخصية شكرى مصطفى وغلبة الهوس على عقله أنه كلف أحد أتباعه بكتابة بحث عن الإخوان جاء فيه إن حسن البنا ماسونى!!.

وقدم شكرى مصطفى هذا البحث بكلمة اتهم فيها "بالخيانة العظمى"! قادة الإخوان المسلمين الذين قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا فى أعناقهم وأسلموهم لجلاديهم والمشانق والسجون.

فهل تذكر ذلك عندما أودى بنفسه وبخاصة رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٧٨م.

وطويت صفحة "جماعة تكفير المسلمين" التى رأت أنها دون بقية الهيئات هى التى تمثل "الإسلام"، ويغلب أن تكون كل هذه الهيئات أقرب منها إلى الإسلام ولم يبق منها إلا فلول.

حزب التحرير

لا يعرف الجيل المعاصر شيئاً كثيراً عن حزب التحرير، وربما ترمى إلى سمعه ما قد تتناقله الصحف بين حين وآخر، من إشارات عنه. معظمها، كما هو العهد فيما يختص بالإسلام - مشوهة، والحقيقة أن حزب التحرير كان محاولة جادة لوضع صيغة إسلامية شمولية، للنهضة بالأمة. وقد أراد أن يتعلم من الدعوات الإسلامية السابقة عليه وأن يتفادى أخطاءها، ويبدأ حيث انتهت.. ولكن الإطار السلفى التقليدى الذى ألزم نفسه به كان أقوى من الملكات الإبداعية لمؤسسيه، كما لم يكن من السهل تجاوز الظروف السياسية - زمانا ومكانا - التى أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم وكانت جزءاً رئيسياً من استراتيجية وضعت للمنطقة، وحمتها نظم حاكمة ومصالح مكتسبة عاتية. وعندما أراد الحزب الفتى أن يشق طريقه. وجد هذه الأوضاع كالصخرة فى مواجهته، فحاول أن ينطحها - وانطبق عليه البيت المشهور (كناطح صخرة يوماً الخ...) وكان أسوأ مصيراً من الهيئات الإسلامية التى انتقدها وأراد أن لا يقع فيما وقعت فيه.

وإنما اكتسب حزب التحرير صفاته الخاصة نتيجة لملاسات ظهوره وشخصيات قاداته. فقد ظهر بعد نكبه ١٩٤٨ التى عاشها مؤسسوه الفلسطينيون واصطلوا بنارها ودفَعوا ثمنها غالياً فتركوا أرضهم وبيوتهم وشردوا فى البلاد. وكانت هذه الملاسة الدامية هى الدافع المباشر لتكوين الحزب، ومن ناحية أخرى فإن المؤسسين الثلاثة الذين أشرفوا على تكوينه ووضعوا فكرته، تميزوا بإحكام للفقهِ الإسلامى ومن ثم فإن أثر الفقهِ كان بارزاً فى فلسفة وتنظير الحزب. وفى الوقت نفسه فإن متابعتهم للحركات الإسلامية، وغيرها التى شاهدتها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجددون، فعلى سبيل المثال، لعله كان الهيئة الإسلامية الأولى التى تحمل اسم حزب وتعلن أن عمله هو النشاط السياسى، وأنه ليس تكتلاً خيرياً أو ثقافياً الخ...

التكوين والسنوات الأولى :

قام الحزب بفضل جهود مشتركة من ثلاث شخصيات فلسطينية نابهة جمعتها وحدة الثقافة والميول. والابتلاء. هم الشيخ تقى الدين النبهانى والشيخ داود حمدان والأستاذ نمر المصرى.

وقد عايش هؤلاء الثلاثة الأحداث الجسام التى تعرضت لها المنطقة وقوى التغيير التى تحكمت فيها، فلمسوا آثار الإخوان المسلمين التى كانت بارزة فى فلسطين خلال هذه الفترة وألما بنقط القوة والضعف فيها. وشاهدوا تعثر الحزب القومى الذى أسسه فى الثلاثينات أنطون سعادة للعمل على تحقيق "الدولة العربية" فى إطار البيئة الجغرافية (سوريا الكبرى) ومحاولته التليفية فى إيجاد مكان "للمحمدية" - كما أطلق على الإسلام - فى دولته القومية - ثم شاهدوا ميشيل علق وإخوانه - الذين لم يكونوا أفضل من أنطون سعادة إلا قليلاً - وهم يكونون على أنقاض الحزب القومى ومن أشلائه حزب البعث، من أمشاج عربية واشتراكية وإسلامية لتحقيق الوحدة العربية واكتشف الثلاثة ما فى هذه التكوينات من ضعف أو تلفيق.

وفى دمشق تلاقى الثلاثة وأخذوا يتدارسون أسباب النكبة ووضع وقتئذ الشيخ تقى الدين أصول كتاب "إنقاذ فلسطين" الذى ذهب إلى أن النكبة كانت نتيجة قرن من التخطيط الإسرائيلى.. والتدهور العربى. وكان لابد لمجابهة ذلك من إقامة أمة ذات مبدأ يبلور الغاية الواحدة.

وقد وجد الثلاثة أن مبدأ الأمة الواحدة هو "الإسلام" فالمجتمع العربي هو "أمة إسلامية حياة ودستوراً حتى لغير المسلمين من العرب" وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الإسلام للقيام بهذه المهمة التاريخية، بل وتجاوزها إلى دور عالمي مؤثر في حياة العالم بأسره..

وفي عام ٥٣ أرسل مؤسسو الحزب إخطاراً إلى الحكومة الأردنية "بتأسيسهم حزباً سياسياً" وبين اسمه ومركز إدارته وعنوانه ومقاصده والمفوضين بالتوقيع عنه، وأرفقه بالنظام الأساسي.

وفي ٥٣/٣/٢٢ ردت الحكومة بأن الحزب غير قانوني ومنعت القائمين عليه من أى عمل وبررت ذلك بأن الحزب "يحصر الروابط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يدعو للتفريق بين أبناء الوطن الواحد ويخالف حكم قانون الجمعيات، ويلحق بالوطن أفدح الأضرار...".

وفي ٥٣/٦/١ رد الحزب بأنه يعتبر نفسه شخصية معنوية، قامت بالفعل ولا تزال قائمة قانوناً، بغض النظر عن عدم إقرار الحكومة لمشروعية الحزب.

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة. وسجن أعضاؤه البارزون أكثر من مرة. ولكنهم اثبتوا شجاعة وتصميماً. واكتسبوا تأييد قطاعات عديدة. واستطاعوا أن يكسبوا لأحد أعضائهم كرسى النيابة عن منطقة طولكرم في الضفة الغربية..

ولكن هذه البداية المشرقة، الواعدة بنجاح وإنجاز لم تستمر طويلاً، ومع الستينات بدأ الحزب يتقلص. وتضافرت العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية (أى من داخل الحزب) على أن يفقد الحزب جماهيره ويتفوق في مجموعات..

من الناحية الخارجية، فإن كل نظم الحكم في المنطقة أعلنت عليه حرباً شعواء، وهو نبتة صغيرة، وقبل أن يمد جذوره عميقاً في أرض المنطقة. وكان الحزب يعلن عن هويته الإسلامية بكل قوة، وعن الحل الإسلامى كالحل الوحيد. وعن الطابع السياسى له.. وكان هذا كله يهدد النظم القائمة، وينذر بزعتها إذا سمح له البقاء، فتضافرت كل القوى عليه، وأصقت به الاتهامات المزيفة، وزج بقادته إلى السجون.

على أن حزب التحرير وجد في الدول الأوروبية مجالاً خصباً لبذر دعوته في مختلف الدول الأوروبية مستفيدين من الأوضاع الخاصة بهذه الدول التي تمنحه حرية اللجوء والعمل.

دعوة حزب التحرير :

كانت الفكرة التي في ذهن المؤسسين للحزب هي كيف يمكن إنهاض الأمة لكي تجابه التحديات - والتحدى الإسرائيلي أحدها - وتتنصر عليها. وقد انتهى المؤسسون إلى أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا بروح جديدة ترفع الأمة فوق حاضرها التعس ومشاكلها وأوضاعها، وتفجر فيها قوة الإيمان. وبدون ذلك لن تستطيع الانتصار على أعداء أشد قوة وأكثر عدداً، أو اختزال سنوات التخلف أو مجاوزة العقبات والعراقيل.

واستبعد المؤسسون كل أفكار الإصلاح الجزئية (إصلاح الاقتصاد - إصلاح التعليم الخ...) لأن المجتمع كل واحد ولن يمكن النهضة بجانب منه على حدة.

وانتهى المؤسسون أيضاً إلى أن هذه الروح لن تكون سوى - الإسلام فهو "مبدأ الأمة".

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات إسلامية أخرى.

ولكن هذا يتطلب توظيف الإسلام كروح انتهازية، روح تغيير وتطوير، روح اكتساح، كذلك التي تملك المسلمون أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم.

كان المفروض أن يجهد المؤسسون أنفسهم ليقدموا الإسلام ثورياً، انتهازياً، ولكنهم قدموا الإسلام فقهياً سلفياً. فالثقافة الفقهية المتغلغلة في نفوسهم والروح السلفية التي هيمنت عليهم بحكم دراساتهم في الأزهر، جعلت إرادتهم الثورية تبعاً للفهم السلفي. وبالتالي حُبست في قفص الفقه، ووجد المؤسسون أنفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه..

وعندما كانت تحدث فرجه في هذا القفص أو عندما كانوا يسمحون لأنفسهم بالتححرر من الفهم السلفي، كانوا يأتون بتجديدات تشذ عن السياق، ولكنها كانت الاستثناء..

وما من حالة تظهر فيها مأساة الفهم السلفي، وكيف يمكن أن يجهض أى محاولة انتهازية، إذا تطرق إليها كحالة حزب التحرير. فالرغبة المحرقة في الانتهاض والتصدى لقوى القهر والطغيان تقولبت في قالب الفقهى، وفقدت كل ضرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية..

وأصدر الحزب العديد من الكتب، والنشرات والكتيبات شرح فيها فكرة الحزب وعرض أسباب تأخر المسلمين كما يراها وأبرزها عوامل التغطية على فكرة الإسلام مثل :

١. نقل الفلسفات الهندية و"الفارسية" ومحاولة التوفيق بينهما والإسلام. مع وجود تناقض.

٢. دس الحاقدين على الإسلام أفكاراً وأحكاماً ليست منه لتثويبه.

٣. إهمال اللغة العربية التي لا يفهم الإسلام إلا بها.

٤. الغزو التبشيري والثقافي والسياسي من الدول القومية الكافرة..

ويشير الحزب إلى المحاولات والحركات التي أريد بها إنهاء المسلمين وإخفاقها، ويعيد سبب الإخفاق إلى :

(١) عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين على إنهاء المسلمين فهما دقيقاً لتأثرهم بعوامل التغطية، وأنهم يدعون إلى الإسلام بشكل عام مفتوح، دون تحديد للأفكار والأحكام التي يريدون إنهاء المسلمين، ومعالجة مشاكلهم بها، وتطبيقاً، لعدم وضوح هذه الأفكار والأحكام في أذهانهم، جعلوا الواقع مصدراً لتفكيرهم، يستمدون منه تفكيرهم، وحاولوا أن يؤولوا الإسلام ويفسروه بما لا تحتمله نصوصه حتى يتفق مع الواقع القائم، مع أنه مناقض للإسلام، ولم يجعلوا الواقع موضع تفكيرهم، ليغيروه حسب الإسلام وأحكامه.

لذلك نادوا بالحريات والديمقراطيات، وبالنظام الرأسمالي والاشتراكي، واعتبروه من الإسلام، مع أنها تتناقض مع الإسلام تناقضاً كلياً.

(٢) عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم في تنفيذ فكرة الإسلام وأحكامه وضوحاً تاماً، فحملوا الفكرة الإسلامية بوسائل مرتجلة، وبشكل يكتنفه الغموض وصاروا يرون أن دعوة الإسلام تكون ببناء المساجد وإصدار المؤلفات، أو بإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونية، أو بالتربية الخلقية وإصلاح الأفراد، غافلين عن فساد المجتمع، وسيطرة أفكار الكفر وأحكامه وأنظمته عليه، ظانين أن إصلاح المجتمع يكون بإصلاح أفرادهم، مع أن إصلاح المجتمع إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته

وإصلاحها سيؤدى إلى إصلاح أفرادها، فالمجتمع ليس أفراداً فقط، وإنما هو أفراد وعلاقات، أى أفراد وأفكار ومشاعر وأنظمة، كما عمل رسول الله ﷺ لتغيير المجتمع الجاهلى إلى مجتمع إسلامى، إذ أخذ يعمل على تغيير العقائد الموجودة بأفكار العقيدة الإسلامية، وعلى تغيير الأفكار والمفاهيم والعادات الجاهلية بأفكار الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، ومن ثم تغيير مشاعر الناس من الارتباط بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها، إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية، وأفكار الإسلام وأحكامه

وواسطة العقد فى أهداف الحزب هى الخلافة وإعادة الخلافة هى الهم الأعظم وهو يرى أنه ما أن تعود الخلافة حتى يصلح كل شىء.

وفيما يلى آراءه عن بعض القضايا العامة :

الديمقراطية الرأسمالية :

هى مبدأ الدول الغربية وأمريكا وهى مبدأ فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الحياة، "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وبناء على ذلك فإن الإنسان هو الذى يضع نظامه فى الحياة.

وهذا المبدأ هو مبدأ يتناقض مع الإسلام لأن الله هو المشرع.

وهو وحده الذى وضع النظام للبشر، وجعل الدولة جزءاً من أحكام الإسلام، وأوجب أن تعالج جميع شؤون الحياة بالأحكام الشرعية التى أنزلها. لذلك يحرم على المسلمين أن يعتنقوا المبدأ الرأسمالى أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمته، لأنه مبدأ كفر، وأفكاره كفر، وأنظمته أنظمة كفر تتناقض مع الإسلام.

رأى الإسلام فى الحريات :

ومن أبرز أفكار المبدأ الرأسمالى وجوب المحافظة على الحريات للإنسان، وهذه الحريات هى حرية العقيدة، وحرية الرأى، وحرية الملكية، والحرية الشخصية. وقد نتج عن حرية التملك النظام الاقتصادى الرأسمالى المبنى على النفعية، التى أدت إلى الاحتكارات الضخمة، التى دفعت الدول الغربية الكافرة إلى استعمار الشعوب ونهب ثرواتها.

وهذه الحريات الأربع العامة تتناقض مع أحكام الإسلام، فالمسلم ليس حراً فى عقيدته فإنه إذا ارتد يستتاب فإن لم يرجع يقتل، قال ﷺ "من بدل دينه فاقتلوه"، والمسلم ليس حراً فى رأيه، فما يراه الإسلام يجب أن يراه، ولا يجوز أن يكون للمسلم رأى غير رأى الإسلام.

والمسلم ليس حراً فى الملك، ولا يصح له أن يملك إلا ضمن أسباب التملك الشرعية، فليس حراً أن يملك ما شاء بما شاء بل هو مقيد بأسباب التملك فلا يجوز أن يملك بسواها مطلقاً فلا يصح أن يملك بالربا، أو بالاحتكار أو ببيع الخمر أو الخنزير، أو ما شاكل ذلك من طرق التملك الممنوعة شرعاً. فإنه لا يجوز أن يملك بأى طريق منها.

والحرية الشخصية لا وجود لها فى الإسلام، فالمسلم ليس حراً حرية شخصية، بل هو مقيد بما يراه الشرع، فإذا لم يقم بأداء الصلاة أو الصيام مثلاً يعاقب وإذا سكر يعاقب وإذا زنا يعاقب، لذلك فالحرية الموجودة فى النظام الرأسمالى الغربى لا وجود لها فى الإسلام، وهى تتناقض مع أحكام الإسلام تناقضاً كلياً.

وإذا كان هذا هو حظ الديمقراطية بحرياتها، فلا ريب أن النظام الشيوعي أسوأ فهو "مبدأ كفر وأفكاره كفر، ونظامه نظام كفر، وهو يتناقض مع الإسلام تناقضاً كلياً وجذرياً في كلياته وجزئياته" والنظام الملكي في الحكم ليس نظاماً إسلامياً وكذلك النظام الجمهوري سواء كان رئيسياً كالولايات المتحدة. أو نظاماً برلمانياً كما هو حاصل في ألمانيا الغربية. والنظام الإسلامي الوحيد هو "الخلافة".

ولا يخالجننا شك أن هذه ليست أحكام الإسلام، ولكنها أحكام الغباء وضيق الأفق وسوء الفهم، وهي تسيء إلى الإسلام أكثر مما يسيء إليه أعدائه.

وكقاعدة عامة. فإن الحزب إما أن يتبع - اتباعاً أعمى ودون ملاحظة للملابسات - أي نص يثبت لديه، سواء كان حديثاً، أو حكماً فقهياً أو أن يجتهد فيما وراء ذلك واجتهاده يميل للتعسف، والتضييق، باستثناء فلتات سنشير إلى بعضها فيما سيلي، وقد وضع عام ٦٣ شرحاً لمواد الدستور الذي يراه بعنوان "مقدمة الدستور - أو الأسباب الموجبة له" في ٤٥٧ صفحة (المواد ١٨٢ مادة) نجد فيه لكل مادة سنداً من حديث أو سابقة من أحكام الخلفاء الراشدين، دون أي نظر إلى متغيرات - ودون أي احتفال بإظهار المبرر الموضوعي وما فيه من دواع تقتضيه الخ...

ومن الفلتات التي تشذ عن هذا الحكم مناقشة طويلة لتحريم الاكتناز المادة ١٣٠ ولو أدبت زكاته، وكذلك تحريم مأجرة الأرض المادة ١٢٣، وفتح باب التعليم للجميع "يفتح مجال التعليم العالي مجاناً للجميع بأقصى ما تيسر من إمكانيات (مادة ١٦٥). وقد اعترف الدستور بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة واستبعد القياس من أن يكون مصدراً للأحكام ورفض إجماع المسلمين، وجلب المصالح ودرء المفسدات ورفض العقل لأن الكلام هو عن الحكم الشرعي أي ما غلب على الظن أنه حكم الله، وهو لا يكون إلا مما جاء به الوحي والعقل لم يأت به الوحي ولذلك لا يوجد دليل لا ظني، ولا منطقي على أن العقل من الأدلة الشرعية فلا يعتبر من الأدلة الشرعية مطلقاً. ص ٥٧ مقدمة الدستور وكذلك رفض الاستحسان والمصالح المرسلة.. وقد أثبت هذا كله بحرارة وقوة وبطريقة توحى أن ما ذهب إليه هو الصواب الذي لا مرأى فيه !!

ورأى كتاب "الفكر الإسلامي" وهو من تأليف أستاذ مصري في الجامعة المصرية، ولكنه من كتب الحزب. أن الرأي الذي يستنبطه المجتهد حكم شرعي على أساس أن الحكم الشرعي هو الرأي الذي يؤخذ من النص، وهو الذي يعتبر خطاب الشارع ومن هنا كان رأي المجتهد خطاباً شرعياً ما دام يستند فيه إلى الكتاب والسنة، أو إلى ما دل عليه الكتاب والسنة من الأدلة الشرعية. وندد الكتاب بالذين يدعون أن الحكم الشرعي هو نص القرآن أو الحديث فقط. ورأى أن ذلك سيوجد مسائل كثيرة لا يوجد لها حكم شرعي وأشفق أن يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذي يراه والحكم الذي يوافق هواه! ويحذر "من أن يترك للعقل أن يقرر ما هي المصلحة، بل يجب أن يقرر ذلك الشرع وحده لأنه هو الذي يقرر المصلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقية" ورأى الكتاب أنه "لا يجوز في حق الرسول أن يكون مجتهداً" ورفض كل ما أورده الفقهاء أو المفسرون من اجتهاد للرسول يخطئ فيه فيصحح الوحي له ذلك.

* * *

إن مأساة حزب التحرير أن هذا الحزب الذي خرج من أحشاء النكبة، وتعرض لمخاض عسير، وحمل صفة "التحرير"، ولم ينقص دعائه الحماسة والإخلاص، أصبح قفصاً محكماً تسجن فيه الجماهير، والأفكار، والإرادات وكل ما يمت بصلة إلى "التحرير" لأن دعائه لم يعملوا عقولهم، ولكن استخدموا نقولهم.

ولم يعمدوا إلى روح الإسلام الحرة الطليقة، العادلة السمحة "العقلانية" في كل شيء، باستثناء ذات الله - وإنما لجؤوا إلى فهم فقهي عقيم كان هو نفسه وراء استخذاء الجماهير.. وضلال القادة..

ومع أن الحزب كان من الذكاء بحيث يستبعد فكرة العمل "الإرهابي" أو "الجهادي" من وسائله، قياساً على أنه يعمل في "عهد مكى" فإن هذا لم يشفع له في البقاء. فحله كان محتوماً، وكان خيراً أيضاً، فإن حزباً يستبعد العقل من تفكيره الشرعي، عدمه خير من وجوده.

ولكن يظل مع هذا أن المشكلات التي أثارها لا تزال هي مشكلات الساحة والساعة وأن الحلول التي عرضها تراود البعض لأنها، على خطأ معظمها. لم تعالج المعالجة الموضوعية من الآخرين. فقد انتقد كتيب^(٦٤) ما ذهب إليه حزب التحرير عندما أباح تقبيل المرأة الأجنبية ومصافحتها.. فبدلاً من أن يظهر الخطأ الموضوعي في ذلك، فإنه أورد للرد عليه كلمة ابن تيمية. "من استحل النظر فقد كفر بالإجماع!!" فعرض صورة أخرى من صور الشطط، ووجهاً ثانياً للعملة نفسها.. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأ. ولكن اجتهاد ابن تيمية أسوأ ويفتح باباً للشرور أشنع مما يمكن أن يفتحه خطأ حزب التحرير.. فما أسوأ أن نفتح أبواب محكمة التكفير، على مصراعيها لكل صغيرة وكبيرة!..

- ٣ -

جماعة الجهاد والجماعات الإسلامية

اشتهرت جماعة الجهاد عندما نجح خالد الاسلامبولي وزملاؤه في اغتيال السادات رحمه الله وسط حرسه وفي إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة.

وبقدر ما رزق هذا الحدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جرأة وشجاعة و"دراماتيكية"، ولما انتهى إليه من مصرع "آخر فراغ مصر" وصاحب "الصددمات والتحويلات" الخ... بقدر ما ذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد.

وسالت أنهار الصحف أحاديث بعد أحاديث عن هذه الجماعة وشيخها الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض: "الفريضة الغائبة" الذي اعتبر وثيقة إعدام السادات ووضع المهندس محمد عبد السلام فرج.

ولم يرزق كتاب "الفريضة الغائبة" انتشاراً أو ذيوعاً لأن الجماعة نفسها أحرقت نسخ الكتاب، ولم يبق منه إلا نسخ معدودة، ضمت إحداهما إلى أوراق التحقيق في قضية اغتيال السادات.. وتمكن بذلك المحامون من الإطلاع عليه.

كتاب الفريضة الغائبة

(٦٤) نعى به كتيب "الدعوة الإسلامية. فريضة شرعية وضرورة بشرية" ص ١١٠ [دار التوزيع والنشر الإسلامية] وفتوى ابن تيمية مقتبسه من "منار السبيل في شرح الدليل على ما ذهب أحمد ١٤٢/٢. أما فتوى حزب التحرير فكان نصها "ومن قبل قادم من سفر رجلاً كان أو امرأة، أو صافح أحداً رجلاً كان أو امرأة، ولم يقم بهذا العمل من أجل الوصول إلى الزنا أو اللواط فإن هذا التقبيل وهذه المصافحة ليسا حراماً، ولذلك كانا حاليين لا شيء فيهما" وجاء في تبرير ذلك "الدخول تحت عموميات الأدلة لأفعال الإنسان العادية"..

قدمت إلينا إحدى دور النشر صورة كتاب الفريضة الغائبة المأخوذة من أوراق التحقيق. وطلبت أن نعلق عليه ونشرته في كتاب باسم "الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل" (٦٥).

وتعرض تعليقاتنا عندما طبع لمضايفات، أدت إلى حذف الكثير منه، وظهرت آثار ذلك في عدم انتظام السياق، وما تخلل الصفحات من بياض..

وقلنا في مقدمة الكتاب :

"غفر الله لصاحب "الفريضة الغائبة" لقد أحاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم، ويضيق بها الحليم، وتتبهم فيها المعالم، وتتمحى المراسم.. فلا عجب إذا زلت الأقلام وطاشت الأحلام.

ومن قبل قتل ليف من المسلمين "عثمان" وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكفروا عليا، وهو من هو، وتقربوا إلى الله بدمه!..

وقد كان العهد قريبا بالنبى ﷺ والقرآن غضا طريا والألفة والمحبة أقرب إليهم وأمثل بهم..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ، ونستعرض الأحداث في القديم والحديث لا نرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة، وما انتهى إليه إلا فصلاً من مأساة التعقيد الاجتماعى عندما تتراكم الأخطاء، وتتشابك التصرفات من حل سقيم أو إرجاء عقيم.

ولا يعد هناك إلا القطع..

ونحن نعذره، ونلتمس له المغفرة، ولا نرى فيما ذهب إليه فكره - على خطئه - شراً محضاً، ولا فى سبيله - على شططه - سوءاً خالصاً.

وإن كنا نختلف معه جملة وتفصيلاً، ونؤمن أنه لو قدر له ولجماعته النصر لاستحلوا دماء كل معارض، ولأخرسوا أصوات كل مخالف ولما رأوا فيه إلا فاجراً كفاراً.

ولكننا نستلهم الإسلام وتوجيهه: "صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك".

كما نؤمن بحرية الفكر، وحق كل كاتب فى أن يكتب ما يمليه فكره كائنا ما كان.. انتهى..

وليس فى كتاب الفريضة الغائبة إلا القليل جدا الذى يعد جديداً على فكر جماعات الرفض فهو يضم

- تقريباً - مقدمة وثلاثة فصول..

فى المقدمة يشير الكتاب إلى أهمية الجهاد وأنه: "السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد" وأن: "طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف" وأن الإسلام مقبل، وأنه سيفتح روما كما فتح القسطنطينية".

وتبدأ الفصول وهى باختصار :

الفصل الأول :

يعالج الفصل الأول "إقامة الدولة الإسلامية" وهذه الإقامة "فرض أنكره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض" والكتاب يثبت وجوب إقامتها بأن الدولة الإسلامية هي أداة الحكم بما أنزل الله وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا خلاف في أن الحكم بما أنزل الله واجب..

ويرى الكاتب أن إعلان الخلافة الإسلامية يعتمد على وجود النواة وهي الدولة الإسلامية. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

ويتساءل الكاتب "هل نحن نعيش في دولة إسلامية" ويرد بفتوى للإمام أبي حنيفة وبعض أصحابه حول دار الإسلام ودار الكفر، ويجزم بأن "الأحكام التي تعلق المسلمين هي أحكام الكفر، وضعها كفار وسيروا عليها المسلمين" وأن حكام المسلمين في ردة عن الإسلام "لأنهم تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وادعوا أنهم مسلمون وقد استقرت السنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي. وأن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق..".

ويجري الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية في هذا الصدد. بل هو يورد مجموعة فتاوى لابن تيمية في هذا الصدد" تتضمن حكم مساعدتهم، وحكم الجنود المسلمين الذين يرفضون الخدمة في جيش التتار، وحكم أموالهم، وحكم قتالهم، وأن قتالهم ليس قتال بغي وحكم من والاهم من المسلمين، وحكم من يخرج للقتال في صفهم مكرهاً الخ...

الفصل الثاني :

يعرض الفصل الثاني "آراء وأهواء" بعض الآراء "لإزالة هؤلاء الحكام وإقامة حكم الله" ويفندها، فهناك من يرى إقامة الجمعيات الخيرية، أو يفضل الانشغال بالطاعة والتربية وكثرة العبادة، أو إنشاء حزب إسلامي، أو الاجتهاد للحصول على المناصب بحيث تملأ المراكز بالطبيب المسلم والمهندس المسلم الخ... ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هي الدعوة فقط وإقامة قاعدة عريضة، وهناك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم.

والكاتب يفند هذه المذاهب كلها بمختلف التأويلات.

الفصل الثالث :

يدلل الفصل الثالث على أن "أمة الإسلام تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال" ومفتاح الفصل أن "هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال. ففي الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار. وأعداء دينه بالسنن الكونية، كالخسف والغرق والصيحة والريح. وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد ﷺ. فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً لهم ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. {١٤ التوبة} أي أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده، ثم بعد ذلك يتدخل الله سبحانه وتعالى بالسنن الكونية، وبذلك يتحقق النصر على أيدي المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى.

وبصدد تفصيل ذلك. يشير الكتاب إلى "الخروج على الحاكم" وهو يستشهد بما ذهب إليه ابن تيمية "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين

وإن تكلمت بالشهادتين". ثم يناقش الفصل نقطة هامة هي "التفرقة بين العدو القريب والعدو البعيد" - وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليه الحرب أولاً الاستعمار.. أو الذين يحكمون بغير ما أنزل الله؟ وهو يرى الثانى. ويرد على من يقول "إن الجهاد فى الإسلام للدفاع فقط" وإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ويرى أنه "قول باطل" ويستدل على ذلك بخطابات النبى ﷺ إلى الملوك وكذلك بآية السيف التى نسخت ١١٤ آية من آيات الموادة والصفح والسماح.

ويفند الفصل بعض دعاوى التى تثبط عن القتال كدعوى أننا نعيش فى مجتمع مكى، ويرى أن "القتال الآن فرض على كل مسلم" وأن الجهاد مراتب وليس مراحل. أما خشية الفشل فإن الله تعالى يعدنا بالنصر وإدعاء عدم وجود القيادة يُستدرك بأن توكل إلى الأحسن إسلاماً..

* * *

من هذا العرض لكتاب "الفريضة الغائبة" يتضح أنه ليس فيه جديد عن مفهوم جماعات الرفضة الجديدة..

فهو - مثلاً - يهيم بالخلافة ويرى أنها ركن من أركان الإسلام. "فمن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

والكتاب يكفر المجتمع الحديث كبقية جماعات الرفض..

ويرفض صور العمل الإسلامى البديلة كإقامة الجمعيات الخيرية، أو التربية الخ...

وهذا ما انتهى إليه قبلهم حزب التحرير، وأشرنا إليه..

وربما كان الجديد فى الفريضة الغائبة هو تعميق قضية "الخروج" على الحاكم، وأن "الحكام المسلمين أولى بالقتال من المستعمرين".

ولا يتسع المجال لتفنيذ هذه دعاوى، فهذا ما قمنا به فى الكتاب، وحسبنا الإشارة إلى النقطة الرئيسية فى جماعات الجهاد وهى "الجهاد".

فحتى لو قصرنا التعبير على أضيق معانيه وهو "القتال"..

فهل يتصور استخدام القتال للقضاء على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله!..

هل سيمكن لأى هيئة أن تؤسس جيشاً كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات؟!..

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات؟..

إن أى دارس لتاريخ الحركات السياسية يتبين استحالة تكوين جيش.. ويتبين كذلك عقم أسلوب الاغتيالات..

"فالقتال" لا يجدى كأسلوب فى اقتلاع الحكام البغاة..

وإذا أرادوا أن يتجهوا بقتالهم نحو الكفرة، وأن يفتحوا روما..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالسيف فى عصر الصواريخ والطائرات الخ... إذا أرادوا حقا

الانتصار فعليهم أن يدرسوا "التكنولوجيا" الحديثة، وأن يعكفوا عليها..

وعليهم أن يعلموا أن النصوص وحدها والعكوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتيلاً، وإنما تفيدهم علوم واكتشافات الأوربيين والأمريكان الكفرة وأهل الجاهلية.

* * *

مع إن هذه الكلمات المحدودة تكفى لنسف فكر جماعة الجهاد، فإن الجماعة واصلت البقاء!.. واكتسب شيخها (الشيخ عمر عبد الرحمن) الذى أفلت من قضية اغتيال السادات شهرة مدوية.. لأن العملية عملية مناخ يتغذى على الأخطاء.. ولأن فساد النظم لا يقل عن فساد الأفكار..

وما ظلت النظم الحاكمة الفاسدة، تتسلح بالإرهاب والديكتاتورية فستظهر أمثال دعوات الرفض على اختلاف صورها..

رغم ما تتسم به من بطلان لأنها رد فعل للفساد، والفساد لا يولد إلا فساداً..

* * *

أدى فرار جزء كبير من قيادات الجهاد إلى الخارج والمحاکمات التى غيبت معظم القادة الذين لم يتيسر لهم الفرار، وما تلى ذلك كله من تطورات إلى أن تستقل مجموعة وتحمل اسم "الجماعة الإسلامية" معظم قيادتها ممن فر إلى الخارج وتعاون فصيل منها مع بن لادن فى مقاومته للغزو السوفيتى لأفغانستان وتحريرها منه كما اشترك فصيل آخر فى البوسنة والهرسك، بينما ظل فريق محدود يعمل "تحت الأرض".

وليس هناك فرق بين جماعة الجهاد التى قامت باغتيال السادات، وبين الجماعة الإسلامية والقاسم الرئيسى بينهما هو فكرة الجهاد ورفض النظم القائمة المستمدة من فكرة سيد قطب عن الجهاد بالدرجة الأولى.

وجاء فى ميثاق العمل الإسلامى الذى وضعته الجماعة الإسلامية :

أن الإسلام جاء ليدخل الخلق كلهم فى دين الله تعالى وشرعه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾..

وجاء أيضاً ليمحو الشرك فى كل صورته من فوق ظهر الأرض "حتى يعبد الله وحده لا شريك له" كما قال صلى الله عليه وسلم.

نعم كان القتال دعوة للتوحيد بنص حديث رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

كان القتال دعوة للتوحيد لأن الإمبراطوريات والممالك أبت بسلطانها ونفوذها أن تسمح لدعوة التوحيد ودعائه بالنفاذ إلى أرض الله وخلق الله بحجة أن هذه أرضها هى، وهؤلاء رعاياها.. فكان لا بد من القتال.

وكان القتال سحقا للشرك بإزالة هذه الطواغيت التى علت تلك المجتمعات حاكمة أمره ناهية، تشرع للناس وتحمل الناس على التحاكم لشرعتها وتجبرهم لها.. رغبة ورهبة.

كان لابد من القتال لإزالة كل سلطان يعبد من دون الله.. لإزالة كل سلطان يقف في وجه دعوة الإسلام.. لإزالة كل سلطان يأبى أن يدخل في دين الله ويستكبر ويرفض أن يذعن ويدفع الجزية، ويصر على أن يعلو ويهيمن.

كان لابد من القتال لإزالة الفتنة.. وسحق الشرك.. وإعلاء شرع الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾..

إن أحد لم يخلق من دون الله.. وإن أحداً لم يخلق مع الله.. لذا فإنه ليس من حق أحد أن يشرع من دون الله.. ليس من حق أحد أن يشرع مع الله. قال ابن تيمية "ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله، لا بين المسلمين، ولا الكفار.. إلا بحكم الله ورسوله" (٦٦).

"إن الناس لم يخلقوا الأرض التي عليها يحيون وعليها تقوم مجتمعاتهم، لذا فإنه ليس من حقهم أن يهيمنوا أو يهيمن بعضهم ليشرع ويحكم ويأمر وينهى من دون الله..

إننا كمسلمين - مأمورون أن لا ندع أى طائفة على وجه الأرض تحكم الناس بغير شرع الله.. فمن أبى ذلك ورفض الإذعان قاتلناه..

يقولون: هذه وصاية منكم على البشرية!!.. نقول: هذه وصاية شرع الله ودينه على أرض الله وخلقته، نحن مأمورون بتحقيقها لصالح البشرية بوصفنا خير أمة أخرجت للناس.

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة فى القلب فقط حتى نقتع بحكايتها باللسان والدفاع عنها بالقلم والبرهان ثم نمضى قائلين: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. لا هذا فهم أعوج مبتور.. إن الإسلام منهج حياة، إنه شرع الله الذى جاء ليسير حياة الخلق.. لذا فنحن لا نكتفى بخطبة أو موعظة نقول فيها "عقيدتنا" وندافع عنها وكفى.. كما أنا لا نقتع بحلقة علم نعلم فيها أو نتعلم بعض المناسك والشعائر وكفى.. بل لابد وأن ننطلق بهذا الدين دعوة باللسان، وحجة بالبيان، ودعوة بالحسنى، وجهاداً بالسيف.. أما اللسان والبيان والحسنى فللقلوب والعقول، فإن آمنت فيها ونعمت، وإن أبت فالجزية والصغار وعلو أحكام الإسلام على الديار، فإن امتنعت واستكبرت وعاندت ولم تسلم لنا القيادة فالسيف والسيف.. حتى تنزاح هذه الطواغيت، وبعد ذلك نقول ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾..

وركاكة وطفوليه هذا التفكير، وأنه ليس إلا عاطفة جامحة، هو مما لا نجد أنفسنا فى حاجة لتفنيده، لا من الناحية الأصولية ولا من الناحية العملية والمنطقية. ويكفى فحسب أن يقول أنهم عكسوا مقصد الشريعة من الجهاد (٦٧).

ونتيجة لاستسلامهم لهذا الفهم السقيم، ولأن القضية أصبحت عداوة ما بين السلطة وبينهم، فإنهم تورطوا فى عمليات اغتيال وتدمير لم تثمر إلا فى تشديد القبضة وإصدار الأحكام بالسجن أو الإعدام عليهم وخنموا هذه التصرفات الطائشة بمذبحة الأقصر التى قتل فيها أكثر من خمسين سائحاً أوريبياً بريئاً جاءوا

(٦٦) ميثاق العمل الإسلامى الصادر من الجماعة الإسلامية وإعداد عاصم عبد الماجد، وعصام درباله وناجح إبراهيم عبد

الله مخطوط مصور بالأوفست بدون تاريخ ص ٨٧.

(٦٧) إيضاح ذلك بقدر من التفصيل فى كتابنا الجهاد..

ليشهدوا عظمة المصريين القدماء ففضت عليهم خسة فئة ضالة نسبت نفسها إلى مصر والإسلام وهم منهما براء.

إن الدوى الذى أثارته هذه المذبحة. وحقيقة أن ضحاياها لا علاقة لهم بالإسلام أو الصراع الدائر ما بين الإسلاميين والحكومة، والإساءة الكبرى التى أوجدتها لمصر واقتصادها. جعلت زعماء هذه الحركة الذين كانوا يقضون السنوات التى حكم عليهم بها يعيدون النظر. وهكذا بعد عشرين عاماً من الضلال والتهور انتهوا إلى خطأ اجتهاداتهم وأعلنوا ما أطلق عليه "مبادرة وقف العنف".

فى الخامس من يوليو سنة ١٩٩٧ وأثناء نظر القضية العسكرية ٢٣٥ فوجئ الحاضرون بأحد الإخوة المتهمين فى هذه القضية وهو يقف فى مواجهة رجال الإعلام ليلقى بياناً مذيلاً بتوقيع القادة التاريخيين للجماعة الإسلامية يدعو الإخوة لإيقاف العمليات القتالية وحقن الدماء.

وكانت هذه المبادرة من طرف واحد، وقيل أن الشيخ عمر عبد الرحمن أرسل يؤيدها من محبسه فى أمريكا وقيل إن آخرين عارضوها، كما أحاطت بها بعض الشبهات فى الداخل. وأصدر "القادة التاريخيون" كما أطلق عليهم عدداً من الكتيبات شرحوا فيها وجهة نظرهم الجديدة تحت عنوان سلسلة تصحيح المفاهيم ضمت :

١. مبادرة وقف العنف ورؤية واقعية ونظرية وشرعية".

٢. النصح والتبين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين.

٣. تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء.

٤. الغلو فى الدين وتكفير المسلمين.

وألفها أسامة إبراهيم حافظ، وعاصم عبد الماجد، وعلى محمد على الشريف وحمدي عبد الرحمن عبد العظيم وناجح إبراهيم عبد الله. وراجعها وأقرها. كرم محمد زهدى. أسامة إبراهيم حافظ. فؤاد محمود الدواليبى. عاصم عبد الماجد محمد. محمد عصام الدين درباله.

وكل واحد فى حدود ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط.

ولا جدال أن هذه خطوة سليمة، فالرجوع إلى الحق فضيلة، ولكن ما لاحظناه أنهم استندوا إلى أقاويل الفقهاء والسلف فى دعم اتجاههم الجديد. وقد كان أفضل شئء تبيينهم أن الجهاد ليس وسيلة لأسلمه العالم أو توصيل دعوة الإسلام إليه، كما زعم سيد قطب. ومع هذا فإنهم ما ظلوا يعتمدون على المراجع التراثية التقليدية. ولا يستهدفون العلم والمنطق. فهناك احتمال أن يجدوا فى أقوال السلف والفقهاء وما يمكن أن يضلهم مرة أخرى.

الفصل الثالث عشر

الدولة الإسلامية من التنظير إلى التطبيق

تعد التجربة التي قامت نتيجة لتحالف الإمام محمد بن عبد الوهاب مع حاكم نجد الأمير سعود في السنوات الأولى للقرن التاسع عشر هي أولى تطبيقات تنظير الدولة الإسلامية. فقد أراد الشيخ محمد بن عبد الوهاب القضاء على البدع التي تفتت في عهده وكان أبرزها تقديس الأولياء والاعتقاد في شفاعتهم في الدنيا والآخرة. وبناء المآذن والقباب العالية فوق القبور في المساجد - وارتأى كما ارتأى كل منظري الدولة الإسلامية - أن السلطة هي التي يمكن أن تقضى على هذه البدع فتحالف مع الأمير سعود أمير نجد الذي آمن بالفكرة. ووجد إن إقامته الدولة على أساس الدعوة سيكفل لها الغطاء الفكرى وسيدعم قوتها المادية بقوة إيمانية ويعزز الحكم القبلى بدعم إيمانى. وباستثناء الدائرة الضيقة لما يتعلق بالشفاعة والأولياء والقبور الخ... فإن الفكر الوهابى لم يقدم شيئاً وقد عنيت الأجيال التي جاءت بعد محمد بن عبد الوهاب بشرح المذهب الحنبلى، ولكن ذلك لم يقدم جديداً بالنسبة لنظم الحكم.

وبسطة الدولة الناشئة حكمها على نجد واستطاعت أن تمد حدودها، ولكن السلطان العثمانى كلف محمد على والى مصر بأن يقضى عليها وأرسل محمد على ابنه النابه إبراهيم باشا الذى هزمهم وأعاد الحكم التركى.

ولكن الدعوة الوهابية عادت مع ظهور "الملك" عبد العزيز آل سعود الذى استطاع أن يهزم الأتراك ويستعيد حكم آل سعود ويتحالف مع بقية أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين حملوا اسم "آل الشيخ" حتى يكفل لدولته الغطاء الإسلامى - كما كان الحال فى البداية الأولى.

ونجح الملك عبد العزيز بفضل صلابته، وذكائه - فى السيطرة على شبه الجزيرة ووحده مقاطعاتها من نجد حتى المدينة وجده ومكة. وأعلن نفسه ملكاً وأطلق على الدولة اسم "السعودية" فابتدع شيئاً لم يحدث منذ أن أطلق اسم المستعمر البريطانى رودس على روديسيا فى أفريقيا. وكانت الإضافة التى قدمها إلى "آليات" العمل السياسى أن صاهر معظم القبائل وبهذا اكتسب رضاها وتأييدها وأنجبت له زوجاته قبيلة صغيرة من "الأمراء" أصبحوا هم الذين يتولون إدارة الدولة. وأصبح الحكم قبلياً بمعنى الكلمة ولم يكن للإسلام دخل إلا فى مجال الحرص على العبادات والحفاظ على الشكليات وتطبيق الحدود... ومع أن الظروف كانت مواتية للسعودية، إذ أنها بعيدة عن بؤر الصراع التى أثقلت المنطقة العربية (مثل إسرائيل والصراع بين سوريا والعراق الخ...) وأن البترول اكتشف فيها بكميات تفوق أى منطقة أخرى فى العالم. وأن هذه الثروة التى جاءت بها الأرض القاحلة تضاعفت أضعافاً مضاعفة مع حروب رمضان ٧٣ بحيث سعد ثمن البرميل من أربعة دولارات إلى أربعين دولاراً.. فإن نظام الحكم لم يتغير فمجموعة الأمراء من أبناء عبد العزيز.. وأبناء أبنائهم هم الذين يحكمون بمقتضى هذه الوراثة، وقد حققت الدولة إحدى علامات القيامة، فقد أصبحت مبانى رعاة الشاه والبعير تتناطح السحاب. ورغم كل مظاهر التقدم المادى والاستهلاكى، فلا تزال أعراف القبائل سائدة، ولا تُعرف مؤسسات الحكم، ولا حريات الفكر، أو تكوين أحزاب أو نقابات أو دور

سينما أو مسارح ولا تزال المرأة منقبة معزولة عزلاً حديدياً عن الرجال فهي في الحقيقة جاهلية الواقع إسلامية المظهر.

وقد حرصت القبيلة الملكية الحاكمة على تعليم أبنائها في الجامعات الأمريكية لاكتساب المهارات والامتياز الأدبي، ولم يخش المسؤولون من أن يكون هؤلاء دعاة ثورة على الوضع، أو حتى تجديد، لأنهم بمجرد عودتهم يتم استقطابهم وتعيينهم في المراكز والمناصب ويمنحون المهاييا العالية والمزايا المتعددة بحيث يرتبطون بالعهد، ويدافعون عنه، وبذلك يكتسب العهد بهم قوة جديدة.. وتمويهها ثقافياً.

وهذه هي حال أقدم وأعرق تجارب الدولة الإسلامية...

وقد يرى البعض أنه لم يكن في الإمكان أفضل مما كان بالفعل، وأن هذه المنطفة لها حساسيات خاصة لا توجد في أى مكان آخر باعتبارها مقر الحرمين ومهد الدعوة الإسلامية، وأن ما يوضع للإصلاح في دول قد لا يتلاءم تماماً مع "السعودية"، وأن القيادة السعودية لا تخلو من حسنات وهذه كلها اعتبارات يجب أن توضع في حسابنا، ولكن حتى لو أخذنا بها. فلا بد من تطوير وهي المهمة التي تناط بالعناصر المثقفة التي يتوافر فيها الثقافة الحديثة والإيمان بالإسلام. والزمن جزء من العلاج.

* * *

كانت باكستان مهياًة لتكون دولة إسلامية. فقد قامت لغاية هي أن يكون للأغلبية الإسلامية في الهند حرية إدارة شئونهم وعقائدهم فلا يخضعون لتحكمات الأغلبية الهندوسية التي طالما أعربت عن عداوتها للإسلام. وكان في باكستان الدكتور محمد إقبال الذي جسد العاطفة الإسلامية الحقه.. وصاغها في شعر رقيق.. كما كان هناك الأستاذ أبو الأعلى المودودي وهو غارس بذرة "الدولة الإسلامية" في العصر الحديث.. مع هذا كله لم يحدث أن أصبحت باكستان دولة إسلامية حقاً، ولم يحدث أن ولى الجناح الإسلامى الحكم، فعندما جد الجد لم يكن لدى هؤلاء ما يقدمونه لإدارة الدولة الجديدة وتقلدت "الانتلجنسيا" المثقفة ثقافة أوربية والتي مارست العمل السياسى والمناصب فى الهند فى عهد الاستعمار البريطانى زمام الأمور وأظهرت تجربة الباكستان أن من المستحيل أن تقوم دولة فى العصر الحديث على أساس تجاهل هذا العصر الحديث تماماً والعودة إلى عهد الأسلاف السعيد.. كما ظهر أنه لا يكفى الأخذ بوسائل الحياة العصرية دون تفهم روح العصر الذى أوجد هذه الوسائل. إن عكوف المنظرين الإسلاميين على كتب الفقهاء القدامى وحدهم، وعدم إطلاعهم وتعاملهم مع نظم السياسة فى العصر الحديث، وما قدمته الحضارة الحديثة من تطورات وما يحفل به العصر الحديث من آليات جعل الطريق أمام تكوين دولة إسلامية فى العصر الحديث مسدوداً وكل المحاولات للفت حول هذا السد أو تسور الجدار محاولات غير سليمة وغير طبيعية وتأخذ طابع التحايل، وكيف يمكن أن يتقلدوا زمام الأمور فى عصر يتكبرون له ويريدون الانفلات منه. وهل يعنى هذا إلا الانتحار؟.

وفى الحقيقة فإن الصورة التى أخذتها "الجماعة الإسلامية" تطبيقاً لفكر السيد أبو الأعلى المودودي - ما كان يمكن أن تصل إلى أغلبية الشعب. فرغم الحماسة الكبيرة للإسلام لدى الباكستانيين - فإن افتراض مستويات فى الإيمان والسلوك يصعب على عامة الناس التمسك به مع تجاهل قضايا العصر حال دون أن يحقق الأغلبية. وما عجزت الدعوات الإسلامية عن فهمه أن التجاوب العاطفى الإيمانى للجموع مع الإسلام

لا يكفى وحده لتحقيق انتصار فى العمل العام، فحتى فى العهد الإسلامى الأول، وجد من يقول "سيوفهم مع معاوية وقلوبهم مع على". فيمكن جداً للرجل العادى أن يكون متحمساً للإسلام مؤدياً للفروض الدينية من صيام وصلاة. ولكنه مع هذا لا ينضم إلى الجماعة الإسلامية التى تعزله عن المجتمع ونشاطاته وتحول بينه وبين ممارسة هوايات أو الاستمتاع بفنون أو آداب. وهكذا فإن المعايير التى وضعتها الجماعة الإسلامية للعضوية والتى تقوم على أساس إيمانى "سلفى" وثيق حال دون أن تصل العضوية إلى الأغلبية. وحال بالتالى أن تصل إلى الحكم.

ومنذ أن ظهرت باكستان والحكم قسمة ما بين أحزاب يرأسها أفراد يمثلون البورجوازية الغنية أو الأسر الإقطاعية القديمة فى حزبى الرابطة الإسلامية وحزب الشعب وهذه النخبة تدير البلاد إدارة متأثرة بالنظم والتقاليد البريطانية فى الإدارة، والسياسة والفهم الحضارى... ولما لم يكن لهذه النخبة قاعدة شعبية أو أصول حضارية حقيقية عصرية، أو إسلامية، فإن الحكم أخذ الطابع الانتهازى والمهاترات الحزبية والأطماع والغنائم الخ... وقد تولت مع هذا الحكم لأن لديها الخبرة بآلياته ونظمه وإن لم تكن لديها الأغلبية الشعبية، ولا لديها الإيمان... وعندما كان يظهر فسادها، فإن الجيش كان يتدخل، وليس بأفضل منها.. وهكذا قضى على هذه التجربة فى الحكم الإسلامى فى أن تدور فى هذه الحلقة..

* * *

وتعرض لنا حكومة "طالبان" أشد محاولات إقامة الدولة الإسلامية بؤساً وتعاسة، رغم إنها تصورت أنها أكثر المحاولات قرباً إلى المثل الإسلامى وأكثرها اتباعاً للسنة النبوية وهى دليل لا يدحض على فشل دعاوى تكوين دولة إسلامية تدعى إنها تحذو حذو الخلافة الراشدة بما فى ذلك نقشف حاكمها وتسميته بأمر المؤمنين.

ونحن لا نقول هذا لأن العهد لم يطل بها نتيجة للعدوان الأمريكى. ولكننا نقوله لما أخذته من انعزال عن العالم واستغراق فى الماضى، وجهل بالقيم الحقيقية التى نزل بها القرآن من حرية وعلم ومساواة واستسلامها للأحاديث الضعيفة بحيث لم تعد دولة الإسلام ولكن دولة الجلباب والحية.

لقد كان وجودها بلاءً، وكان القضاء عليها بلاءً. وما بين الدعوة لقيامها، والعمل للقضاء عليها تتبدد جهود الأمة الإسلامية وتتعدد أوضاع المجتمع وتفتتح فرصة للتدخل الخارجى..

* * *

يعرض لنا السودان صورة جديدة. فقد ظهرت دعوة الإخوان المسلمين فى السودان على يدى الطلبة السودانيين الذين درسوا فى القاهرة وانتموا إلى الإخوان. وظهر بينهم وتعلم على أيديهم فنون الدعوة الدكتور حسن الترابى وفى مرحلة لاحقة استكمل حسن الترابى دراساته الأكاديمية ما بين لندن وباريس وحصل على أعلى الدرجات العلمية وجعلته هذه الثقافة، بالإضافة إلى ذكائه، وطموحه، يضيق بدعوة الإخوان. ويؤسس تياراً جديداً حمل أولاً اسم "جبهة الميثاق الإسلامى" ثم بعد هذا جبهة الإنقاذ واستقطب أعداداً كبيرة من الجمهور السودانى. ووصل فى الدولة إلى منصب "النائب العام" وتعامل بذكاء مع السلطة والهيئات الأخرى. وبدا كما لو أنه يمكن أن يكون المفكر الرئيسى المنشود. ولكن عمله التنظيمى حال دون ذلك وإن كان المدى الذى وصلت إليه حركة الترابى فى السودان جاوز من الناحية التنظيمية والفكرية ما عداه، ليس فحسب فى

السودان - بل في دول إسلامية أخرى.. وإن كنا نرى أن الدكتور الترابي لم يذهب إلى المدى الواجب في التجديد، وأنه لم يؤصل هذه التجديدات بما تتطلبه ويستحقه، إذ من الواضح أنه لا يكفي لتجديد أصول الفقه الإسلامي رسالة من ثمانين صفحة. مع هذا فإن ما دعا إليه بالفعل كان أكثر مما يمكن أن تتحمله الدوائر السلفية في السودان التي ثارت عليه واعتبرته من الذين انحرفوا عن "السنة والجماعة" وكتب أحدهم كتاباً "مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور حسن الترابي"^(٦٨) عاب عليه فيه زعمه أن العقيدة يجب أن لا تكون سلفية ولا كلامية ورفع شعار التجديد دون تحديد مفهومه مما جعل من سمات هذا التجديد التافيق والسلبية ورد كثيراً من السنن لا تفه الأسباب واعتباره أن الصحابة ليسوا كلهم عدولاً والتشكيك في أصول المحدثين وتقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية وتجديداته في مجال المرأة بما فيها مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط والسفر دون محرم وعملها الخ... وختم كتابه بالإشارة إلى وجود "لوبي تجديدي - حركة ثورية فلسفية صوفية ويزعم المؤلف أنها "ظهرت في عام ١٩٧٨ وهي حركة سرية تعمل وفق برنامج معين وخطط مدروسة وبخطى محسوبة وأن دستوراً يقوم على (أ) المصدر الأول لثقافة الحركة التجديدية هو القرآن الكريم وأن التفسير السليم بالأكثر من التلاوة وتستبعد كل كتب التفسير التراثية. (ب) المصدر الثاني السنة وتعتمد على صحيح البخاري ومسلم. وأنها تستبعد الكتب التراثية - باستثناء - مقدمة ابن خلدون ومدارج السالكين لابن القيم الجوزية، وتحبذ كتابات المجددين ونسب. إحد دعاة هذا اللوبي إلى الدكتور الترابي أنه قال - بالنسبة لعصمة الأنبياء أن الرسول في بشريته كمثل أي دينكاوى !.

ومن الواضح أن هذه التجديدات كلها - باستثناء السطر الأخير - هو مما لا غبار عليه، بل هو جزء من حركة التجديد الإسلامي وأن دعوة "الإحياء الإسلامي التي ندعو إليها تجاوزت هذه التجديدات كثيراً. على كل حال كان للدكتور الترابي أن يقر عينا بما وصلت إليه دعوته وأن يأمل لها التقدم والازدهار وأن ترسخ قواعدها في المجتمع السوداني ما ظل يوجهها من على منبر المرشد - المربي. لولا إن نكاهه الحاد ربما به إلى السلطة.. وتعجل التوصل إلى "الحكم الإسلامي" وأدى به هذا التعجل لأن يصل إلى السلطة بطريقة ملتوية هي التحالف مع عدد من ضباط الجيش من أعضاء الجبهة للقيام بانقلاب عسكري لا يحمل اسم الجبهة من قريب أو بعيد، ولكن يدعى "الإنقاذ" ويصل التمويه إلى درجة يعتقل الانقلاب الترابي نفسه مع من اعتقله من الشخصيات السياسية..

وبعد فترة طالت أو قصرت اتضحت الحقيقة. وخرج الترابي من المعتقل ليشارك مع قائد الانقلاب في السلطة، ولكن هذه الثنائية خاصة مع طموح الترابي لأن يكون الرجل الأول ما كان يمكن أن تستمر فنشب الخلاف بينهما. وفي هذه الجولة كان القائد العسكري أقدر على الحسم من الزعيم الفكري فاعتقل الترابي - هذه المرة بحق - ولعله عومل معاملة سيئة وقام صراع مرير ما بين رئيس الدولة "البشير"، وبين زعيم الدعوة الذي فقد كثيراً من أصوله نتيجة لأن السياسة الانتهازية والسلطة لوثته بأوزارها وأدخلت عاملاً غريباً على مناخ الدعوة. ودفعته لأن يمد يده ويصافح أعدى أعداء الإسلام وعميل أمريكا وإسرائيل والمنادي بتقسيم السودان وفصل جنوبه عن شماله "جارنج". بعد أن كان يجند الشباب لمحاربتة.

(٦٨) مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور حسن الترابي بقلم الأمين الحاج محمد أحمد - ١٩٩٥ مركز الحق الإلكتروني للطباعة والنشر.

وظهر أن الصراع مع البشير لم يكن حول الدين، أو الدولة، ولكن على السلطة كما أعلن ذلك صراحة أحد كبار أعوان الترابي^(٦٩).

وهكذا خسر الترابي الدعوة.. ولم يكسب السلطة، على أنه لو استعاد السلطة لما زادته إلا فساداً.. وهو المصير الذي لا بد وأن ينتهي إليه كل داعية إسلامية يستهدف السلطة أو حتى يصل إليها. لأنه عندئذ يكون قد انتهى تماماً كداعية وسيأتي الدور عليه كحاكم..

وفي الوقت نفسه فشلت تجربة "الدولة الإسلامية" في السودان، بل كانت محاولة "تطبيق الشريعة" سبباً في اشتعال الحرب الأهلية التي قد تؤدي إلى تقسيم السودان..

* * *

في سنة ١٨٣٠ بدأت فرنسا غزوها الجزائر، وقامت حروب ومناوشات عديدة بينها وبين السيد عبد القادر الجزائري الذي قاد مقاومة مجيدة وأن انتهت بانتصار الفرنسيين بعد أن ضيقوا الخناق عليه. وعمل الفرنسيون من الأيام الأولى للقضاء على عروبة وإسلام الجزائريين باعتبارهما المقومين للذين يحفظان الشخصية الجزائرية ويعزلانها عن فرنسا، فهدمت المساجد أو حولت إلى كنائس وحوربت اللغة العربية، ومنع التحدث بها وفرضت اللغة الفرنسية على المدارس. واستقدموا أعداداً كبيرة من الفرنسيين أعطوهم الأرض التي انتزعوها من العرب، فضلاً عن تسليمهم زمام الصناعة والتجارة، وعندما احتفلت فرنسا بمرور مائة سنة ١٩٣٠ على احتلال الجزائر، ظنت أنها قد نجحت في استلحاق الجزائر بفرنسا والقضاء على شخصيتها العربية/ الإسلامية واستنسخت جيلاً فرنسياً من الجزائريين. وفي هذا الوقت ظهر الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو مسلم عريق من بربر صنهاجة الأنداء وكون جمعية العلماء.. وأخذ يؤسس الكتاتيب التي تعلم القرآن كما أخذ يدرس في المساجد الباقية. وأخذ يحيى الرميم وينفخ في الرماد حتى استطاع أن يعيد للجزائر شخصيتها وهويتها وأن ينشد نشيده...

"شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب"

فعادت الحركة الوطنية إلى الظهور وبدأت المناوشات والمصادمات ما بين الشباب المؤمن بدعوة بن باديس، وما بين بوليس الدولة المحتلة وجيشها. وظهرت مجموعة حملت اسم هيئة التحرير أشرفت على تنظيم المقاومة وبذلت الجزائر في حربها تلك مع الاستعمار قرابة مليون شهيد حتى قدر لها في النهاية الانتصار.

رغم أن الذي بدأ الحركة كان شيخاً، وأنها حملت الشعار الإسلامي وأن الجهاد كان روح القتال ما بين الجزائريين والفرنسيين، إلا أن الذي قطف الثمرة كان هيئة التحرير التي ضمت بضعة من الشباب الثائر بزعامة بن بيللا دون أن يكون لهم تأسيس إسلامي خاص. وعندما آلت السلطة إليهم بدت ظواهر التخبط ثم الفساد وحدث صراع داخل المجموعة أدى إلى إقصاء بن بيللا وظهور هواري بومدين، ثم ورثته مجموعة

(٦٩) أنظر أقوال الدكتور على الحاج محمد نائب الأمين العام للمؤتمر الشعبي (نائب الترابي) في جريدة الشرق الأوسط يوم ٢٥/١١/٢٠٠٢ ص ٤.

فارقة للمواهب والإخلاص. وتعددت الصراعات ما بين السلطة وبين المجموعة الإسلامية التي أخذت تنهض وتلم شعنها في "جبهة الإنقاذ" برئاسة الشيخ عباس مدني والشيخ علي بلحاج.

وفي الوقت نفسه عرف الشعب فساد النخبة الحاكمة، واشتهرت فضائرها المالية التي زكمت الأنوف، وقدم هذا دعماً سلبياً لحركة "الإنقاذ" بحيث أنها في الانتخابات البلدية سنة ١٩٩٠ حازت أغلبية المقاعد، وأصبح واضحاً أنها ستنال الأغلبية في الانتخابات السياسية العامة. فتحرك الجيش وقمع الحركة وزج بزعمائها في السجون وأجهضت حركة من أكبر حركات العمل السياسي الإسلامي وُضرب عرض الحائط بكل المبادئ الديمقراطية.

ولكن رب ضارة نافعة..

فلو ترك الأمر لها، ولو تقلدت زمام الأمور لعجزت عن إدارة الدولة

ذلك أن جبهة الإنقاذ كانت بناء تراكيميا ضم العناصر المتشعبة من أنصار "الجهاد" وأئمة المساجد، والإخوان المسلمين وأمشاجاً من المتجاوبين مع الفكر الإسلامي دون نظرية موحدة ولم يكن لديها "كوادر" تنهض بإدارة الدولة..

* * *

وفي مصر لم يكن الإخوان المسلمون بعيدين عن الحكم لو أحسنوا التعامل مع انقلاب ٢٣ يوليو ولكنهم فرطوا في حقهم عندما تقدم جمال عبد الناصر طالبا تأييدهم ثم أضاعوا بسذاجتهم - الفرصة السانحة - أو كما قال مؤرخ الإخوان "فرصة الفرص" في أزمة مارس ١٩٥٤ وكان عليهم أن يدفعوا الثمن لأن هذا الموقف أضاع على البلاد - وليس على الإخوان فحسب فرصة تعديل مسار انقلاب ٢٣ يونيو وإنهاء سيطرة العسكر.. وقد كان يمكن تفادي وقوع ٦٧ التي أخرجت المنطقة كلها مائة سنة إلى الوراء.

واحتدمت العداوة ما بين الإخوان المسلمين في سوريا ونظام حزب البعث، وحمل شأن العداوة طاغية سوريا حافظ الأسد لدك حماة (ثالث المدن السورية) بالمدافع والطائرات. وسن قانون يقضى بعقوبة الإعدام على كل من ينتمي إلى الإخوان المسلمين في سوريا وتكررت في سوريا مأساة تعذيب الإخوان في سجون عبد الناصر.

* * *

ولعل أشد فصول هذه المأساة مأساوية هو ما حدث في تركيا عندما فاز في الانتخابات حزب له اتجاهات إسلامية على رأسه مهندس متقف واسع الأفق تعلم في ألمانيا ولا يمكن أن تعلق به شائبة تعصب أو جهالة. ومع هذا تحرك الجيش - كما لو كان جيش أوربا - وليس جيش تركيا لتحريم الحزب.

فى حالة الجزائر وتركيا كان تدخل الجيش انتهاكاً صريحاً لكل المبادئ الديمقراطية وإحلالاً لحكم عسكرى محل نظام ديمقراطى اختاره الشعب ومع هذا أيدت الدوائر الأوربية والأمريكية هذا التصرف. إن لم يكن قد أوعزت به^(٧٠).

* * *

التجربة التى تستحق أن نقف أمامها طويلاً هى تجربة إيران.. ليس فحسب لأن ما حدث فيها كان ثورة بالفعل، ولأنها رزقت قائداً اكتسب محبة قلبية من شعبه تصل إلى القداسة. ولا لأن إيران نفسها دولة كبيرة بالثروة البشرية والطبيعية.. ولكن أهم من هذا كله هو أنها الآن تجابه المشكلة الرئيسية التى ستجابه كل دعاة الدولة الإسلامية. ألا وهى كيف يمكن الجمع بين الدولة الدينية والدولة المدنية فى وقت واحد. كيف نوفر للدولة المقوم الإسلامى، وفى الوقت نفسه تستطيع أن يجابهه بفاعلية قضايا العصر.

وحاول الدستور الإيرانى أن يجمع بين المتناقضات فالمادة الرابعة تنص "يجب أن تكون الموازين الإسلامية أساس جميع القوانين والقرارات المدنية والجزائية والمالية والاقتصادية والإدارية والثقافية والعسكرية والسياسية وغيرها. هذه المادة نافذة على جميع مواد الدستور والقوانين والقرارات الأخرى إطلاقاً وعموماً. ويتولى الفقهاء فى مجلس صيانة الدستور تشخيص ذلك".

وفى الاتجاه نفسه تنص المادة الخامسة "فى زمن غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) تكون ولاية الأمر وإمامة الأمة فى جمهورية إيران الإسلامية بيد الفقيه العادل، المنقى. البصير بأمر العصر، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير وذلك وفقاً للمادة (١٠٧).

وهذه الصياغة توحى بأن هذا الفقيه هو نائب أو وكيل الإمام المهدي حتى وإن لم تنص صراحة على ذلك كما أن كتابات الخمينى التى يمكن أن تعد "مذكرة تفسيرية" لنصوص الدستور تعتبره كذلك.. وسلطة الإمام فى المذهب الشيعى ليست فحسب مطلقة، بل ومقدسة أيضاً..

"وتنص المادة ١٢ "الدين الرسمى لإيران هو الإسلام والمذهب هو الجعفرى الاثنى عشرى وهذه المادة تبقى إلى الأبد غير قابله للتغيير". نقول إن هذه الصياغة تدل على مدى تمسك واضعى الدستور وما قد يجبره هذا إلى تحكم فى وضع الحريات والحقوق.

وأجازت المادة لأصحاب المذاهب الستة أداء مراسمهم حسب فهمهم

وهناك نص فى المادة ١٦ "بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هى العربية، وأن الأدب الفارسى ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية فى جميع الصفوف والاختصاصات الدراسية".

(٧٠) ونحن نكتب هذه الكلمات جاءت الأنباء (نوفمبر سنة ٢٠٠٢) بفوز حزب "العدالة والتنمية" ذى الاتجاهات الإسلامية بأغلبية كاسحة مكنته من تشكيل الوزارة واستفاد الحزب من تجربة الزعيم الإسلامى التركى السابق أربكان التى سبقت الإشارة إليها فالحزب وإن كان له اتجاه إسلامى لا شك فيه، فإن قاداته يحذرون أشد الحذر من إبداء هذا الاتجاه. والإسلام ليس شعارات أو لافتات، أو حتى أسماء، ولكنه عدالة وتنمية وعمل يقوم على أسس سليمة ويستهدف إسعاد الناس وتحقيق آمالهم ونبتهل إلى الله أن يوفق حزب العدالة والتنمية فى أداء دوره.

وإيراد مثل هذا النص في الدستور ينم عن حرص إيران الإسلامية على العربية. وهو أمر يجب أن يكون محل تقدير. ويبقى أن تنفذ المادة..

ويقرر الدستور الحريات المدنية - كما تقرها الدساتير الأخرى لكنه يضيف في آخر كل مادة يقرر فيها هذه الحرية "ما لم يخل بالقواعد الإسلامية والحقوق العامة" أو "بشرط أن لا تناقض أسس الاستقلال والحرية والوحدة الوطنية والقيم الإسلامية". أو "بشرط أن لا تكون مخلة بالأسس الإسلامية". وهذه التحفظات حاصرت حريات الصحافة. والاجتماع والأحزاب. ومكنت السلطات من الافتيات عليها.

وفي الفصل الخامس من الدستور وهو عن "سيادة الشعب والسلطات الناشئة عنها" تنص المادة ٥٧ "السلطات الحاكمة في جمهورية إيران الإسلامية هي: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، وتمارس صلاحيتها بإشراف ولى الأمر المطلق وإمام الأمة وذلك وفقاً للمواد اللاحقة في هذا الدستور، وتعمل هذه السلطات مستقلة عن بعضها بعضاً".

والنص لا يحتاج إلى شرح وهو يجعل أزمة القيادة كلها في أيدي "ولى الأمر وإمام الأمة".

وتنص المادة ٦٤ على أن عدد نواب مجلس الشورى - وهو السلطة التشريعية - التي تنتخب من الشعب مباشرة هو ٢٧٠ نائباً، ويمكن إضافة عشرين عضواً كحد أعلى كل عشر سنوات.

ومع أن سلطات مجلس الشورى هي سلطات مجالس النواب أو البرلمان في الدول الأخرى أى سن القوانين فهناك تحفظان هامان الأول: ما نصت عليه المادة ٧٢ "لا يحق لمجلس الشورى الإسلامى أن يسن القوانين المغايرة لأصول وأحكام المذهب الرسمى للبلاد أو المغايرة للدستور، ويتولى مجلس صيانة الدستور مهمة البت في هذا الأمر طبقاً للمادة السادسة والتسعين من الدستور". والتحفظ الثانى: أن ما يتخذه المجلس من قرارات أو قوانين لا تكون نافذة إلا بعد موافقة مجلس صيانة الدستور عليها وهذا المجلس يتكون من ستة أعضاء من الفقهاء العدول العارفين بمقتضيات العصر وقضايا الساعة ويختارهم القائد، ثم ستة أعضاء من الحقوقيين المسلمين من ذوى الاختصاص فى مختلف فروع القانون يرشحهم رئيس السلطة القضائية ويصادق عليهم مجلس الشورى. والستة الأول هم الذين يملكون وحدهم حق التصويت فى مجلس صيانة الدستور. أما أعضاء الفئة الثانية فيستطيعون التصويت بجانب الفقهاء إذا ما بحثت قضية تماشى قرارات المجلس مع الدستور، وتكون الأغلبية فيه بتسعة أصوات من اثنى عشر مما يظهر أن ذلك يعنى أن لا تصدر قرارات لا تحظى بأغلبية الأعضاء الستة من الفقهاء وفى هذه الحالة تكون الغالبية المطلوبة هي ثلاثة أرباع عدد أعضاء المجلس، كما نصت المادة ٩٨ من الدستور، أى تسعة أصوات من أصل اثنى عشر صوتاً. وليس خافياً أن شرط غالبية التسعة هو يضمن تمثيل الأعضاء الستة من الفقهاء، الذين نصبهم الدستور قيمين وأوصياء على أحكامه. ولأعضاء "مجلس صيانة الدستور" الحق فى فحص "صلاحية" المرشحين لخوض الانتخابات البرلمانية والرئاسية، واستبعاد من يرونه "غير مستوفى للشروط"، بالاستناد على عدة معايير منها المنطلقات الفكرية للمرشحين، وبالأخص الإيمان بولاية الفقيه، والالتزام بخط الإمام وهو ما حدث مع مرشحي التيار الوطنى الليبرالى الذين استبعدوا من انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧، أو فى انتخابات البرلمان الأخيرة.

وبعد هذا كله فإن المادة ٩٣ تنص على أنه "لا مشروعية لمجلس الشورى دون وجود مجلس صيانة الدستور عدا ما يتعلق بإصدار وثائق عضوية النواب وانتخاب ستة أعضاء حكوميين لمجلس صيانة الدستور".

وعلى نقيض هذا التضييق على مجلس الشورى بل ومحاصرته نجد التوسع بالنسبة للقائد فهو القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو الذى يعلن الحرب والسلام والمعاهدات ويقوم بتعيين السياسات العامة للجمهورية والإشراف على حسن إجراء السياسات العامة للنظام وعزل رئيس الجمهورية بعد صدور حكم من المحكمة العليا.

وعلى هذا، فافتراض وجود صراعات ما بين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور لا مناص عنه، وقد حدث بالفعل مرات عديدة مما أدى بالمرشد إلى تشكيل مجلس جديد للفصل ما بين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور هو "مجلس تشخيص مصلحة النظام".

ولكن المشكلة أن تكوين هذا المجلس الجديد له الطبيعة المزدوجة التى لا تجعله قاضياً موضوعياً بمعنى الكلمة. إنه عادة ما يغلب الجانب الفقهى التقليدى.

إن أفضل ما على الساحة الإيرانية اليوم أن رجلى القيادة فيها - المرشد على خامنى ورئيس الجمهوريين خاتمى يتسمان بالوطنية والاتزان وأن كل واحد منهما يعلم أن الآخر على شعبة من الحق، وأن المطلوب هو إيجاد التوازن بين تيار "ولاية الفقيه" وبين تيار ولاية الشعب. إن الخمينى نفسه وهو الذى أبدع ولاية الفقيه كان شاعراً تماماً بقوة الشعب وأنه هو الذى حمله إلى الحكم وهزم أكبر قوة عسكرية أمضى الشاه حياته فى تزويدها بالسلح وتشتتها على الطاعة. كما أن خامنى شاهد كيف أن الجماهير خاصة الشباب والنساء أعطت خاتمى أغلبية كاسحة فى الانتخابات الأخرين. من ناحية أخرى، فإن خاتمى نفسه ليس بعيداً عن الحوزة وعالم القيم وهو يؤمن بأن الدولة الإيرانية دولة إسلامية.

إن كلا من الخامنى وخاتمى يؤمنان بضرورة التوصل إلى الحل، ولكنهما يحذران تجربة جورباتشوب فى الاتحاد السوفيتى ولكن هذا هو ما سيحدث بالفعل إذا لم تتم تسوية الأمور وقد حدثت حوادث عديدة أدت إلى توترات عنيفة، وثار فيها الجماهير، وبوجه خاص الطلبة والنساء، وكان منشئوها جميعاً التضييق على مجلس الشورى من قبل مجلس صيانة الدستور وهيمنة السلطة القضائية وإصدارها أحكاماً على الإصلاحيين، وكان آخرها ما حدث عندما حكمت إحدى المحاكم الدينية على المفكر الإيرانى هاشم أغاجرى بالإعدام لأنه دعا الناس إلى عدم تقليد الشيوخ كالقرود. إذ تعددت إضرابات الطلبة، وقرأ فى أحدها حفيد آية الله منتظرى رسالة من جده - الذى رشحه الخمينى لخلافته، ثم أعفى منها، يؤيد فيها الطلبة، وظلت المظاهرات مستمرة من ٩ نوفمبر سنة ٢٠٠٢ واضطر المرشد على خامنى لأن يلقى بنفسه خطبة الجمعة، وأن يدعو التيارات المتنازعة للاتحاد ومنذاً بالمظاهرات.. كما قام "الباسيج" وهم المليشيا الإسلامية التى تتبع المرشد بمظاهرات مضادة. وهى الهيئة التى طالما تدخلت لإجهاض مظاهرات الطلبة، وندد على أكبر هاشمى رافسنجانى الرئيس الإيرانى السابق، ورئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام بحركة احتجاج الطلبة ودعا الباسنج إلى الحذر وقال "إن الشيطان أرسل لتدمير النظام الإسلامى وأن ما يحصل اليوم أشبه بأولى سنوات الثورة عندما أتحد المنافقون والليبراليين وأضاف أن الذين يطلقون شعارات معادية للباسيج فى الشوارع هم ضد الأمن لأن كل واحد يعرف أن انعدام الأمن سيسود دون الباسيج، ولم تهدأ الإضرابات إلا

بعد أن قيل أن المحكمة ستعيد النظر في حكمها. وإذا كانت هذه الأزمة قد حلت بهذه الطريقة، فقد لا يحدث هذا في أزمات لا بد أن ستحدث، ما دام القضاء وسلطة المرشد على ما هي عليه خاصة بعد أن هدد كبار المسؤولين من الإصلاحيين بالاستقالة من منصبهم إذا واصل القضاء عرقلة الانفتاح الإصلاحي للشعب بعد أن أصبحت السلطة القضائية كرقابة ثقيلة على أعمال مجلس الشورى في صورة اتهام عدد كبير من أعضائه بلغ ستين عضواً بمختلف اتهامات ازدياد السلطات أو عدم الانفاق مع خط الإمام الخ... مستغلة المادة ٣٠ من الدستور التي تجعل المواطنين جميعاً سواء أمام القضاء وظفرت بعض القضايا مثل محاكمة وزير الثقافة بشهرة وأثارت دويماً.

لقد آن للمرشد وللقضاء ولآيات الله في حوزاتهم، وفقهاء المذهب أن يعلموا أن إرادة الأغلبية العظمى للشعب التي جاءت بخاتمي والتي تؤيد الإصلاح يجب أن يكون لها الأولوية إنها الحقيقة الإنسانية.

وحتى تصل إيران إلى الحل الإسلامي الأيدلوجي فإنها ستظل مهددة بالانشقاق، وبأن يحدث فيها ما حدث في الاتحاد السوفيتي، وقد تجد إيران الحل. عندما ما تستكشف أن حكم الفقيه، ومعه أحكام علماء المذهب السابقين ليست هي على وجه التعيين حكم الشرع، وإنما هي اجتهاداتهم في فهم حكم الشرع وهذا ما يفتح باباً للتأويل، وللجتهاد وللرأى الآخر وكتب الفقهاء حافلة بوجوه الاختلاف فيما بينها. وإذا كان الفهم المتحفظ - فيما يظنون - يعمل لحماية النظام فإنه يصيبه بالجمود والشلل ويضعه في نفق مسدود مظلم في حين أن مخاطر الانفتاح أقل من مخاطر الانغلاق. وما دام التأويل يسمح بالانفتاح فلن يكون في هذا مخالفة أصولية - وهناك شواهد عديدة من القرآن والسنة على ذلك، وقد اعتبر بعض الفقهاء أن الإجماع يقضى على الكتاب نفسه من ناحية أنه يمثل فهم الأمة للكتاب. فإذا كان من الصعب أن تجتمع الأمة على ضلالة. فإن للأغلبية الكاسحة هذا الحق ولو من باب الترجيح.

إن ارتباط التجربة الإيرانية الشديدة بالمذهب الجعفري والدولة الإسلامية التي يحكمها إمام معصوم، أو من ينوب عنه. ولأن رمز الثورة وروحها كان أحد آيات الله الكبار وضع الثورة وجهاً لوجه أمام المعادلة الصعبة: معادلة الحفاظ على المضمون الإسلامي وفي الوقت نفسه كفالة الحرية والمرونة اللازمة لمضى عمل الدولة تجاوباً مع إرادة الشعب خاصة الشباب والمرأة الذين يمثلون المستقبل وتحقيقاً لمقتضيات العصر الحديث.

إن الإمام الخميني، ولم يكن ينقصه الذكاء ولا الحاسة السياسية كما لم يخل من العاطفة الحارة التي تربطه بشعبه، لم يدق عليه هذا، ولكن لم يكن ممكناً له أن ينقض البناء الذي قام عليه المذهب الجعفري أو يخل بأركانها، فقد حاول إجراء توازن ما بين عمل مدني وسياسة دينية يقوم بالأولى رئيس الجمهورية ويقوم بالثاني مرشد الثورة. وهو بالطبع أحد آيات الله.

وإذا كان الإمام الخميني قد قاد بنجاح الثورة، فمن المحتمل أن تؤدي سياسته إلى فشلها. لأنه رفض من البداية أن تكون إيران "جمهورية إسلامية ديمقراطية" ورفض تشكيلاً واسعاً لجمعية دستورية تقدم دستوراً لا يضع السلطة في أيدي الفقهاء، ورفض السماح بوجود قناة للمعارضة والانتقاد، وهي الفكرة التي تقدم بها آية الله العظمى شريعة مدارى على ما رواه وزير الأمن محمدى الرشتهرى عندما بدت بوادر أزمة المنتظرى "يجب أن يفتح الإمام قناة لانتقاد المجتمع والحكومة وإصلاحها. أن الشيخ المنتظرى يطرح أموراً ضرورية جداً مع أنه ينقل بعض الأحاديث التي ليس لها كثير اعتبار ولكن بشكل عام جيد ويجب أن يسمح

له الإمام بأن يطرح كلاماً جيداً وبناءً^(٧١). ولكن شريعة مدارى نفسه عندما قال هذا كان فى منزله الخاص تحت المراقبة فى ما يتعلق بقضية قطب زاده. وقد وضحت صلابة الخمينى فى رفض المعارضة بعزله آية الله منتظرى وقد كان كما قال الخمينى عنه "حصيلة عمرى وقلبى يدمى من أجل مصلحة النظام والإسلام". وحدث هذا كله لأن إيمانه العميق بالفكرة الشيعية جعله يغلب ولاية الفقيه على ولاية الشعب الذى قلده القيادة، وكان يجب - منطقياً - أن يكون إيمانه به أكبر من أى إيمان آخر. ولم يكن ليعدم من الحوزة نفسها من يناصره.

ولعل أول خطوة نحو الحل أنه عندما تصدر المحاكم (حتى لو كانت المحكمة الدستورية العليا - أو أى هيئة أخرى) أحكاماً تخالف السياسة التى أقرها مجلس الشورى - يكون من حق مجلس الشورى إستفتاء الشعب باعتبار أن إرادة الشعب تمثل الإجماع - أو الأغلبية التى لها حكم الإجماع. فإن قرار الشعب يكون له حجية أصولية خاصة إذا لاحظنا ما ذهب إليه بعض الفقهاء من أن الإجماع يقضى على القرآن، باعتباره يمثل فهم الشعب المسلم للقرآن كما ذكرنا آنفاً. كما يجب الإشارة إلى أن الزيدية، وهى فرقة شيعية تقدم قضية العقل المبتوتة على القرآن الكريم^(٧٢)

وبالإضافة فيجب اعتبار أن مجلس صيانة الدستور كان إجراءً مرحلياً يرتبط بمرحلة بداية الثورة، وأن هذا الدور قد انتهى لأن بقاءه يمحو - عملياً - مجلس الشورى.

وإذا قام خلاف ما بين المرشد ورئيس الجمهورية فيتبع أسلوب استفتاء الشعب. واعتقد أن مجرد تقرير هذا سيجعل المرشد - كالرئيس - يلحظ إرادة الشعب..

وعلى الجميع أن يؤمنوا إن إرادة الشعب من إرادة الله وأن أمة محمد لا تجمع على ضلاله.

* * *

من هذا الاستعراض لحالة الدول التى أريد فيها قيام دولة إسلامية يظهر مدى إفلاسها وفشلها إذا قيست بمقاييس الإسلام الحقه. ففى دولة «أقرأ». تتفشى الأمية، وكان يجب أن لا يكون بها أمى. وفى دولة «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ». و «.. أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». تقوم الدعوة على أساس الإكراه ويحاكم كل صاحب حر بقانون الردة اللعين. وفى دولة «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ». توجد ألف درجة ودرجة بين النساء والرجال وفى دولة تكون فيها الزكاة ركناً ثالثاً للإسلام لا نسمع شيئاً عن الزكاة ولا عن حسن تطبيق مصارفها وفى دولة محمد وأبى بكر وعمر وعلى الذين لم يأخذوا لأنفسهم شيئاً ولم يخلفوا ديناراً ولا درهما يقال إن نصف عوائد البترول فى المملكة السعودية تأوول إلى الأسرة المالكة والنصف الآخر للشعب بأسره «تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى».

وأسوأ من هذا كله وصمة الاعتقالات والسجون والتعذيب. لقد حرم الإسلام المثلة بالكلب العقور فكيف بإنسان يمارس حقه كمواطن فى المعارضة ويعمل بما طلبه أبو بكر وعمر "إن أسأت

(٧١) المذكرات السياسية ص ٣٤٦.

(٧٢) انظر كتابنا "الإسلام والعقلانية" دار الفكر الإسلامى - ص ٢٦ - ٢٨.

فقوموني" فتكون النتيجة أن يسجن ويعذب وتصادر أمواله ويضطهد آله. هذا موجود ولا يمكن المجادلة فيه. وقد كانت السودان أبعد ما يمكن أن يتصور أن يوجد فيها تعذيب، لأنه يخالف طبيعة وفطرة الإنسان السوداني ومع هذا تواترت الأنباء عن "بيوت الأشباح!" وكانت إيران بحكم استلهاها أعظم الخلفاء تسامحاً مع معارضيه - على بن أبي طالب - وبحكم خلائق الحسن والحسين أن تكون أبعد النظم عن التعذيب. ومع هذا فإن آية الله منتظري الذي كان مرشحاً لخلافة الخميني كتب إلى الخميني نفسه "سُمع أنكم قُلتُم إن فلانا يقرنني بالشاه وأمنى بسافاك طبعاً لا أفرض أن سماحتكم هو الشاه. ولكن جرائم أمتكم بيضت وجه الشاه والسافاك. هذه الجملة أقولها بإطلاع دقيق"^(٧٣). وليس من شهادة تقدم من خليفة الخميني إلى الخميني نفسه مثل هذه...

من هنا، فإن الدولة الإسلامية كما طبقت بالفعل في الدول التي أشرنا إليها لم تحقق أهداف الإسلام كما لم تستطع أن تكون "دولة الرعاية" كما حدث في بعض الدول الأوروبية أو "دولة الحرية" كما هو حال دول أخرى، ولا نهضت بالزراعة والتجارة ولا حققت الأمن والأمان.. فخسرت الدنيا ولم تكسب الآخرة...

(٧٣) المذكرات السياسية بقلم محمدى الرى شهرى ص ٣٣٤ وهو وزير الأمن فى عهد الخمينى. تعريب لجنة الهدى مؤسسة دار الحديث - إيران.

الباب الرابع

إنما تتقدم الأمم بفضل الأنبياء

والحركات الشعبية والجماعات والعلماء

أوضحنا في الصفحات السابقة كيف أن السلطة أفسدت الأيديولوجيا وأن الدولة التي يفترض أن تكون خادمة للأمة أصبحت هي سيدة الأمة التي تتحكم فيها. وبدلاً من أن تجبى الضرائب لتقدم الخدمات من صحة، وتعليم، وأبحاث، فإنها تجبى الضرائب لتدعيم الجيش ومضاعفة البوليس وبناء السجون وإقامة نظم مخابرات وتجسس بحجة حماية الأمن الداخلى..

ولاحظنا أن دور الدولة حتى مشارف العصر الحديث اقتصر على شن الحروب لضم المزيد من الأراضي إذا كان على رأسها ملوك أو قادة عسكريين، أو لضم الأسواق إذا سيطر عليها الرأسماليون. وفي جميع الحالات فإن الشعوب لم تجن من هذه الحروب إلا سفك دماء شبابها وتشويه جزء كبير من شعبها بالعاهات التي تحدثتها الحروب، فضلاً عن دمار البيوت وفساد المحاصيل الخ... وما أكثر ما استغلت الجماهير أسوأ استغلال واستحوزت على أموالها ولولا يقظة الشعوب فى القرنين الأخيرين فى أوربا - لما تنبعت الدولة إلى دورها الحقيقى فى خدمة الشعوب والجماهير.

وعند تحليل الوضع ووزنه نجد أن الجماهير تمكنت فى العصر الحديث وحده من كبح جماح الدولة، وألزمتها القيام بدورها كما حدث فى بريطانيا عندما حكم العمال لأول مرة بمفردهم سنة ١٩٤٥ إذا بدعوا دولة الرعاية. وإن كانت هذه البداية لم تستمر طويلاً فى بريطانيا، كما أنها لم تظهر بهذه القوة فى غيرها. فلا تزال الجماهير تتخبط فى إفسار النظم والأوضاع والتعقيدات التى أقامتها الدولة من العصور القديمة حتى الآن، ولا تزال عاجزة عن إلزام الدولة القيام بدورها الحقيقى.

وفى هذا الباب سنبرز أن تقدم الأمم لم يأت بفضل الحكومات والدول، ولكن جاء بفضل الأنبياء الذين نعتبرهم المثل العليا للقيادات ونعتبر أن دعواتهم - الأديان - كانت هى التحرير الأول للجماهير فى العصور القديمة قبل أن تتقدم المجتمعات وتستطيع أن تنظم نفسها للدفاع أو لكبح جماح الحكومات ومن العجيب أن يبدو ذلك كما لو كان أمراً جديداً، مع أنه هو أقدم الظواهر فى تاريخ المجتمعات القديمة، ولكن اقتصر الكتابات عن الأديان على الجانب العبادى - الفردى - وإغفالها للجانب الجماعى الثورى - جعل إظهار وإبراز هذه الصفحة يبدو شيئاً جديداً.. مع أن شعوب هذه المنطقة تعيش فى عالم الدين.. تأكل وتشرب وتفكر وتقرأ الخ... كما يريد لها الدين.

فإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة وجدنا أن توجيه الدولة إلى دورها الحقيقى إنما جاء بدفع الهيئات الشعبية والجماهيرية المتطوعة التى نظمها لنيف من الناس بوحى اهتمامهم بموضوعها وإيمانهم بالفكرة فيها سواء كان ذلك عن تعميم التعليم أو العناية بالصحة العامة والتأمين من المرض أو إصلاح القوانين - مدنية أو جنائية الخ... وقد ضربنا المثل بالحركة النقابية من بين الحركات المدنية والطوعية لأنها أعرق هذه

الهيئات ولأنها استطاعت أن تحكم بوسائلها الخاصة نظماً لمعالجة الأجور وساعات العمل والتأمينات الخ... إلى آخر ما يتعلق بالعمل. ثم زحفت بحكم إيمانها الشعبى - على المجال السياسى - فقامت فى بريطانيا بأول محاولة شعبية جادة وعميقة لإصلاح النظام الانتخابى البريطانى فى الحركة التى حملت اسم حركة الميثاق أو الحركة الميثاقية فى منتصف القرن التاسع عشر والتى لا يكاد كتاب النظم الدستورية يعرفون عنها شيئاً. ثم نظمت مع حليفاتها الجمعية الفابية حزب العمال.

وأخيراً نأتى للعصر الحديث الذى بدأه العلماء فى كل مجال، فهو مدين للعلم والعقل والفكر فى كل تخصص سواء كان علوم بيولوجية أو هندسية أو رياضية أو فلسفة الخ... وقد بدأ مع حقبة "الرينسانس" وظل حتى أديسن وفورد اللذين يدين إليهما العصر الحديث بالإنجازات التى تغطى أكبر مجال فى حياتنا فى العصر الحديث حتى ثورة الكمبيوتر والإنترنت التى نعاشها.

واقترنت حركة النهضة العلمية بفكرة "التقدم وإثراء الحياة" وجعل قوى الطبيعة فى خدمة حاجات المجتمع البشرى.

فالدعوات الدينية، والجماعات المدنية، والألوف وعشرات الألوف من العلماء هم سر تقدم الأمم - وليس الحكومات، ولو تركت الحكومات وحدها، لما قامت بغير الحروب واستغلال الشعوب..

الفصل الرابع عشر

الأنبياء أول الدعاة لتحرير الشعوب

إذا عدنا إلى أعماق التاريخ، إلى تلك العصور المجهولة التي لا نعلم عنها إلا القليل والتي كانت شعوبها تعيش على الزراعة أو الرعى أو الحرف اليدوية. والتي سادتها الجهالة والامية، والخرافة، وحكمها طغاة مؤلهون وتساءلنا كيف كانت حياة هذه الشعوب ؟.

إذا حكمنا بطبائع البشر، وضرورات الاجتماع فيمكننا القول إنهم كانوا يعيشون في شقاء وبؤس وكدح يتعرضون للأمراض والأوبئة، ولا ينالون ولو بصيصاً من المعرفة التي كانت محصورة في أيدي الكهنة، وكان الملوك والأرستقراطيات الحاكمة لا تظفر - إذا ظفرت - إلا بقسط ضئيل منها.

كان الدين هو القوة المهيمنة في هذا المجتمع إذ ارتوى أنه يقدم الحل الذي يقلق إنسان هذه العصور ويشغل باله من شمس بازغة إلى بحار هادرة إلى أنهار جارية إلى أمطار تنزل من السماء.. ثم ما يحدث للإنسان عندما ينام من أحلام تنقله إلى عوالم خيالية، وأخيراً الموت التي ينهى الحياة تماماً... هذه الظواهر التي كانت تكتنف الإنسان القديم لم يكن يجد لها حلاً.. إلا في الدين الذي قام وقتئذ على مزيج من الخرافة والسحر والطلاسم والطقوس.. التي تحاط بها الأوثان المعبودة وتتسج حولها الروايات عن قدراتها. وظهرت فئة "الكهنة" الذكية التي احتكرت هذا المجال الهام ووظفته لمصلحتها وتعاونت مع السلطة بحيث قام بينهما تحالف وثيق فالكهنة يصفون على الملوك، والفراعنة، والأباطرة، الصفة الإلهية المقدسة، وهؤلاء يعترفون للكهنة باعتبارهم القوامين على هذا المجال وبهذا التحالف تُحكم السيطرة الروحية والفعلية على الجماهير.. بحيث استحال عليها أن تتخلص منها.

أمام هذا الطوق المحكم، أمام هذا السد المغلق استحال على الجماهير في تخبطها وجهالتها وفاققتها وتفرقتها أن تستنقذ نفسها بنفسها، وأصبحت شعوب العالم في هذا سواء. فالوثنية القديمة جعلت العالم "أمة واحدة" بتعبير القرآن الكريم في استخذائها للأوثان والطغاة حتى وإن اختلفت الأسماء في مصر عنها في روما عنها في بابل.. كلها أوثان، كلها كهنة كلها ملوك طغاة.. كلها استبداد وتسخير للشعوب والجماهير.

وهكذا كان الناس أمة واحدة في غفلتها، واستخذائها واستسلامها. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. {٢١٣ البقرة}..

لم يكن من الممكن أن تتحرك الجماهير، ولم يكن طبيعياً أن يكون منفذوها هم مستعبدوها. كانت القوة الإلهية وحدها هي التي يمكن أن تنقذ الشعوب والجماهير.

ماذا قدم الأنبياء للبشرية في عهدها القديمة عندما كانت هذه الجماهير عاجزة مجردة من القوة...

قامت دعوة الأنبياء أولاً قبل كل شيء بتخليص الناس من عبادة الملوك والأباطرة، أو الأوثان التي نصبوها رموزاً لبعض مظاهر قوة الطبيعة وما كان يستتبعه من طاعة عمياء للملوك على أساس أنهم آلهة. وقد كانت كل الشعوب القديمة تؤله ملوكها بدرجة أو أخرى من فراعنة مصر حتى أباطرة الرومان. وكانت

هذه النقطة - تألية الأباطرة - هي التي حملت الرومان على مقاومة المسيحية واضطهاد المسيحيين الذي أشرنا إليه من قبل

قد يقال إن الأنبياء أنقذوا البشر من عبادة الملوك والأباطرة وأوقعوهم في عبادة الله. ولكن الله تعالى في الحقيقة هو الكمال المطلق والعبودية له ليس فيها شبه للعبودية للملوك حتى وإن تضمنت صلواتها ركوعاً وسجوداً ما دام هذا كله للكمال والحكمة والمثل الأعلى والقوة التي خلقت السموات والأرض ووضعت النواميس والسُنن لسيرها جميعاً. فالإيمان بالله جزء من كمال الاعتقاد.

وقام الأنبياء عملياً بدور المحرر للشعوب والجماهير في ثورات هي أعظم وأنبأ الثورات، وأقلها سفكا للدماء.

هو ذا موسى يتقدم إلى فرعون ليطلق سراح قومه اليهود الذين كان المصريون قد استعبدوهم وسخروهم في أشق الأعمال وأخضعوهم لصنوف من الاستغلال والاستعباد حتى ظهر فيهم موسى وطالب فرعون بأن يحررهم ويتركهم ينطلقون إلى بلاد أخرى لا تفرض عليهم السخرة ورفض فرعون وتمسك موسى واستطاع بتأييد من الله أن يقود بني إسرائيل من "بيت العبودية" إلى أرض الحرية، وأن يبدأ تاريخ الشعب اليهودي بظهور هذا القائد المحرر الذي أنقذهم من الاستعباد وقادهم إلى أرض الحرية.

وأنقذت المسيحية الشعوب المستعبدة في الرق الروماني وشرعة روما الطبقيّة والقائمة على السيف إلى شعوب حرة أبيه تستعذب العذاب في سبيل إيمانها، وتتوصل في النهاية إلى إنهاء الحكم الروماني بأباطرته المعبودين وشرعته الطبقيّة..

وظهر خاتم الرسل محمداً وسط قبائل عربية متنازعة متحاربة يغير بعضها على بعض وتفخر بسبق جواد أو كسب الميسر وشرب الخمر.. إلى أمة تحمل الكتاب والميزان وتعرف الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية على مثل وقيم المساواة والعدل والرحمة والخير..

واقترنت دعوة الأنبياء للإيمان بالله، بمجموعة من التوجيهات والأوامر والنواهي كلها تمثل القيم العليا التي يصلح عليها نظام المجتمع. وكان لابد لها من هذا حتى تتميز الدعوة لله التي يتقدم بها الأنبياء عن الدعوة للآلهة الوثنية التي يتقدم بها الكهنة والتي تتضمن صنوفاً من التفرقة الطبقيّة والتمييز والتي تقر الظلم والبغي. وقد قدم كل نبي من الأنبياء رسالته فقدم موسى وصاياه العشرة التي تنص على :

أنا الرب إلهك الذي أنقذك من مصر بيت العبودية :

١. لا تعبد آلهة أخرى.
٢. لا تقم صنما يصور أى شىء فى الأرض أو فى السماء أو فى أعماق الماء.
٣. لا تسئ استخدام اسم الرب إلهك لأن الرب لا يغفر لمن يفعل ذلك.
٤. تذكر السبت واحتفظ به مقدساً تعمل أعمالك كلها فى ستة أيام وتخصص اليوم السابع للرب. فى هذا اليوم لا يجوز له، ولا لابنك أو ابنتك ولا لخادمك أو خادمتك ولا لحيواناتك ولا لغريب داخل بابك.
٥. احترم أباك حتى تعيش طويلاً فى الأرض التي منحها الله لك.
٦. لا تقتل.
٧. لا تزني.

٨. لا تسرق.

٩. لا تشهد زوراً على جارك.

١٠. لا تشته بيت جارك ولا زوجته، أو خدمه، ولا ثوره ولا حماره، أو أى شىء يملكه.

بينما قدم المسيح خطبة الجبل التى أوردناها بالكامل فى الفصل السابع من هذا الكتاب.

أما محمد فقد بلور فى خطبة الوداع التى ألقاها يوم الحج الأكبر قبيل وفاته وقال فيها "أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(٧٤) أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان.. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تَعَلَّمَنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تَظَلْمَنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت".

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الأنبياء.. لقد قدموا أيضاً النموذج الأمثل للقائد، واتصفوا بما لا يتصف به عادة القادة، كما عرفهم العالم القديم، من سيطرة وتسلط واستحواز على الثروات الخ... برؤوا من كل لوثات الضعف والانحراف والنقائص فكانت أخلاقهم كريمة لا تشوبها شائبة.

والأنبياء عادة من صميم الشعب، وهم يتقدمون بدعوتهم للجميع، ولكن قلما يؤمن بها الحكام والمترفون.. لأنهم يرون فيها ما يمس وضعهم المتميز ومزاياهم الطبقية، وإنما يؤمن بها عامة الشعب والفقراء والكادحون فى الأرض أو الحرف والفقراء المجردون من الثروات.. باختصار من كان يطلق عليهم الحكام "أرادلنا" ومن كانوا يرون أن إيمان هؤلاء يجعلهم يترفعون عن الإيمان بالرسول حتى لا تتساوى الرؤوس.

والأنبياء يجوبون الأسواق ويتحدثون إلى الناس ويقيمون دعوتهم على "الحوار" وعلى تقديم البيئة والحجة وعلى إثارة ما فى نفوس الناس من عناصر خير كامنة فيه.

(٧٤) وكان مسترضعاً فى بنى ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية.

واقراً مثلاً هذه الآيات التي تمثل حوار الأنبياء نبياً نبياً مع شعوبهم وجماهيرهم..

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْجَحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْيَمِّ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَتَحْتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِهُرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاقْبُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ نَاسٌ كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّعَمْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ {الأعراف}..

وكذلك ...

﴿لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾. {١٣ إبراهيم}..

لقد حول رفض المشركين القاطع لدعوة الأنبياء، وتهديدهم الأنبياء بمختلف صور الاضطهاد.. الحوار إلى صراع ما بين الحق والباطل، ولم يكن مناص من أن تقوم المعجزة بدور في هذه الأزمان البائذة.. وقد يثير ذلك شيئاً من العزوف.. لدى البعض، ولكن هل كان الأفضل ترك الباطل يتحكم ويستشري، وهل كان الأفضل أن يقود الأنبياء جيشاً يقهروا به المشركين؟ وإنى لهم هذا والقوة والمنعة في أيدي الحكام أو هل يكون أكثر معقولية لو قضى عليهم بزلزال أو سيول الخ... إن صراع القوى في المجتمع أمر واقع، ولا مفر منه، وعلى كل حال فإن دور المعجزة الخارقة للطبيعة قد انتهى مع ظهور الإسلام لأن معجزته كانت كتاباً..

* * *

بالإضافة إلى أسلوب الحوار، فإن الأنبياء لا يطلبون أجراً ولا يريدون منصباً. وإذا قدرنا أن القيادة في الدأب المألوف والممارسات الجارية هي السبيل إلى الثروة والجاه والمنصب والرئاسة لظهر لنا كيف أن تجرد الأنبياء يعطيهم، ويعطى قيادتهم، صفة مختلفة عما ألف الناس في القادة

هو ذا نوح يقول :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {١٢٧ الشعراء}..

وهو ذا هود :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {١٥٥ الشعراء}..

وهذا لوط :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {١٨٠ الشعراء}..

وأخيراً قول الرسول :

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. {٤٧ سبأ}..

* * *

إن ...

▪ إنقاذ البشرية من تأليه الحكام وسيطرة الكهنة وتعريفهم على الله تعالى.

- القيام عملياً بقيادة ثورات التحرير الكبرى التي حررت اليهود المستعبدين، والمسيحيين المستضعفين والتي جعلت من القبائل العربية المتنازعة رسل حضارة يحملون الكتاب والميزان.
- اقتران الإيمان بالله بمجموعة من القيم التي تكفل سلام المجتمع واستقامته بدءاً من الوصايا العشر في اليهودية حتى خطبة الوداع في الإسلام مروراً بخطبة الجبل من المسيح.
- إدارة الدعوة بأسلوب الحوار دون قسر أو ضغط.
- التجرد الكامل بحيث لا يقبل الرسول أجراً ولا ينقلد منصباً، وإنما يقوم برسالته حسبة وقربى..

هذه كلها قدمها الأنبياء فأى قادة قاموا ببعض - لا بكل ما قاموا... ؟

إننا لا نرى ذكراً للجماهير في هذه العصور الموهلة في القدم إلا على لسان الأنبياء، ولا نرى عناية بهم، إلا عندهم وقبلهم كان التركيز على الطبقات المميزة والحكام والأثرياء الخ...
 إن الأنبياء مثل عليا في الخلق الكريم من صدق وشجاعة وإخلاص الخ...
 من أجل هذا قلنا في "إيماننا" الذي يبيلور دعوة الإحياء..

"الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك الخ... وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساعت إلى البشرية.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول، على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسول جميعاً، وأن الله تعالى أراد التعدد والتنوع ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾. وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة".
 ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوربي فكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التناكر له، وفي الوقت نفسه - فإنه لا يحول دون تلاقي الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن، ولا ينفي هذا أن تعرف الجماهير الأوربية على سيرة السيد المسيح أضفى قدراً من المحبة والخدمة التطوعية في المجتمع الأوربي، ولكن هذا لم يؤثر على السياسات، ولا على القادة الذين استحوزت عليهم ضراوة الربح أو السلطة.

وفي نظرنا أن أعظم خسارة خسرتها أوربا هي أنها لم تطلع تماماً - وبالصورة السليمة - على هذا السجل الخالد النبيل في تاريخ تحرير الشعوب ونموذج القيادة الذي جاء به الأنبياء، وبالتالي اتسمت قياداتها بالجبروت والانتهازية واقتصرت على القيم الذاتية التي ليس لها كمال أو موضوعية أو حصانة القيم الدينية.

الفصل الخامس عشر

الحركة النقابية

تنهض بمستوى حياة الشعب البريطانى

بعد الأنبياء فى النهضة بالشعوب والجماهير تأتى الجماعات المتطوعة التى يؤسسها رجال ونساء يؤمنون بأفكار اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية معينة ويرون فيها تقدم بلادهم ويجدون أن تكتلهم فى جماعة يزيدهم قوة، ويمكنهم من التأثير على السلطة وساعدهم على ذلك أن الحرية التى هى أساس النظام الرأسمالى لم تكن لتتجزأ، وكان لابد من السماح بتكوين مثل هذه الهيئات والتجمعات..

وهكذا ظهر فى مجال التعليم جماعات تدعو إلى تعميمه، ومجانيته وإصلاحه وتغيير مناهجه بما يتفق مع متطلبات الحياة، وإطلاق المبادئ والملكات الحرة للدارسين وعدم الاعتماد على وسيلة التلقين التقليدية.

وظهر فى مجال تحرير المرأة هيئات عديدة تضم الرجال والنساء معاً تدعو إلى تحقيق المساواة بين المرأة والرجل بما فى ذلك حق الملكية والعمل وحق التصويت وحق الترشيح.

وظهر فى مجال الصحة العامة هيئات تدعو لإصلاح نظم التمريض والعلاج فى المستشفيات، وحق الشعب فى العلاج المجانى أو المدعم من الدولة، والحق فى الإجازات المرضية الخ...

ولم تعدم السجون من يتصدى لإصلاحها ويدعو لنبد الوسائل الوحشية المتبعة فيها، فظهرت جمعيات عديدة تدعو لإعادة النظر فى القوانين العقابية وتكييف الجريمة ومعاملة السجين وأن المجرم فى كثير من الحالات، يكون ضحية الظروف الاجتماعية التى أدت به إلى الجريمة.

وظهرت الجمعيات السياسية والأحزاب التى طالبت بالنظم الانتخابية الشعبية وتقييد سلطة الحكم وأن تكون السيادة للشعب.. وأن يتولى الحكم الأحزاب أو الهيئات التى تتال ثقة الجمهور، وأن تحل الديمقراطية محل النظم الأتوقراطية والأرستقراطية.

أما فى مجال الدين فحدث ولا حرج عن الهيئات والجماعات والمذاهب التى ظهرت بعد أن انقطع الوحي من السماء فنهضوا بتراث الأنبياء ودعوا إلى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والتحرر من آثار الأسلاف والقضاء على الخرافات التى تلتصق بالعقائد. وقدم رجال كثيرون حياتهم ثمناً لدعواتهم الإصلاحية إذ أحرقوا أو قتلوا أو سجنوا أو عذبوا..

وفى ميدان الفنون والآداب تعددت الجماعات والهيئات والفرق التى أنزلت الآداب والفنون من أبراجها العاجية ومن دوائرها الأرستقراطية إلى واقع الحياة ومكنت الجماهير من الاستمتاع بما لم يكن يستمتع به إلا الأرستقراطيات فتعددت الفرق المسرحية - وظهرت فنون الغناء والموسيقى وأدخلت البهجة والمتعة فى حياة الكادحين، وظهرت مع ظهور المطبعة الملايين من الطبقات الشعبية والرخيصة للآداب العالمية من فن ونظم، ونثر وشعر وقصة ورواية.

هذه الهيئات والجماعات هي التي نهجت ونظمت مشاعر وآمال الأفراد، وبلورتها في دعوات تقوم بها هيئات لها وجود مستقل ودائم. لقد كانت هي المعبرة الحقيقية عن نبض الشعب وإرادته ورغباته وعملت بكل قوة لتحقيقها بمختلف الطرق من دعاية ونشر واتصال واتفاق مع أعضاء المجالس النيابية والمحلية والبلدية ومطالبات متكررة للحكومات واتخاذ وسائل للضغط من مظاهرات أو مسيرات أو إضرابات أو غير ذلك بحيث كبحت جماح السلطة وحيدت فسادها بل استطاعت - كما سنرى في المثال الذي اخترناه مثال الحركة النقابية البريطانية وسعيها الدائب متعاونة مع جناحها الجمعية الفابية وحزب العمال. أن تحقق لأول مرة سنة ١٩٤٥ دولة الرعاية عندما استطاع حزب العمال أن يحكم بريطانيا بأغلبية برلمانية كاسحة.

وحقا إن هذه الجهود كثيراً ما تُصاب بنكسات، وتضطر للرجوع إلى الوراء خطوات، ولكنها تواصل المسيرة فتعوض خسائرها..

* * *

من بين هذه الهيئات والجماعات التطوعية اخترنا كمثال الحركة النقابية لأنها بسعيها الدائب وبوسائلها الفنية التي سنتحدث عنها رفعت ظروف العمل من أجور، وتأمينات الخ... ونهضت بمستوى حياة الشعب البريطانى كما وضعت في وقت مبكر. (١٨٣٨) "ميثاق الشعب لإصلاح النظام الانتخابى البريطانى فأدت مواصلتها لهذه المسيرة دون كلل وبفضل جناحها الجمعية الفابية. وحزب العمال إلى تحقيق ثورة في أسلوب الحكم وأن توجد لأول مرة دولة "الرعاية" ..

إن الوعى عن هذه الجماعات والهيئات والحركات ضحل وسطحى، وبوجه خاص بالحركة النقابية التي هي أشمل هذه الحركات وأهمها لأنها تضم العاملين جميعاً من رجال ونساء دون تفرقه. ولأنها هي القوامة على مرفق العمل أى أنها هي التي تحرك عجلة الإنتاج فى المصانع والحقول والمرافق.. ولعلنا بتسطير هذه الصفحات أن نستكمل هذا النقص فى المعرفة.

* * *

الثورة الصناعية :

كانت البشرية تستخدم فى صناعتها وزراعتها وسائل توارثتها الأجيال طوال القرون الماضية وكانت هذه الوسائل تعتمد على اليد وتتميز بالمهارة المستمدة من الذكاء الفردى أو صفات القوة والمهارة والدأب التي تميز بها بعض الناس عن بعض، ولكنها بصفة عامة كانت واحدة فى الشرق والغرب، فى الشمال والجنوب..

ونتيجة لعدد من التطورات التي لا يتسع المجال لتفصيلها هنا، ظهر فى إنجلترا فى الثلث الأول من القرن الثامن عشر حدث على أعظم جانب من الأهمية والخطورة وإن بدا أولاً أنه لا يثير الانتباه. ذلك الحدث هو اكتشاف قوة يمكن أن تقوم بالعمل غير قوة الأيدى البشرية. وبشكل أكثر اتصالاً وقوة مما يتوفر للأيدى. وكانت هذه القوة هي البخار. التي بدأت ساذجة ولكن التحسين المتوالى فى طريقة استخدامها أدى إلى صنع آلات للغزل والنسيج تحل محل الأنوال اليدوية التي كانت تنتشر فى قرى إنجلترا وتقوم عليها صناعة غزل ونسيج الصوف التي كانت من أكبر موارد قوة بريطانيا.. وفى مرحلة لاحقة على امتداد قرن من الثلث الأول للقرن الثامن عشر حتى الثلث الأول للقرن التاسع عشر استخدمت هذه القوة لتسيير القطار البخارى. وشاهد الناس مبهورين عربات تترايط وتسير دون أن تجرها الخيول والبغال..

وقلبت الثورة الصناعية عالم الصناعة والعمال رأساً على عقب. وتعرض عمال بريطانيا للتشرد، ولم تعد ورشهم الحرفية وآلات الغزل والنسيج اليدوية والخشبية تغنى شيئاً أمام المارد المصنوع من الحديد والذى يتغذى بالفحم والنار وظهرت طبقة الرأسماليين، وهم أصلاً من التجار الذين دخلوا مجال الصناعة كأداة للكسب فهبطوا بالأجور وأطالوا ساعات العمل. وزاد فى شقاء العمال البطالة التى شردتهم وجعلتهم ضحايا مستسلمة أمام الرأسماليين فأعدادهم تزيد عما تطلبه الآلات. وبهذا أصبح قانون العرض والطلب فى غير مصلحتهم، ولما كان العمل يعد وقتئذ سلعة ثمنها هو الأجر، فإن قانون العرض والطلب الذى يحكم أثمان السلع أصبح تلقائياً فى غير مصلحة العمال.

وكان يفترض طبقاً لاقتران قانون العرض والطلب بظاهرة زواج العمال وإنجابهم أن تبخس أجور الجيل الثانى من العمال أكثر من أجور الجيل الأول. لأن الجيل الثانى تزوج وانجب فى حين أن الوظائف قلت لزيادة استخدام الميكنة. وهكذا تنزل أجور هذا الجيل الثانى، وتتكرر المأساة مع الجيل الثالث والرابع حتى يصل الأجر إلى الكفاف الذى لو نزلت عنه لمات عدد من العمال جوعاً. ولو مات عدد من العمال جوعاً لقل عددهم، ولو قل عددهم لارتفع أجرهم، وهذا هو قانون الأجر الحديدى الذى حدد للعامل جحيماً "لا يموت فيه ولا يحيا" وكان من الممكن أن يتحقق هذا، فقد تخلت الكنيسة عن العمال. وكانت الحكومة هى حكومة أصحاب الأعمال، وكان المناخ هو مناخ الأثرة الفظة "كل لنفسه.. وليأخذ الشيطان الأخير" وصارح مالتوس الفقراء أن ليس لهم أن يشكوا.. فلم يستأذنوا الطبيعة قبل أن يأتوا.. وأن على الفقراء أن يعملوا لكى لا يزدادوا فقراً. وبررت كل سوءات الرأسمالية بمبررات بدت معقولة! فالبطالة ليست نقمة، بل هى نعمة وجزء لا يتجزأ من آليات النظام. وكيف يمكن أن تفتح أو تغلق المصانع ما لم يوجد هذا الجيش الاحتياطى من العمال العاطلين، وساعات العمل الطويلة المرهقة حسنة! لأنها تعود الأطفال العمل والدأب وتقضى على نزعة الكسل، والأجور الضئيلة مطلوبة لأنها تجبر العمال على مواصلة العمل وتحول بينهم وبين التردد على الحانات!.

كان من الممكن أن يتحقق هذا الجحيم الذى يعيش فيه العمال كما لو كانوا قطيعاً آدمياً، مسخراً للعمل وتستبعد منه كل أثاره لإنسانيته...

لو لم تقم النقابات...

الفكرة الجوهرية فى النقابية: احتكار عرض العمل

ووسيلة التطبيق : الاتفاقيات الجماعية...

لكى يمكن للحركة النقابية مقاومة هجمة الاستغلال الرأسمالى العاتية. أبدعت تكنولوجيا لم يتصوره دهاقنة الصناعة والاقتصاد السياسى وقتئذ، واستطاعت بهذا التكنيك. أن "تحتكر" عرض العمل فشلت حرية هذا القانون وانطلاقته التى تحكم على العمال بالعبودية ووجد أصحاب الأعمال أنفسهم ذات يوم وقد ظهرت هيئة اسمها نقابة تضم كل العمال. وتتقدم باسم العمال طالبة زيادة فى الأجور وتقصيراً فى ساعات العمل الخ... فإذا رفضوا فلن يعمل لديهم عامل واحد لأن كل العمال وكلوا النقابة فى التحدث باسمهم.

لقد أسقط فى أيديهم، فمهما كانت الآلية، فالعمال هم الذين يحركون الآلات. والعمال فى النقابة، وإلى النقابة سار أصحاب الأعمال، أو أنهم قابلوها فى منتصف الطريق. ووجدوا أنفسهم يجلسون مع العمال على

مائدة واحدة ويتساومون في المطالب.. ويسلمون للعمال بما يمكن أن يحول بينهم وبين الإضراب. ويوقعون "اتفاقية جماعية".

كان هذا انتصاراً مؤزراً. في إبداع الأسلوب والوصول إلى النتيجة. ومن هذه اللحظة وقف نزول الأجور وامتداد ساعات العمل. والاستبداد الطليق بالعمال. فهل هناك قصة أكثر إنسانية من هذا؟ وهل هناك انتصار في معركة اجتماعية يمثله؟.

ولم تقف النقابة عند البداية التي أبدعتها. إذ وضعت سياسة دقيقة ومحكمة لكفالة استمرار زيادة الأجور عند تجديد كل اتفاقية، ومدتها في العادة ما بين سنة وثلاث سنوات، وحددت هذه الزيادة بشكل يجعلها الأفضل لصاحب العمل ويحول بينه وبين أن يدخل معركة مستقلة مع العمال.. أو يغلق المصنع الخ... بحيث يذعن في النهاية، وبذلك فرضت النقابات علاوات دورية على الأجور، وعلاوات أخرى طبقاً للإنتاج. وعندما خدعها أصحاب الأعمال. فمنحوا العمال الزيادات المطلوبة في الأجور، ثم رفعوا الأسعار. بما يزيد عن زيادة الأجور، ووجد العمال أنهم كمستهلكين يخسرون ما كسبوه كمنتجين، لم تستسلم النقابة، إذ توصلت إلى إدماج مادة في الاتفاقيات الجماعية تنص على أنه إذا زادت أسعار المواد الرئيسية التي هي قوام معيشة العامل من خبز أو لحم أو سكر أو زيت الخ... بنسبة مئوية معينة. فإن الأجور تزيد بالنسبة المئوية التي زادت بها الأسعار..

وهكذا استطاعت الحركة النقابية أن ترفع المستوى العام للأجور. وأن تكفل له زيادات دورية، وزيادات مع زيادة الإنتاج وزيادات مع زيادة الأسعار.. وكل زيادة من هذه الزيادات المادية لها ترجمتها الإنسانية: عواطف ومشاعر، واستقرار وأمن، ونور ودفء واستقرار، ورضا وقدرة على الاستمتاع بالحياة وممارسة مجالات النشاط الإنساني من فنون وآداب.

ولم يقتصر فضل الحركة النقابية في مجال الأجور على العمال. لأن من المعروف أنه عندما تزيد أجور فئة ما من العمال فإن هذه الزيادات تنتقل إلى أجور عمال آخرين، ثم إلى فئات أخرى غير العمال من حرفيين أو فلاحين. وفي إنجلترا يقولون "إذا زاد أجر الفحاح زاد مرتب الأسقف". فعمل الحركة النقابية الذي بدأت به نقابة أو نقابتان تحول إلى ثورة سلمية أعادت توزيع الدخل فأخذت من الأغنياء وأعطت الفقراء وحققَت العدالة الاجتماعية لا بالنسبة للعمال فحسب، ولكن لكل فئات المجتمع..

وحقق العمال انتصاراتهم تلك بوسيلة المفاوضة الجماعية التي تعد وسيلة حضارية بمعنى الكلمة، لأنها تختلف عن الحروب التي تسوى بها الدول مشاكلها ما بينها. أو الضغوط التي يمكن أن تمارسها الحكومة على شعبها من سجن أو اضطهاد. وهي بالإضافة إلى أسلوبها الحضاري. فإن هذا الدور له طابعه الجماعي الذي يعمل لتحقيق المصلحة للمجموع لا للفرد ويقوم على الشورى والديمقراطية وليس باستبداد طرف واحد باتخاذ القرار.

الإضراب: وسيلة الضغط النقابي..

وليس معنى هذا أن الحركة النقابية لم تجد نفسها في حاجة إلى وسيلة للضغط لأن هذا يتنافى مع الطبيعة البشرية وما طبع عليه المميزون من حرص على مزاياهم، فأبدعت الحركة النقابية أسلوب الإضراب كوسيلة للضغط وهو أيضاً أسلوب حضاري لأنه لا يستخدم الأسلحة أو العقوبة ولكنه الامتناع الجماعي

السلمى عن العمل الذى يتحمل فيه العمال من التضحية يقوم أصحاب الأعمال بتقديمه، وما قد يكون بالنسبة لظروف العمال - أفسى عليهم مما هو على أصحاب الأعمال - وكان هذا السلاح رغم طبيعته السلبية فعالاً وأرغم أصحاب الأعمال على التسليم للعمال بما هو عادل ومعقول.

ولما كان الإضراب هو وسيلة النقابات الفعالة للضغط، ولما كان من المسلم به أن النقابات هي الأداة المنظمة لحماية العمال وتحقيق مطالبهم، فإن التشريعات اعترفت بمشروعية الإضراب المهني. كما اعترفت به المواثيق الدولية عن العمل.

أن سلاح الإضراب الذى أبدعته الحركة النقابية فى صراعها المهني مع الرأسماليين، يمكن أن يكون سلاحاً لكل هيئات المجتمع لتحقيق مطالبه المشروعة بحيث يمكن القول أن الحركة النقابية قد أهدت إلى المجتمع أسلوباً فعالاً للضغط دون أن تكون له الآثار السلبية لوسائل الضغط الأخرى وهذا هو ما حدث فإضرابات الطلبة والأحزاب السياسية قد لا تقل عن الإضرابات العمالية.

ولم يقف إطار العمل النقابي حول زيادة الأجر فقد شمل تقصير ساعات العمل، وتطبيق وسائل الأمن الصناعي وكل ما يتعلق بصحة العمال الخ... وممارسة هذه المطالب كان يوسع إطار "الشورى" الصناعية مع أصحاب الأعمال بحيث حققت النقابات الديمقراطية بعد أن حققت العدالة دون أن تتورط فى أوزار السياسة.

ميثاق الشعب ١٨٣٨ - ١٨٤٨ ..

قامت الحركة النقابية البريطانية بدور جماهيري بارز لإصلاح النظام الانتخابي الذى كان قد طال عليه العهد وظل قرابة ٤٠٠ سنة دون تغيير فى الحركة التى حملت اسم الميثاقية **Chartism** وأخذت الحركة هذا الاسم لأنها تبلورت فى تقديم ميثاق **Charter** أطلق عليه العمال "ميثاق الشعب" وكان يستهدف أن تحقق الحكومة ستة مطالب هي :

١. إعطاء حق الانتخاب لجميع الذكور. لأن هذا الحق كان مقصوراً على فئات بعينها، وفكر الميثاقيون فى أن يكون هذا الحق لجميع الشعب (رجالاً ونساءً) ولكنهم تفادوا مقاومة - أو حتى سخرية - المجتمع البريطانى لو طالبوا بحق الانتخاب للنساء فقصوره على الذكور.
٢. أن يكون الانتخاب بالاقتراع السرى. لأنه كان يتم بصورة علنية كانت تجعل الناخبين تحت تأثير المرشحين الأقوياء أو الأثرياء الذين يتابعون العملية الانتخابية.
٣. المساواة والعدالة فى توزيع الدوائر. لأن الدوائر كانت قد حددت منذ ٤٠٠ سنة تقريباً، وفى هذا الوقت كانت إحدى المناطق مأهولة ومن حقها انتخاب نائبين، ولكن التطور الصناعى والإنتاجى أدى إلى هجرة سكانها إلى مناطق جديدة. وهذه المناطق لم يكن لها حق الانتخاب لأنها كانت وقت تحديد الدوائر أراضاً بوراً. وكانت نتيجة ذلك أن كان من حق منطقة مهجورة انتخاب نائبين بينما حرمت المناطق الصناعية حيث مناجم الفحم والحديد وتركزت العمال من حق انتخاب نواب.
٤. إلغاء اشتراطات الملكية للمرشحين. لأن الفكر السياسى القديم أعتبر أن الملاك الذين يملكون الثروات هم "أصحاب المصلحة الحقيقية" أما المعدمون فليس لهم مصلحة !

٥. منح النواب مرتبات. لأن النواب لم يكونوا يمنحون مرتبات من مجلس العموم - لأنه رغم اسمه - كان أرقى نادى فى أوربا كما يقولون. وكان أعضاؤه من أصحاب المصانع وكبار التجار الخ... ولم يكن هؤلاء فى حاجة إلى مرتبات. وإنما يرشحون أنفسهم حتى لا يمكن للحكومة أن تفرض ضريبة إلا بموافقتهم. وهذا الوضع يتغير بالطبع إذا دخله عمال ليس لهم دخل خاص.

٦. أن تكون مدة الدورة النيابية سنة.

وأخذ الميثاق صورة عريضة تطالب بتحقيق هذه المطالب يوقع عليه العمال فى كل مصنع. وتتخذ هذه العرائض وتلصق على شريط عريض يلف حول بكره ضخمة دخلت من باب مجلس العموم بصعوبة لكي ينظر فيها..

وقدم الميثاق ثلاث مرات، وبلغت التوقيعات عليه فى المرتين الأخيرتين بضعة ملايين وقاربت الحماسة المحمومة حد للثورة، وأصبح الحديث عن السلاح والبحث عنه أمراً مألوفاً، وعادت مرة أخرى فكرة الإضراب العام طوال شهر مقدس حتى ينفذ الميثاق، وحصنت الحكومة لندن ومواقعها وعبأت جنودها، وجاءت بالدوق ولنجتى العجوز قاهر نابليون وبطل وترلو قائداً ليشرف على تحصينات مدينة لندن يوم قدم الميثاق للمرة الأخيرة سنة ١٨٤٨.

ولم يتحقق أى مطلب من مطالب الميثاق عندما قدم فى المرات الثلاث (١٨٣٨ - ١٨٤٨) لعزوف أعضاء مجلس العموم، ولكن المطالب تحققت واحدة إثر الأخرى. بفعل التطورات وضغوط النقابات والمصلحين وهيئات المجتمع. وكان آخرها تطبيقاً هو منح النواب مرتبات. ولم يتحقق إلا سنة ١٩١٣ عندما أصبح عدد من العمال المرشحين نواباً. وتعين صرف مرتبات لهم.

المطلب الوحيد الذى لم يتحقق هو أن تكون مدة الدورة الانتخابية سنة واحدة، إذ اتضح أن هذا غير عملى، وأن العمال عندما طالبوا به كانوا متأثرين بالدورة النقابية التى كانت وقتئذ لمدة عام.

ويجب أن لا ننسى أن الحركة النقابية كانت هى قاعدة تكوين حزب العمال الذى حل محل حزب الأحرار وأصبح هو وحزب المحافظين فرسى رهان...

وأخيراً فقد كانت للحركة النقابية البريطانية الفضل فى تدعيم دعوة "الأممية الأولى" التى تكونت سنة ١٨٦٤ واتخذت من لندن مقراً لها، وهى أول صورة "لعولمة" جماهيرية شعبية وكان يمكن أن تزدهر لولا تدخل ماركس وبعض المتطرفين فيها.

فهذا العمل النقابى يقدم لنا صورة فعالة ومؤثرة للنهضة بالمجتمع قام بها رجال من صميم الشعب ونجحوا فيها لأنهم توصلوا لإبداع آليات فعالة فى تطوير المجتمع والنهضة به ويمكن لكل حركة نقابية فى دول العالم الثالث أن تقوم به إذا استوعبت أصول وفنية العمل النقابى من ناحية، وأهدافه العامة والشعبية من ناحية أخرى.

الفصل السادس عشر

العلماء والمخترعون والدعاة يقيمون العصر الحديث

- ١ -

تقدم لنا أوربا مثلاً ثالثاً للعوامل التي تنهض بالأمم حتى وإن لم يكن مقصوراً عليها، ولكنه بارز فيها، لأن أوربا لم تكن أرض النبوات والرسول. وقد منحها الله تعالى الكثير من المزايا ولكنه لم ينعم عليها بالأنبياء، ونتيجة لذلك كان عليها أن تلتمس الهداية ممن اعتبرهم الإسلام ورثة الأنبياء - أى العلماء. وقد ظن فريق من فقهاءنا أن المقصود بالعلماء هم "أهل الحديث" أو "أهل السنة والجماعة" وكأنهم لم يقرعوا ﴿لَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. {٢٧ فاطر}..

"لقد أراد القرآن الكريم بالعلماء هنا كل الذين يستكشفون الآفاق الجديدة ويلمون بالأبعاد العديدة للحقيقة ويُعملون عقولهم فيما يرون ويستخدمونها فيما يريدون.. سواء كانوا علماء أدب وفن، أو علماء طبيعية ورياضة، أو جغرافيا وجيولوجيا، أو فلاسفة يعالجون من منطلق العقل ما عالجه الأنبياء من منطلق الوحي حتى يقفوا على باب الألوهية المقدس.. حيث لا يجرؤ عقل على الدنو.

من فجر التاريخ الأوربي ظهر الشعراء والروائيون العظام فى اليونان و قدموا للشعب تلك الروائع الشعرية والمسرحية التى بلورت "الوجدان" اليونانى، وفيما بعد، الأوربي وضمنوها أمثلة عديدة للمغامرة والشجاعة، والقوة، والجرأة.. وهى بوجه خاص الفضائل التى تتجاوب مع النفسية الأوربية، ثم ظهر الفلاسفة الذين كللوا فى العصر القديم بسقراط وأرسطو وأفلاطون فعالجوا مشاكل الوجود، والكون، والحياة، والموت، والطبيعة وما توحى به آياتها وظواهرها.. كما عالجوا مفاتيح كل العلوم تقريباً لأن الفلسفة وقتئذ كانت أم العلوم وكانت تنتظم الرياضة البحتة وعلم الطب والموسيقى، والحساب والهندسة كما تعالج مشكلات الحكم. وكان ما قدمه الشعراء من ناحية والفلاسفة من ناحية أخرى ما يمكن أن نسميه الأساس المعنوى والنظري للحضارة الأوربية الذى يجتمع فيه العلم والفن والعقل والقلب.

ثم توالى القرون وتعرضت أوربا لبيات طويل امتد عشرة قرون كان الشرق الإسلامى فيها يقدم عطاءه، وكان الفلاسفة الإسلاميون يبدعون حيث انتهى فلاسفة أثينا، كما كان العلماء المسلمون فى الطبيعة والكيمياء والطب يقدمون الأسلوب التجريبي العملى الذى كان مفقوداً فى المجتمع اليونانى. ففى هذا المجتمع كان العمل مقصوراً على العبيد أما السادة فإنهم يفكرون - ولكن لا يعملون حتى أن الطبيب اليونانى كان يدلى بتوجيهاته لمساعدته العبد الذى يمارس العمل لأنه ليس من شأن الطبيب أن يعمل، وكأنه المهندس الذى يأنف أن يعالج الآلة بيديه ويعرضهما للشحم والزيت الخ... نتيجة للتشويه الثقافى فى نظمنا التعليمية. جاء العلماء المسلمون وكان رائدهم جابر بن حيان بالأسلوب العملى والتجريبى، وكان هو أول كيميائى فى التاريخ استخدم النار والأنابيب والأنبيق والبوتقة والنقط العلماء الأوربيون عندما بدعوا نهضتهم هذه الأساليب

فيما التقطوه من عناصر إصلاح شملت حتى الكنيسة والإصلاح الديني الذي كان تطبيقاً للأصول الإسلامية في نفى الوساطة بين الله والإنسان وتحريم الصور والتماثيل والشفاعة الخ... التي كانت تعج بها المذاهب الكاثوليكية.

بدأت النهضة الأوروبية وكان من سعدا أن بدأت في عصر جاوز عصر الإيمان ليبدأ عصر العقل. لأنهم كانوا أنداده وأجناده وأبطاله.. وكما بددت الأديان ظلمات الكفر والوثنية وأضاعت بقبس من الألوهية سبيل الهداية والإيمان، فإن العقل جاء بالعلم ليستكشف العوالم المحيطة بالإنسان وليجيب على الأسئلة كيف؟ ولماذا... وكأنه يطبق التوجيه القرآني في التدبر في السماء والأرض والليل والنهار والعناصر والمعادن والإنسان وما يعرض له من صحة ومرض واختلاف الأجناس والألوان واللغات الخ... بدعوا حيث انتهى العلماء المسلمون وتسلحوا بالأسلوب العلمي والتجريبي الذي بدأه العلماء المسلمون ثم ويا للأسف نسوه وأهملوه.

ومما يثير الدهشة أن معظم الاكتشافات التي أحدثت الثورة الصناعية والثورة العلمية والتي انتهت بالأجهزة والاكتشافات الكبرى كالآلات البخارية، والتليفون والكهرباء والسيارات الخ... كلها بدأت بدايات بسيطة ساذجة، وعلى أيدي مهرة الصناع وأجريت التجارب عليها في البيوت وكانت المصادفة العارضة عاملاً فيها.. وعندما يتساءل الإنسان ولماذا لم تتح هذه العوامل للعلماء المسلمين وهم الذين بدعوا المسيرة لكان الرد أن الأوربيين قد رزقوا قوة ملاحظة نفاذه. فما الذي يجمع بين إطارة البخار لغطاء الحلة المغلقة، وبين فكرة استخدام البخار كقوة دافعة؟.. وبين سقوط تقاحة، وقانون جاذبية الأرض؟.. إن الكثير من الاختراعات جاءت عن طريق مصادفات كهذه كان يمكن أن تذهب أدراج الرياح لولا قوة الملاحظة، وما هو أهم، أن المجتمع الأوربي مجتمع حيوي يؤمن بالحياة، والحياة هي رأس ماله الوحيد، فهو لا يفكر في حياة أخرى بعد الموت. إن الحياة هي جنته وناره، ومن أجل هذا فوراء علمه، وفلسفته، وفنونه، رغبة غريزية عميقة في أطواء النفس عن حب الحياة، وعن تسخير كل قوى الطبيعة لجعل الحياة أكثر ثراء وكانوا في هذا يختلفون بالطبع عن المجتمع الإسلامي الذي جعله إيمانه بالحياة الآخرة يستهدف هذه الحياة وكان الطريق فيما ظن - لأن العصر كان عصر الإيمان الذي أطبق على هذه الأجيال - هو العبادة فحافوا على حق حياتهم وكان جديراً بهم أن يعلموا أن إثراء الحياة الدنيا يثرى الحياة الآخرة أيضاً، لأن الحياة الدنيا كما يقولون. مزرعة الآخرة ولكن روح العصر حالت دون أن يدركوا ذلك ففقدوا تلك القوة الدافعة المحرقة التي تتضرم في نفوس الأوربيين وتجعلهم يسخرون كل ملكاتهم لخدمة الحياة. ولو اقتصررت البحوث والاكتشافات والاختراعات على جانب الاستمتاع بالحياة فقد يكون للفكر الديني شيئاً من الوجاهة. ولكن النقطة الهامة هي أن تلك البحوث والعلوم استهدفت أول ما استهدفت الطاقة: أي القوة. وعن طريقها أصبحت الدول الأوروبية أقوى دول العالم وتمكنت من استعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، ثم واصلت المسيرة في الولايات المتحدة - حتى نقلت الحروب من الأرض إلى السماء وأصبحت سموات العالم مكشوفة أمام الطائرات والصواريخ الخ... من هنا ظهر خطأ الفكرة التي استولت على أذهان المفكرين الإسلاميين سواء كانوا مفسرين أو محدثين أو فقهاء، أو شعراء، عن تسخير الحياة الدنيا للآخرة بالعبادة من صلوات أو ابتهالات أو صوم الخ... وكان قمينا بهم أن يعملوا لجعل إثراء الحياة الدنيا وأن تكون مجال قوة تجعل المسلمين أعزة، ولا عزة إلا بالقوة.

وبجانب هذا الانغلاق الدينى، وجد الاستبداد السياسى لطغاة حكموا حكماً مطلقاً وأهدروا ضمانات العدالة وآليات الشورى التى أوجبها الإسلام، وكان الكثير منهم قادة عسكريين ولم يكن معظمهم من أهل المنطقة ولم يكن لديهم شعور بأن الحكم وظيفة لتعمير الأرض وإصلاح المجتمع وإسعاد الناس. وبينما كان ملوك أوروبا وأمراؤها يشجعون "العلم ويقدرون المكتشفين كان ملوك الشرق وخلفاؤه يكافئون الشعراء الذين يمدحونهم ويجزلون لهم العطاء. فكانوا من أكبر أسباب تأخر العالم الإسلامى.

هذا استطراد رأينا فيما يبدو أنه هام لأنه يجيب على علامة استفهام مزعجة، ولأنه قد يسهم فى تصحيح وضع خاطئ...

ولنعد مرة أخرى إلى السياق..

فنرى أن عملية اكتشاف قوى الطبيعة بدأت فى مجال الطاقة - أى القوة التى كانت حتى ذلك الوقت هى العضلات الإنسانية أو قوى الحيوان. وبدأت مع استخدام ظاهرة "قوة البخار" وطرات فكرة حبسه فى قناة ضيقة بعد غلى الماء بنار الفحم حتى يصبح له قوة دافعة تسلك طريقها فى سلسلة من القنوات بحيث تحرك تروساً أو روافع. أو أجهزة فى آلات وبدا استخدام الفكرة فى صناعة الغزل والنسيج، وضمت المجموعة التى توصلت إلى ذلك غزلاً، وحلاقاً، وقسيساً، ورابعاً بحيث ظهر فى النهاية المغزل الآلى ونول النسيج الميكانيكى، بينما كان هناك محاولات جادة لاستخدام البخار فى المضخات التى تسحب الماء من مناجم الفحم، ودفع بإحدى هذه المضخات إلى ميكانيكى نابغ هو جيمس وات الذى عكف على إصلاحها بحيث أصبحت تؤدى المهمة بكفاءة.

وانتقلت الفكرة إلى مجال آخر هو مجال النقل الذى كان بدء التقدم فيه هو إقامة قضبان حديدية تسير عليها عربات تجرها الخيول. وكان هذا بالطبع يكفل سرعة أكثر من سرعة العربات على الأرض. ولكن جورج استفنسن - وقد كان وقادا وميكانيكىاً - فكر فى استخدام قوة البخار فى آلة تقوم بجر العربات - أى القطار وذلك بتحويل الطاقة من المحرك إلى عجلات الجر عن طريق عجلات مسننة، وعكف على ذلك حتى توصل إلى صنع قاطرته التى أطلق عليها "الروكت" التى ركبها خمسة وثلاثون راكبا وسارت بسرعة ٢٥ ميلاً فى الساعة وكانت تلك هى البداية المتواضعة التى سارت قدماً حتى ظهرت القطارات التى تسير بسرعة مائة ومائتى كيلو وتجر عشرين عربة وكانت أكبر عامل فى بلوغ الأراضى البعيدة واستثمارها وربطها وإنتاجها بالأسواق.

كان البحث عن "الطاقة" فى حقيقته تعبيراً عن إرادة المجتمع الأوروبى التوصل إلى "القوة" وهذا هو ما كان فى ذهن جيمس وات. وعندما زاره ملك إنجلترا فى ورشته هو وشريكه بولتن وقال له فى آنفة الملوك.

- ماذا تصنعون.

- أجب إننا نضع يا مولاي ما يريد كل الناس "القوة" **Power**.

ولهذا لم يكن اكتشاف البخار إلا الخطوة الأولى فى سبيل استكشاف القوى التى وصلت إلى الكهرباء ثم إلى الذرة...

وكان المجتمع الأوربي فى بحثه عن القوة، وفى استخدامه العلم لتسخير الطبيعة وعناصرها لخدمة الحياة مسوقاً بتلك بروح الحيوية، وحب الحياة وجعلها محوراً ومنطلقاً للنشاط الإنسانى.

وعبرت كتابات فرانسيس بيكون ١٥٦١ - ١٦٢٦ عن التكيف الجديد للعالم والوسائل العلمية للتعامل مع قوى الطبيعة فى مؤلفه **Novm Organum** الذى رزق انتشاراً وأثار انتباه الجمهور للعلم والبحث العلمى ثم جاء ديكارت فحرر الفكر من إسار الاتباع الأعمى وضرورة التثبت من صحة الأحكام واختبارها على محك العقل والتجربة.

"ومما أمتاز به القرن السابع عشر إنشاء جمعيات علمية فى مختلف الحواضر الأوربية. غايتها أن تضم رجال البحث العلمى والفلسفى، للمباحثة والمناقشة حثاً للهمم وشحداً للأذهان فتألفت فى إيطاليا سنة ١٦٠٣ الجمعية اللينوسية (**Linnean**نسبة إلى لينىوس العالم النباتى) برعاية المركز فرديريجو شيزى وكان غليليو عضواً فيها ثم انحطت فحلت محلها الجمعية المشهورة باسم مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين (نسبة إلى فلورنسة) فى سنة ١٦٥٧ ومن أشهر أعضائها توريشلى صاحب التجارب المشهورة فى ضغط الهواء. وفى فرنسا أنشئت أكاديمية العلوم الملكية سنة ١٦٦٦ فى عهد الملك لويس الرابع عشر. وتألفت جماعة فى اكسفرى سنة ١٦٤٥ تحولت فى عهد الملك تشارلز الثانى سنة ١٦٦٢ إلى معهد ملكى يعرف باسم الجمعية الملكية لتقدم العلوم واسمه المتداول الآن الجمعية الملكية فقط. ومما يتصل بإنشاء هذه الهيئات العلمية تأسيس مرصد باريس القومى سنة ١٦٦٧ ومرصد غرينتش سنة ١٦٧٥.

أما وهذه هى الأحوال المؤاتية للعلم والبحث، فلا عجب أن يتصف النصف الثانى من القرن السابع عشر بنشاط عجيب فى البحث العلمى، وبتقديم أعجب فى الرياضة والطبيعة، وبطائفة ممتازة من أكبر العلماء والفلاسفة الطبيعيين أمثال بويل وهوك وهالى فى إنجلترا. وليبنتز وهوجنس وتوريشلى وباسكال فى ألمانيا وهولندا وإيطاليا وفرنسا. ولكن نيوتن كان بين معاصريه، كالجبل الشامخ، كان جباراً بين جبابرة، كان عالماً لا يدانيه عالم آخر فى تنوع مباحثه وجمله ما أضافه من الحقائق والقواعد الأساسية إلى علوم الطبيعة. كان حقاً أميراً لفلاسفة الطبيعيين بلا منازع^(٧٥).

ويضع أمامنا كتاب "أساطين العلم الحديث الذى وضعه فؤاد صروف محرر المقتطف سنة ٣٦ عقداً نظيماً للعلماء والمخترعين والمكتشفين الذين رادوا هذا الطريق من القرن السادس عشر حتى الفترة المعاصرة بدءاً من الذين وجهوا مرصدهم نحو السماء لاستكشاف النجوم والأقمار والكواكب والشمس مثل كوبرينكوس وكيلر وجليليو وهرشل أو الذين عالجوا الطبيعة مثل بريستلى ولافوازيه ودايفى وفراداي ومكسول وميكليين ودالتون ومنديليف وكورى وذر فورى وماركونى ثم أديسن صاحب الألف اختراع وفورد الذى صنع السيارة والإخوان رايت اللذين صنعا الطائرة.

ومن الغريب أن الثورة الصناعية استهلت بفضل جهود صناع وعمال هم الذين توصلوا إلى استخدام قوة البخار فى آلات الغزل والنسيج ثم القطار البخارى.. ثم كادت الثورة تتكلم ببيضه من الصناع والعمال هم أديسن الذى توصل إلى اكتشاف المصباح الكهربائى. والجرامفون ومئات الاختراعات الأخرى التى يسرت السينما وكان أديسن بائع صحف و عامل تلغراف وفصل من المدرسة وهو طفل لأنه غبى! فتولت أمه

(٧٥) أساطين العلم الحديث - الأستاذ فؤاد صروف ص ٢٨ - المطبعة العصرية سنة ١٩٣٦ القاهرة

تربيته. وهذا الغبى هو الذى ضرب الرقم القياسى فى براءات الاختراع! أما فورد فكان ميكانيكيا وعامل فى إصلاح الساعات.. وهو الذى جعل من السيارة أداة عملية للركوب فقضى على عهد البغال والحمير وسمح بظهور المدن الكبيرة أما اللذان صنعا الطائرة لأول مرة وهما الإخوان رايت فكانا أصحاب دكان لإصلاح الدراجات ومن إصلاح الدراجات حتى آفاق السموات أمام الإنسان وقدا "بساط الريح" للجميع !.

وفى مجال الطب ظهر "غزاة الميكروب" الذين اكتشفوا لأول مرة بالعدسات المكبرة كائنات لا ترى بالعين المجردة. وقد رآها لأول مرة صانع عدسات هولندى يدعى لوفن هوك عندما نظر عبر إحداها فى قطرة ماء فوجدها تعج بمئات الكائنات الدقيقة. ودخل الحلية باستور وكان ابناً لدباغ وحفيداً لأحد أقنان الأرض فتوصل إلى ميكروب الكلب وشفاه الناس من داء من أسوأ الأمراض ثم واصل المسيرة أطباء وعلماء كيمياء كشفوا جراثيم السل. والدفتريا والجمرة ومعظم الأمراض وخلصوا البشرية منها أو أوجدوا فى الناس مناعة أو حصانة منها.

ومع مشارف العصر ظهر جهاز جديد هو الكومبيوتر أو الحاسوب، وظهر معه "الإنترنت" كما ظهرت قنوات التليفزيون الفضائية التى تنقل مادتها عبر الأقمار الصناعية فأصبحت أخبار العالم كله وأحداثه تشاهد وقت وقوعها فى أفريقيا وإن حدثت فى أمريكا.. وفى أوروبا وإن حدثت فى آسيا..

هذا العالم الرائع - عالم العلم - عالم المعرفة: عالم معالجة الظواهر والعناصر والقوى وأسرار الحياة والموت والصحة والمرض. هذا العالم الذى حقق حلم الأقدمين فى الطيران إلى الكواكب.. والنزول على القمر.. العالم الذى أمسك "الجوهر الفرد" وحجر الفلاسفة والأكسير الذى يجعل الرصاص ذهباً واستخرج أقوى قوة من أصغر "ذرة" كل هذه العوالم توصل إليها الإنسان من بدايات متواضعة حتى نهايات فاقت الخيال وجعلها العلماء فى خدمة البشرية.. هذه المعاشية هى التى يمكن أن ينفسها الملوك على العلماء.. أكثر مما ينفسها على الصوفى القديم (كما قالوا)...

إن العالم الحديث وضع تحت تصرف العامل والعاملة من وسائل الحياة ما لم يصل إليه الملوك والأباطرة.. وجعله هينا سهلاً سائغا يتم بضغطة من إصبع.

فالعصر الحديث، يدين سدى ولحمة، للعلماء والمكتشفين والمخترعين وهم الذين بنوه طوبة ودفعوا المجتمع الإنسانى ونهضوا به كما لم ينهض أحد من قبل.

* * *

إن حركة هذا التقدم والبحث والعلم والتوصل إلى الاكتشافات والاختراعات وأن كان قد بدأت متواضعة على ما أوضحنا فإن استمرارها ومواصلتها ما كان يمكن أن يتم لولا أن المجتمع الأوروبى كان مجتمعاً واحداً رغم تعدد دوله فكان العالم فى إنجلترا يستفيد من العالم فى فرنسا، وهذا يستفيد من إيطاليا، حتى روسيا القضية قدمت الرجل الذى وضع جدول العناصر طبقاً لوزنها الذرى فكان الجديد يبدأ حيث انتهى القديم وكان العلماء فى الشرق والغرب يتبادلون المعارف ويستكمل بعضهم ما ببعض وكان المناخ القائم هو مناخ الطموح نحو التقدم والثقة فى الإنسان والحرية فى المعرفة.

ظهر بجانب المخترعين والمكتشفين ورجال العلم، الشعراء والفنانون الذين اسهموا فى تقدم المجتمع. إن مسرحية "لعبة البيت" للمسرحى النرويجى أبسن كانت دفعة نحو تحرير المرأة كما دفعت رواية "كوخ العم

توم" دعوة تحرير العبيد فى الولايات المتحدة حتى أوقدت الحرب ورحب لنكولن بمؤلفتها "السيدة الصغيرة التى أضرمت الحرب الكبيرة" كما كان هناك الفلاسفة الذين وضعوا القيم للمجتمع ولا يتسع المجال لتعدادهم وحسبنا أن نذكر ديكرت الفرنسى الذى حرر الفكر من ربة الاتباع والتقليد واجست كونت فيلسوف التقدم وكانت صاحب القيم والواجب وهيجل الذى أبرز "الجدلية" التى قضت على منطق أرسطو الجامد وماركس الذى نقل الفلسفة من أبراج العاج إلى منابر الشعب وحولها دعوة للعدالة والانتصاف.. كل هؤلاء استكملوا للمجتمع الأوروبى قيمه، وآدابه، وهذبوا طباعه.

فأنى للحكومات والدول أن تقوم بشىء مما قام هؤلاء العلماء وما كان السبب الحقيقى لنهضة الشعوب وتقدمها..

هل قامت الدول والحكومات باكتشافات واختراعات؟ هل عكفت على علوم وأبحاث؟ هل قدمت فلسفة للحياة.. هيهات. إن الحكومات لا تعنى بالعلوم والأبحاث إلا عندما تتعلق بالتسليح. وعندئذ تستغل ثمرتها فى قتل الملايين وتدمير المدن وإشاعة الفوضى والخراب، وقد ندم ندماً شديداً علماء الذرة من اينشتين حتى أوبنهيمر أنهم وضعوا أسرارها فى خدمة الحكومة الأمريكية فصنعت قنبلتين أزالتا مدينتي أهلتي بمئات الألوف من السكان فى غمضة عين.

- ٢ -

قد لا تكون بعض البلاد محظوظة كالدول الأوربية التى تحدثنا عنها، ومع ذلك فإنها لم تحرم قوة تنهض بها، لم تكن هذه القوة هى اكتشافات العلماء.. ولا هى الإصلاحات السياسية ولكنها الأداب والفنون والدعاة وهذا ما حدث فى روسيا القصية البعيدة التى كانت على أطراف أوربا وأطراف آسيا وتمزقت هويتها بين الاثنين فكان هناك فريق سلافى يعود بها إلى آسيا البيزنطية وكان هناك فريق أوروبى يعدها جزءاً من أوربا كفرنسا وإنجلترا وألمانيا وعندما ظهر بطرس الأكبر حاول أن يحسم الصراع ويجعل روسيا أوربية فبنى بطرسبرج كعاصمة عملية وأدخل الصناعات وأمر الرجال بحلق لحاهم وتقصير أرديتهم الشرقية الطويلة، ثم جاءت كاترين الثانية • وكانت ألمانية الأصل فرنسية الثقافة - فدفعت هذا الاتجاه دفعة إلى الأمام ولكن بطرس الأكبر وكاترين الثانية قاما بالفتح والتوسع وكان يجاورهما ممالك التتر والخانات خلائف جنكيز خان الذين استعبدوا الروس حيناً من الدهر وكانت موسكو تجمع الإتاوات من الولايات الروسية لتقدمها للخان. وكانت هذه الممالك قد تدهورت فغزاها بطرس وكاترين واستلحقا مدنها وضماها إلى روسيا، وبذلك عادت روسيا مرة أخرى أسبوية.

كانت روسيا فى القرن الثامن عشر متخلفة، يطلق عليها بسمارك "اللاشء الكبير" تسودها الأمية، ولم يتحرر فيها الأفنان إلا سنة ١٨٦١ وتقاسم السلطة فيها القيصر والبطريك، ولم تشهد مرحلة الأحياء والنهضة التى حدثت فى أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر، ولا حركة الإصلاح الدينى، ولا شهدت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر كانت قارة مغلقة يعمها ظلام الليل ويلفها صمت القبور ويعمل فيها ملايين الفلاحين الذين كانوا رموزاً للغفلة والجهالة والفجاجة يطلق عليهم "الموجيك" وفى أواخر القرن الثامن عشر عندما حاربت قواتها مع نابليون حيناً وضده حيناً آخر تعرف فريق من الضباط على الحضارة الأوربية وعالم الحرية فلما عادوا حاولوا الثورة على القيصر نقولاً الأول الذى كان يعد رمزاً للأوتقراطية وأرادوا تكوين ملكية دستورية تستمد سلطتها من الشعب وتسلل أمامه، ولكن مؤامرتهم كشفت

وقبض عليهم القيصر سنة ١٨٢٥ وقتل بعضهم ونفى الآخرين إلى سيبيريا حيث أقاموا البقية الباقية من عمرهم وكانوا عنصر تقدم فى هذه الناحية. وكانت هذه الحركة التى حملت اسم "الديسمبرين هى أول محاولة لانقلاب يستهدف الإصلاح" ..

وبعد هذه القومة الفاشلة شدد القيصر قبضته وعاد ظلام الليل الدامس وصمت القبور الموحشة..

ولكن بدا وسط تلك الظلمات الموحشة شهاب ثاقب بدد الظلمات وأحى النفوس وأوجد وعياً وإحساساً بالحياة وأخترق الحجب حتى وصل إلى الريف الموحش المظلم.

كان هذا الشهاب هو الفنون والآداب. وبوجه خاص الشعر والرواية وظهر الشعراء والروائيون العظام بوشيكين، وتورجنيف، ودستوفيسكى وتولستوى وجوجل الخ... كما ظهر الكتاب الاجتماعيون ودعاة الثورات فأخذت الظلمات تنقشع.. والوعى يتيقظ، بل قد تجاوزت الرواية الروسية بفضل عمالقتها الثلاث دستوفيسكى وتورجنيف وتلستوى حدود روسيا ووصلت إلى أوروبا حيث أثارت موجة من الإعجاب والحماسة.

فانظر إلى التربة الهامدة وقد سقط عليها المطر فأحياها وأثمر فيها من كل زوج بهيج. تلك حالة روسيا عندما انقذها الشعر والأدب من سباتها وهمومها، وبأسها واستسلامها..

ولاحظ كاتب أن الأدب الروسى هو أكثر آداب العالم تنبؤية وهو ملء بالنذر والتنبؤات. والتحذير من الكارثة المقبلة سمة مميزة له. وقد شعر كثير من الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر أن روسيا معلقة على شفا هاوية تكاد تتردى فيها. وكان القرن التاسع عشر بأسره وهو من جميع القرون فى التاريخ الروسى - أعظمها فى القدرة الخلاقة - قرن الثورة الأخذة فى النمو ولم يولد الأدب الروسى من وفرة خلاقة سعيدة، بل من العذاب ومن معاناة البشرية المؤلمة ومن البحث عن الخلاص للناس كافة"^(٧٦)

كان بوشكين شاعر "الإمبراطورية" والمقرب من البلاط ومع ذلك فإنه كان يهيم بالحرية، ويستشعر الأم الجماهير ويصب لعنته على الطغاة.

ويذهب البعض إلى أن الدوائر الرجعية فى البلاط القيصرى هى التى استنزته لكى يبارز ضابطاً محترفاً غازل زوجته وهى تعلم أنه مقتول لا محالة.

وجاء فى بعض أشعاره :

نحن ننتظر وقلوبنا المشوقة تخفق
بالأمل فى الحرية المقدسة، كما ينتظر
عاشق شاب لحظة لقائه بحبيبته
وسيتذكرنى القوم البسطاء طويلاً
لأن قيثارى جعل قلوبهم إلى الحنان تميل
وبالرحمة أهبت لأولئك الذين يسقطون ويهلكون
وبمدائح الحرية تفتت فى هذا العصر القاسى

(٧٦) أصل الشيوعية الروسية - تأليف نقولا برديانف - ترجمة فؤاد كامل. مراجعة د. راشد البراوى ص ٨٢ .

ولا نعدم تنديداً عنيفاً بالقيصرة..

أيها الطاغية الشرير

عليك وعلى أهلك لعنتى !

وفى سرور غامر أهب بذرتك

للموت، وأقدمك للهلاك الأبدى !

وتنبأ لرمنتوف فى قصيدته المسماة "نبؤه" التى نشرها سنة ١٨٣٠.

سيأتى ذلك اليوم، ذلك اليوم المظلم لروسيا،

حين يهوى تاج القيصر.. وهؤلاء الذين أحبوه يوماً

لن يحبوه بعد، وسيعيش الكثيرون على الموت والدماء.

لن يمنح القانون الذى وطئ بالأقدام مأوى للطفل

أو المرأة البريئة. وسيجوب الطاعون المنبعث من

الجثث المتعفنة الأرض التى نزل الحزن بساحتها،

وينتقل من كوخ إلى كوخ طالباً معونة

لا يستطيع أن يقدمها أحد،

وستقبض آلام المجاعة الرهيبة على مخنق الريف

بمخالب لا ترحم.

ووجد الضمير المعذب بشقاء الجماهير شاعره فى نيقولا نكراسوف ١٨٢١ - ١٨٧٧ الذى جاء ليقود

القراء فى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر وصور فى قصائده أنواع الفلاحين والمناظر الطبيعية

الروسية بأسلوب واقعى دارج. وعبرت قصائده الأخيرة عن حزن الملايين من أبناء وطنه وشقائهم، وبدا

لمعاصريه أن سوداويتهم ومزاجهم الذى يقرب من اليأس، يمثل الواقع حقيقة. ومعظم قصائده الطويلة مثل

قصيدته الشائعة "من يجد الحياة طيبة فى روسيا؟" أو "النساء الروسيات" (عن زوجات الديسمبريين اللاتى

تبعن أزواجهن إلى منفاهم).

وكان نكراسوف يؤمن برسالة الشعر الاجتماعية، وكانت تعليقاته على الأحداث الجارية تخاطب

بوضوح أمثاله الذين يؤمنون بـ "أمتنا روسيا التعسة الثرية المظلومة ذات البطش. الضعيفة القوية، وقد كان

نقادة النبلاء على حق تام فى شكواهم من أن قصائده "تفوح منها رائحة الفلاحين" فقد أدخل نكراسوف أحوال

الفلاحين وحركاتهم فى الشعر المكتوب.

بالإضافة إلى بوشكين، وليرامنوف ونكراسوف فقد وجد ميخائيل لتيكوف ١٨٢٦ - ١٨٨٩ الذى كان

يكتب تحت اسم شهره "شتشيدرن" وكان من أبرز ممثلى المعارضة للسياسة القيصرية وهاجم بعنف أخطاء

السياسة الأغبياء، وفساد أعضاء الحكومة المركزية الكسالى، وجهل الطبقات الحاكمة وتخلف الأشراف

الرجعيين، وجشع الرأسماليين الحديثى الظهور ومعاداتهم للاستتارة. وعرض فى قصة رمزية تتكلم عن مدن

خيالية، تاريخ روسيا القيصرية بأكمله كسلسلة طويلة من الأعمال البربرية والأخطاء، وسخر من الأباطرة

والوزراء، وهزأ من الإجراءات الرجعية التى حاول الحكم المطلق بها أن يوقف انتشار الأفكار التقدمية.

وعبر الكسندر بلوك ١٨٨٠ - ١٩٢١ عن مشكلات الحياة والثقافة، واصطبغت قصائده الجديدة، ومن بينها "أشعار من روسيا"، وقصيدة "حقل كوليكوف" عن شخصية روسيا ومصيرها، بالشعبية والتطرف مع نغمات سلافية عرضية. وعبر في قصائده القصصية الغنائية ومسرحياته عن نذير الكارثة القريبة وبداية فترة تاريخية جديدة.

وظهر بجانب الشعراء الكتاب والنقاد الكبار مثل فيساريون بلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) الذى كان الزعيم الفكرى لجيل بأسره وكانت الطبقة المستتيرة تقرأ وتناقش بشغف تفسيراته للأدب والمجتمع ويعكس تطوره الفكرى تطور اتجاهات عصره وانتهى إلى أن الحرية والعدالة السياسية والاجتماعية على حد سواء يجب أن تكون من لزوميات أى تطور تاريخى. وأن الإنسان نفسه يخلق القيم التى تستخدم كمعايير فى استطلاعها للواقع. ويجب ألا يظل الجمال، والعدالة، والحقيقة، أسمى من الحياة بل يجب أن تتخلل الحياة ذاتها، ويجب أن تغير الحياة لتحقيق ذلك.

ووصفة الدكتور لويس عوض :

"وفى مناقشاته الكلامية كان بلنسكى إذا غضب يصول ويجول ويقارع غريمه الحجة بالحجة ويهجم عليه بالمحاجة تلو الأخرى كما يهجم الليث على فريسته فلا يتركها إلا جثة بلا حراك. وفى حياته دان له النفوذ الأدبى المروع فأصبح يعز من يشاء من الأدياء ويذل منهم من يشاء. ولكن لم يصدر أحكامه أبدا عن الغرض والهوى. ورغم أن التوفيق فى آرائه النقدية كان يجانبه أحيانا فإن بصيرته فى اكتشاف مواهب جوجول ولير منتوف وتورجنيف وجورنشاروف فدل ونيكراسوف وهرزوين ودستيوفسكى وغيرهم. وبسبب أمانته لم ير أدنى غشاضة فى العدول عما يراه خطأ فى آرائه. هكذا عاش حتى مات بداء السل فى عام ١٨٤٨.

ويمائل بلنسكى فى الأهمية الكاتب تشرنفسكى الذى - فيما رأى نقولا برديايف "لم يسيطر على فكر الانتلجنسيا المتطرفة فى الستينات فحسب، بل وسيطر أيضاً على فكر الأجيال التالية. وأسهمت الهالة التى أحاطت باسمه عقب الحكم عليه بالأشغال الشاقة إسهاما كبيرا فى شعبيته.

وكتب تشرنفسكى رواية سماها: "ما العمل" أصبحت نوعا من كتب العبادة لدى العدمية الروسية، ومرجعا للانتلجنسيا الثورية الروسية.

وهذه الرواية هى التى جعلت لينين يكتب - فيما بعد - كتابا بنفس الاسم "ما العمل" كما أن الاتجاهات الاشتراكية لتشرنفسكى جعلت ماركس يدرس الروسية حتى يستطيع أن يقرأ مؤلفاته - رغم عزوف ماركس عن روسيا وصعوبة اللغة الروسية.

على أن التأثير الأعظم على الأمة الروسية جاء كرد فعل للقصة والرواية لأن الجمهور الذى يقرأ القصة والرواية أكبر من الجمهور الذى يقرأ الشعر أو النقد الأدبى. ولأن المعالجة الروائية - خاصة فى الطويلة منها - تتيح عرض جوانب عديدة من جوانب المجتمع. ومن هنا فيمكن القول إن الرواية الروسية كانت من أكبر عوامل التأثير فى المجتمع الروسى وإيجاد رأى عام. عن عوامل التخلف فى المجتمع الروسى.

كان أول هؤلاء الكتاب الروائيين هو جوجول الذى بعد معالجة طويلة للقصة انتهى إلى القضية الاجتماعية / الإنسانية التى تجلت فى قصته المشهورة "المعطف" التى يحلم بطلها وهو موظف مغمور بشيء واحد هو معطف جديد يرى أنه رمز الكرامة الإنسانية ويعد معاناة طويلة يحصل عليه، ولكن فى الليلة التى يرتدى فيها معطفه يتعرض للهجوم على قارعة الطريق ويجرد من أعلى ما يملك: المعطف - ويحاول بكل طرق استعادته ولكنه يفشل ويموت بتأثير الحزن ويسكن شبحه شوارع العاصمة التى يغطيها الجليد. وذات يوم ينتزع المعطف من كتفى الذى اغتصبه فيختفى الشبح إلى الأبد.

وكان لهذه القصة تأثير هائل لأن جوجول أحسن عرض رثاءه للموظف المغمور فريسة الظلم الاجتماعى وإحساسه بالظلم، والضياع وسط البيروقراطية. وقد قال دستوفيسكى "كلنا خرجنا من معطف جوجول" ..

وفى عام ٨٣٦ قدم جوجول مسرحية "المفتش العام" التى مكنته من أن يعرض لمشاهد الفساد فى الإدارة القيصرية.

وتدور أحداث المسرحية فى مدينة صغيرة من مدن الأقاليم، يحكمها محافظ فظ مولع بالاستيلاء على الأموال، وزمرة من الموظفين الجهلة غير الأمناء. ويعتقد الجميع خطأ أن خلستاكوف، وهو شاب آفاق مفلس، هو المفتش العام المنتظر قدومه من سانت بطرسبوج. ويستغل خلستاكوف الفوضى، ويتقاضى الرشى، ويخطب ابنة المحافظ، ثم يرحل دون أن يغفل إرسال خطاب إلى صديقه، يسخر فيه من هؤلاء الذين وقعوا فريسة لخداعه. ويطلع مدير البريد على الخطاب ويقراه علناً فيما بعد فى منزل المحافظ، على مسمع من الضحايا المذهولين الذين يسمعون فى النهاية بأن المفتش العام الحقيقى قد وصل لتوه.

وصور جوجول فى قصته شخصيات لا تتسى، كالمحافظ الفظ وزوجته العابثة، وابنته الفارغة العقل، واثنين من ملاك الأرض الحمقى، والروس القصار المكتنزين، وناظر البريد المتجسس، ومدير المستشفى سوداوى المزاج، يعالج المرضى كالذباب، وأخيراً خلستاكوف، الكاذب والدعى الضحل، والرمز الدنىء للتبلىد الإنسانى. وعلى الرغم من حب جوجول للتصوير الهزلى، فقد وجد قراؤه أن شخصياته هى شخصيات مألوفة، كجزء من الواقع الروسى. وبلغ من صدق هذه الشخصيات ودقة تصويرها أن "المفتش العام، قوبلت بالمديح كمؤلف هجائى اجتماعى، وملهاة قومية. وبدأ أن أهميتها السياسية كهجوم على الحكم الراهن يرجح كافة مزاياها الأخرى.

وبعد المفتش العام كتب جوجول "الأرواح الميتة" وهى عن محتال "محترم" يقطع مسافات طويلة كى يشتري أرواحاً ميتة لأرقاء ماتو من أصحابهم وبهذه الطريقة يدعى أنه يمتلك الآلاف من "أقنان الأرض" ويكتسب وضعاً اجتماعياً مرموقاً ويقوم بعملية "رهونات" عديدة ويسعى للزواج من "وارثه" وفى محاولته الوصول إلى غرضه، يصادف كافة أنواع الناس - ملاك الأراضي الراسخى القدم، والذين يشبهون الكلاب، والنبلاء الحمقى نوى العاطفة السطحية الذين تعوزهم الصلابة ويسمون أطفالهم "يتموستوكليز وألسبديز" والنساء الثرثارات، والمقامرين المتباهين الذين يمارسون الغش، والبخلاء الجشعين الذين يرتعدون فرقا خوفاً على بنس، والموظفين الحاذقين الذين ينظرون إلى القانون على أنه عقبة، والثرثارين العاطفيين الذين تزيد خطورتهم على خطورة قطاع الطريق الخ...

ولم تكن روسيا قد شهدت من قبل كتاباً له مثل المدى والروعة الفنية. وجعل التأثير المتجمع لكل المناظر والشخصيات والحوادث الناس تتساءل - هل هذه روسيا؟ هل من الممكن أن يمثل هذا الموكب من الأهواء والأوغاد الواقع؟.

ولم يصل النثر الروسى إلى أصلاته الحقيقية إلا فى كتابات جوجول. ولم يكن تأثيره على معاصريه أقل أهمية. والواقع أن كافة الكتاب الروس بين ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ربما باستثناء تولستوى وترجينيف الناضج. أحسوا إحساساً قويا بتأثير جوجول، بل إنهم قلدوا أسلوبه الأدبى ولا عجب فى أن بلينسكى ومن بعده تشيرنيشفكسى قد أسماه (عهد جوجول فى الأدب الروسى)..

وبعد إيفان تورجينيف ١٨١٨ - ١٨٨٣ أول الثلاثة الذين جعلوا الرواية الطويلة قوة دافعة ومؤثرة فى المجتمع الروسى، وقد كان أكثر الثلاثة إطلاعاً على العالم الأوروبى وكان صديقاً لفلوبير وهنرى جيمس وعاش ثلاثين عاماً فى فرنسا وألمانيا وكشف عن نفسه ككاتب عظيم عندما بدأ بكتابة "مذكرات صياد" وهى دراسة لشخصية الأفتنان والفلاحين وملاك الأراضى وما يحدث فى الحياة الريفية. وأظهرت أن الأفتنان كائنات بشرية لها نفس الصراعات النفسية والحنين إلى السعادة الذى كان يعزى إلى سادتهم وحدهم.

وفى رواية "الآباء والأبناء" التى كتبت بعد تحرير الأفتنان أبرز لنا شخصية "بازاروف" الذى رمز به إلى رجل الكفاح وحتى تعبير "العدميين" الذى سيتدرد بعد ذلك كثيراً فى المجتمع الروسى. وفى روايته الطويلة "الأرض العذراء" أبرز نجدانوف المثقف الرخو العاطفى وسولومين المهندس الميكانيكى العملى وماريانا سليلة الأسرة الأرستقراطية التى تضجى بوضعها الاجتماعى وتلتحق بركب المكافحين و "ماشورينا" الفلاحة الريفية المكافحة.. وتتأبأ بأن مستقبل روسيا رهن بالتقدم الصناعى.

وتحدث الكاتب الروسى نقولا بردنائيف عن دوستويفسكى وتلستوى فقال..

"وانعكست الثورة الباطنية التى كانت متصلة فى روسيا أكثر ما انعكست فى عمل دوستويفسكى الخلاق، ولكنها انعكست فى تولستوى على نحو مختلف، ذلك أن فن الأخير لم يكن تنبؤياً، بل كان ثورة فى حد ذاته. ومما له أهمية أن نعقد الموازنة بين هاتين العبقريتين الروسيتين العظيمتين. فالعلاقة بين العنصر الفنى والعنصر العقلى تقيم بينهما تضاداً حاداً، إذ كان دوستويفسكى فناً دينامياً، بل لعله أشد الفنانين دينامية فى العالم. وكل شئ عنده غائص فى جو أثيرى فائز، كل شئ فى حركة عنيفة، ولا شئ قد تحدد أو اتخذ شكلاً نهائياً. دوستويفسكى فنان ديونيزوسى. وهو يعبر عن الروح الثورية، ويكشف عن ديالكتيك الثورة، والعنصر التنبؤى قوى فيه غاية القوة. لقد واجه المستقبل، وتتأبأ بالكثير مما حدث فيه، وإذا كانت روايات دوستويفسكى مأسى، فإن روايات تولستوى ملاحم. وتعد رواياته أكمل الروايات فى الأدب العالمى، فالحياة الإنسانية ممتزجة بالحياة الكونية، ومختلطة بدورانها. دوستويفسكى يتحرك فى التاريخ، أما تولستوى فيتحرك فى الكون. والدينامية والتنبؤى لا ينتميان إلى الحياة الكونية. وإنما ينتميان إلى التاريخ بالذات.

ومن ناحية أخرى، كان تولستوى ثورياً من حيث الفكر فضح مظالم الحياة، وكان فوضوياً وعدمياً، تمرد على التاريخ والمدنية بروح راديكالية لم يسمع بها من قبل، فلا ينبغى للإنسان أن يضع قوانين العالم، بل عليه أن يطيع قانون سيد الحياة الأعظم وأعنى به الله. وكان بالتأكيد معارضاً للشيوعية إذ لم يكن يقبل العنف، وكان عدواً لكل الحكومات، ويرفض تكنيك الحياة وتنظيمها العقلى، ويؤمن بالأساس الإلهى الذى تقوم

عليه الطبيعة والحياة، ويدعو إلى الحب لا إلى البغض، ويمكن أن يعد بطريقة سلبية سلفا للشيوعية، فهو ينكر الماضى، وتقاليد التاريخ، والثقافة القديمة، والكنيسة والدولة، ويرفض كل ظلم اقتصادى واجتماعى بين الناس. وهو يثور على الطبقات الحاكمة المتمتعة بالامتيازات، ولا يضر أى حب "للصفوة" المتففة. وبلغ تأنيب الضمير الذى تعانيه الطبقات الحاكمة فى تولستوى أوج شدته. وكان تولستوى مشبعا تمام التشبع بفكرة قيام حياة المجتمع المتحضر على الأكاذيب والحيث. وأراد أن يقطع صلته بهذا المجتمع قطعا تاما. وفى هذه الاتجاه كان ثوريا، ولكنه كان يرفض العنف الثورى.

وبعد أن اصدر تولستوى روائعه "الحرب والسلام" وأنا كارنينا و"البعث" تعرض لأزمة نفسية عميقة انتهت بأن ينبذ هذا الماضى وأن يكرس حياته لخدمة الإنسانية، ومن ذلك الحين وهو يكتب القصة. إما ليعبر عن أفكاره الدينية وإما بتأثير رغبة أقوى من كافة قراراته المنطقية.

وكان التغيير الذى طرأ عليه نهاية عملية طويلة. ولما كان قد تأثر إلى حد كبير بروسو الذى كان يعشقه، وحياة الفلاحين الروس الفطرية، فقد كان يضع الطبيعة دائما فى مواجهة الحضارة، وكان يشعر بأن كافة الشرور مبعثها المجتمع والقيم الزائفة، وبأن الإنسان خير فى جوهره. وكان ضميره يقلقه دائما. وكان مثل الكثيرين من "النبلاء النادمين" فى فترة الشعبية، يخجل من ثرائه ومركزه الاجتماعى، وأضفى على الفلاحين الفقراء حكمة روحية عظيمة.

وسرعان ما أصبح نبذه لمغريات العالم فعلا فعلى الرغم من أنه كان أبا لثلاثة عشر طفلا، ورجلا ذا طاقة جنسية قوية ومزاج شهوانى فقد هاجم الجنس بعنف ونادى بالعفة. وفى "سوناتا كروتزر" وهى قصة غاضبة عن الغيرة والعشق الجسدى (١٨٨٩)، هاجم تصنع المجتمع الذى يغلف الجنس بأكاذيب عن "الحب" والعاطفة. ولم يكن رفضه للفن بأقل تطرفا. فقد هاجم معظم الكتابات، والرسومات، والموسيقى المعاصرة، على أنها وسائل ترفيه عن الطبقات العليا، ومكرسة تكريسا شبه تام لمواضيع الجماع الجنسى والبرم بالحياة والكبرياء. وكل ما كتبه بعد عام ١٨٨٠ كان يستهدف تحقيق هذه المتطلبات. وبسط نظريته الجمالية الجديدة فى مقاله "ما هو الفن؟" (١٨٩٧ - ١٩٩٨) الذى أثر بطريقة غير مباشرة فى نقاد العهد الشيوعى الذين، على أية حال، أطلوا كلمة "اجتماعى" محل كلمة "دينى". وبما أنه آمن بفضيلة العمل اليدوى وطريقة الحياة البسيطة، فقد أعطى لنفسه الحق فى الحكم على الدولة والمجتمع. ولما كان عدو للحرب، والخدمة العسكرية، والعنف، فلم يجد أية صعوبة فى إظهار التباين بين النظم السياسية أو القضائية أو القضائية ومبادئ الحب والرحمة المسيحية. وكان التصنع وأوهام الحياة القائمة على التنافس وغباء الكبرياء وعدم جدوى نشاط الإنسان العقيم هى أهدافه الأثيرة. ثم جاء بعد ذلك التحامل على الطبقة المتعلمة، بما فى ذلك الاعتقاد فى العلم والطب، وممارسات الكنيسة بقداسها الوثنى وطقوسها الدينية التى لا معنى لها. وفى "ما هو الفن؟" (وفى "الحرب والسلام" من قبلها) سخر من سخافة المسرحيات الغنائية والبالية، وبعد ذلك فى "البعث" تحدث بطريقة تحقيرية عن القداس على أنه "كلام سحر" حتى إن الكنيسة اعتبرت ذلك تجديفا وحرمت تولستوى من الكنيسة. ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من التبشير بما أسماه "المسيحية الحقيقية" التى تقوم على موعظة المسيح فوق الجبل وأسس إنجيل المسيح: "أحب جارك" "ولا تقاوم بالعنف". وكانت هاتان الآيتان، فى رأى تولستوى، إرشادا كافيا للحياة وفقا للمشيئة الإلهية. وعلى أية حال، فقد أنكر ألوهية المسيح وخلود الروح، ورفض مناقشة مشكلات ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية)، واقتصر على الأخلاق.

ودعم تولستوى هذه الديانة الإنجيلية الفطرية بتوصيات قليلة تعكس إعجابه بالفلاح: يجب على الإنسان أن يرفض الحضارة الآلية، وأن يعيش في وحدة مع الطبيعة، وأن يعمل بيديه (كان تولستوى يصنع أحذية ويحرق حقوله بنفسه، وكان يستمد من ذلك المتعة التي يصفها ليفين في "أناكارينا" وأن يظل نباتيا. وكان يرى أن البساطة والطهارة والطبيعة والتسليم، هي الفضائل الأساسية للإنسان، وكان يعتقد أن ممارسة هذه الفضائل تستطيع أن تقود الإنسان إلى الخلاص. ولا تستطيع أية ثورة أو تغيير أن تساعد على ذلك، إن مملكة الله بداخلنا، ولا يمكن تغيير البشرية إلا بإصلاح الفرد فقط بالمجهودات المركزة لملايين الإرادات المنفصلة.

وبعد أن رفض تولستوى فكرة الملكية على نحو ما فعلت الشيوعية والرسولية البدائية، وصل إلى حد التخلي عن كافة "ممتلكاته المادية" بما في ذلك حقوق الطبع. ومع ذلك، فقد شعر بأنه لم يؤد واجبه كاملا، وفي سن الثانية والثمانين تخلى عن زوجته وأبنائه، وترك منزل أسلافه العريق وهام على وجهه في طرق روسيا. وفي أثناء تجواله سقط مريضا، وتوفي في محطة سكة حديدية مغمورة عام ١٩١٠ ودفن رفاته في حديقة كليز جليدز.

وكان لحياة تولستوى وما - يزال - تأثير بالغ الاتساع والعمق. وقد اتبع الآلاف من تلاميذه في كافة أنحاء العالم، من غاندى في الهند إلى رومان رولاند في فرنسا، ومن الفوضويين الدينيين في اليابان إلى المعارضين الضميريين في أمريكا.

* * *

لم يكن غريبا، والحكم الروسى على ما كان عليه - جزيرة من الحكم الأوتقراطى وسط بحر من الحريات الأوروبية - وأن يظل القياصرة متمسكين بحقهم الإلهى فى الحكم، ورفضهم الدائم لبدء حكم دستورى - نقول لم يكن عجيبا أن يظهر بالإضافة إلى الشعراء، والروائيين، والكتاب، مجموعة أخرى من الثوريين الذين ضاقوا ذرعا برفض الحكومة القيصرية ودعوات الإصلاح، فبدأوا فى فى الثورة عليها.

ولعل شخصية نشايف **Nechaev** الروسية الصميمة هى أبرز رموز الحركة العدمية، وقد أسس الجمعية الثورية "المحور أو عدالة الشعب ووضع كتاب "التعاليم الثورية" الذى عرف فيه الرجل الثورى "إنسان كتب عليه الهلاك فلا مصالح شخصية، ولا عمل، ولا عواطف، ولا ارتباطات".

وأمضى نشايف عشرة أعوام فى السجن فى ظروف بشعة، ولكن مضى فى دعايته فحول حراس السجن جميعا إلى أعوان له وعبر طريقهم كان يرسل الجماعات الشعبوية.

وأعجب الأشياء هو أن أيدلوجية الفوضوية هى فى شطرها الأكبر من خلق الفئة العليا من طبقة الأعيان الروسى من ذوى الأملاك. فقد كان باكونين وكروبوتكين **Kropotkin** والكونت تولستوى من كبار الأعيان، هم مؤسسو الفوضوية الروسية والعالمية. وكانت الشخصية الرئيسية هى باكونين الذى كان يعتقد أن الثورة التى تشمل العالم كله سوف يشعلها لشعب الروسى والعنصر السلافى، وهو فى هذه النزعة الميسياوية الثورية يعد رائدا للشيوعية. والعبارة القائلة أن "عاطفة الهدم، عاطفة خلاقة" هى من العبارات التى أطلقها باكونين. وفوضوية باكونين هى الثورة، فهو يريد أن يثيرها ثورة عالمية شاملة، وأن يحطم العالم القديم، وكان يعتقد أنه على أطلال العالم القديم، ومن الرماد المتخلف عنه، سينهض تلقائيا عالم جديد.

ومن أبرز دعاة الفكر الثورى ديمترى بساريف ١٨٤٠ - ١٨٦٨، وقد كان نبيلاً شاباً يملك قلم الصحفى الحاضر البديهية، وكان مجادلاً من الدرجة الأولى. وكانت حياته قصيرة (فقد توفى فى الثامنة والعشرين وربما مات منتحراً)، ولكن شهرته كانت قد استفاضت وهو فى الثانية والعشرين، وتركت كل مقالة من مقالاته أثراً هائلاً - فقد بدا أنه معبر صادق عن معاصريه، ينطق بما يفكرون فيه ويرغبون فى قوله. وقبل كل شىء، فقد نبذ العاطفة والحب الأفلاطونى، والمثالية، والأحلام الشاعرية على أنها "حماقة بحتة" أو دليل على الضعف. "كل ما يبعدنا عن واجباتنا الرئيسية: - التعليم، التقدم العلمى، التطور الاجتماعى - هو شىء لا فائده منه فهو إذن أمر كرهه". "إن المال الذى ينفق على البالية والمسرح وكتب الشعر يجب أن يستخدم فى تشييد الطرق الحديدية". وكان يجد متعة فى صياغة مثل هذه الأقوال، "زوج من الأحذية أفضل من مسرحية لشاكسبير".

وفى سنة ١٨٧٩ حل حزب "إرادة الشعب" محل جماعة "الأرض والحرية". وأكدت هذه المنظمة التأميرية المركزية أن هدف الحزب المباشر هو حكم ديموقراطى يحظى بموافقة الإرادة الشعبية الحرة، وأن الكفاح ضد الحكم المطلق القاسى هو صراع مسلح، يحق للحزب فيه استخدام العنف. وكانت اللجنة المركزية للحزب تتكون من مجموعة من الرجال والنساء ذوى العقليّة المثالية العازمين على التضحية بذواتهم وشرعوا فى العمل بحماية وإخلاص مطلق. ولما كانوا إرهابيين وشهداء فى نفس الوقت، فقد ضربوا أمثلة عديدة فى الشجاعة وقوة التحمل الأخلاقى فى نضالهم اليائس ضد الحكومة المسيطرة. وكانوا مصممين على القتل لأنهم كانوا مستعدين للموت. وهزت اللجنة المركزية روسيا، بانفجارات القنابل وحوادث الهروب المثيرة من السجون ومحاولات اغتيال القيصر وكبار موظفيه. ولم تستطع المشانق وفرق الإعدام والأشغال الشاقة إخماد جذوة تعصبهم.

"وفى ١٤ يناير سنة ١٨٧٨ أطلقت فيرا زاسلوتشى رصاصات مسدسها على الجنرال ترييوف رئيس شرطة بطرسبرج فأصابته بجروح قاتله، وقبض عليها وحوكمت ولكن المحلفين رغم ثبوت التهمة عليها براؤوها، وكان هذا أكبر دليل على ما يضمرة الناس من الكراهية للجهاز والبوليس.

وجن جنون المسئولين وحاولوا القبض عليها، ولكنها استطاعت الهرب منهم ولاذت بالفرار.

وأعقب ذلك اغتيال الجنرال مسنتسوف الذى عرف بقسوته مع المسجونين. وفى يوم ١٦ أغسطس، بينما كان الجنرال سائراً فى ميدان القديس ميخائيل أطلقت عليه رصاصات فخر صريعاً، وهرب القاتلان. وحاولت الحكومة تعقب آثارهما دون جدوى بل لقد استطاعت الجماعة التى نفذت الاغتيال أن تصدر نشرات تصل إلى المصانع. "بل كان القيصر نفسه يجدها ملقاة فى أركان قصره وفوق مكتبه.

وفى ٩ فبراير سنة ١٨٧٩ أطلق الرصاص على الأمير الكسيس كرابوتكين حاكم خركوف وكان قد اشتهر بقسوته مع المعتقلين حتى آثر بعضهم الانتحار كما قتل بعده رئيس الشرطة السريين، كما قتل الجنرال درنلتين وهو الذى كان المسئول عن شنق بعض المسجونين.

وطلّرت فكرة اغتيال القيصر، وقام العدميون بمحاولات عديدة، فأطلق عليه الرصاص فى يوم ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ وهو يتمشى فى ساحة القضاء دون أن يصيبه فوضعوا خطة لتفجير قطار القيصر إثناء رحلته من القرم إلى بطرسبرج ووضعوا ألغاماً فى ثلاث جهات، ولكن فى اللحظة الأخيرة سار القطار من

طريق آخر. وانفجر لغم ثان ولكنه أصاب القطار الذى كان يحمل حقائب القيصر، وكان قد تقدم القطار الذى يحمل القيصر نفسه. ونجحوا فى تدمير قاعة قصر الشتاء عن طريق نجار كان يعمل بالقصر وقتل خمسة من الحراس وجرح خمسون ولكن القيصر كان قد تأخر فنجأ.

ولم يبأس العدميون رغم ما اتخذته الحكومة من إجراءات قاسية، وأنها زجت بأكثر من ثلاثة آلاف رجل إلى السجون وبلغ عدد من أرسل إلى سيبيريا فى سنة واحدة اثنى عشر ألفاً وتطوع سبعة وأربعون لقتل القيصر. وقتل القيصر بالفعل يوم ١٣ مارس سنة ١٨٨١.

كان القيصر عائداً فى عربته من عرض عسكري قرب بطرسبرج، فلوحت فتاتان بمنديلهما، وكان هذا التلويح هو الإشارة المنفق عليها بين المتأمرين من أعضاء الجمعية، فألقى رايساكوف قنبلة، وانفجرت القنبلة خلف العربة التى كان يستقلها القيصر، وجرح عددًا من الجنود، فترجل القيصر، وفى تلك اللحظة مضى إليه قُدماً إجناتيوس جونفركى وألقى قنبلته فى عناية وإحكام، وتبع ذلك انفجار مروع مزق القيصر والذى ألقى القنبلة، ولقى جونفركى حتفه قبل القبض عليه، أما القيصر فإنه لم يعيش بعد ذلك سوى ساعة ونصف ساعة^(٧٧).

ولكن اغتيال القيصر لم يثمر إلا شدة مقاومة الحكومة وكان القيصر الذى خلفه اسكندر الثالث أشد رجعية من سلفه ولجأت الحكومة إلى القبض الجماعى على كل من تحوم حوله أقل شائبة ونفت عشرات الألوف إلى سيبيريا ومات الكثيرون خلال الرحلة، بينما مات آخرون نتيجة لسوء المعيشة والبرد وانتشار الأمراض.

وتوضح لنا تجربة التاريخ أن كل هذه الأعمال - أعمال عقيمة من ناحية النتيجة، بل إنها تضاعف السوء وتجعل قبضة السلطات تشد وتتصلب، ولكن - من ناحية أخرى يبدو أنها كانت أمراً لازماً، لأنها رد فعل للطغيان، وأنها إذا كانت سيئة، فلأن الفعل كان سيئاً.

إن المفارقة التى تعرضها هذه الصفحة الدامية، وأن الذين قاموا بعمليات الاغتيال والتدمير رغم بشاعتها كانوا رجالاً ونساءً على استعداد دائم للتضحية بحياتهم وقد صور الكاتب الفرنسى البيركامى فى مسرحيته العدول نفسيتهم وأبرز كيف أن كاليباييف وهم المكلف بإلقاء قنبلة على عربة الدوق الكبير سيرج لم يقذف قنبلته لأنه وجد بجانب الدوق طفلين صغيرين قائلاً لن أضيف إلى الظلم ظلماً. إن قتل الأطفال يتنافى مع الشرف وإذا كان على الثورة أن تخالف الشرف فسأتخطى عنها^(٧٨).

* * *

تلك كانت روسيا طوال القرن التاسع عشر والعشرين كانت الدولة الوحيدة التى ظل فيها طغيان القياصرة والحكم الاوتقراطى ورفض الدستور والحريات - وكانت الفنون والآداب. هى التى حافظت على

(٧٧) الجمعيات السرية للأستاذ على آدم - أقرأ - دار المعارف ص ١١٨ بتصرف .

(٧٨) قارن هذا الموقف بما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية عندما لم تتردد أن تقذف من طائرة صواريخها على عربة كانت تسير فى صحارى اليمين بها ستة أشخاص كان أحدهم مطلوباً بحجة أنه من أعضاء "القاعدة" فقتل الجميع بدم بارد ودون أن تعتذر عن فعلتها .

معنويات الشعب أن تتهاوى. وهى التى ألهمته الكفاح بمختلف الطرق حتى أشدها تطرفاً، وكانت هى التى هيات روسيا للثورة عندما حان حينها، فعندما هزمت الجيوش الروسية فى الحرب العالمية الأولى ثار الفلاحون، وثار الجنود وقاموا بثورة مارس ١٩١٧ الديمقراطية التى قضت على القيصرية، وأرادت حكما دستوريا، وكان يمكن أن ينجح لولا أن لينين قلبها إلى ثورة بلشفية.. وما كان يمكن أن تحدث الثورة لولا الإعداد الطويل الذى سبقها بفضل شعر وكتابات بلنسى وتشريفسكى. وبفضل قصص جوجول ونشيكوف وبفضل الروايات الطويلة للثالوث العظيم تورجنيف دستويفسكى ونتولستوى. ثم بفضل هؤلاء الثوريين الذين أثبتوا حيوية الشعب..

وإذا قارنا آداب أمم أخرى لم ترزق ما رزقه الأدب الروسى من طابع انتهاضى، ولم تتوجه إلى الشعب فتستثير همته، فلنا أن نقول إن خمول الأدب يسهم فى خمول الشعب بحيث لا يستطيع حتى عندما تواتيه الفرصة أن يتحرك - كما حدث لمصر أثر هزيمة ٦٧ المدوية..